الرحلة في شعر المتنبي

رسالة تقدم بها

منتصر عبد القادر رفيق الغضنفري

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل

وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير

في الأدب العربي

بإشراف

الدكتور جليل رشيد فالح

محرم ١٤١٠هـ   آب ١٩٨٩م

أشـــهد بأن اعــداد هذه الا ُطروحـــة جرى تحت إشرافي فـــــي

جامعة الموصل وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير في الا ُدب العربي •

اسم المشرف : الدكتور جليل رشيد فالح

التوقيـــــع :

التأريـــــخ :   /   /

نشهد بأننا أعضاء لجنة التقويم والمناقشة اطلعنا على هذه الأطروحة وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها وفيما له علاقة بها وبأنها جديرة بالقبول لنيل درجة الماجستير آداب في الأدب العربي •

الدكتور
هادي حمودي الحمداني
رئيس اللجنة

الاستاذ الدكتور
ناظم رشيد شيخو
عضوا

الدكتور
محمد قاسم مصطفى
عضوا

الدكتور
جليل رشيد فالح
عضوا ومشرفا

الدكتور
صلاح الدين امين طه
عميد كلية الاداب / جامعة الموصل

الإهداء

إلى روح أبي الطاهرة في عليين

.. أسكنه الله فسيح جناته .

إلى أمي الحبيبة .. حفظها الله

وبارك فيها وأدام ظلها علينا .

منتصر

شـــكر وتقد يـــــر

بكل مشاعر الحب والإكبار والاعتراف بالجميل أتوجه بجزيل الشكر وعظيـــم الامتنان الى الأستاذ الفاضل والمعلم الكريم الدكتور جليل رشيد فالح على تفضلـــه بالاشراف على رسالتي هذه • فقد منحني ــ كما هو العهد به ــ من رحابة صدره وأصالة علمه وغزير معرفته وعظيم خلقه ما أعجز عن الاحاطة به ، وكان لي ــ علـى مدرجة الطموح ــ الرائد الذى لايكذب أهله • فجزاه الله عني كل خير وحفظـــه ذخرا للعلم وأهله • وسأبقى ما حييت معتزا بهذه التلمذة التي أثرتني انســـانا وباحثا •

كما أتقدم ببالغ الشكر ووافر التقدير الى الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الوهاب العدواني رئيس قسم اللغة العربية على متابعته المستمرة والجادة لنا ــ طـــــلاب الدراسات العليا ــ ، وعمله الدائب على توفير كل ما من شأنه أن يوءمن لنا ســلامة المسير على طريق الدرس ، ويدفعنا الى المزيد من التحصـيل والبحث • أحســـن الله اليه وسدد خطاه وبارك في جهوده •

والى الأستاذ يوسف ذنون الرجل الذى صان حرمة الخط العربي وحببـــه الى الأجيال وافر إكبارى واعتزازى على تفضله بكتابة عنوانات الرسالة •

والى كل من أسهم بجهد وأعان بنصح عظيم امتناني وخالص دعواتـــــي ، ولله الحمد في الأولى والآخرة •

محتويـات الرسـالة

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد البلغاء وامام الفصحاء محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين

وبعد :

فان المتنبي لمّا يزل تاريخا من الشعر يملأ الدنيا ويشغل الناس ، ومـا زالت الكتابات الكثيرة عنه ، تاريخا وفنا ، تترى حتى شكلت لوحدها مكتبة كاملـة أو تكاد • ولعله استحق كل هذا بعظمة فنه الذى ملك الأفئدة والعقول كما شغف الأسماع أولا ، وبالغموض الذى لف جوانب كثيرة من تاريخ حياته ثانيا •

ولما كنت من قارئي المتنبي المشغوفين بفنه ، فقد آثرت أن أختار جانبا من هذا الفن لدراستي العليا هذه ، آزرني في ذلك أستاذى الفاضل ــ المشـرف ــ الدكتور جليل رشيد فالح الذى سبق له أن عايش المتنبي من قبل في دراسة جامعية، بخاصة واننا قد عملنا معا ــ الأستاذ المشرف وأنا ــ في أثناء السنة الرابعة مـن الدراسة الجامعية الأولى حين أشرف على بحثي للتخرج وكان عن المتنبي كذلك في موضوع : " مديح المتنبي بين السيفيات والكافوريات " ، وخرجنا بعمل عد جيدا ، فقررنا أن نعيد الكرة هـهنا ولكن بموضوع أكبر وأهم يتناسب والمرحلة العلمية التي يمثلها ، فكان ((الرحلة في شعر المتنبي)) ، ذلك الموضوع الذي يحتوى حياة المتنبي بأكملهـا ويصور انعكاسها في فنـه

ومن الجدير بالذكر أن هذا الموضوع هو في جملة ما اقترحه أستاذى الدكتور جليل رشيد من موضوعات عن المتنبي في خاتمة رسالته للدكتوراه ، وقد حاولنـا أن نضمّن تلك الموضوعات الأخرى في بحثنا هذا بما يتلاءم وخصوصيته ، عسى أن نخـرج بدراسة ناضجة ومتكاملة يمكن أن تضيف شيئا ذا قيمة لذلك الكم الكبير ــ فضلا عن النوع ــ من الدراسات عن المتنبي •

بني هذا البحث على تمهيد وأربعة فصول ، جعلنا التمهيد تحت عنـوان " في سيرة المتنبي : أضواء ومواقف وأحداث " وعرضنا فيه لأهم مراحل حيـاة المتنبي وأبرز ما مر به من أحداث في أثنائها مما اعتددناه ذا أثر بالغ في تشـكيل طبيعته النفسية وتوجيه مساره في الحياة حتى غدا دائم الترحال روحا وفكرا وجسدا •

أما الفصل الأول فقد درسنا فيه " بواعث الرحلة "، آتين فيه على ذكر ما رأيناه أسبابا قوية وعوامل مهمة في دفع المتنبي الى التطواف في أرجاء الأرض متحملا أعباء السفر ومشاقه ، وهي :

١ • الإحساس بالغربة ، اذ عرضنا لطبيعة هذا الإحساس عند المتنبي متنقلين معه في شعوره به منذ ولادته حتى مماته ، وأثر ذلك وانعكاسه في دفعه الى الترحل •

٢ • الاستشراف ، وقصدنا به تلك الأمور الخاصة التي داعبت أحلام المتنبي فسعى الى تحقيقها • واذا ما قيل إن أصول كل البواعث الأخرى قد تكون أحلاما ورؤى وخيالات كذلك ، فان ما عرضنا له في هذا المبحث ما كان أكثر علوقا بدواخل النفس ، وقد تناولناه على محورين هما :

أـ بين الولاية والشعر ، وقد أشرنا فيه الى أثر رغبة المتنبي في التحكم والتولي ، فضلا عن التفوق الفني والنبوغ الشعري على غيره من الشعراء ، في حثه على الرحلة • ومدى توازي شطري هذه الرغبة في الإعلان عن أنفسهما خلال رحلة حياته •

ب ـ المرأة ـ الاستقرار : الذي حاولنا فيه بيان دور المرأة بوصفها أما وزوجا وحبيبة في رحلته •

٣ • المال ، وفيه عرضنا لأسباب رغبة المتنبي الملّحة في جمع المال ، ومدى ما بذل من جهد في سبيل الحصول عليه والاستزادة منه ، حتى سعى وراءه في آفاق الأرض •

٤ • الحسد والوشايات والمكائد ، اذ بينا العوامل التي تسببت في إثارة كوامن الحقد والحسد عند الآخرين حيال المتنبي ممن لم يرق لهم ما جاء به أو وصل اليه في أكناف أكثر ممدوحيه ، حتى انهم يكيدون له ويشون به مما كان يقلقه ويقض مضجعه ثمّ ليضطره ـ في كل مرة ـ الى الرحيل والمغادرة •

٥ • الحرب والصيد ، أما عن الحرب فقد عرضنا لأقوى الدوافع التي حدت بالمتنبي ليخرج الى القتال ، وبخاصة في أثناء اقامته بجوار سيف الدولة دون سواه ، اذ لم نسمع عنه مشاركا في حرب برفقة غيره من ممدوحيه • وأما عن الصيد فتناولنا ما قيل عن خروجه اليه محاولين تحديد ما كان منه حقيقة وما كان

رسما فنيا من غير تجربة واقعية •

وفي الفصل الثاني درسنا " عناصر الرحلة " أى ما أسهم في رسم صورتها وتحديد معالمها وتجسيد مساراتها من مفردات ، وقد قسمناه على قسمين :

١ • العناصر المادية ، وشملت : الخيل ، والإبل ، والنحل والقدمان ، ومفردات الطبيعة (أى مظاهرها المادية الطبيعية — جغرافية وفلكية —)، ورفاق الرحلة (شخوصا) •

٢ • العناصر المعنوية ، وشملت : مجموعة من الأفكار والمشاعر والأحاسيس التي اعتلجت في صدره ، فعبر عنها بما يصورها مركوبات أو رفاق رحلة أو مفردات طريق •

وفي الفصل الثالث بحثنا في " أبعاد الرحلة " مما يشكل الخلفية الفكرية والعمق النفسي اللذين يساعدانا على اكتناه أثرهما في رحلة المتنبي ودورهما فيها • وقد قصرنا الكلام في هذا الفصل على البعدين الزماني والمكاني دون غيرهما مما يمكن أن يكون من أبعاد مما انبث بين جنبات البحث وفي ثناياه ، وذلك لخصوصيتهما في هذا الموضوع اذ يتم تحقق الرحلة — نفسيا وماديا — في الزمان والمكان •

أما البعد الزماني فعرضنا له بوصفه وقتا تتم في أثنائه الرحلة ، وبوصفه زمنا نفسيا تتحكم في إحساس المتنبي به عوامل تتمثل في نظرته الى أهل زمانه وعلاقته بهم ، فضلا عن إحساسه بتقدم العمر مما يترتب عليه موقفه منه • واذا ما تحدثنا عن موقفه منه قسمناه — أى الزمن النفسي — على آنات ثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل ، عارضين لخصوصية شعور المتنبي بكل منها بحسب ظروفه وحالته النفسية آنذاك ، كما عرضنا فيه لنظرته الى الموت والخلود •

وأما البعد المكاني الذى كان لـروح المتنبي المتمهدية أثر كبير في إحساسه به ، فعرضنا له بوصفه امتدادا جغرافيا طبيعيا يتمثل في طريق الرحلة ومحطات السفر ، وبوصفه مكانا نفسيا يسقط عليه مشاعره وأحاسيسه ، وبوصفه وطنا كان يبحث عنه طالبا الاستقرار فيه وناظرا اليه — كما هي الحال مع إحساسه بالزمان — من خلال أهله وطبيعة علاقته بهم •

وفي الفصل الرابع حاولنا دراسة بعض من نماذج شعر الرحلة عنده — بواعث

وعناصر وأبعادا ــ دراسة فنية بحسب محاور ثلاثة قسمنا عليها هذا الفصل هي :

١ • اللغة لفظا وتركيبا •
٢ • الصورة •
٣ • الموسيقى ، خارجية وداخلية •

وقد عرضنا في كل فصل من هذه الفصول الى الإشارة بعامة الى رحلة الحرب بما يتفق وموضوع البحث في كل فصل دون الدخول في التفصيلات ، اذ أغنانا عن ذلك ما كتب عن موضوعة الحرب في شعر المتنبي ، سواء أكان ذلك في كتب ودراسات مستقلة أم في فصول وأجزاء من بحوث عامة •

ثمّ انتهينا من هذا البحث الى الخاتمة حيث عرضنا لأهم ما تمخضت عنه هذه الدراسة من نتائج وآراء •

ومما تجدر الإشارة اليه أننا حاولنا في شواهدنا الشعرية أن نغطي كل جوانب ما عرضنا له من أفكار وآراء ومواقف على امتداد البحث ، ولكن ما أخذناه بنظر الاعتبار مما فرض علينا من محدودية عدد الصفحات قد اضطرنا الى الاعتماد على أن ننتقي منها أدل ما يعبر عن كل فكرة منها ورأي، محيلين في الهامش الى ما يماثلها من الشواهد في الديوان بحسب خصوصية المبحث وأهميته فضلا عن حجمه •

واذا كان من أصول البحث الأكاديمي توثيق الشواهد الشعرية ــ فضلا عن غيرها من المصادر ــ فقد اعتمدنا في ذلك على شرح الديوان المنسوب الى العكبري والمسمى بالتبيان في شرح الديوان ، موردين رقم الجزء والقصيدة فالبيت أو الأبيات • فاذا ما استعرنا من هذا الشرح نصا غير الشعر أوردنا رقم الجزء والصفحة فحسب • وهذا ما التزمنا به على مدار البحث •

وأفدنا كذلك من شرح آخر للديوان هو شرح اليازجي الموسوم : ديوان المتنبي بشرح العرف الطيب ، موردين لما اقتبسناه منه ، شعرا أو شرحا ، رقم الجزء والصفحة •

كما أننا أفدنا من شرحي الديوان هذين فيما شرحناه أو فسرناه من مفردات النصوص الشعرية ، تلك التي وردت في هوامش البحث ، اذ أفرد كل من هذين الشرحين حيزا مهما لتفسير المفردات الصعبة وبيان معانيها مما أعفانا من الرجوع الى غيرهما من معجمات لغوية •

أما ما رجعنا اليه من مصادر فقد حاولنا من خلاله أن نفيد من كل ما استطعنا الحصول عليه أو الوصول اليه منها بما يتناسب وما عالجناه في موضوع الرحلة وبشرى جوانبه ، لذلك أفدنا من كثير مما كتب كما تجاوزنا عددا منه ولم نأخذ منه شيئا إذ لم نجد فيه ما يخدم بغيتنا ، محاولين في أثناء ذلك أن نفيد من كل ما قرأنا ــ أخذنا منه أم لم نأخذ ــ في بلورة رأينا الخاص وإيضاحه ، سواء أكان موافقا لبعض مما كتب أم مخالفا •

وأخيرا ، لن أعتذر لنفسي لما يكون قد شاب هذا البحث من أخطاء أو هفوات الا ّ بأني قد حاولت جادا ومخلصا وراغبا الخروج بعمل أطمع وآمل أن لا يكون مجرد رقم يضاف الى مجمل ما كتب عن المتنبي فحسب وانما إضافة نوعية ذات قيمة وفائدة في استجلاء بعض من عوالم هذا الشاعر الفذ ، المتنبي •

منتصر عبد القادر الغضنفري

التمهيد

في سيرة المتنبي

التمهيـــــــــد

في سيرة المتنبي : أضواء ومواقف وأحـــداث

كانت الأمة العربية الاسلامية في القرن الرابع للهجرة تمر بظروف سياسية واقتصادية عصيبة ، فسلطة الخلافة بيد الأعاجم الذين وصلوا اليها بالغدر والارهاب والتحايل ، حتى لم يعد للخليفة من دور الا اتخاذ اسمه رمزا للحكم • وأرض الخلافة تتجزأ أو تتقطع بأيدى الطامعين والمنشقين ممن لم تعد سلطة الدولة وهيبتها ترهبهم لأنها غدت بيد من لا تعنيهم مصلحتها ، أولئك الذين انشغلوا بالصراع من أجل رغباتهم الخاصة ومصالحهم الشخصية ، فنشأت الدويلات والامارات هنا وهناك وحتى هذه لم تسلم من العداء والتقاتل فيما بينها ليزيد ذلك من حالة الاضطراب التي كانت تمر بالأمة •

أما الحالة الاقتصادية فمتدهورة ، على الرغم من غناء موارد الخلافة وثراء مصادرها ، فالأموال نهب بيد المتسلطين والمتنفذين من الحكام ، وبخاصة الأعاجم منهم ، في مقابل الفقر الذى كان يعصف بالعامة (١) •

في هذا العصر ، وفي مدينة الكوفة ، يولد أبو الطيب المتنبي لأسرة يكتنفها الغموض • فلا أخبار تصل الينا عن أمه الا أنها ماتت بعد ولادته بفترة قصيرة ، أو لعل ذلك كان في أثناء ولادتها اياه • أما الأب فالآراء متضاربة فيه وحوله • واذ يموت هذا الأب ، والمتنبي لما يزل يافعا ، تكفله جدته لأمه التي لم تكن صورتها بأوضح ممن سبقها • كل ما بلغنا عنها ، أنها كانت من صوالح النساء الكوفيات • وقد التزمت بتربية شاعرنا حتى وافاها الأجل وهو في أوج شبابه •

واذا ما أشار ابن العديم والمقريزى الى ذكر وجود أخ وأخت للمتنبي (٢) ، فان كل مصادرنا الأخرى عنه لم تشر الى ذلك ، ولو تلميحا ، مما يجعلنا نتغاضى عن ذلك أو نكاد •

---

(١) للاطلاع على ظروف ذلك العصر ، ينظر : زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم الجزء الأول، والحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم متز، وظهور الاسلام لأحمد أمين، ومحاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) محمد الخضرى بك، والأدب في ظل بني بويه محمود غناوى الزهيرى، ومصر في عصر الاخشيديين د • سيدة اسماعيل كاشف، والخلافة العباسية دراسات في التاريخ السياسي للدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي د • فاروق عمر •

(٢) ينظر : ص ١٢ من البحث •

ومما يحيرنا أن المتنبي نفسه لم يذكر لنا ، في شعره الذى وصل الينا شيئا عن أسرته • فهل كان ذلك منه تعمدا ياترى ؟ أو أنه بفعل الآخرين ممن كادوا لــــه وائتمروا به فيما بعد ؟ أو أنه تواطأ معهم على ذلك لسبب ما ؟ إن الإجابة عــــن هذه الأسئلة جميعا تنبيء عن علاقة خاصة للمتنبي بأسرته هذه ، مما لم تفصح عن كنهه الأيام • وما ورد الينا من شعره ليس أكثر من تفاخر بنفسه واعتزاز بأصله العربي •قال:(١)

لا بقومي شَرُفتُ بل شَرفوا بي ... وبنفسي فَخُرتُ لا بجـــدودي
وبهم فخرُ كلِ من نطق الضـــا ... دَ وعوذُ الجاني وغوثُ الطريدِ

بل انه ، فيما بعد ، سيفخر بأصله وأجداده ، مع رفضه أن يتكيء على أمجادهم وأفضالهم من غير أن يصنع مجده الخاص به هو ، يتضح لنا ذلك في قوله :(٢)

أنا ابنُ من بعضُهُ يفوق أبا آلـ ... باحثِ والنجلُ بعضُ مَنْ نَجَلَــهْ
وإنما يذكرُ الجدودَ لهـــــمْ ... من نَفَروه وأنفدوا حِيَلَـــــهْ

ويتأكد لنا ذلك في قوله ،(٣) بعد ذلك :

ولستُ بقانعٍ من كل فضــــــلٍ ... بأن أُعزى إلى جدٍ هُمَـــــامِ

ومهما يكن من أمر حقيقة هذه الأبيات ، فان مجمل ما وصل الينا من شـــعره وأخباره يوحي الينا بظروف أسرية غير مستقرة •

إن ظروفا أسرية كهذه ، في ظل انعدام الأمن والاستقرار الخارجيين ، كـــان لا بدّ لها أن تؤثر في نفسية شاعرنا ، اذ لا أم يأوى الى صدرها في ساعات الضيـــق والبرم ، ولا أب يستمد منه القوة والأمان ، مما لم يعد له معه الاّ أن ينشأ ويترعـــرع تحت رعاية هذه المرأة العجوز ، جدته ، التي تمثل له المثابة والملجأ بالقدر الـــذى تثير في داخله الألم والحزن بما تذكره به من أن لم يظل له أحد سواها ، فضلا عـــن ظروف خارجية مرتبكة مربكة ، تسودها الفوضى والاضطراب مما يبعث في النفس الإحســاس بالخوف والقلق وافتقاد الطمأنينة •

---

(١) التبيان ١ : ٦٣/ ٣٢ ـ ٣٣ •
(٢) نفســه ٣ : ٩/٢١٣ ـ ١٠ •
(٣) نفســه ٤ : ٢٥٣/ ١٢ وينظر ما بعده •

لقد تفاعلت هذه الظروف جميعا ، الأسرية والعامة ، لتدفع به الى حالة من الشعور بفقدان الأمان ، ينظر بخوف ويتأمل بقلق ، ولكنه يحاول بجد أن يعي ما يدور حوله ويفهم حقيقته ، ثمّ ليتطلع نحو آفاق جديدة أوسع وأفضل مما هو فيه ، ومن هنا كانت أولى بواكير رحلته • رحلته النفسية التي ستؤدى الى رحلته المادية ، وتتزامن معها ، وتتواشج واياها في نسيج واحد •

واذ يكبر تدريجيا ويبدأ الاتصال المباشر بالعالم الخارجي من حوله ، وذلك في أثناء دراسته بالكتاب ، وملازمته دكاكين الوراقين ، وما قيل عن رحلاته مع أبيه الى البادية ، ثمّ رحلة فتى الى بغداد ، يزداد إدراكا لما يحيط به : يشعر بمعنى الفارق الطبقي ويحس بلسعة الفقر ويدرك أهمية العلم وبخاصة في ذلك العصر الذى يعد من أرقى عصور الفكر العربي ـ الاسلامي ، فيقرر أن ينهل المزيد من العلم والمعرفة ليزداد وعيا وفهما ، ولينمي الموهبة التي بدأ يحس بقوة تدفقها في دمه ، ولعله يفيد ماديا ومعنويا من وراء ذلك • فيقرأ بنهم ويتعلم بسرعة • وكلما كثرت معارفه ، عظم فهمه لما يدور من حوله مما يقوى تأثيره في نفسه المرهفة الإحساس ، الدقيقة الشعور • لقد بدأت الأشياء التي كان يلفها في ذهنه شيء من العتمة ، تتجلى له وتتوضح تدريجيا • ومعها تولد في نفسه الآمال وتنشأ المطامح • قال(١) :

ليس التعللُ بالآمالِ من أرَبي   ولا القناعةُ بالإقلالِ من شِيَمي

بل انه يهيئ نفسه للسعي اليها(٢) :

ومَنْ يبغِ ما أبغي من المجدِ والعلا   تساوَ المَحايي عنده والمَقاتلُ

ولمّا كان يرى سيادة القوة من حوله ، بوصفها الوسيلة الى المبتغيات ، حاول أن يمارسها مستفيدا من نفسه في جذب المؤيدين وجمع الأنصار ، فكان ما قام به من حركة في حمص ، في سبيل الحصول على ما يعلي منزلته ويرفع من شأنه • ولكنه فشل فشلا ذريعا ، اذ نمي خبره الى الوالي ، فأودع السجن • وهذه صدمة جديدة ، شديدة الوقع عليه ، فلقد خابت أولى خطواته نحو ما قرر أن يحققه من مجد ورفعة واستقرار ، فضلا عن الكثير من الأماني والمطامح التي كانت تداعب خياله ، وبدأت ملامحها ترتسم نصب عينيه ، فتضطرب بها نفسه اضطرابا شديدا(٣) •

---

(١) التبيان ٤ : ١٢/٢٢٣ وينظر الأبيات ١٢ـ٣١ •

(٢) نفسه ٣ : ١١/١٩٧ وتنظر القصيدة كاملة •

(٣) عرضنا لهذه الأحداث ـ فضلا عن غيرها ـ موثقة في مواضعها من البحث •

إن رهافة الإحساس، وبعد النظر مما يتميز به فنان كالمتنبي ، وقد بدأت إرهاصاتها تظهر عنده منذ بدأ يحس بما حوله ويتأثر به ، قد أفضيا به ـ في هذه المرحلة من الطموح والرغبة في التنفيذ ـ الى أن يشعر في السجن بالألم الممض والحزن المقيت ، اذ فشل في أول خطوة في طريق الطموح ، وبينما كان متعجلا الوصول غدا وديعة السجن بين اللصوص والمجرمين ، فيبرم ويشكو ويعتذر • قال في مخاطبة الوالي من الاعتقال : (١)

أمالكَ رقي ومَنْ شأنُهُ	هباتُ اللُّجَيْنِ وعتقُ العبيدِ
دعوتُكَ عند انقطاع الرجا	ءِ والموتُ مني كحبلِ الوريدِ
دعوتُكَ لمّا براني البلى	وأوهنَ رِجْلَيَّ ثِقْلُ الحديدِ
وقد كان مشيهُما في النعال	فقد صار مشيهُما في القيودِ
وكنتُ من الناس في محفِلٍ	وها أنا في محفِلٍ من قرودِ

كان لا بدّ لهذا الاعتذار أن يشعر المتنبي بالذلة والمهانة ، فلقد بدأ ثائرا لينتهي راجيا معتذرا ـ وان لم يتخل عن بعض كبريائه ـ (٢) ولا شك بمقدار ما عاناه من ألم نتيجة لذلك • ولعله أدرك من خلال هذه التجربة أن قوته غير مكتملة ، يعوزها أن تعركها الأيام وتختبرها حتى تزداد نضوجا ومتانة ، فكريا وماديا • ومن هنا قرر أن يفيد من موهبته الشعرية ليجعلها في خدمة ما عزم على تحقيقه • فكان تصميمه على عدم الركون الى حياة الراحة والدعة أو الاخلاد اليها ، فطفق يتنقل من هنا الى هناك، ومن هذا الى ذاك ، معلنا عما في نفسه ومحاولا جمع كل ما من شأنه أن يساعده على الوصول الى ما يسعى اليه ، وتحقيقه •

يستمر المتنبي على حاله تلك ، متنقلا مادحا ، لأكثر من عشر سنين • فاذا حقق بعض ما يريد من مال وشهرة وإحساس بالأمان عند بعض من ممدوحيه ، وبخاصة بدر بن عمار وأبو العشائر الحمداني ، فانه كان ـ لا ريب ـ يعاني من منغصات وصراعات تضطره لترك ممدوح الى آخر ، بسبب من وجود مناوئين له في رغباته وآماله تلك أو غير متحمسين لها ، فضلا عما يمكن أن يكون من عداءات شخصية مبعثها الغيرة والحسد •

ولم يكن المتنبي ليني عن التعبير عمّا يحس به من الألم لاضطراره الى بذل شعره

---

(١) التبيان ١ : ٦٦/١٨ـ٢٢ •

(٢) تنظر بقية أبيات القصيدة نفسها •

في المدح ،على الرغم مما كان يحاول جنيه من وراء ذلك ، قال[(١)] :

إلى كم ذا التخلفُ والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشُغْلُ النفسِ عن طلبِ المعالي ... ببيعِ الشعرِ في سوقِ الكسادِ

وبخاصة أنه كان يرى أن عددا كبيرا من ممدوحيه ـ ان لم يكن أغلبهم ـ لا يستحق ذلك ، ولكنها الظروف ، هي التي أرغمته على ذلك ، حتى قال[(٢)] :

مدحتُ قوما وإن عِشنا نظمتُ لهمْ ... قصائدا من إناثِ الخيلِ والحُصُنِ ...

وفي غمرة صراعه النفسي هذا تنعى اليه جدته فيزداد ألما فوق ألمه وحزنا فوق حزنه ، فيقول في رثائها قصيدته التي أولها[(٣)] :

ألا لا أُري الأحداثَ حمداً ولا ذما ... فما بطشُها جهلا ولا كفُها حِلْما

والتي إن أبان فيها عن عظيم حزنه لفقده جدته ، بكل ما تعنيه له ، فقد أعلن عن قوة عزمه ، وعن مضيه في الطريق الذى بدأه ، نحو آماله ومطامحه . قال[(٤)] :

يقولون لي : ما أنتَ في كلِ بلدةٍ ... وما تبتغي ما أبتغي جل أن يُسمىٰ

واذ يلتقي المتنبي بسيف الدولة الحمداني ، أمير حلب ، ويتصل به ، بعد هذه السنين الطوال من السفر والتجوال اللذين أتعباه نفسا وجسدا ، يحس بأن الكثير من أحلامه وآماله ـ ان لم تكن كلها ـ قد قابت قوسين أو أدنى من أن تتحقق . ان لم يحصل على بعضها حقيقة فلقد اكتفى بتجسدها في شخص ممدوح رآه مرآة نفسه . ومن ثمة كانت صلته النفسية والعاطفية الكبيرة به ، حتى إنه بقي في ذراه ثماني سنين ، وهذه أطول مدة يلمس فيها المتنبي الاستقرار منذ بدء رحيله نحو المجد . وان يهمنا أن نشير هنا الى أنه وان استقر في حلب الى جوار سيف الدولة ، فقد رحل معه خائضا غمار كثير من حروبه مع الروم . ومثل هذه الرحلات لم تكن لتتعب المتنبي بقدر ما كانت تريحه نفسيا ، لأنه كان يسعى اليها بنفسه . فكيف اذا تحققت برفقة قائد عربي كسيف الدولة هو ملتقى الآمال ومطمح الأنظار ، الذى يقول فيه معبرا عن عظم حبه له وشدة

---

(١) التبيان ١ : ٧٠ / ٥ ـ ٦ .
(٢) نفسه ٤ : ٢٦٩ / ١٧ .
(٣) نفسه ٤ : ٢٤٤ / ١ .
(٤) التبيان ٤ : ٢٤٤ / ٢٦ .

إعجابه بـــه (١) :

جعلتُكَ بالقلبِ لي عُـدَّةً لأنكَ باليدِ لا تُجعَـلُ

ما كان استقرار المتنبي في حلب سيف الدولة ليمر هانئا مريحا كله ، فلقد كـان مشوبا بحالات من الخوف والألم نغصت عليه فرحته وهناءه بما وصل اليـه ، مما كان مبعثه ما يشوب علاقته بسيف الدولة ، أحيانا ، من وهن وتوتر بسبب من رغبة سيف الدولة فـي المزيد من المدح ، ذلك الذى كان المتنبي ، أحيانا ، يتأخر فيه أو لا يستجيب اليهـ على الرغم من حبه لسيف الدولة ــ ، فلم يكن يريد لنفسه الخنوع والتذلل حتى لمـن يهوى ، بخاصة اذا كان هذا الذى يهواه ممن زادوا من إحساسه بعزة نفسه واعتداده بها • فضلا عن ملابسات ومداخلات أخرى مما كانت اليد الطولى في تدبيره للآخريـن من حاسدين وكارهين وحاقدين ومتوجسين ممن بزهم المتنبي وتفوق عليهم حتى أحفظهم عليه ، ليؤدى ذلك كله ، بعد ، الى رحيله عن حلب ، والعودة به مرة أخرى الى الضرب في آفاق الأرض • وهو الذى قد قال لسيف الدولة نفسه من قبل (٢) :

إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قدَروا أن لا تُفارقَهُمْ فالراحلون هـمُ

فلم تكن بالمتنبي رغبة في ترك حلب والابتعاد عن سيف الدولة وقد عثر فيـه وعنده على كثير مما كان يصبو اليه ، ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن ــ كما قـال هو نفسه ــ ، لذلك أحدث هذا الفراق في نفسه جرحا غائرا ما انفك يشير اليه ويحاول مداراته ، ولكننا سنحـس أنه ما كان ليندمل أبدا • أفلم يقل في خطاب سيف الدولـة بعد أن غادره بثماني سنين ، وقبل وفاته أى وفاة المتنبي ــ بأقل من سنة (٣) :

وما لاقَني بلدٌ بعدَكـمْ ولا اعتضتُ من ربِ نُعمايَ رَبْ
ومَنْ ركبَ الثورَ بعد الجـوا دِ أنكر أظلافَهُ والغَبَـبْ
وما قِستُ كلَ ملوكِ البـلادِ فَدَعْ ذكرَ بعضٍ بمَنْ في حلَبْ • • •

واذ يفقد المتنبي بعض ما تحقق من تلك العوالم التي ما برحت تداعب خيالـه وترتسم في أحلامه ، يحاول أن يحققها أو يحقق شيئا منها عند من رحل اليه بعـد مغادرته حلب، ألا وهو كافور الأخشيدى •

---

(١) التبيان ٣ : ١٨١ / ٢١ • فضلا عما جاء في شعره فيه مما يقرب من ثلث ديوانه •
(٢) التبيان ٣ : ٢٢٢ / ٣٣ وتنظر القصيدة كاملة •
(٣) التبيان ١ : ١٩ / ٨ ــ ١٠ •

ويمر المتنبي مع كافور بتجربة مرةٍ أخرى شديدة الوطأة على نفسه ، استنزفت جزءا كبيرا من وقته وأعصابه وفكره ، فبعد مديحه اياه لزهاء سنين أربع ، فرض عليه كافور خلالها الإقامة في مصر حيث هو ، محيطا اياه بالرقباء والعيون ومقيدا من حريته ، لم ينله كل ما أراده منه • وهنا ينفجر المتنبي غضبا وألما ليصب عليه جام غضبه ويرميه بشواظ سهامه هاربا من مصر • من ذلك قوله (١) :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعَجَبُهَا	أني بما أنا باكٍ منه محسودُ
أمسيتُ أروحَ مثرٍ خازنا ويــدا	أنا الغنيُّ وأموالي المواعيدُ
إني نزلتُ بكذّابينَ ضيفُهُـم	عن القِرىٰ وعن التَرحالِ محدودُ
جودُ الرجالِ من الأيدي وجودُهُمُ	من اللسانِ فلا كانوا ولا الجودُ

لقد أحسّ المتنبي بضياع الزمن الذى قضاه في انتظار أن يحقق له كافور ما أراده منه ، ومن هنا كان ألمه الشديد وحزنه الكبير •

انها خيبة أخرى يمنى بها المتنبي في سعيه الى طموحه وآماله ، وها هو ذا يهرب من مصر الى الكوفة سالكا طريقا بكرا لم تعهده القوافل أو الناس من قبل ، حتى لا يعثر عليه رجال كافور الذين أرسلهم وراءه • وما أن يصل الكوفة حتى تراه يستقر فيها هادئا ، أو متصنعا الهدوء ، وكأني به يحاول الاستراحة من كل ما مر به في سنيه تلك التي غادرها فيها ، ولكن نفسه الحبلى بالمطامح تحثه الى استئناف الرحلة الى بغداد هذه المرة ، عسى أن يجد فيها ما يريد • فيستجيب اليها ليقوم بسفرة هي غير سابقاتها ، فهو لم يخبرنا في شعره عن حقيقة ما قصد اليه من وراء هذه الرحلة تحديدا ، حتى انه لم يمدح أحدا من ساستها على الرغم من الشهور التي قضاها فيها ، اذ لم يجد فيهم من يستحق مدحه وبخاصة أنه كان قد نال ما ليس بالقليل فيما سلف من حياته ، لقد نال الشهرة والصيت الذائع وعلو المنزلة فضلا عن المال • واذ يحس بعدم الراحة في بغداد بسبب من كره ساداتها اياه ، اذ لم يمدحهم ، فضلا عن صدوره عن أحد أعدائهم وهو سيف الدولة ، الى الحد الذى ألبوا فيه نفرا من شعرائهم عليه ، ترك بغداد عائدا الى الكوفة •

ما ان يستقر المتنبي في الكوفة حتى يأتيه كتاب ابن العميد ، وزير بني بويه ، يستزيره فيه في أرّجان حيث يقيم ، فيشد الرحال اليه مادحا ، معجبا بعلمه وأخلاقه ،

---

(١) التبيان ٢ : ٨٦/٩ــ١٢ •

وفي أثناء ذلك يأتيه كتاب عضد الدولة البويهي يدعوه اليه في شيراز ، فيسافر اليه بعد تردد أنهاه تعهد عضد الدولة له بامتلاكه أمر نفسه في البقاء عنده أو الرحيل عنه ، وذلك بعد أن أبدى المتنبي برمه وضيقه مما فرضه عليه بعض من ممدوحيه ، من قبل ، من بقاء أو رحيل ، دون أن تكون له الحرية في الاختيار .

ان ما نلمحه في شعر المتنبي في هذين الممدوحين ، ينبئ عن أنه قد بدأ يشعر بالتعب يدب في أوصاله ، فلا نرى في شعره ذلك العنف وتلك القوة التي طبعته من قبل ، على الرغم من عدم اختفائهما تماما ، فضلا عن إحساسنا بأنه يحاول الإسراع في العودة الى أهله وبلده ، وبخاصة في شعره في عضد الدولة ، اذ يقول (١) — مما قال :

فزلْ يا بُعدُ عن أيدي رِكابٍ   لها وقعُ الأسنةِ في حَشاكا
وأيًّا شئتِ يا طُرُقي فكوني   أذاةً أو نجاةً أو هلاكا
فلو سِرْنا وفي تَشرينَ خمسٌ   رأَوني قبل أن يَرَوا السماكا

وبعد أن يمدح ويكرم ، يسلك طريق العودة ، ويا لها من طريق ، فلقد تعرض له فيها ثلة من الأشقياء ، سرعان ما جندلوه ومن معه — بعد معركة خاطفة — ثم نهبوا كل ما كان معه من حصيلة سني الترحل والأسفار والمعاناة .

لقد شاءت الأقدار أن يقتل في الطريق ، لتأتي ميتته تأكيدا لطبيعة الحياة التي عاشها ودلالة عليها ، وبعد صراع — مع القاتلين — يرمز الى ما اضطره الى خوض غمار مثل هذه الحياة ، والذى عبر عنه بقوله (٢) :

أريدُ من زمني ذا أن يبلّغني   ما ليس يَبلُغُهُ في نفسِهِ الزمنُ

وهكذا يتضح لنا أن رحلة المتنبي كانت ذات بعدين ، نفسي ومادى ، أما النفسي فقد اتخذ له مسلكين يعبر عن نفسه بهما ، الأول : تطلعه الدائم الى عوالم أخرى كان يتمنى الوصول اليها ، بما رسمه لها من صورة ، استمد ألوانها مما امتلأت به نفسه من آمال ومطامح ورغبات . عسى أن يتخلص بها من واقعه الذى يعيش أو يغيره على النحو الذى يريد . والثاني : تردد نفسيته على امتداد حياته ، بين مشاعر مختلفة وأحاسيس متباينة : الحزن والفرح ، اليأس والأمل ، الضعف والقوة ، الطمع والاكتفاء ، الغرور والانكفاء ، مما يعد تعبيرا عن مدى نجاحه أو إخفاقه في الوصول الى العوالم

---

(١) التبيان ٢ : ١٧٣ / ٣٧ — ٣٩ .
(٢) نفسه ٤ : ٢٧٣ / ٢ .

الأخرى التي حلم بها . ذلك النجاح أو الاخفاق الذى يتحقق عبر البعد الثاني من رحلته ، وهو البعد المادى من حيث هو الوسيلة العملية نحو تحقيق ما تضمنته تلك العوالم الأخرى من آمال ومطامح ورغبات . ويتجلى هذا البعد المادى في تنقله من بلد الى آخر ومن مكان الى سواه بين الممدوحين وغيرهم .

إن هذين البعدين : النفسي والمادى ليتواشجان متكاملين لرسم صورة رحلة المتنبي ؛ اذ توازيا في التحقق في حياة المتنبي . فبينما كانت رحلاته المادية بدافع من رحلاته النفسية المتمثلة بتحقيق الآمال والمطامح التي تشكل العوالم الأخرى التي تمنى الوصول اليها ، كانت رحلاته النفسية لا تنفك تتم في خياله وأحلامه ، سواءً كان ظاعنا أم مقيما ــ ماديا ــ فضلا عن أن ما مر به من حالات نفسية ــ مما أشرنا اليه سلفا من حزن وفرح .. وغيرها ــ كانت المقياس لمدى اقترابه من تحقيق ما يريد أو بعده عنه .

وسيجد القارئ من خلال فصول هذا البحث تفاصيل ما اكتنف هذه الرحلة بوجهيها المادى والمعنوى من مشاعر ومواقف واحداث تجلت ملامحها في شعر الرجل في أوفى صور الصدق في التعبير والجمال في النسيج والتصوير .

الفَصلُ الأوَّل

بوَاعِثُ الرِّحلَةِ

الفصـــل الأول

بواعـــث الرحلـــة

إنّ التعرض لدراسة الرحلة في شعر المتنبي يحتم علينا رحلة تبدأ بالتوفر على البواعث والأسباب التي دفعت بالمتنبي الى تجشم عناء الترحل ، وتحمل مشاق السفر . بكل ما ينطوي عليه من شعور بالتعب ، وإحساس بالخطر ، وعيش مع القلق ، فضلا عن عدم إحساس بالارتياح حال استقراره أو لبثه في موضع أو دار . وليس من شك في أن المتنبي لم يكن ليضحي بما كان يمكن أن يكون عليه أو يحصل عليه من راحة واستقرار لولا قوة أشياء دارت في أعماق نفسه وإلحاحها ، حتى جعلته يأبى لنفسه وعليها أن تركن الى دعة أو تأوي الى قرار . ولقد استطعت ـ من خلال معايشتي لديوان الشاعر فضلا عن أخباره ـ أن أخلص الى ما يمكن اعتداده أسبابا أو بواعث حملته على اللجوء الى الترحل الدائم والتنقل المستمر ، وهي : الإحساس بالغربة ، والاستشراف ، والمال ، والحسد والوشايات والمكائد ، والحرب والصيد .

أولا : الإحساس بالغربة :

ربما كان أول ما يتبادر الى أذهاننا حين نسمع مثل هذا التعبير مقرونا بالكلام على المتنبي ، قوله [1]:

أنا في أمةٍ تداركها اللّـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

وقوله [2]:

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني إنّ النفيسَ غريبٌ حيثما كانا

انّ المتنبي لم يقل كلا من هذين البيتين اعتباطا ، ولم يأت بهما في مجمل سياق العملية الفنية ، انما هما ـ مثلهما في ذلك مثل أغلب شعره ـ تعبير عن حالة اصطراع نفسي ، استوطنت أعماقه واستبدت بكل أحاسيسه ، حتى قيل إن المتنبي ((قد ولد مهيئا ليكون صوت أمة بحالها في قلقها وتمزقها وفي غربة إنسانها في تلك المرحلة))[3].
فكيف كان ذلك ؟

---

(١) التبيان ١ : ٣٦/٦٣

(٢) نفسه ٤ : ١١/٢٧٠ .. ولعل مما أعلن فيه عن غربته ما قاله من أبيات في وحدته ينظر التبيان ١ : ٨/٢٤ و ١ : ٩/٥٩ .

(٣) أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره د .زهير غازي زاهد ٤٩ .

واذ نبدأ بالحديث عن غربة المتنبي لا بد لنا أن نوضح مفهوم الغربة ، ودواعي اختيارنا مصطلح الغربة دون الاغتراب •

انّ معاني مصطلحي الغربة والاغتراب والأفعال المشتقة منهما متماثلة تماما ، وأحد هذه المعاني ، وهو ما يهمنا هنا ، الغربة والآخرية بين البشر وفقد ان الألفة معهم والانفصال عنهم[(١)] • ولعل المتنبي كان واقعا تحت وطأة الغربة وليس الاغتراب من حيث أن الغربة تعني عدم وجود وحدة مسبقة بين الغريب والمجتمع من

---

(١) ((أنّ الأصل اللاتيني لكلمة اغتراب هو Alienatio ويستمد هذا الاسم معناه من فعل Alien are بمعنى تحويل شيء ما لملكية شخص آخر أو الانتزاع أو الازالة وهذا الفعل مستمد بدوره من فعل آخر هو Alienus أى ينتمي الى شخص آخر أو يتعلق به ، وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ Alius الذى يعني الآخر سواء كاسم أو كصفة)) (الاغتراب ريتشارد شاخت ٦٢) وبهذا يكون لمصطلح الاغتراب مفاهيم ثلاثة هي : الاغتراب بمعنى نقل الملكية ، والاغتراب بمعنى الاضطراب العقلي ، والاغتراب بمعنى الغربة بين البشر (ينظر: الاغتراب ٦٣ ـ ٦٧) ((كما هو الحال بالنسبة لاصطلاح الاغتراب في اللغة الانجليزية جرى استخدام اصطلاح الغربة Entfremdung في اللغة الألمانية منذ العصور الوسطى ، باعتباره يعني التغريب أو السطو أو السلب أو الأخذ فاللفظ الألماني Fremd يماثل اللفظ اللاتيني alienus واللفظ الانجليزى alien حيث يعني الانتماء الى آخر أو التعلق به ، وقد استخدم هذا اللفظ أصلا ليشير بصورة حرفية الى ما هو أجنبي ولكنه استعمل في وقت مبكر للغاية بصورة فعلية فيما يتعلق بما يعكس أى نوع من الغربة أو الآخرية ومن هنا فان المعاني الحرفية للفظ Entfremdung الألماني الذى يعني الغربة ولفظ Alienation الانجليزى الذى يعني الاغتراب والأفعال المشتقة منهما متماثلة للغاية)) (الاغتراب ٦٧) وينظر : الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا د • قيس النوري ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الأول ١٩٧٩ ص ١٣ ـ ١٩ •

ومن الجدير بالذكر أن هاتين الكلمتين (الاغتراب والغربة) قد وردتا بمعنى واحد في معجم (لسان العرب) ، وان كانت دلالتهما هناك مادية وهي النزوح عن الوطن والابتعاد عنه (ينظر: لسان العرب ابن منظور ٢ / ١٢١ "مادة غرب")

حوله ، في حين يعني الاغتراب حدوث انفصال بعد وحدة كانت من قبل[(١)] .

ان اعتدادنا المتنبي غريبا وليس مغتربا ينبع مما لمسناه من عدم استطاعته — مذ ولد حتى مات — الاتصال بمجتمع أو بعالم المرحلة التي عاش خلالها وبين أهلها ، والتوافق معه . وسنحاول توضيح ذلك فيما نستقبل من مواضع في هذا البحث .

لقد بدأت رحلة المتنبي مع الغربة منذ عام ٣٠٣ هـ أي منذ ولادته ، اذ فقد أمه . وان عدم ورود أي ذكر لها في أي خبر ، فضلا عن أي بيت صريح من شعر المتنبي نفسه ، ليدفعنا الى القول بموتها وهو لمّا يزل رضيعا ، ان لم يكن بعد ولادتها اياه مباشرة . فلو أنه رآها ((أو وعى رؤيته لها واختزن في ذاكرته شيئا من ملامحها وسماتها ، لما وجدنا في نفسه وفي قلبه وفي وجدانه وفي شعره هذا الفراغ الكبير))[(٢)] . ثمّ يفجعه القدر بموت أبيه ، وهو في تلك السن الصغيرة التي

---

(١) لقد تابعنا في هذا التفريق بين المصطلحين اقتراح الباحث الألماني ريتشارد شاخت اذ قال ((يستخدم اصطلاح الاغتراب في استعمالاته التقليدية فحسب فيما يتعلق بعمليات الانفصال التي تسبقها أشكال مناظرة للوحدة ، من هنا يبدو أنه ليس مما يتضمن تعسفا القول بأن استخدامه يتعين أن يظل مقيدا على هذا النحو حيث أن ذلك سيتفق مع الالتزام بالهيكل الأساسي للاصطلاح ذاته ، اذ يشير المقطع الأخير من هذا الاصطلاح سواء في اللغة الانجليزية أو في اللغة الألمانية الى عملية ((تطور)) وبالتالي فان معناه الحرفي في اللغتين هو التحول الى ما هو غريب وجعل شيء أو شخص ما غريبا . ليس ثمة مناسب لاستخدام الاصطلاحات التي صيغت على هذا النحو بطريقة يتم من خلالها اغفال هذا المعنى الحرفي ، فعمليات الافتراض التي لا تتضمن فقدا لوحدة كانت قائمة من قبل يتعين أن نعبر عنها بطرق مخالفة ، واذا اعتبرنا أن من المرغوب فيه استخدام الاصطلاحات المشتقة من نفس الأصل فان اصطلاح الغربة أمامنا يمكننا استخدامه ، وحيث أن مثل هذا الاصطلاح متاح لدينا فان استخدام اصطلاح الاغتراب هنا هو أمر لا يقتضيه المقام ، .)) (الاغتراب ٣١٣) . واستنادا الى هذا فان ورود (الاغتراب) في سياق الحديث عن (الغربة) فيما قد يأتي في كلامنا على غربة المتنبي ، لا يعين اضطرابا وانما هو تشابه كبير بين معنييهما ، اذ الفرق فقط في حصول ترابط مع البنية الاجتماعية من قبل في الأول ، وعدمها في الثاني وهذه حالة المتنبي .

(٢) ظاهرتا الـ (أنا) والـ (نحن) في شعر المتنبي ، هادي الخفاجي ، مجلة الكتاب ، العدد التاسع السنة الثامنة ، أيلول ١٩٧٤ ص ٤٨ .

كان أحوج ما يكون فيها الى أب يعوضه فقدانه حنان أمه (١) • ولا يعني هذا أننا ننكر مدى شدة حب جدته له وصدقها في رعايتها اياه ، وما قابلها به هو أيضا من حب ، ولكن ((هذا الحب ــ رغم قوته وعنفه ــ لم يكن وحده ليغطي مساحة الفراغ النفسي الذى أصابه بموت والديه))(٢) •

هذا فيما يخص أسرة المتنبي(٣) فاذا ما انتقلنا الى الحديث عن نسبه فاننا سنجد أنفسنا بازاء لغط كثير قيل ــ ويقال ــ حوله ، فمن منته به الى الدوحة

---

(١) لعل هذا ما حدا بعبد الغني الملاح الى أن يذهب الى أن استجابة المتنبي لزيارة ابن العميد تدل على تغلب (عقدة الأب) أو عقدة الحرمان من (العطف الأبوى) التي عاناها في صغره فتمثلت في كبره بانداهاشه بحلم ابن العميد وفرحته بلقائه ، حتى انه أضفى عليه من الصفات ما كان يحلم أن تكون لأبيه (ينظر: المتنبي يسترد أباه ١٩٢) • وفي ضوء ما ذهب اليه الملاح يسعني القول انه ما من شك في أن ابن العميد كان من أبرز أعلام الأدب العربي ، حتى قيل ((بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد)) (يتيمة الدهر للثعالبي ١٥٤/٣ ــ ١٥٥) ، ولكن هذا لا يعني أن يرى المتنبي فيه صورة الأب ، فمن ناحية السن كان عمرهما متقاربا ، اذ ورد في الاعلام للزركلي (٣٢٨/٦) أن ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ قد عاش نيفا وستين ، واذا كان النيف ((من واحد الى ثلاث)) (لسان العرب ٢٥٦/١١) يكون ابن العميد قد ولد سنة ٢٩٧ هـ على أبعد حد ، وبذلك فانه يكبر المتنبي بست سنين ، فهل تشكل هذه السنون الست فاصلا زمنيا كبيرا أو حتى مناسبا لجعل المتنبي يحس بعاطفة البنوة حيال ابن العميد ؟ لا أرى هذا • أما من ناحية الثقافة فان ثقافتهما تكاد تكون بالمستوى نفسه ــ ان لم أقل بتفوق المتنبي ــ حتى ان ابن العميد كان ((يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه)) (الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الاصفهاني ١٦ وينظر: خزانة الأدب للبغدادي ٢٥٦/٢ ــ ٢٥٧) • أما من الناحية المادية فقد كان المتنبي آنذاك ــ عند زيارته لابن العميد ــ يملك الكثير من الأموال ، وحتى اذا ما كان راغبا منه بالمزيد فان ذلك لا يفسر بما ذهب اليه الملاح • وأما ما خلعه عليه من صفات ، فان قراءة لشعر المتنبي في ممدوحيه توقفنا على تشابه ما أضفاه عليهم منها مما لا يجعل من ابن العميد نسيج وحده في ذلك • وبهذا نرى أن شعور المتنبي حيال ابن العميد هو إعجاب برجل سياسي أديب مثقف فضلا عن كونه غنيا • أما حرمانه من أبيه ــ فضلا عن أمه من قبل ــ فقد ظل جرحا غائرا في نفسه •

(٢) التفسير النفسي للأدب د • عزالدين اسماعيل ١٨٣ •

(٣) أورد محمود محمد شاكر في السفر الثاني من كتابه (المتنبي) ترجمتي المتنبي في كتابي (بغية الطلب) لابن العديم و(المقفى) للمقريزى، وقد ورد في الترجمتين ذكر لأخ وأخت للمتنبي • ولكن شعر المتنبي فضلا عن أخباره في كل ما وصل الينا ــ عدا هاتين الترجمتين ــ لا تشير الى وجود أخ للمتنبي أو أخت ، ولا توحي به • ثم ان ما ذكر عنهما في هاتين الترجمتين لا يتعدى خبرا واحدا عن كل منهما •

العلوية الى مرجع اياه الى أصل عادى ــ ان لم نقل وضيع ــ . وكل ما قيل يترجح بين هذين النسبين اللذين أرى أن كلا منهما كفيل بأن يفضي به الى الإحساس بالغربة بسبب من تركيبته النفسية الخاصة أولا وظروف عصره المضطرب ثانيا (١) .

ولعل مما زاد ظروف المتنبي صعوبة وقسوة معاناته الفقر مما أثر في تشكيل طبيعته النفسية ، اذ كيف يشعر غلام صغير حين يرد بقسوة ويجبه بغلظة لمحاولته المساومة في ثمن بطيخ رغبت نفسه فيه لانه لا يستطيع دفع ذلك الثمن (٢) ؟ لنسمعه يقول فيما بعد (٣) :

ضاقَ صدري وطال في طلبِ الرزْ　　قِ قيامي وقلَّ عنه قُعودي

ولا يخفى علينا أن علماء النفس قد حرصوا ((على تقرير أهمية السنوات الأولى من حياة الطفل في تحديد مجموع سلوكه)) (٤) ، فماذا عن المتنبي الذى ولد وترعرع في أحضان اليتم والفقر والخوف والقلق ؟

أما عصر المتنبي الذى صار يحيه ويعايشه بكل ما فيه ، فقد كان يتسم بضعف السلطة المركزية ــ أى الخلافة العباسية ــ وما أصاب وحدتها من وهن واضطراب بفعل سيطرة الأعاجم على مقدراتها حتى ضاعت وحدتها واقتطعت أطرافها ، فضلا عن حدة التمايز الاجتماعي وسوء أحوال العامة وتكدس الثروة في أيدى طبقة اجتماعية محدودة ، وانتشار كثير من العادات الاجتماعية التي كانت تنخر في جسد الدولة العربية ــ الاسلامية ، ناهيك عن التحركات الشعوبية والدعايات الدينية المنحرفة . كل ذلك مما لا يمكننا اغفال أثر أعداء الأمة والحاقدين عليها في نشره وتأجيجه فيها عسى أن تضعف وتهن فينالوا منها . الا أن ما يحسب لهذا العصر ــ على الرغم من كل ذلك ــ هو ذلك الازدهار الثقافي الكبير في كل مجالات الفكر والعلم والأدب ، الذى

---

(١) للاطلاع على ما قيل من آراء في نسب المتنبي والخلاف حولها ،ينظر : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث د . محمد عبد الرحمن شعيب ٣١٥ ــ ٣٢٠ ، والمحصول الفكرى للمتنبي سهيل عثمان ومنير كنعان ٢١٤ ــ ٢٢٠ .
أما عن أن كلا النسبين يشعره بالغربة ، فلو كان علويا فقد تحمل آلام كتمانه وأعباء إعلانه حتى حورب فيه ورفض منه . وان كان عادى الأصل أو وضيعه فقد أحس ازاءه بالنقص والضعف وهذا ما لم يكن يريده لنفسه .

(٢) تنظر هذه الحادثة في كتاب (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي) للشيخ يوسف البديعي ٩٦ .

(٣) التبيان ١ : ٢٢/٦٣ .

(٤) التفسير النفسي للأدب ٢٣٢ .

لم يشهده أى عصر من العصور العربية ـ الاسلامية (١) • ولقد عبر المتنبي عن إحساسه بهذا العصر المضطرب المتناقض وأهله الراضين بما سقطوا فيه من ضعف وخضوع في مثل قوله (٢) :

أرىٰ أُناسا ومحصولي على غَنَمٍ ... وذكرَ جودٍ ومحصولي على الكَلِمِ

فقد غدا أهل عصره لاستمرائهم الذل والانقياد ولتخليهم عن خصائلهم الشريفة وأُخلاقهم الكريمة كالحيوانات • والى مثل ذلك ذهب حين خطّأ من يستفهم عن مثل هوءلاء الناس بـ (من) لانها للعاقل ، في حين أنهم لخور عزيمتهم وعدم إحساسهم بالهوان ليسوا أكثر من أشياء لا تعقل • قال (٣) :

حولي بكلِ مكانٍ منهمُ خِلَقٌ ... تُخطي إذا جئتَ في استفهامها بمَنِ

أخلص من هذا الى القول إن وعي المتنبي بطبيعة عصره هذه وادراكه لما آلت اليه حال أمته ومجتمعه من وهن وهوان ، لما عمق إحساسه بالغربة وزاد من أثرها في نفسه •

من هنا انطلق المتنبي يعلن عن غربته عمن حوله وما حوله ، أى بدأ يشير الى إحساسه بفقدان التوازن بينه وبين البنية الاجتماعية ، وانفصاله عنها • انه ينظر اليها ((باعتبارها شيئا خارجا عنه ومعارضا له ، لقد أصبحت شيئا غريبا في ناظريه أو كما يقول هيجل الآن أصبحت مغتربة)) (٤) •

ولا بدّ لي هنا من التنويه بمسألة مهمة فيما يخص التعبير عن الغربة أو الإعلان عنها ، وهي أن الفرد الغريب (المغترب) قد يصور غربته (تغربه) من خلال عزوه

---

(١) ينظر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى آدم متز، وظهر الاسلام أحمد أمين الجزء الثاني، وعصر المتنبي عصر اضطراب وفتن مجلة الهلال العدد الخاص بالمتنبي أغسطس ١٩٣٥ ص ١٢٢٢ ــ ١٢٢٤، ومحاضرات تأريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) محمد الخضرى بك، والادب في ظل بني بويه محمود غناوى الزهيرى ١٣ــ٥٥ ، ومصر في عصر الاخشيديين د •سيدة اسماعيل كاشف والخلافة العباسية دراسة في التأريخ السياسي للدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي د • فاروق عمر •

(٢) التبيان ٤ : ١٥/٢٢٣ •

(٣) نفسه ٤ : ٣/٢٦٩ •

(٤) الاغتراب ٩٨ •

فعل التغرب الى البنية الاجتماعية التي يعيش بوصفه أحد أفرادها[١] • من ذلك قول المتنبي نفسه[٢]:

إذا تَرحَّلتَ عن قومٍ وقد قدَروا ... أن لا تفارِقَهم فالراحلون هُمُ

فهو يرى أن الناس أو المجتمع هم الغريبون أو المغتربون عنه ، كما يحس هو بالغربة بينهم •

وأرى أن لا نغفل ــ فضلا عما ذكرنا ــ تميز المتنبي ببعض من الصفات الخلقية التي ما كانت لتتناسب وظروف عصره ، أو أخلاق الغالب من أبناء عصره ، مما زاد من إحساسه ببعده عنهم أو بعدهم عنه • ولعل من أبرز هذه الصفات ما أعلن عنه من عفته وترفعه عن الدنايا ((وتنزهه عما لا يليق بالرجل العظيم • وفخر بذلك في شعره على خلاف جمهرة الشعراء في عصره))[٣]، يقول[٤]:

وما كلُّ من يهوى يَعِفُّ إذا خلا ... عَفافي ويُرضي الحبَّ والخيلُ تلتقي

كما ربأ بنفسه عن التغزل بالغلمان غزلا فاحشا مثلما فعل كثير من شعراء عصره ، فهو يقول[٥]:

وأغْيَدُ يهوى نفسَهُ كلُّ عاقلٍ ... عفيفٍ ويهوى جسمَهُ كلُّ فاسقِ

ثمّ ان ما يهمه في الانسان جوهره لا شكله ، يقول في ذلك[٦]:

يُحبُّ العاقلون على التصافي ... وحبُّ الجاهلين على الوسامِ

---

(١) ينظر : المصدر نفسه ١٠٠ــ١٠١ حيث قال شاخت ((وفي استخدام هيجل المتواتر للاصطلاح فان ما يوصف بأنه ((مغترب)) هو بصفة عامة ذلك الذي اصبح غريبا بالنسبة للفرد ، وعلى سبيل المثال فان البنية الاجتماعية هي التي يقال عنها أنها أصبحت ((مغتربة)) في ناظري الفرد حينما يكف الفرد عن مطابقة نفسه مع تلك البنية ، ومن ناحية أخرى فانه عادة ما يقال اليوم ان الفرد هو المغترب (عن شيء ما مثل البنية الاجتماعية) حينما يوجد نفس ذلك الافتقاد للوحدة ، وهاتان الطريقتان في الحديث هما على قدم المساواة في اتسامهما بالمنطق وهما أبعد ما تكونان عن التضارب فهما متكاملتان ٠٠)) وينظر: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا ١٩ــ٢١ •

(٢) التبيان ٣ : ٣٣/٢٢٢

(٣) ذكرى أبي الطيب بعد الف عام د • عبد الوهاب عزام ٢٠٢ ــ ٢٠٣ •

(٤) التبيان ٢ : ٨/١٥٢ وينظر ١ : ٤٥/٨ــ٩ و ١ : ٥٩/ ١ــ٣ •

(٥) نفسه ٢ : ٧/١٥٣ • (٦) نفسه ٤ : ١٠/٢٥٣ وينظر ٤ : ١٠/٢٥٢ •

ولأنه يحترم العقل ويعرف أهميته وقدره ، فقد أبى عليه الزلل وفقدان التوازن، لذلك أعلن عن رفضه شرب الخمر حين علم ما تصنعه بشاربها ؛ اذ شربها مرة نزولا عند رغبة بدر بن عمار ، فقال (١) :

وجدتُ المُدامةَ غلّابةً | تُهَيِّجُ للقلبِ أشواقَهُ
تُسيءُ من المرءِ تأديبَهُ | ولكنْ تُحَسِّنُ أخلاقَهُ
وأنفسُ ما للفتى لُبُّهُ | وذو اللُّبِّ يكره إنفاقَهُ
وقد متُّ أمسِ بها موتةً | ولا يشتهي الموتَ من ذاقَهُ

فالخمر تلين من عزيمته وتضعف من طموحه ، وهذا ما لا يتلاءم وما كان يعمر به صدره من آمال ومطامح ، قال (٢) :

لأحِبّتي أن يملأوا | بالصافياتِ الأكوبا
وعليهم أن يبذلوا | وعليَّ ألا أشربا
حتى تكونَ الباتراتُ المسمعاتِ فأطربا

ان لذته الحقيقية في سعيه الدؤوب حثيث الخطى نحو آماله وطموحاته ، حتى صرّح بكل عزم (٣) :

تركنا لأطرافِ القنا كلَّ شهوةٍ | فليس لنا إلاّ بهن لِعابُ

وقد بلغ من اعتزازه بهذه المثل الخلقية ، أنه لم يمدح الوزير المهلبي لما سمع ((من تماديه في السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه)) (٤) على الرغم مما كان سيحصل عليه فيما لو مدحه .

ثمّ انه وفيّ ، اذا ما قوبل بالحب وصدق العودة ، حتى قال (٥) :

خُلِقتُ ألوفا لو رحلتُ إلى الصِبا | لفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكيا

ويتضح وفاؤه جليا ، اذا ما قرأنا شعره الذى يستعطف فيه سيف الدولة على بني كلاب ، الذين عاش بينهم فترة من الزمن ، وذلك حين ثاروا على سيف الدولة (٦) . بل

---

(١) التبيان ٢ : ١٥٧ / ١–٤ .
(٢) نفسه ١ : ٢١ / ١ – ٣ .
(٣) نفسه ١ : ٣٦ / ١٦ .
(٤) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٥ وينظر خزانة الأدب ٢ / ٣٥٥ .
(٥) التبيان ٤ : ٢٨٥ / ١٢ .
(٦) ينظر : التبيان ١ : ١٧ / الابيات و ٢ : ١٠٠٤ / الأبيات .

ان كلماته لتنبض بالحنين الى سيف الدولة نفسه ، كلما عنت له ذكراه ، مذ فارقه وحتى مقتله ، على الرغم من كل ما شاب العلاقة بينهما[١] . ((واذا ما قرأنا رثاءه لفاتك بعد مغادرته لمصر وجدنا رثاء صادقا حارا لم يملّه الا الوفاء والاخلاص لاسيما وان احدى مراثيه له قالها بعد وفاته بسنتين وبعد أن انقطع أمله في الرجاء))[٢] .

ومن ذلك أيضا ((صراحته ونفوره من التكلف حتى فضل البداوة على الحضارة بأن حسنها طبيعي))[٣] قال[٤]:

حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ　　　وفي البداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ

حتى انه يعد خضاب الشيب من المواربة والكذب . قال[٥] :

ومِن هوىً كلِّ مَن ليست مموهــةً　　　تركتُ لونَ مشيبي غيرَ مخضــوبِ
ومِن هوى الصدقِ في قولي وعادتِهِ　　　رغبتُ عن شَعَرٍ في الوجهِ مكذوبِ

ومن أبرز مزاياه الأخرى ــ فضلا عما مر من صفات خلقية ــ موهبة شعرية فذة ، عززتها وقوتها ثقافة واسعة غزيرة[٦] ، حتى قيل ((وعمقت هذه المنزلة العظيمة التي وصل اليها في علمه وأدبه احساسه بنفسه ورؤيته لذاته ، وقوت من اعتداده وثقته بمقدرته الفنية . فامتلأت نفسه تيها وكبرياء))[٧] . قال مخاطبا سيف الدولة[٨]:

أجِزْني إذا أُنشدتَ شعرا فإنما　　　بشِعري أتاك المادِحون مُرَدَّدا

---

(١) ينظر : نفسه ١ : ١٨/٢٩ــ٣٨ و ١ : ١٩/١ الأبيات و ٣ : ١٩٢/١ الأبيات و ٤ : ٢٥٢/١ــ٦ .

(٢) لغة الحب في شعر المتنبي د . عبد الفتاح صالح نافع ٦٨ وينظر التبيان ٢ : ١٤٣/١ الأبيات و ٤ : ٢٥٦/١ الأبيات و ٤ : ٢٥٧/١٧ــ٢٠ .

(٣) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٢٠٤ .

(٤) التبيان ١ : ٣٤/١٢ .

(٥) التبيان ١ : ٣٤/١٦ــ١٧ وفي العرف (٢/٤٨٢) .. شعر في الرأس ..

(٦) للاطلاع على مدى ثقافة المتنبي ينظر : الواضح ٦ وخزانة الأدب ٢/٣٤٧ ويتيمة الدهر ١/١١٢ والصبح المنبي ٢٠ــ٢١ و٤٣ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٢٠ وثقافة المتنبي وأثرها في شعره د . درويش الجندي مجلة كلية اللغة العربية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية العدد السابع ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م ص ٢٨٩ ــ ٢٩٩ وثقافة المتنبي وأثرها في شعره هدى الأرناؤوطي .

(٧) لغة الحب في شعر المتنبي ٢٣ .

(٨) التبيان ١ : ٣٨/٦٠ وتنظر بقية القصيدة .

فالشعراء يأخذون معانيه وينسبونها لأنفسهم عسى أن ينالوا هبات الممدوح وعطاياه من دونه •

ومن فخره بنفسه كذلك قوله ، مضفيا على نفسه صفات الكرم والحلم والشجاعة والتفوق [(١)] :

أنا تربُ الندى وربُّ القوافي وسِمامُ العِدا وغيظُ الحسودِ

وهكذا تضاف الموهبة الشعرية المتميزة والثقافة الواسعة ، الى الأخلاق المثالية التي نادى بها ودعا اليها من حيث رأى افتقاد الناس اليها ، لينتج عن ذلك سبب جديد يزيد من ابتعاده عن الآخرين من حوله وانفصاله عنهم ألا وهو إحساسه بقوة شخصيته المفعم باعتزاز بالنفس وثقة بها ، فهو الذى جلس ممدوحه ــ طاهر بن الحسين ــ بين يديه [(٢)] ، وهو الذى اشترط على سيف الدولة ألا ينشده شعرا ((الا قاعدا وعلى الوحدة ، فاستجهلوه وأجابوه اليه فلما سمع سيف الدولة شعره حكم له بالفضل وعد ما طلبه استحقاقا)) [(٣)] • وهو الذى كان ((يقف بين يدى كافور وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق)) [(٤)] • فضلا عن امتناعه عن مدح الوزير المهلبي [(٥)] ، وعن زيارة الصاحب بن عباد [(٦)] • ولا شك أن كل هذا لم يكن الا إدراكا منه لقيمة نفسه وفنه الذى سعى اليه كبار رجال الدولة العربية والاسلامية •

انّ ذلك مما جعله يأبى على الشعراء غيره خنوعهم للممدوحين وتذللهم لهم ، فضلا عن شغلهم أنفسهم وفنهم بأمور يراها صغيرة ، تافهة ، لا طائل من ورائها الاّ العبث [(٧)] • لذلك كان يقسو عليهم بهجائه اذا ما تعرضوا له • من ذلك قوله [(٨)] :

---

(١) التبيان ١ : ٦٣ / ٣٥ وينظر ٣ : ٢٢٢ / ١٥ ــ ١٦ و٤ : ٢٦٤ / ١ ــ ٩ و ٢ : ١٥٥ / ١ ــ ٣ وغير ذلك كثير مما يمتلىء به الديوان •

(٢) ينظر : الصبح المنبي ٣٢٩ ــ ٣٣٠ •

(٣) الواضح ١٠ وينظر خزانة الأدب ٢ / ٣٥٠ •

(٤) وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ •

(٥) ينظر : الواضح ١٥ وخزانة الأدب ٢ / ٣٥٥ •

(٦) ينظر : الصبح المنبي ١٤٥ ــ ١٤٦ •

(٧) ينظر : غربة المتنبي ، احسان الملائكة ، مجلة الكتاب العدد الثاني السنة السادسة ١٩٧٢ ص ١٢٢ ــ ١٢٥ •

(٨) التبيان ٣ : ١٨٩ / ٢٥ ــ ٢٦ •

أفي كل يوم تحت ضبني شويعرٌ ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يُطاولُ
لساني بنطقي صامتٌ عنه عادلٌ وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازلُ

ليسهم ذلك في إحساسه بالتفرد والغربة بين الشعراء أنفسهم ، فضلا عن غيرهم من الناس •

وهكذا تضافرت كل هذه الأسباب ــ المارة الذكر ــ مجتمعة متكاملة ، على خلق هذا الشعور القوي والمتضخم لديه بالذات حد الغرور ، بوصفها بديلا أو تعويضا عن الآخرين الذين أحس بجفاف علاقته بهم ووهنها • فهو حين يقول[1] :

أنا في أمةٍ تداركها اللّهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

يدلنا ذلك على مدى وثاقة عرى ارتباط الـ (أنا) بإحساسه بالغربة عن هذا المجتمع • ومثل ذلك قوله[2] :

ما مُقامي بأرضِ نخلةَ إلاّ كمُقامِ المسيحِ بين اليهودِ

فانّ (ياء المتكلم) هنا ، هي الذات ، هي الوجه الآخر للـ (أنا) • هذا فضلا عما يشير اليه تشبيهه نفسه في هذين البيتين بنبيين هما صالح والمسيح عليهما السلام ، من أنه ((انما يعتبر رسالة الفن كرسالة النبوة تخدم كل منها الحياة البشرية من ناحيتها الخاصة بها • ومن أجل ذلك يجب تعظيمها وتعظيم صاحبها ، وأن يعطى حقه من الاجلال والاكبار))[3] ، الاّ أنه لم يجد في هذا المجتمع الاستعداد اللازم والكافي لفهم فحوى هذه الرسالة وتبين مضمونها •

انّ ذات المتنبي ما انفكت تسفر عن وجهها ، وعلى امتداد رحلته الشعرية • يقول الدكتور جلال الخياط ((وتعزله غربته عن الآخرين ، ويقع في وهدة الصلف والتعالي والتفاني في تثمين وتأكيد وتضخيم الذات ، واحتقار الناس ، وكأنه يرتفع بانخفاضهم وينتصر باندحارهم ، في معادلة غير متزنة ، ابتدعها الشاعر ولم يهنأ بها ، ولم تمده غربته بمشاركة في عطاء يرفد بالخير ، ينقذه من ذاته ويخرجه عنها قليلا ، وظل وحيدا نائيا بنفسه عن المجموع ، معتزا بتفرده وعالمه الخاص))[4] • يقول في ذلك ، مشبها

---

(١) . التبيان ١ : ٣٦/٦٣ • (٢) نفسه ١ : ١٨/٦٣ •
(٣) جنون العظمة في المتنبي فضيلة خلقية طاهر الطناحي ، مجلة الهلال العدد الخاص المتنبي أول أغسطس ١٩٣٥ ص ١١٨٣ •
(٤) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ٩٩ــ ١٠٠ •

نفسه بين الناس بالذهب في وسط التراب (١) :

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ — وإن كانت لهم جثثٌ ضِخامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم — ولكنْ مَعدِنُ الذهبِ الرَّغامُ

واذا ما ذكر أسباب ابتعاده عن الناس من حوله ، قال (٢) :

إذا ما الناسُ جرّبهمْ لبيبٌ — فإني قد أكلتُهمُ وذاقا
فلم أرَ وُدَّهمْ إلاّ خِداعاً — ولم أرَ دينَهمْ إلاّ نِفاقا

وليس الخداع في إعلان الود ، والنفاق في إظهار التدين هما السبب فحسب ، وانما هناك أسباب أخر منها (٣) :

ساداتُ كلِ أُناسٍ من نفوسِهمُ — وسادةُ المسلمين الأعبُدُ القَزَمُ
أغايةُ الدينِ أن تُحْفوا شوارِبَكمْ — يا أمةً ضحكتْ من جهلِها الأُممُ

فهؤلاء الناس يأخذون بتوافه الأمور ويشغلون أنفسهم بها ، بدلا من أن يحاولوا التخلص من ربقة العبودية لعبد قزم وما تجره عليهم من خسف وهوان • وبهذا تعيش ذات المتنبي في ((معمعة المجتمع الصاخب الذى تداخل بعناصره الوافدة : وتجزأ الى ((ولايات)) يصبح ((العربي)) مواطنا من الدرجة المحكومة : ليكتسب الاغتراب الاجتماعي فحواه : أخذ الناس بفعل التحول الاجتماعي ، ينتمون الى ((السوق)) أكثر مما ينتمون الى ((المجد)) الذى كان يبني خيمته في صحرائهم في هذا الخضم بدأت ((الأنا)) وهي تحل نزوعها الطبيعي ، تنتقل الى التجربة الحية ، وتعيش حلاوة النصر ، ومرارة النكوص))(٤) •

وهكذا فانّ بروز ذات المتنبي الدائم هو دليل على شعلتها المتقدة دائما بما يؤكد وفرة العناصر الدائمة الاحتراق فيها • ولعل المتنبي أراد من خلالها أن يحول تجربته الذاتية الى تجربة عامة، وأن يرفع من مستواها الشخصي الى المستوى الانساني الذى لا يتحدد بزمان أو مكان • فضلا عن أن في تقاليد الشعر العربي ما يسمح بظهور الشاعر وبروزه في شعره والاّ لضاع الشاعر واختلط أمر الشعر على رواته • ثمّ اننا قد نجد

---

(١) التبيان ٤ : ٢٣٩ / ٢_٣ •
(٢) نفسه ٢ : ١٥١ / ٣٦ _ ٣٧ •
(٣) نفسه ٤ : ٢٥٤ / ٣_٤ وينظر ٤ : ٢٣٨ / ١ _ ٥ •
(٤) محاولة للتقرب من ((أنا)) المتنبي د • مالك المطلبي، جريدة الجمهورية ١٦ أيلول ١٩٨٦ ص ٥ •

في طبيعة حياة المتنبي الصحراوية وميله الشخصي الى التبدى ما يدعوه الى تثبيت قدميه في الرمال، والنظر الى نفسه بوصفها نقطة ارتكاز تحسب حولها الأبعاد[١] • أفليس هو القائل[٢] :

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ

ما من ريب في أن الإحساس بالغربة ـ بصرف النظر عن أسبابه ـ شيء ممض ومقلق ، لذلك حاول المتنبي مرارا أن يخلق نوعا من التواصل مع المجتمع من حوله بغية تحقيق قدر من الموازنة بين الواقع ونفسه القلقة المتوجهة التي كانت ـ لا بدّ ـ تكسره أحيانا ذلك الشعور المخيف بالوحدة والعزلة ، فضلا عمّا ضجت به من آمال ومطامح لا سبيل الى تحقيقها الا بالتوسل بالآخرين • فبوسع الغريب (أو المغترب) أن يقوم ، أو قل يحاول القيام ، بتوحيد نفسه مع البنية الاجتماعية من خلال الاغتراب عن ذاته والانفصال عنها ، بمعنى أن يتنازل عن مواقفه من المجتمع من حوله ويتخلى عن نظرته اليه ويسلم بما يرى هذا المجتمع عليه مما يرفضه ولا يقبل به[٣] •

بدءا ، أراد المتنبي الاتصال بالناس بوساطة ما دعا اليه أو عمل من أجله في بادية الشام ، بغض النظر عن طبيعته[٤] ، قال في ذلك[٥] :

ذكرتُ جسيمَ ما طلبي وأنّا نُخاطِرُ فيه بالمُهَجِ الجِسامِ
أمثلي تأخذُ النكباتُ منه ويجزَعُ من مُلاقاةِ الحِمامِ

لكن هذه الدعوة انتهت به الى السجن ، مما أدى الى أن تنقلب الغاية التي كان يتوخاها من تلك المحاولة رأسا على عقب ، بمعنى أن ما تأمل أن تكون نتيجته اتصالا أصبح تعميقا لهوة الانفصال • وبعد أن أعلن عن تحديه للنكبات صار يشكو الحبس[٦] • واذا ما قرأنا قصيدته التي أولها[٧] :

---

(١) ينظر : المتنبي والنفس د •علي كمال، مجلة آفاق عربية السنة الثالثة العدد ٤ كانون الأول ١٩٧٧ ص ٢٢ ـ ٢٤ •
(٢) التبيان ٣ : ٢٢/٢٢٢ والبيت في العرف (٢/٣٤٣):
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
(٣) ينظر ما قيل حول هذا الضرب من الاغتراب في الاغتراب ١٠٥ـ١٠٧ •
(٤) للاطلاع على ما قيل حول هذه الدعوة أو الحركة ينظر: المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٣٢٩ ـ ٣٤١ وأضواء جديدة على نبوة المتنبي د •حسام الآلوسي، مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد ـ العدد العاشر نيسان ١٩٦٧ ص ٢٢٣ ـ ٢٨٠ والمحصول الفكري للمتنبي ٣٥ ـ ٤٢ •
(٥) التبيان ٤ : ٢/٢٢٤ـ٣ •
(٦) ينظر : الصبح المنبي ٥٩ـ٦٢ والعرف الطيب ١/٤٦ـ٤٧ •
(٧) التبيان ١ : ٦٦/ الأبيات •

أيا خَدَّدَ اللهُ وردَ الخدودِ وقَدَّ قدودَ الحِسانِ القُدودِ

التي كتبها الى الوالي وهو في الاعتقال نسمع فيها مزيجا من نبرتين : الأولى يتضح فيها الشكوى والألم والاستعطاف ، والثانية يتجلى فيها التحدى والصلابة والغضب • ((ان حادث سجنه •• كان جرحا عميقا في نفسه الا أنه لم يفقده كل اراد ته ، ولم ينسه كبرياءه)) [1] •

ان تجربة السجن إن لم تفت في عضد المتنبي ، فانها جعلته يدرك أن لا بدّ له من سلوك سبيل آخر قد تكون نتائجه بعيدة الا أنها أضمن تحقيقا وأدعى لسلامته • ومن هنا كان مديحه الأمراء والشيوخ علّه ينال عن طريقهم شيئا مما يرنو اليه • فان لم يستطع جمع الناس من حوله لصغر سنه وقلة إمكاناته ، فليحاول أن يتقرب هو اليهم متوسلا بفنه •

وبينما كانت بالمتنبي حاجة ماسة الى الاتصال بالمجتمع ، حدث له ما أقض مضجعه وترك في نفسه أثرا موءلما طوى عليه جوانحه ، لقد مني بموت جدته ، آخر سند معنوى له ((فعصف الألم بقلبه وغمرت الأحزان نفسه وبدا له أن كل ما في هذه الدنيا يتآمر ضده ويسعى للنيل منه ، فسيطر عليه شعور بالمرارة والحقد والتشاؤم ففاضت نفسه تعبر عن كل هذه المشاعر وعن نظرته للوجود والحياة في حكم خالدة نابعة من معاناته وشقائه)) [2] وذلك في قصيدته التي رثاها بها [3] :

ألا لا أُري الاحداثَ حمدا ولا ذما فما بطشُها جهلا ولا كفُّها حِلما

الا أننا على الرغم من ذلك كنا نتوقع منه حزنا أكبر من هذا الذى عبر عنه في هذه القصيدة ، وذلك لما كنا نحسه من خصوصية علاقته بجدته بما تمثله من رمز بالنسبة اليه • ولعل ما تغنى به من شدة عزمه ، فضلا عن التهديد والوعيد مما جاء في قصيدته هذه ــ بعد أن أعلن عن حزنه لفقده اياها ــ من مثل قوله [4] :

وإني لمن قومٍ كأن نفوسَنا بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظْما
كذا أنا يا دنيا إذا شئتِ فاذهبي ويا نفسُ زيدي في كرائهها قُدْما
فلا عَبَرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزني ولا صَحِبتني مهجةٌ تقبلُ الظُلْما

---

(١) أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره ٥٣ •
(٢) لغــة الحب في شعر المتنبي ٣٢ •
(٣) التبيـان ٤ : ١/٢٤٤ •
(٤) نفســه ٤ : ٣٢/٢٤٤ ــ ٣٤•

كان يقصد من خلاله الإشارة الى أن موت جدته ، إن أحدث شرخا في نفسه ، فان جذوة آماله لن تخبو وألق طموحه لن ينطفىء فهو[١] :

تَغَرَّبَ لا مُستعظِما غيرَ نفسِهِ ولا قابلا إلا لخالقه حُكْما
ولا سالكا إلا فؤادَ عَجاجةٍ ولا واجدا إلاّ لمَكْرُمةٍ طَعْما

ما انفك المتنبي يحاول الهرب من إحساسه المؤلم بالغربة ، وأنى له ذلك وأسباب الغربة ومسوغاتها تحيط به من كل جانب ،فارضة عليه نفسها • انه لا يستطيع حتى التقليل من حدة هذا الإحساس المقلق، لذلك كان يشد رحاله متنقلا في أرجاء الشام عسى أن يعثر على من يأخذ بيده ، فيقضي على غربته أو يخفف منها • ولعل أبرز أمل لاح أمام ناظريه هو ما رآه في سيف الدولة من مرآة (أناه) فضلا عما وجده من صورة مطامحه التي تمور بين جوانحه ماثلة في رحابه[٢] • ومن هنا كان كل ذلك الشعر الذى مدحه به ، وتلك السمات التي وصفه بها ، حتى رسم منه وله صورة الفارس — المثال التي وقرت في نفسه وفكره[٣] • ولقد صدق المتنبي حين عبر عن طول انتظاره لمن يستطيع انتشاله من وحدته وتغربه ، حتى عثر على سيف الدولة بعد بحث شاق مضن دام أربعة وثلاثين عاما بقوله[٤] :

سلكتُ صروفَ الدهرِ حتى لقيتُهُ على ظهرِ عزمٍ مؤيَّداتٍ قوائمُهْ
مهالكَ لم تصحبْ بها الذئبَ نفسُهُ ولا حَملتْ فيها الغرابَ قوادِمُهْ

لقد أحس المتنبي عند سيف الدولة بالاستقرار المادى والمعنوى ، وشعر بخفوت الإحساس بالوحدة والتغرب ، فألقى عصا ترحاله في حلب • قال[٥] :

وقيدتُ نفسي في ذَراكَ محبــةً ومن وجدَ الإحسانَ قيدا تقيّدا

انّ هذا الاطمئنان الذى غمر نفس المتنبي في كنف سيف الدولة ، كان لا محالة من أن ينعكس في فنه • من ذلك ما أشار اليه هادى الخفاجي بقوله ((لقد وردت (أنا) في تسعة وخمسين بيتا ، ووردت (نحن) في اثني عشر بيتا ، والفترة التي قلّ فيها نسبيا استخدامه للضمير (أنا) وكثر نسبيا استعماله للضمير (نحن) ، هي فترة اتصاله بسيف الدولة الحمداني ، وأظنها الفترة الوحيدة التي طالت شيئا ما وشعر فيها المتنبي

---

(١) التبيان ٤ : ٢٤٤/ ٢٤ ـ ٢٥ •
(٢) ينظر : محاولة للتقرب من ((أنا)) المتنبي ٥ والصورة المجازية في شعر المتنبي ١٤٤
(٣) تنظر مدائحه اياه في سيفياته التي تحتل قرابة ثلث حجم ديوانه •
(٤) التبيان ٣ : ٢١٨/ ٣٢ ـ ٣٣ •
(٥) التبيان ١ : ٦٠/ ٤١ •

أنه عضو في ((مجموع)) • ويكفي أن نعلم أنه ذكر (نحن) في ستة أبيات من مجموع الاثني عشر بيتا أيامه عند سيف الدولة ، وهي نسبة جد عالية اذا علمنا أن مدة بقائه في جوار الحمدانيين تسع سنوات ، انها لم تكن كلها بردا وسلاما على أبي الطيب))(١)

لقد ذاب المتنبي في سيف الدولة ، وصار كل منهما يكمل الآخر فأنتجا صورة رائعة لاتحاد السيف بالقلم • واذ تكاد غربة المتنبي ((تختفي رغم الحساد والكائدين ، ويكاد ينسى اقتلاعه وهو ينغرس في أرض يريد أن يضرب جذوره فيها • غير أن غربته النفسية كانت ألح عليه مما تظن ، وتعسف الواقع أكبر من أن يرضى به ، فيعود ويقتلع من جديد))(٢)•

ان قصيدة المتنبي (٣) :

واحَرَّ قلباه مِمَّنْ قلبهُ شَبِمُ ... ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

كانت البيان الأول الذي أعلن بدء تزعزع الاستقرار ، والناقوس الذي دق إشارة الخطر • ففيها العتاب(٤):

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتي ... فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ

أُعيذُها نَظَراتٍ منكَ صادقةً ... أن تَحسبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ

وفيها اللوم (٥) :

ما كان أخلقَنا منكم بتكرِمةٍ ... لو أن أمرَكُم من أمرِنا أَمَمُ

وفيها التحدي الذي تفوح منه رائحة الغضب (٦) :

ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفي ... أنا الثُريا وذانِ الشيبُ والهَرَمُ

وفيها الألم الممزوج بالحب (٧) :

هذا عتابُكَ إلا أنه مِقَةٌ ... قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ

لم يقل المتنبي هذه القصيدة الا حين أحس بتغير سيف الدولة عليه ، فأطلقها صرخة مدوية أعلنت بداية النهاية • ومع أن المتنبي بقي في كنف سيف الدولة بعد

---

(١) ظاهرتا الـ (أنا) والـ (نحن) في شعر المتنبي ٥٦ •
(٢) ينظر : المتنبي وشعره ، التناقض والحل جبرا ابراهيم جبرا مجلة آفاق عربية ، السنة الثالثة العدد ٤ كانون الأول ١٩٧٧ ص ٢٩ •
(٣) التبيان ٣ : ١/٢٢٢ (٤) نفسه ٣ : ١٢/٢٢٢ـ١٣ •
(٥) التبيان ٣ : ٢٥/٢٢٢ (٦) نفسه ٣ : ٢٩/٢٢٢ فضلا عن ابيات الفخر •
(٧) نفسه ٣ : ٣٧/٢٢٢ •

إنشاده هذه القصيدة حوالي أربع سنين ، مدحه خلالها بمجموعة من أفضل قصائده ، فان الفراق قد وقع لا محالة • وعاد المتنبي الى شعوره المضني بالغربة التي تتخذ بعد هذا الفراق ((لونها الحاد ، وتطلق صوتها الذي يتراوح بين الأنين والغضب • • بين الاعياء والتجلد • ولكن الأنين يبقى هو الأعلى ، وتبقى الستائر التي تحاول اخفاءه بشتى الوسائل زجاجا شفافا أو غطاء مهلهلا))[1] . رحل المتنبي عن سيف الدولة والألم يعصف بقلبه والأحزان تغمر نفسه ، فلقد قالها من قبل مخاطبا سيف الدولة نفسه[2] :

يامَن يعِزُّ علينا أن نفارقَهُمْ	وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكُمْ عدَمُ

ان ما كان يملأ نفس المتنبي من ألم ويأس وغضب إبان خروجه من حلب ، ألجأه الى مصر حيث كافور الأخشيدي عسى أن يرد اعتباره عنده ، ويثبت لسيف الدولة وحاشيته ان حياته ليست مرهونة بهم فقد يحصل على ما يريد عند غيرهم ، بل عند أحد منافسيهم • ولعله أراد في الوقت نفسه أن يعوض ما خسره بافتراقه عن سيف الدولة • ولمّا لم يكن في كافور ما يجعله مثالا في نظره يحقق من خلاله ذاته ، فانه طلب منه أن يوليه عملا من أعماله ، قد يقدر بوساطته أن يعالج غربته التي زادت إحساسه بالألم بعد أن كادت تتلاشى في ظل سيف الدولة • قال مخاطبا كافور ، وفي أول قصيدة له فيه[3] :

وغيرُ كثير أن يزورَك راجِلٌ	فيرجعَ مُلْكًا للعِراقيْن واليا
فقد تَهَبُ الجيشَ الذي جاء غازيا	لسائِلك الفردِ الذي جاء عافيا

ولا ينفي يكرر هذا الطلب ويعيده مرة تلو أخرى ، وبأسلوب مباشر وغير مباشر ، حتى وصل به الى حد الاستجداء[4] • وكأني به رأى أن غايته من وراء ذلك تسوغ له الوسيلة التي توسل بها اليها ، فجرح تجربته مع سيف الدولة أعمق غورا وأكبر من أن يندمل • وما كان ليصير كذلك لولا أنه أحب سيف الدولة بصدق وإخلاص ، يتضح في كل ما قاله فيه أو عرض به في قصائده في كافور[5] •

ويسقط في يدي المتنبي ، فلا ولاية بل ولا أية وسيلة من وسائل الحكم يحظى بها ، فتتفجر كل مشاعر الغربة والألم والفشل والضعف ، التي زاد من وطأتها المرض ، في

---

(١) المتنبي بين البطولة والاغتراب محمد شرارة ٣٩ •
(٢) التبيان ٣ : ٢٤/٢٢٢ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٨٥/٣١ـ٣٢ •
(٤) ينظر التبيان ١ : ٥/٢٣ـ٢٤ و ١ : ٣٤/٣٢ و ١ : ٣٥/٢٢ـ٢٤ و ١ : ٣٦/ ٣٤ـ٣٧ و ٢ : ٨٤/٣٨ ـ ٤٨ و ٤ : ٢٥٢/ ٣٨ـ٤١ و ٤ : ٢٧٣/٢٣ـ٢٥ •
(٥) ينظر التبيان ١ : ٣٥/١ـ٤ و ٤ : ٢٥٢/١ـ٧ و ٤ : ٢٧٣/١ـ٢٢ و ٤ : ٢٨٥/ ٦ـ١٢ •

قصيدة (الحمى)[١] . فكيف بمريض وحيد محبط حزين ؟ ان هذه الحال التي وصل اليها ، أثارت في نفسه تداعيات شتى حاول بها أن يهرب من واقعه المزرى هذا ، فقال[٢] — مما قال — :

ذراني والفلاةَ بلا دليلٍ ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ
فإني أستريحُ بذا وهذا وأتعبُ بالإناخةِ والمُقامِ ...

فهو رحالة ألف ترحله ، لا يعرف في القعود راحة ولا لذة ، لأنّ ما يسعى الى تحقيقه ، متحملا دونه المشاق، هو مبعث راحته ومنبع لذته .

واذا كنت عرضت لقصيدة (الحمى) أولا لما تحمله من خصوصية تمثلت في تعبيرها عن حالة من أصعب حالات المتنبي — ان لم تكن أصعبها — في مصر — فضلا عن غيرها — ، فان قصيدته[٣] :

بمَ التعلّلُ لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ

هي أيضا قصيدة غربة يلفها الغضب ، اذ قالها ردا على ما سمعه من أن قوما نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب ، فانتفض يعلن عن وجوده . قال فيها[٤] :

يا مَن نُعيتُ على بعدٍ بمجلسهِ كلٌّ بما زعم الناعون مُرتَهَنُ
كم قد قُتِلتُ وكم قد مِتُّ عندكمُ ثمّ انتفضتُ فزال القبرُ والكفنُ

ولكنه غضب غريب وحيد لا سند له يأخذ بيده حتى يرد على أمثال هؤلاء ، فليس له — والحال هذه — الاّ الشعر يفرغ فيه طاقته النفسية المفعمة بالحزن والألم والوحدة .

وتلوح بارقة أمل في عيني المتنبي حين التقى أبا شجاع فاتكا في مصر . قال[٥] :

لا خيلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ فلْيُسْعِدِ النطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ
واجْزِ الأميرَ الذي نُعماهُ فاجئةٌ بغيرِ قولٍ ونُعمى الناسِ أقوالُ

ولكن سرعان ما يخبو ما برق ، اذ يموت فاتك ولا يستطيع المتنبي حينذاك الاّ أن يتساءل متألما[٦] :

---

(١) التبيان ٤ : ٢٥٢ / الأبيات .
(٢) التبيان ٤ : ٢٥٣ / ٢—٣ وتنظر بقية الأبيات .
(٣) نفسه ٤ : ٢٧٢ / الأبيات .
(٤) و (٥) و(٦) نفسه : ٤ : ٢٧٢ / ٩—١٠ و ٣ : ٢١٥ / ١—٢ و ٢ : ١٤٣ / ٢٩ .

أيموتُ مثلُ أبي شجاعٍ فاتـكٍ ويعيشُ حاسِدُهُ الخَصِيُّ الأوكَعُ

ولعل موت فاتك كان أحد الأسباب التي حملت المتنبي على الفرار من مصـر ، بل ربما كان الحدث الأخير الذى انتزع من المتنبي قراره في الفرار(١).

وبينما يغادر المتنبي مصر هاربا ، يقول قصيدته(٢):

عيـدٌ بأيةِ حالٍ عُدْتَ ياعيـدُ بما مضىٰ أم بأمرٍ فيكَ تجديـدُ

ليقذف من خلالها في وجه كافور كل أحقاد نفسه ((أحقاده على سيف الدولة ، وعلى الذين وتروه بحظوته في بلاطه ، أحقاده على سائر الأمراء والملوك الذين هـم أحق بضرب السيف من وثن ، أحقاده على الحياة الغبية التي ترفع الذليل وتخفض بالأبي ، وأحقاد نفسه على نفسه))(٣).

لقد أثار العيد ــ بما يمثله ويعبر عنه ــ في نفس المتنبي الكثير من الأفكـار والمشاعر والتداعيات : العلى ، البيداء ، الناقة ، الفرس ، الأحبة ، الغيد الأماليد ، القلب ، الخمر ٠٠٠ لتتجمع معاني هذه الرموز ودلالاتها وتنطلق حمما بركانية تجسد ضحيتها في كافور ، المهجو في هذه القصيدة ٠ ان ((هذه القطعة الوجدانية تختصر حياة نفس كاملة ٠ فبعد العتو والتجبر والطموح الذى لا يحد ، والعالم الملحمي الذى أقامه المتنبي في حياته وشعره ، يرى نفسه وجها لوجه أمام مأساته))(٤).

وهكذا ينتهي المتنبي بعد تجربته مع كافور الى اليأس من الاتصال الصميمـي بالآخرين من حوله ، فقد فشلت كل مساعيه نحو هذه الغاية على الرغم مما تعنيـه ــ فيما لو تحققت ــ من تخليه عن ذاته التي يعتز بها ، فآثر أن يتمسك بما بقي من اعتزازه بذاته ويذر مثل هذه المحاولات المهينة المذلة ، فأهون عليه أن يعيش غريبا بيـن الناس من أن يتمادى في العيش بعيدا عن ذاته ، أفلم يقل(٥):

خليلُكَ أنت لا مَنْ قلتَ خِلّـي وإنْ كَثُرَ التجَمُّلُ والكـلامُ

حتى ان باحثين وعلماء مثل هيجل وروسو يعارضون بشدة محاولة الفرد الغريب أو المغترب الاتصال بالمجتمع (البنية الاجتماعية) ، اذا ما أسفر ذلك عن الخضـوع

---

(٢) يُنظـر: أبو الطيب المتنبي دراسة في التأريخ الادبي د ٠ ريجيس بلاشـير ٣٠٤ ــ ٣٠٥ ، وكافوريات أبي الطيب دراسة نصية د ٠ النعمان القاضي ٢٠٣ ٠
(٢) التبيان ٢ : ٨٦ / الابيات ٠
(٣) نماذج في النقد الادبي وتحليل النصوص ايليا الحاوى ٢١٨ ٠
(٤) المتنبي شاعر الشخصية القوية جورج عبدو معتوق ٨٧ ٠
(٥) التبيان ٤ : ٢٣٩ / ٧ ٠

الكامل للآخرين والاعتماد التام عليهم بما يعنيه من إلغاء الذات ومحوها (١) • وهذا ما فعله المتنبي الذى قال (٢) :

إذا صديقٌ نَكِرْتُ جانِبَهُ ... لم تُعْيِنِي في فِراقِهِ الحِيَلُ

فان أتى عليه حين من الدهر اضطر فيه أن يقدم بعض التنازلات ، فانه غير مستعد بل يرفض أن يسام الخسف ويكابد الذلة والهوان مهما كانت الأسباب • وليقرر بعد خروجه من مصر أن لا تتعدى صلته بالآخرين ، والممدوحين منهم بخاصة ،حدود العلاقة بين الشاعر والممدوح ، فيحصل منهم على أفضل ما يمكنه الحصول عليه من دون ارتباط جوهرى بهم ،متسلحا في أثناء ذلك بالتوجس والحذر ، وربما كان هذا من أسباب خفوت حدة جلجلة (أناه) بعد خروجه من مصر ، فضلا عما يكون من أثر التعب وتقدم السن واضطراب حالته النفسية •

وتبرز أبياته في شعب بوان ــ وهي تشكل أول جزء من احدى قصائده في مدح عضد الدولة ــ بوصفها أبياتا تنطق بالغربة ، من خلال ما أثار هذا الشعب الجميل في نفسه من مشاعر وأحاسيس وذكريات ، فهو يعلن عن غربته منذ البيت الثاني ، قال (٣) :

مغاني الشِّعْبِ طِيبا في المغاني ... بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

فان أراد بغربة الوجه سمرته وشقرة أهل الشعب أو أنه غريب عليهم لا يعرفونه ، وبغربة اليد أن سلاحه الرمح وسلاحهم القسي أو أنه لا ملك له في هذه الأماكن أو أن كتابته عربية وكتابتهم فهلوية أو أنه صاحب أسلحة الحرب وهم سوقة مشغولون بالمكاسب ، وبغربة اللسان عربيته وأعجميتهم (٤) فان هذه الجوارح ثلاثتها ، وبكل ما يمكن أن ترمز اليه أو توحي به ، تعبر مجتمعة عن حقيقة ما يعترى نفس هذا الفتى العربي من غربة تتجلى في تعامله مع أهل هذا المكان ،هذا التعامل الذى تتحكم فيه ــ لا بدّ ــ هذه الجوارح الثلاث • فهي أولى الوسائل وأهمها في اتصال أى انسان بأى مجتمع •

ثمّ يقول (٥) :

ولو كانَتْ دِمشقَ ثَنَى عِناني ... لبيقُ الثَّرْدِ صينيُّ الجِفانِ •••

---

(١) ينظر : الاغتراب ١٠٧ •
(٢) التبيان ٣ : ٢٠٢/٩ وينظر ٤ : ٢٥٢ / ٢ـ٣ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٧٨/١ـ٢ •
(٤) ينظر التبيان ٤ / ٢٥١ـ٢٥٢ ،والعرف الطيب ٢ / ٥٩٠ ،والتطلع القومي عند المتنبي جاسم محسن عبود ١١٥ـ١١٦ •
(٥) التبيان ٤ : ٢٧٨/١٠ •

أي ((لو كانت هذه الرياض غوطة دمشق لكان وكان .... وفي لو ههنا معنى من معاني التمني البعيد ... ليت أن غوطة دمشق كانت هكذا أمنا وخفضا واذن ما كنت أغادرها وأضطر لان أكون غريب الوجه واليد واللسان .... ودمشق ههنا انما هي رمز للشام كله ، ولما كان فيه من عهد سيف الدولة وحلب والعراق جميعا))[1] . هي الماضي والأمل ، هي الانتماء والبعد الحضاري .

أما قوله[2] ـ في القصيدة عينها ـ

يقولُ بشعْبِ بوّانٍ حصاني　　أعَنْ هذا يُسارُ إلى الطِعانِ
أبوكُمْ آدمُ سَنَّ المعاصي　　وعلّمَكمْ مُفارقةَ الجِنانِ

فاننا نرى فيه بداية ابتعاد عن الحرب والمطامع ، ولعله ، لو امتدت الحياة [redacted] ، كان سيتحول الى اغتراب عنها . وربما جاءت دعوته الى السلام ونبذ الطعان هذه ، نتيجة أفضى اليها ما عاناه من مصاعب وانتكاسات أتعبته نفسا وجسدا ، فضلا عن إحساسه بتقدم العمر ، اذ لم تبقه الأيام على ما كان عليه من شباب وفتوة من قبل .

ان هذه الأبيات من القصيدة هي المدخل المؤدي الى إدراك إحساس المتنبي بالغربة آنذاك ، ـ وفي ذلك المكان ـ فضلا عما تشير اليه من أن غربته النفسية ههنا قد عمقتها وزادت من مكابدته لها غربته المكانية[3] .

لقد حاول المتنبي جهده أن يهرب من غربته ، لكنها كانت تطارده دائما ، فلم يقر له قرار نفسي ولا جسدي . ومع ذلك فانه كان يحمل معه ـ دائما ـ ((طموحه غير المحدود ، ويعتمد في تحقيقه المال والسيف والشعر ، وتكدست الأموال ، ولم تجسد ، وتبددت في مقتله ، وكان للسيف عنده صولة وجولة ، ولكنه لا يخطي أبعاد ذلك الطموح وحده ، وبقي الشعر وأوقعه في اغتراب جديد وذل لدى الممدوحين وخضوع لأمزجتهم المختلفة))[4] ، وهم الذين قال فيهم[5] :

مدحتُ قوما وإن عشنا نظمتُ لهم　　قصائدا من إناثِ الخيلِ والحُصُنِ

ان ثنائية الغربة والطموح ، ان حلت في صدر انسان هوت به الى مشاعر مؤلمة وأحاسيس قاسية تأكل من روحه كما تنخر في جسده . اذ كيف يحقق شخص ما طموحه وهو غريب عن الناس ؟ بخاصة اذا كان كل ما يطمح اليه الانسان مرهون تحقيقه ومرتبط

---

(١) الطبيعة عند المتنبي د . عبد الله الطيب ٨١ .
(٢) التبيان ٤ : ٢٧٨/١٧ـ١٨ .
(٣) ينظر : الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٩٥ـ١٩٨ .
(٤) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ١٠٠ .
(٥) التبيان ٤ : ٢٦٩/١٧ .

استمراره ــ لو تحقق ــ بالآخرين • فان داس الانسان على نفسه وضغط على مشاعره وأفكاره وحاول الاتصال بالآخرين ، فكيف يستطيع أن يتلاءم مع نفسه هو ؟ لأن الاتصال بالآخرين بعد غربة (أو اغتراب) عنهم يعني التخرب عن الذات ، التي لم تكن لتبتعد عن الآخرين لولا إحساسها بعدم إمكان التوافق معهم ــ لسبب أو لأسباب ما ــ ، فكيف يمكن أن تكون حياة الانسان ان هو انفصل عن نفسه ؟ لقد كان على المتنبي أن يحقق هذه المعادلة الصعبة ، وهذا محال • لهذا قضى حياته في دوامة من الحيرة والقلق • فلو كان الناس كما أرادهم أو تمناهم أن يكونوا لما عاش هذا الصراع القاسي مع نفسه ومع الآخرين ، ولتحققت كل أمنياته • يقول الدكتور جليل رشيد فالح حول هذا الموضوع ، وفي معرض تحليله لأبيات المتنبي (١) :

فؤادٌ ما تُسَلّيه المُدامُ وعُمْرٌ مثلُ ما تَهَبُ اللئامُ •••

((في هذه اللوحة يرسم لنا المتنبي ملامح غربته وهو يعايش الناس الذين يجدهم على غير ما تهوى نفسه ، ذلك أنه يبحث عن (المثال) ضمن اطار الواقع ، أي الناس الذين يجد نفسه فيهم ، فيتعاظم عنده الاحساس بالغربة ، اذ التكيف الاجتماعي متعذر عليه ، ولا طاقة له بالمغالطة والركون الى الواقع على مضض))(٢) • وان كنت أتفق مع الدكتور جليل رشيد الى حد كبير فيما ذهب اليه ههنا ، الا أن ثمة متسعا لمناقشته في قوله ((ولذلك ليس من التعسف القول ان الشاعر يخلق لنفسه حالة (الغربة) وذلك بالانسلاخ عن المجتمع الذي يعيش فيه ، لأنه يعده عقبة في سبيل تحقيق آماله ، وهو الوصول الى الواقع الذي يأتلف معه فكرا ووجدانا وهدفا ، اذن هي (غربة واعية) لا تزال جذورها مرتبطة بالواقع من أجل تغييره ــ وفق ما يؤمن به من مواصفات وتطورات ــ ، ولذلك فان هذا الخيار الواعي جعله وحيدا عن الخلان))(٣) • فأقول : إن الغربة شعور تحس به النفس حين تشعر بصعوبة تآلفها وانسجامها مع من حولها ــ لأي سبب كان ــ ، وعلى هذا فالشعور بالغربة لا يُخلق ــ كما ذهب الى ذلك الدكتور جليل رشيد ــ كما لا يستطيع الانسان أن يجبر نفسه على أن يحزن أو يفرح • واذا ما افترضنا إمكان حصول ذلك ــ على سبيل الجدل ــ ، فهل ينطبق هذا على شخص يمتلك مواصفات المتنبي النفسية والفكرية ، وأخص منها رهافة الإحساس والامتلاء بالطموح ، وفي ظروفه تلك ؟

---

(١) التبيان ٤ : ٢٣٩ / ١ ــ ٤ •
(٢) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٢٦ •
(٣) المصدر نفسه ٣٢٢ •

لا شك أن المتنبي كان برما بهؤلاء الناس الذين أحاطوا به أينما استدار ، أما أنه عدهم عقبة في سبيل تحقيق آماله في الوصول الى الواقع الذى يريد ، فمسألة تحتاج الى فضل تأمل ، اذ أنه عندما رأى عدم استجابتهم له ووقوفهم معه ، في سبيل تحقيق آماله في الوصول الى الواقع الذى يريد — بما يعنيه ذلك من تغيير حالة المجتمع بعامة — ، حاول أن يتوسل بهم — بقدر ما يستطيع — لتحقيق بعض من طموحاته الخاصة . ألم يعبر عن شيء من ذلك في قوله (١) :

لو استطعتُ ركبتُ الناسَ كلَّهُمُ ... إلى سعيدِ بنِ عبدِ اللّهِ بُعْرانا

وهذا برأيي أحد سببين في محاولاته للاتصال بالناس ، اذ الثاني هو إحساسه الممض بالوحدة .

أما (الغربة الواعية) ، فاني أرى أن وعي الغربة هو الإحساس بها والعمل بمقتضاها ، لا خلقها — ان كانت تخلق — كما يفهم من كلام الدكتور جليل رشيد .

ان تأرجح المتنبي في غربته بين الانفصال والاتصال — الذى لم ينجح في بلوغه تماما — ((ظاهرة وان تبد سلبية في المستوى الشخصي فهي تعكس وضعا موضوعيا لكل فرد واع في هذا العصر خاصة اذا كان ينتمي الى النخبة المثقفة ، فالانشطار الداخلي صورة للانحلال الخارجي وصدى لعصر أصبح قانونه الأساسي التناقض واثبات الذات الفردية على حساب المجموعة ، أما القلق الناجم عن هذا الانشطار فهو قلق العصر . وقد كان المتنبي واعيا به ومتعمقا في ذاته)) (٢) .

لقد حاول المتنبي أن يهرب من غربته ، حتى يتخلص من قلقه وحيرته ، فكانت رحلاته من مكان الى آخر بحثا عما تطمئن اليه روحه وتقرّ به نفسه . ولكن أنى له ذلك ، فالزمان واحد ، والظروف — بكل جوانبها — نفسها ، والأنكى من ذلك أن الانسان الذى يتحكم بكل هذا هو هو ، ذلك الذى لم يقدر على الانسجام معه . ((وهكذا خلف لنا المتنبي وحده ، معرضا كاملا من صور الاغتراب في ديوانه الضخم تحمل عنوان : ((الهارب)) .)) (٣)

---

(١) التبيان ٤ : ١٦/٢٧٠ .

(٢) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي يوسف الحناشي ١١٠ .

(٣) شعر الاغتراب في الأدب العربي د . ماهر حسن فهمي ، مجلة مجمع اللغة العربية — القاهرة — الجزء الخامس والعشرون ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩ م ص١٤٥ .

ثانيا : الاستشراف :[1]

ان المتنبي ، كغيره من الناس ، كان يود تحقيق رغبات خاصة ، ما انفكت تداعب خياله وتلوح بين عينيه • لها علاقة باستقراره النفسي واطمئنانه الروحي ، فيتمنى الحصول عليها ، بل انه سعى اليها ما وسعه الجهد • رغبات يتطلع الى أن يحقق من خلالها — لنفسه أولا — الثراء المادى والهيبة المعنوية فضلا عن الأمان والهدوء والاستقرار ، في ذلك العصر المتعب الذى أتعبه •

ولقد غطت على خصوصية بعض من رغبات المتنبي هذه ، المتولدة في الخيال والمرتسمة في الأحلام ، ضرورة الاستعانة بالآخرين من أجل تحقيقها ، بمعنى أن انتقالها الى حيز التنفيذ على أرض الواقع قد أنسانا أصلها النابع من الخيال والبادئ في الحلم •

وسنحاول أن نبين كل ذلك من خلال جانبين أو جزئين سنقسم عليهما هذا المبحث ، هما : بين الولاية والشعر ، والمرأة — الاستقرار ، ليشكلا معا هذا الباعث •

بين الولاية والشعر :

سئل بعض الحكماء عن أسوأ الناس حالا فقال : من قويت شهوته ، وبعدت همته ، واتسعت معرفته ، وضاقت مقدرته[2] • واني لأذهب الى أن هذا القول ينطبق على المتنبي أو يكاد • ثمّ انه هو عينه قد قال[3] ، ضاربا بالمثل نفسه معبرا عنها :

وأَتعَبُ خلقِ اللّهِ من زاد هَمُّهُ   وقَصَّرَ عما تشتهي النفسُ وُجْدُهُ

انّ ما وعاه المتنبي من ظروف عصره السياسية ، وأخص منها ههنا قيام حركات الثورة والتمرد ونجاح معظم القائمين بها في اقتطاع أجزاء من أرض الخلافة والاستقلال بها ، فضلا عن ظروفه الخاصة ونشأته الصعبة ، مما جعل الرغبة في السيادة والحكم تراوده • فاذا ما أضفنا الى ذلك موهبة أدبية ونبوغا شعريا أحسها المتنبي في نفسه ، أدركنا أن هذه الرغبة ستخرج من إطار المراودة الى مجال التطبيق • اذ أن مسألة التمكن الأدبي والمقدرة الفنية هي من الأهمية بمكان اذا ما علمنا أن أناسا من طلاب المناصب

---

(١) من معاني (الاستشراف) اللغوية مما يتناسب وما نذهب اليه ، ما جاء في (لسان العرب ١١/٧٣) من أن ((استشرفت الشيء اذا رفعت رأسك أو بصرك تنظر اليه)) •

(٢) ينظر : الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ٣٨٧ و التبيان ٢/٢٢ •

(٣) التبيان ٢ : ٩/٨٤ •

كانوا ((يرتقون في ذلك العصر كما ارتقوا في العصور التي قبله الى مناصب الوزارة وليست لهم من شفاعة في الظاهر غير شفاعة الكتابة والأدب))(١) . ولعل ذلك يعود الى أن ((الأدباء كانوا هم السياسيين، يتثقفون في السياسة ثقافة عامة مع الادب . ولم تكن السياسة قد أصبحت علما كما هو اليوم . انما كانت تدرك بالذوق الفطرى وتستفاد من التجارب، ومن كتب التاريخ ، لهذا رأينا من أشهر الوزراء ابن العميد والوزير المهلبي والصاحب بن عباد ، وفي القاهرة يعقوب بن كلس وغيرهم ، وكلهم علماء أدباء))(٢) . وهكذا نرى أن في ظروف كهذه ما يغرى أديبا مغامرا طموحا كالمتنبي بالتطلع الى جاه الدنيا من طريقين : المغامرة والأدب . ولم يكن المتنبي ليعوزه الاعتداد بالنفس والطمع في الجاه ولا الملكة الأدبية والبلاغية مع شيء من الفروسية والقدرة على تحمل ما قد ينجم عن مثل هذا الطموح من مصاعب نفسية أو جسدية(٣) . وقد كان منذ صباه يعد العدة لشيء ما ، كبير ، من ذلك قوله(٤) :

مُحِبّي قيامي ما لذلكمُ النصلِ ... بَريئاً من الجرحىٰ سليما من القتلِ
أرىٰ من فِرِنْدي قطعةً في فِرِنْدِهِ ... وَجَوْدَةَ ضربِ الهامِ في جودةِ الصقلِ
وخضرة ثوبِ العيشِ في الخضرةِ التي ... أُرَتْكَ احمرارَ الموتِ في مَدْرَجِ النملِ
أمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنَّهُ ... فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي
وذرني وإياه وطِرْفي وذابلي ... نكنْ واحدا نلقَ الورىٰ وانْظُرَنْ فِعلي

ويرى الدكتور صلاح الدين المليك أن المتنبي في مقطوعته التي يقول فيها(٥) - وكان ذلك في صباه - :

كفىٰ بجسمي نحولا أنني رجلٌ ... لولا مخاطبتي إياك لم ترَني

كان ((يريد أن يكون أكبر مما هو أو بعبارة أخرى يطمح بأسلوب معين الى مرتبة الكبار المهوبين المغمومين لأمور تؤرقهم وتقض مضاجعهم ، وان لم يكن طامعا في شيء أو متمثلا بمن هم أسن منه فلا شك في أن أبياته تلفت النظر اليه وتحمل الناس حملا على

---

(١) شخصية المتنبي في شعره عباس محمود العقاد ، مجلة الهلال ، العدد الخاص بالمتنبي ، أغسطس ١٩٣٥ ص ١١٢٢ .
(٢) ظهر الاسلام ٢/٢٦٥ .
(٣) ينظر : شخصية المتنبي في شعره ١١٢٢ .
(٤) التبيان ٣ : ١٩٤/١ـ٥ وينظر ٣: ١٩٣/١ـ٢ .
(٥) نفسه ٤ : ٣/٢٦٣ .

على التفكير في قائلها)) [١] • ويكون بذلك قد حقق شيئا آخر مما يرغب فيه ويتطلع نحوه من إشاعة الذكر وصولا الى الشهرة الواسعة والمنزلة الأدبية العالية ، وذلك أن هذا التفوق الأدبي بما يؤدي اليه من ذيوع الصيت قد يسهم في المساعدة على تبوّء منصب سياسي ما ، فضلا عن كونه غاية بحد ذاته تحقق له بعضا مما يصبو اليه ، فهو القائل [٢] :

أينَ فضلــي إذا قنعتُ من الدّهـرِ بعيشٍ مُعَجَّلِ التنكيدِ

نحصل من هذا على ((أنه طموح منذ صباه فهو يريد الحصول على أعلى المناصب وهو لا يزال أصغر منها سنا)) [٣] •

لقد كان المتنبي يستعجل تحقيق آماله ، ولعله أراد بذلك تعويض ما افتقده طفلا وصبيا من أمان وطمأنينة وعيش رغيد ، فضلا عن رغبته في المجد والعلو • قال يخاطب نفسه [٤] :

إلىٰ أيِّ حينٍ أنتَ في زيِّ مُحْـرِمِ وحتىٰ متىٰ في شِقْوَةٍ وإلىٰ كمِ
وإنْ لا تَمُتْ تحت السيوفِ مُكرَّمـا تَمُتْ وتقاسي الذلَّ غيرَ مُكَـرَّمِ

فاذا ما رأى أنّ عددا غير قليل من الطامحين والمغامرين قد وصل الى الملك والسلطان من غير أن يكونوا أهلا له ، أخذ يحاور نفسه ((لماذا يظل مسالما قانعا بحياته ؟ ولماذا تقف آماله عند حد المدح وطلب العطاء ، أو ـ كما كان يقول ـ عند حد ((بيع الشعر في سوق الكساد)) ؟ ولماذا يقنع من حياته باستجداء الملوك والأمراء ؟ ولماذا لا يكون ملكا أو أميرا ؟ لماذا لا يغامر كما غامر من هم أقل منه شأنا وأصغر منه همة وأضعف منه نفسا ؟ لماذا لا يجرب حظه في ميدان المغامرة ؟)) [٥] • وأطلقها صرخة مدوية [٦] :

فَثِـبْ واثقا باللّـهِ وثبـةَ ماجـدٍ
يرىٰ الموتَ في الهيجا جَنىٰ النحلِ في الفمِ

---

(١) بين شخص المتنبي وشعره ، مجلة آداب ـ جامعة الخرطوم ـ العدد الثالث ، ١٩٧٧ ص ٣٨ •
(٢) التبيان ١ : ٢١/٦٣ وينظر ٣ : ١/١٩٧ •
(٣) أثر الاخفاق في شعر المتنبي ، صبيح صادق ، مجلة المورد ، المجلد السادس ، العدد الثالث ، خريف ١٩٧٧ ، ص ١١٤ •
(٤) التبيان ٤ : ١/٢٣٢ ـ ٢ •
(٥) تاريخ الشعر في العصر العباسي د • يوسف خليف ١٥٦ •
(٦) التبيان ٤ : ٣/٢٣٢ •

ويبدأ بإعلان عزمه على التحرك (١) :

ليس التعللُ بالآمالِ من أَرَبـي ... ولا القناعةُ بالإقلالِ من شِيَمي

وهو ((ليس يبالغ فقط في تصوير طموحه واقدامه بل لا يصور ذلك في الغالب الا وهو يتطاول على الناس والملوك ولا يحلو له ذلك الّا بذمهم جميعا لامتداح نفسه)) (٢) . يقول (٣) :

أيملكُ الملكَ والأسيافُ ظامئةٌ ... والطيرُ جائعةٌ لحمٌ على وَضَمِ

مَن لو رآني ماءً مات من ظمأٍ ... ولو مثلتُ له في النوم لم ينَمِ

ميعادُ كلِ رقيقِ الشفرتين غدا ... ومن عصى من ملوكِ العُربِ والعجَمِ

فإنْ أجابوا فما قصدي بها لهُمُ ... وإنْ تَوَلّوا فما أرضى لها بهِمِ

انّ هؤلاء الملوك ((يمثلون الحلم الذى استحال عليه ، ويمثلون وتره لأنهم اتخذوا السلطة التي لم يكن يراها حرية بأحد من دونه . انهم سالبو نعمته ، والمستأثرون بحقه)) (٤) . ثمّ ليعلن عن نفاد صبره على هذه الحال ، وأنه لا بدّ من عمل شيء (٥) :

لقد تَصَبّرْتُ حتى لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فالآن أقحمُ حتى لاتَ مُقْتَحَمِ

لأَتْرُكَنّ وجوهَ الخيلِ ساهمةً ... والحربُ أقومُ من ساقٍ على قَدَمِ

وكانت حركته التي قام بها في الشام ، اذ ((بلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا الى بيعته قوما من رائشي نبله ، على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده . وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره الى والي البلدة ، ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده)) (٦) . واذ يقول المعرى في حركة المتنبي أو محاولته هذه ((وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه . وانما هي مقادير ، يديرها في العلو مدير ، يظفر بها من وفّق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق)) (٧) ، فانه يؤكد أن مثل هذه المحاولة لم تكن غريبة على الناس آنذاك لأنها لم تكن الوحيدة ، فقد كثرت محاولات المغامرين والطامعين والثائرين .

---

(١) التبيان ٤ : ٢٣٣/١٢ وينظر ٣ : ١٩٧/١١ .
(٢) المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس (المتنبي شاعر العظمة والطموح د . منجي الكعبي) ١٣٠ .
(٣) التبيان ٤ : ٢٣٣/٢٨ـ٣١ وينظر ٤ : ٢٢٨/١ـ٥ و ٤ : ٢٢٩/٢ـ٦ و ١ : ٢٠/١ـ٤ .
(٤) فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ايليا حاوى ١٣٦ .
(٥) التبيان ٤ : ٢٣٣/١٨ـ١٩ .
(٦) يتيمة الدهر ١/ ١١٢ .
(٧) رسالة الغفران لابي العلاء المعرى ٤١٨ .

مهما يكن من أمر فقد انتهت به محاولته هذه الى السجن ، قال [١] :

كُنْ أيها السجنُ كيف شئتَ فقد　　وطّنتُ للموتِ نفسَ مُعْتَرِفِ
لو كان سكنايَ فيكَ منقصَـــةً　　لم يكن الدرُّ ساكنَ الصدفِ

فاذا ما طال أمد حبسه ، أرسل الى الوالي من السجن قصيدته التي أولها [٢] :

أيا خَدَّدَ اللّهُ وِردَ الخدودِ　　وقَدَّ قُدودَ الحِسانِ القُدودِ

يسأله فيها العفو • وكما نحس في هذه القصيدة بشيء من لين العريكة وتحديد الغلواء ، فاننا نحس فيها ما يشير الى أن في عزمه بقية وأن جوهر همته لمّا يزل قويا ، الاّ أن يكون ما أبداه من ضعف وسيلة يحاول بها الخروج من السجن ــ مع عدم انكارنا أن لا بد لتجربة الحبس هذه من أثر ما مؤلم في نفسه ولو محدودا ــ •

انّ السجن لم يفل من عزيمة المتنبي ((وان كان حمله على تعديل مسلكه في الحياة للفترة التالية وربما لما تبقى من سنوات عمره فقد تأكدت له صعوبة مطامحه لما يكتنف طريقها من أخطار وعقبات ولم تكن الأخطار لتصده عمّا استهدفه وطمح اليه من المجد ولكن قلة النصير وغدر الظهير • وفي اعتقادنا أن الطموح لم يغض من نفسه بعد تجربة السجن ولم يستسلم للقنوط فهو لا يستطيع ذلك حتى لو أراده فنفسه مجبولة على المقاومة والعناد مفطورة على المناوءة)) [٣] •

ويخرج من السجن لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل رحلته نحو المجد ، انها اتصاله بعدد من الأمراء والولاة يمدحهم عسى أن يحصل منهم على شيء مما يريد ، فينتقل من هذا الى ذاك معلنا عن آماله ورغباته • فيقول تارة [٤] :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ　　فلا تقنعْ بما دون النجومِ
فطعمُ الموتِ في أمرٍ صغيرٍ　　كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

ليقول أخرى ــ مخاطبا أبا العشائر ــ [٥] :

فسرتُ اليكَ في طَلَبِ المعالي　　وسار سوايَ في طَلَبِ المَعاشِ

---

(١) التبيان ٢ : ١٤٦ / ٣ــ٤ •
(٢) نفســه ١ : ١/٦٦
(٣) كافوريات أبي الطيب ، دراسة نصية ٩٦ ــ ٩٧ •
(٤) التبيان ٤ : ١/٢٤٨ •
(٥) التبيان ٢ : ١٣٢ /٣٥ •

وهكذا يتخذ المتنبي من الشعر وسيلة للوصول الى ما يطمح اليه ، بعد أن فشل بالتوسل الى ذلك بالقوة • ولكنه وان يكن في مدائحه يطلب ويتمنى ويتكسب فإنه لم يتذلل لممدوحيه ولم يستخذ ، بل على العكس منذ لك كان مديحه الآخرين مليئا بفخره بنفسه واعتزازا بها حد التكبر والكبرياء[١] • من ذلك قوله[٢] :

أَقَلُّ فَعَالي بَلْهَ أكثرَهُ مَجْدُ | وذا الجِدُّ فيه نلتُ أم لم أنَلْ جَدُّ

بل ان موقفه هذا يستمر حتى مع سيف الدولة وبخاصة حين يشوب العلاقة بينهما توتر ما[٣] • وان كانت المدة التي قضاها في كنف سيف الدولة أكثر فترات حياته استقرارا ، فقد وجد فيه ((كل ما يحتمل في أعماقه من طموحات • فألقى في مديحه كل نفسه وكل عواطفه وأفكاره • واندفع يتغنى عظمة سيف الدولة وجهاده القومي • وتدفق شعره حماسة وعاطفة))[٤] • فهو الذى قال فيه[٥] :

رأيتُكَ في الذين أرى ملوكا | كأنك مستقيمٌ في مُحالِ
فإن تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم | فإن المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

ويهمنا أن نعرج هنا على ما التفت اليه الثعالبي في يتيمته من مخاطبة المتنبي الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع[٦] ، وقد كان مصيبا تماما حين علل ذلك برفع المتنبي نفسه عن درجة الشعراء ، وتدريجا لها الى مماثلة الملوك ، فلم يرد المتنبي لنفسه أن تبدو أقل من هؤلاء الذين يمدح ، وهو القائل[٧] :

وفؤادي من الملوكِ وإن كا | نَ لساني يُرى من الشعراءِ

---

(١) ينظر : فن المديح وتطوره في الشعر العربي ، أحمد أبو حاقة ، ٢٦٠ــ ٢٧٤ •
(٢) التبيان ١ : ١/٧٢ وما بعده وينظر ٤: ٦/٢ ــ١٠ و ١ : ٧/٣ ــ ٨ و ١ : ٧/ ٣ــ ٤ و ٢ : ٢٧/١٢٩ و ٤ : ٨/٢٣٧ــ ٩ و ٤ : ٦/٢٣٨ ــ ١٠ و ٤ : ٢٧٠/ ١٠ــ١٥ وغير ذلك كثير •
(٣) ينظر التبيان ١ : ١١/٥٨ــ١٢ و ١ : ١٠/٥٩ــ١٥ و ١ : ٣٥/٦٠ ــ ٣٩ و ٢ : ٥/١٣٨ و ٣ : ١٥/٢٢٢ــ ٢٣ و ٢٨ ــ ٢٩ و ٤ : ٥٤/٢٣٠ــ ٥٥ •
(٤) ظاهرة الطباق دلالة نفسية في شعر المتنبي ، د • عبد الفتاح صالح نافع ، مجلة المورد ، المجلد الحادى عشر ، العدد الثاني ١٩٨٢ ص ٥٦ •
(٥) التبيان ٣ : ٤٤/١٧٥ •
(٦) ينظر يتيمة الدهر ١ / ١٩١ــ١٩٢ وللاطلاع على ما قيل حول هذا الموضوع ينظر كذلك : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ١٢٩ــ١٣٢ ولغة الحب في شعر المتنبي ١٤٥ ــ ١٩٧ •
(٧) التبيان ١ : ٢٤/٥ •

فهم ليسوا بأحسن منه ولا أفضل ــ هذا ان لم يكن بينهم من هو أقل منه ــ • وان كنت أرى أن أسلوبه هذا ينبض بالصدق وينطق عن عاطفة حقيقية فيما تكلم فيه على سيف الدولة أو وجهه اليه منه ، من ذلك قوله (١) :

واحَرَّ قلباه ممَّنْ قلبهُ شَبِمُ ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ
مالي أُكَتِّمُ حُبًّا قد برى جسدي وتَدَّعي حبَّ سيفِ الدولةِ الأُمَمُ

انّ المتنبي حين استقر في كنف سيف الدولة لم يطلب منه ملكا أو حكما مما كان يود الحصول عليه ، اذ وجد فيه ومنه ما يغنيه عن ذلك ، وانما طمح عنده أو قل طمح في إمارة من نوع آخر ، هي إمارة الشعر • فبعد أن يقول لأبي العشائر ــ قبل اتصاله بسيف الدولة ــ مساويا نفسه به (٢) :

شاعرُ المجدِ خِدنُهُ شاعرُ اللفظِ كلانا ربُّ المعاني الدِقاقِ

يدخل بلاط سيف الدولة ، في أول اتصال به ، قائلا (٣) :

فضيعتُه لمّا رأيتُ صفاتِهِ بلا واصفٍ والشعرُ تَهذي طماطِمُهْ

لينتقص بذلك من شعراء سيف الدولة كلهم ، معليا نفسه عليهم ، بتشبيهه شعرهم بهذيان أعاجم •

ولا يني المتنبي يفتخر بشعره ، مقللا من شأن شعراء سيف الدولة الآخرين (٤) ويبلغ أوج ذلك في قوله مخاطبا سيف الدولة (٥) :

وما الدهرُ إلاّ من رواةِ قلائدي إذا قلتُ شِعرا أصبح الدهرُ مُنشِدا
فسارَ بهِ من لا يسيرُ مُشَمِّرا وغنّى به من لا يُغَنّي مُغَرِّدا
أَجِزني إذا أُنشدتَ شعرا فإنما بشعري أتاك المادحون مُرَدَّدا
ودَعْ كلَّ صوتٍ غيرَ صوتي فإنني أنا الصائحُ المَحكيُّ والآخرُ الصَدى

---

(١) التبيان ٣ : ٢٢٢/١ــ٢ •
(٢) نفســه ٢ : ١٦٢/٣٦ •
(٣) نفســه ٣ : ٢١٨/٣٥ •
(٤) ينظر التبيان ١ : ٥٩/١٥ و ٢ : ١٥٢/ ٣٥ــ٣٦ و ٣ : ٢٢٢/١٥ــ١٦ و ٢٢ و ٣٦ و ٤ : ٢٣٠/٥٥ • والخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ، د • طه مصطفى أبو كريشة ١٤ و ١٠٢ ــ ١٠٣ •
(٥) التبيان ١ : ٦٠/ ٣٦ ــ ٣٩ •

فهو يطلب منه ((ألا يستمع الى غيره ، وان استمع فلتكن الجائزة له (لأبي الطيب) لأن الشعراء الآخرين يرددون معانيه ويحاكون ما يقول فليسوا هم الأصدى له فتاه هنا بشعره كما تاه بصفاته وأفعاله))[١] .

وهكذا لم يسر المتنبي بدا ((من الاكتفاء من الطموح بأن يصبح شاعرا يصف أعمال البطولة التي كان يحلم بها وهي تتحقق في سواه))[٢]. واستطاع بقدرته الفنية الفذة التي غذاها وقواها حبه الصادق لسيف الدولة ،أن يكون شاعر بلاطه الأول ((فكسف سائر الشعراء الذين كان يحفل بهم بلاط الأمير ، وما عتم أن أثرى واشتهر في الناس حتى غدا يشغلهم ويفتنهم . وبذلك يكون قد حقق جانبا من جوانب بطولته وعظمته الفنية الشعرية ، دون أن تخمد في نفسه الجذوة الباطنية التي ما برحت تذكي في ضميره ذلك الحس ... بالتفوق والامتياز))[٣] .

ويبدع المتنبي في مدح سيف الدولة وإبراز جلائل أعماله ، حتى يكون جد يسرا بما يطلبه لنفسه من إمارة الشعر ، فضلا عن أن ما يقوم به سيف الدولة هو مما كان المتنبي يتمناه لنفسه . ولعل مما زاد من نجاح المتنبي في مثل هذا الشعر مشاركته الفعلية في هذه الأحداث التي لم يكتف بأن يكون شاهد عيان فيها فحسب . ولذلك فنحن نتحفظ في قبول ما ذهب اليه ايليا الحاوى بقوله ((ولعلنا اذا ما أوغلنا في استبطان نفسية أبي الطيب في هذه الحقبة لتحقق لنا أن الشاعر كان يعيش في حالة من التعوض النفسي ، يعيش في أجواء ملحمة العلى والبطولة ، لكنه لا يتمرس بها ، ولا يشارك فيها ، بل يشاهدها ، ويواكبها بوجدانه ، لذلك ظل يشعر بفراغ في أعماقه، لكنه ليس ذلك الفراغ الذى لا يطاق ، كما أنه ليس اليأس المطبق ، بل هو أشبه شيء بالتململ والترقب . لهذا ، يمكن أن نشهد شيئا من التقمص والتحول بين الشاعر وأميره فكأنه كان يصور في مدح سيف الدولة الاحلام التي كانت تراوده))[٤] . فالمتنبي لم يكتف بالمشاهدة والمواكبة الوجدانية دون المشاركة الفعلية في ملحمة العلى والبطولة — كما سماها — ، بل شارك مشاركة فعلية وجادة ، قلما وسيفا ، أما القلم فها هي ذى آثاره باقية حتى اليوم — وستبقى ما بقي العرب — ، وأما السيف فان في ما وصل

---

(١) بين شخص المتنبي وشعره ٤٢ .
(٢) فن الفخر وتطوره في الادب العربي ١٠٩ .
(٣) ينظر: المصدر نفسه ١٠٩ — ١١٠ .
(٤) فن الفخر وتطوره في الادب العربي ١١٠ .

الينا من أخبار ما يؤكد مساهمة المتنبي في معمعة القتال ، بل وصموده حين انهزم غيره [١] . وان خفوت صوت المتنبي بالمطالبة بالحكم والتسلط آنذاك ، انما هو تعويض نفسي من حيث دلالته القاطعة على أن المتنبي لم يكن ليطالب بالسيادة والتسلط فيما لو وجد قائدا أو حاكما يرى فيه تحقيق آمال نفسه وطموحاتها .

انّ مما لا شك فيه أن ((اعتداد المتنبي بشعره هو جزء لا يتجزأ من اعتداده بنفسه)) [٢] ، لذلك رأينا اعتداده هذا بشعره قد صحبه طوال حياته ، قال [٣] :

وما قلتُ من شعرٍ تكاد بيوتُهُ ... إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ من نورها الحِبْرُ

ولعل استمرار قراءة شعره ودراسته حتى اليوم بحظ من العناية أوفر من حظوظ غيره من الشعراء ما يؤكد حقه في هذا الاعتداد به ، فقد صدق ما تنبأ به من إنشاد الدهر قصائده ، وما كل ذلك الاّ لبراعته فيه وابداعه . ولقد صدق محمد شرارة حين قال ((المتنبي أول شاعر عربي وضع الشعر في مستوى الامارة ، ووضع الشاعر في رفوف الملوك والأمراء . وهو الشاعر الوحيد الذى قيل له ،((ماذا أبقيت للأمير)) . والامارة في عرف الناس ، هالة تدور حول القمر ، أو دارة تلتف حول الشمس . ولما ظهر المتنبي خلع هالة القمر ، ودارة الشمس حول الشاعر أيضا . وكان ذلك فتحا جديدا في انارة العقول ، وقياس القيم)) [٤] .

واذا أكثر المتنبي من الفخر بشعره والمباهاة به ، بما يستوجبه ذلك من إبداع فيه وتجويد ، زمن اتصاله بسيف الدولة ، فان ذلك يرجع ، فضلا عما قد منا ، الى معاناة

---

(١) اننا نذهب الى اشتراك المتنبي في الكثير من حروب سيف الدولة، يؤيدنا في ذلك دقة رسم المتنبي لتفصيلات المعارك في سيفياته مما لا يتأتى الاّ لمن عاشها وعايشها . وقد أشير في بعض شروح الديوان الى معارك شارك فيها المتنبي أو لم يشارك وان سكت عن غيرها ، ولكن ما جاء فيها يوحي بمشاركته فيها [ينظر العرف الطيب ٣٩٦/٢ و ٤١٨ و ٤٣٧) . هذا فضلا عما ورد من بعض الأخبار عن غزوة الفنا التي هزم فيها جيش سيف الدولة ولم يصمد معه الا ستة أنفار أحدهم المتنبي (ينظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٧٨ ــ ٧٩) وهي الغزوة التي قال فيها المتنبي قصيدته : غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ...(التبيان ٢ : ١٣٨/ الابيات) وسياق القصيدة يومئ الى ماحدث في أثناء الغزوة ، فضلا عن مشاركة المتنبي فيها .

(٢) المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس (المتنبي شاعر العظمة والطموح) ١٣٢ وينظر: المحصول الفكرى للمتنبي ٣٢٢ .

(٣) التبيان ٢ : ٣٣/١٢٣ وينظر: الخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١٢١ ــ ١٢٤ .

(٤) المتنبي بين البطولة والاغتراب ٥٨ .

المتنبي مما حفل به بلاط سيف الدولة من منافسات (فنية) بين من أمّوه من أفضل شعراء تلك الفترة • ناهيك عن رغبة المتنبي التي لازمته طوال حياته في الشهرة وبعد الصيت •

ما أن دب الخلاف بين المتنبي وسيف الدولة وتمكنت الوحشة بينهما ، حتى غادر المتنبي حلب متوجها الى مصر كافور • وما أراه أن المتنبي كان يفكر بقصد كافور منذ بدأت علاقته بسيف الدولة تفقد استقرارها ، قبل أكثر من أربع سنين من تركه سيف الدولة، اذ جاء في قصيدته (واحر قلباه •••)[١] :

لئن تَركْنَ ضُمَيْرا عن ميامِنِنا ... لَيَحْدُثَنَّ لمَنْ وَدَّعْتهم نَدَمُ

فضمير : جبل على يمين الراحل الى مصر من الشام ، وهو قريب من دمشق[٢]• فضلا عن أن توتر العلاقة بين سيف الدولة وكافور — على الرغم من هدوء حالة الخلاف بينهما آنذاك[٣] — مما دفع بالمتنبي الى محاولة إثارة سيف الدولة وإغاظته حين يعرض بالرحيل الى كافور •

وهكذا يلجأ المتنبي الى كافور مغضبا متألما ، ولمّا لم يجد فيه ما يدفعه الى حبه واتخاذه مثلا — كما كان أمره مع سيف الدولة ، وان كنت أظن أنه كان معجبا به لما استطاع أن يصل اليه وهو العبد المملوك — فقد عرض في أول قصيدة أنشده اياها مادحا بطلب الحكم والملك • قال[٤] :

وغيرُ كثيرٍ أن يزورَك راجلٌ ... فيرجعَ مُلْكا للعراقَيْن واليا
فقد تَهَبُ الجيشَ الذي جاء غازيا ... لسائِلِك الفردِ الذي جاء عافيا

فلم لا يكون ((لنفسه عصبية ويحوز ولو ناحية من ملك مصر ، بتلك العصبية أو بمجده التصورى ، حيث يعيش سلطانا خطيرا ينافس أمراء عصره ، ويحيا مثل سيف الدولة وكافور، ويحقق بذلك شيئا من آماله التي طالما رددها في شعره ؟ أليس كسيف الدولة عربيا شجاعا يستحق كل ذلك من دون هؤلاء الأعاجم ؟ أليس أحق بالسيادة من مثل كافور والديلم الذين انتهبوا تراث العرب والمسلمين ؟ مهما يكن من تلك الأسباب أو غيرها فقد سار أبو الطيب الى مصر مثقلا بأعباء ثقيلة من الآمال والآلام))[٥]• ومن ذلك أيضا قوله[٦] :

---

(١) التبيان ٣ : ٣٢/٢٢٢•
(٢) ينظر : التبيان ٣/٢٧٢ والعرف الطيب ٢/٣٤٥ •
(٣) للاطلاع على طبيعة علاقة سيف الدولة بالأخشيد بين بعامة وبكافور بخاصة ، ينظر : زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ١/١١١ـ١٢٠ ومصر في عصر الاخشيد بين ٢٦٧ ـ ٢٧٢•
(٤) التبيان ٤ : ٣١/٢٨٥ـ٣٢•
(٥) أبحاث ومقالات أحمد الشايب ٥٣ •
(٦) التبيان ١ : ٣٢/٣٤ـ٣٣ •

قالوا هجرتَ إليه الغيثَ قلتُ لهمْ ... إلى غيوثِ يديه والشآبيبِ
إلى الذي تَهَبُ الدولاتِ راحتُهُ ... ولا يَمُنُّ على آثارِ موهوبِ

وكلما ألح المتنبي في طلب الولاية ،[(١)] لج الباحثون والدارسون في تعليل هذا الطلب وتسويغه ،فمن ذاهب الى أن السبب في ذلك هو الطمع[(٢)] وشهوة المنصب ،[(٣)] الى ذاهب الى أنه أراد بذلك تحقيق آماله السياسية ،[(٤)] ورأى غير هؤلاء أن مراده من الولاية هو تعويض خيبته في حلب ، والثأر لكرامته التي أهدرت فيها فضلا عن الطمع والرغبة في تحقيق المجد[(٥)] • كما ذهب بعض الباحثين الى أن غايته من ذلك ـ كما طلب الملك في أول شبابه ـ هو إنقاذ الأمة من ربقة الحكام الأعاجم وأطماع الطامعين العابثين[(٦)] • أما الدكتور مصطفى الشكعة فيرى أن الذى شجع المتنبي على أن يأمل في الولاية هو ما عرفه من أن ثلاثة شعراء كبار سابقين عليه ، وهم مسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، ودعبل الخزاعي قد حصل كل منهم على ولاية قام بها وولي أمورها[(٧)] • ولعلي لا أكون مخطئا أو مبالغا اذا ما قلت : ان هذه الأسباب جميعها قد تضافرت في نفس المتنبي ، لإذكاء رغبته في الولاية حتى طلبها من كافور وبإلحاح • واذا كان بعض هذه الأسباب وليد هذا الظرف الآني ، فان بعضها الآخر أصيل متجذر في قرارة نفسه منذ صباه وبقي حتى مقتله ، ومن هنا كان طموحه الدائم الى الحكم ، الذى زاد سعيه الى تحقيقه عند كافور لخصوصية الظروف التي مر بها آنذاك •

---

(١) ينظر:التبيان ١ : ٢٣/٥ـ٢٤ و ١ : ٢٢/٣٥ـ٢٤ و ١ : ٣٤/٣٦ـ٣٧ و ٢ : ٣٨/٨٤ـ٤٨ و ٤ : ٣٨/٢٥٢ ـ ٤١ و ٤ : ٢٣/٢٧٣ ـ ٢٥ •

(٢) ينظر : أبو الطيب المتنبي كان عبقريا ، ولكن •• خليل مطران ، مجلة الهلال العدد الخاص بالمتنبي أغسطس ١٩٣٥ ص ١١٤٠ ـ ١١٤٣،وأبو الطيب المتنبي في مصر نبي في بلاد الوحي لا يوحى اليه ، محمد شوكت التوني،المصدر نفسه ص ١١٦٧ •

(٣) ينظر : أبو الطيب المتنبي أكلن عظيما أم مجنونا بالعظمة أمين محمد عثمان ، مجلة الفيصل العدد ١٣٢ السنة الحادية عشرة ١٩٨٨ـ١٤٠٨ هـ ص ٥١ •

(٤) ينظر : المتنبي،محمود محمد شاكر ١/٢٥٧ •

(٥) ينظر : أدباء العرب في الأعصر العباسية بطرس البستاني ٢٠٣،وكافوريات أبي الطيب دراسة نصية ٢٩٥، ودراسات في النص الشعرى ، العصر العباسي ، د • عبده بدوى ١٨٥ •

(٦) ينظر : مع المتنبي في شعره الحربي ، د • هادى نهر ٨١ •

(٧) ينظر : أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقيين ٣٤٠ ـ ٣٤٧ •

ويرفض الدكتور منجي الكعبي ما قيل عن رغبة المتنبي في الولاية من كافور ، يقول ((فلم تكن هناك بالمرة في رأس المتنبي فكرة اقتضاء ولاية أو ضيعة من كافور ، لا فقط لاننا نذهب الى أن كافورا لم يعده بذلك أو يطلب الشاعر منه ذلك ولا أيضا لأن المتنبي لم يصدق ما دس به اليه من حديث الولاية ولكن لأمر أو أمور أخرى ينبغي أن نبحث عنها في ما نعرفه عن شخصية المتنبي وميوله ومدى لحمته بنفسه وأطواره مع ممدوحيه وخاصة كافور))[١] . أما أن المتنبي لم يكن في رأسه فكرة اقتضاء ولاية أو ضيعة من كافور ، وهو ما أكده الدكتور الكعبي بقوله ((ان المتنبي لم يكن قد أتى مصر بحثا عن كرسي الحكم في صيدا أو غيرها من أعمال مصر ، ولعل الوهم بذلك جاء مما اتهم به في صباه من الخروج على السلطان وادعاء النبوة وما ظنه الناس من أهداف لطموحه البعيد وهمته العالية))[٢] ، فماذا عن طلب المتنبي المتكرر ولاية من كافور تعريضا وتصريحا ومن أولى قصائده فيه ؟ بل انه ليصل في إلحاحه واستماتته الى حد طلب ضيعة ، اذ يقول[٣] :

أَبا المسكِ هل في الكأسِ فضلٌ أنالُهُ ... فإني أُغني منذ حينٍ وتَشربُ
وَهَبْتَ على مقدارِ كَفَّيْ زمانِنا ... ونفسي على مقدارِ كَفَّيكَ تطلُبُ
إذا لم تَنُطْ بي ضيعةً أو ولايةً ... فجودُك يكسوني وشُغلُكَ يسلُبُ

أما عن مسألة الوعد ، فان ما وصل الينا من أخبار لا يوضح ذلك . وما أذهب اليه هو أن المتنبي قد وعد بولاية أو بشيء من ذلك ، ان لم يكن من كافور مباشرة ، فبطريق غير مباشرة أو بوساطة ما ، سواء أكان ذلك قبل ذهابه الى مصر أم في أثناء وجوده فيها . ولا ريب أن المتنبي قد التمس الصدق في ذلك الوعد أو ما يشير الى إمكان تحققه ، والا فما الغرض من قوله[٤] — وهو يخاطب كافورا — :

ووعدُكَ فِعلٌ قبلَ وعدٍ لأنَّهُ ... نظيرُ فَعالِ الصادقِ القولِ وَعْدُهُ

ولنلحظ تكرار كلمة (وعد) ثلاث مرات ، فضلا عما يحمله هذا البيت من نبرة التحريض والحث ، بخاصة وان كلمة (وعد) الاولى جاءت متصلة بضمير المخاطب

---

(١) المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس (المتنبي شاعر العظمة والطموح) ١٢١
(٢) المصدر نفسه ١٢١ — ١٢٢ .
(٣) التبيان ١ : ٣٥/ ٢٢ — ٢٤ .
(٤) نفسه ٢ : ٨٤/ ٣٩ .

الذى إن هو الاّ كافور ، كما جاءت الثالثة مقترنة بصدق القول • ثمّ يقول في قصيدة أخرى له فيه أيضا (١) :

وإنْ تأخّرَ عني بعضُ موعدِهِ فما تأخَّرُ آمالي ولا تَهِنُ
هو الوفيُّ ولكنني ذكرتُ لـه مودّةً فهو يَبلوها ويمتحِنُ

فها هو ذا يذكر (الموعد) مرة أخرى مشيرا الى تأخره • وفي محاولة منه لتشجيع كافور على تنفيذ الوعد فضلا عن تسويغ هذا التأخير في تنفيذه لنفسه هو ، يشير الى وفاء كافور وانه ما تأخر فيه الاّ ليبلو صدق مودته • وأرى أن المتنبي لو شعر بكذب الوعد أو بعدم الصدق فيه منذ البدء ــ ولا أظن أن مثل ذلك كان سيخفى عليه ــ لما ذكّر به وألح في الطلب • ويذهب عبد اللّه الطيب ــ فيما يخص هذه المسألة ــ الى أن الأصوب ((لو قالوا ان من أوفدهم اليه وعدوه ذلك باسمه • وعسى أن يكون قد أذن في ذلك من دون أن يضمنه أو يعد بمقاربة ضمانه اذ لا يعقل من مملوك وصل الى ذروة الملك بالكيد والجد والتدبير أن يظن الملك يوصل اليه بغير هذا الطريق وأن الشعراء يجازون بالولاية على القصائد)) (٢) • واذا كان هذا الاحتمال ممكن التصديق ، فان ما ذهب اليه الطيب بعد من أن تنازل المتنبي في الطلب من الولاية الى الضيعة الى الطلب غير المبين بشيء في قوله (٣) :

فارمِ بي ما أردتَ مني فإني أسَدُ القلبِ آدميُّ الرواءِ
وفؤادي من الملوكِ وإن كا نَ لساني يُرىٰ من الشعراءِ

هو بايعاز أناس من المقربين من كافور ، أوحوا اليه بأنهم ينصحونه مساعدة له ، بينما هم يكيدون له ، (٤) أمر أو قل لعبة لا أعتقد أنها تنطلي على انسان شاعر ، حساس ، ذكي

---

(١) التبيان ٤ : ٢٧٣ / ٢٤ــ٢٥ • ومما جاء من شعر المتنبي في (الصبح المنبي ١٠٤ــ١٠٧) مما لم يرد في التبيان ، قوله يهجو كافورا ، ذاكرا فيه (مواعيده) قيده بها :

أبا النتن كم قيّدْتَني بمواعدَ مخافةَ نظمٍ للفؤادِ مُـرَوِّعِ
وقدّرتَ من فرطِ الجهالةِ أنني أُقيمُ على كذْبٍ رصيفٍ مصنّعِ

فقد انتظر أن يحقق له كافور ما وعده به ، حتى اذا ما أحس بالخداع فر هاربا من مصر •

(٢) مع أبي الطيب ٨٣ •

(٣) التبيان ١ : ٥ / ٢٣ ــ ٢٤ •

(٤) ينظر : مع أبي الطيب ٨٣ ــ ٩٠ ، والمحصول الفكرى للمتنبي ١٨٣ •

كالمتنبي .

مهما يكن من شيء فقد خابت آمال المتنبي في كافور ولم يحصل منه على طائل مما كان يريد . أما لماذا لم يستجب كافور لتلبية رغبته في الولاية ، فان ذلك يعود الى أسباب عدّة لعل أهمها ، تعاظم طموح المتنبي وخوف كافور من أن يدفعه ذلك الى إثارة المشكلات له ، هذا ان لم يهدد استقرار حكمه هو ، وقد زعموا أن كافورا قال له ((لست أجسر على توليتك صيدا لأنك على ما أنت عليه تحدث نفسك بما تحدث ، فان وليتك صيدا من يطيقك)) (١) . ولا أرى أن كافورا قال له ذلك مباشرة . وانما قاله بضمير الغائب ، بمعنى أنه تحدث عنه ولم يتكلم معه . والسبب الثاني ، هو ما أحفظ كافورا من مدح المتنبي فاتكا الرومي (٢) ، كذلك ما قاله في شبيب العقيلي (٣) ، فضلا عما يمكن أن يكون قد سمعه أو نمي اليه من قصيدة (الحمى) (٤) التي قالها المتنبي حين دهمته الحمى هناك .

أما السبب الثالث فهو ما عزي الى ذكر المتنبي سواد كافور في شعره فيه ، من مثل قوله (٥) :

يفضحُ الشمسَ كلّما ذرَّتِ الشمسُ بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ
إنّ في ثوبِكَ الذي المجدُ فيهِ لضياءً يُزري بكلِّ ضياءِ
إنما الجلدُ مَلْبَسٌ وابْيِضاضُ النفسِ خيرٌ من ابْيِضاضِ القِباءِ

جاء في الصبح المنبي ((قال الوحيد : كان المتنبي يحلم أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت فاذا ذكر لونه بعد ذلك فقد أساء الى نفسه وعرّضها للقتل والحرمان ، وكان من احسان الصنعة ، واجمال الطلب الا يذكر لونه ، وله عنه مندوحة)) (٦) ، وعلى الرغم من ترداد الباحثين هذا الرأي بوصفه سببا من

---

(١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٠ ويظر : خزانة الأدب ٢ / ٣٥١ والصبح المنبي ١١٢ .
(٢) يظر : التبيان ٣ : ٢١٥ / الأبيات .
(٣) يظر : نفسه ٤ : ٢٧٥ / الأبيات .
(٤) يظر : نفسه ٤ : ٢٥٣ / الأبيات .
(٥) التبيان ١ : ٥ / ١٥ـ١٧ .
(٦) ١١٥ ـ ١١٦ .

من أسباب خيبة أمل المتنبي عند كافور ، فلست أرى أن المتنبي كان من قصر النظر أن يقول شيئا يسوء كافورا في حين يطلب منه طلبا مهما وكبيرا مثل الولاية • والسبب الرابع هو أن المتنبي كان يعرض بكافور نفسه في مدائحه له ، فضلا عن غيرها ، وكان يقول فيه أبياتا هي الى الهجاء أقرب منها الى المدح ولم يكن هذا ليفوت كافورا ، سواء انتبه اليه بنفسه أم نبه اليه • ولا ننسى ذكره سيف الدولة وتلميحه اليه معاتبا أو مشوقا في أثناء مدخه اياه •

أما السبب الخامس في ذلك فهو تآمر الحساد والوشاة من الشعراء والأدباء الذين استكثروا على شاعر طارئ عليهم مثله ما حصل عليه من منزلة كبيرة وخير وفير ، فضلا عن الكبار والوجهاء الذين تأبى عليهم ولم يمدحهم • والسبب السادس هو إدراك كافور عدم حب المتنبي اياه وأنه لم يرحل اليه الا كيدا لسيف الدولة وطمعا منه بالمزيد ، فأظهر له الإعجاب به والكرامة له ثم ماطله • ولعله بذلك كان يريد أن يفيد منه بوصفه صوتا يمدحه ويعلي من شأنه كما يغيظ به سيف الدولة ، فها هو ذا شاعره يمدح أحد مناوئيه ، وهو لا ينوى أن يوليه ، سواء أكان ذلك من قرار اتخذه بنفسه ، أم أنه جاء نتيجة مؤامرة أعدها ضده حساد ومبغضون واستطاعوا التأثير في كافور(١) •

وهكذا يسلط المتنبي جام غضبه ومر هجائه على كافور الذى خذله أيما خذلان(٢) ، فهو وان ((كان يشك في كافور صديقا مخلصا الا ان الصدمة كانت واضحة

---

(١) ينظر: المتنبي ١ / ٢٥٧ ـ ٢٦٠ ، وذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ١٢٧ ـ ١٢٩ ، وأدباء العرب في الأعصر العباسية ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ، وأبحاث ومقالات ٨٠ ـ ٨٢ ، والمتنبي ، جورج غريب ٥١ ـ ٥٢ ، والحرب في شعر المتنبي د • محمود حسن أبو ناجي ١ / ٥١٨ ـ ٥١٩ •

(٢) ينظر: التبيان ١ : ٢٥/٧ ـ ٣٦ و ٢ : ٨٦ / الأبيات و ٢ : ١٣١ / الأبيات و ٣ : ٢١٤ / الأبيات و ٤ : ٢٥٤ / الأبيات و ٤ : ٢٥٥ / الأبيات و ٤ : ٢٧٦ / الأبيات و ٤ : ٢٨٦ / الأبيات • وفي هذا الهجاء يرى الدكتور عبد الوهاب عزام ان كافورا لم يكن ((أهلا لهذا الهجاء بما أقل هباته أو بما منع الشاعر ولاية أو ضيعة ، ولكنه استحقه بما وعد ومطل ثم أخلف ، فملأ نفس الشاعر الطموح أملا • ثم ذبذبه بين الرجاء والخيبة ، ثم أيأسه بعد انتظار طويل)) (ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ١٤٩) ويرى بطرس البستاني أنه ((انما هجاه لأن كافورا آلمه في صميم فؤاده ، اذ عبث به عبث الوليد بلعبته حتى اذا ملها أطرحها وحطمها (أدباء العرب في الأعصر العباسية ٣٣٧) أما الدكتور مصطفى الشكعة فيرى أن المتنبي قد اشتط في هجاء كافور شططا مبينا ، وذهب الدكتور الشكعة في تبيان ذلك متحاملا عليه =

في شعره ذلك أنه كان يطمح من خلال علاقته به الى تحقيق بعض المآرب التي هي بمثابة الجولة الأخيرة في تحقيق المعالي والآمال، ولهذا فان خيبة أمله منه كان معناها خيبة الجولة الأخيرة من تحقيق الآمال))(١). ومن هنا جاء الحزن والألم اللذان نحس بهما في هجائه كافورا ، وبخاصة قصيدته التي أولها :(٢)

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ ... بما مضىٰ أم بأمرٍ فيك تجديدُ

ان تجربة المتنبي في مصر ((أظهرت له عجزه ، وقصور أسبابه عن الوصول الى ((المنصب)) وفي ضوء هذا رأى — فجأة — بعد الشقة بين الحقيقة وبين المثال ، وبين الكلمة وبين الفعل ، وكان أن صرخ ، وكأني به لم يكن يهجو كافورا فقط ، ولكن ينحي باللائمة على نفسه))(٣).

= (ينظر: أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقيين ٣٤٧ ــ ٣٤٩) • وهكذا نرى ان المتنبي وكافورا كانا يلعبان لعبة واحدة ، فالمتنبي كان يمدح كافورا لغاية في نفسه هي الوصول الى الحكم — هذا اذا فرضنا عدم صدقه في مدحه اياه ، اذ أني أرى ان ما مدحه به كان حقا ، بمعنى أن المتنبي لو قال ما قال فيه مداجيا ومصانعا ، فان كتب التاريخ تثبت ذلك وتشهد بصحته فقد كان كافور رجلا مؤمنا ، كريما ، متأدبا ، سياسيا حسن التدبير ، ذكيا داهية ، على الرغم من وضاعة أصله (ينظر حول كافور: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ٤ / ٢ــ١٠ ومصر في عصر الأخشيد بين ١٣٦ــ١٥٤) في حين كان كافور يحاول الاستزادة والافادة من مدح المتنبي اياه بما أوحى اليه أو أوحى اليه الآخرون به حتى صدقه ، ثم ماطله حتى يأمن لسانه • الا أن كلا منهما خسر اللعبة ، فان تفوق كافور في التسويف والمماطلة واستطاع أن يأمن جانب المتنبي ويحد من غلوائه لسنين أربع ، فانه في المقابل قد خسر من سمعته الكثير بما وجهه اليه المتنبي من سهام هجائه المر ، المقذع ، منتقما لنفسه حين اكتشف الخدعة • أما المتنبي فقد خسر ما أمله من كافور ، ذلك الأمل الذى ضحى من أجله بالكثير من جهد بدني ونفسي وفكرى ومن وقت قضاه في الانتظار • وانه وان يكن قد انتقم لنفسه شر انتقام الا أن خسارته كانت أكبر من نتيجة انتقامه •

(١) أثر الاخفاق في شعر المتنبي ١١٨ •

(٢) التبيان ٢ : ١/٨٦ •

(٣) دراسات في النص الشعرى العصر العباسي ١٨٥ ــ١٨٦ •

واستنادا إلى ما سلف نرى أن المتنبي قد سخر شعره في هذه الفترة لخدمة قضية مطالبته بالولاية بما مدح به كافورا أو فخر فيه بنفسه ، ولمّا لم يبلغ ذلك سلط من شعره نارا حامية صبها على كافور وأتباعه • يقول مارون عبود ((وبعد الطموح إلى الإمامة والنبوة رضي صاحبنا بولاية • ولكنه لم يحصل على ضيعة •• فأبرق وأرعد ، وهو لا يدري أنه يؤدي رسالته التي بعث لها ، اى رسالة الشعر الباقي))(١)•

وبخروج المتنبي من مصر توقف عن المطالبة بالحكم والتولي ، ويبدو أنه قـــرر الاكتفاء بما وصل اليه أو حصل عليه من شهرة ومجد شعرى ، مع أني أكاد أجزم بأن ذلك لم يكن ليكفيه ، ولكن ربما كان ما رآه مما يحف به طريق الولاية والحكم من مصاعب وأخطار جعله يكتفي بأفضل ما يمكنه تحقيقه أو الوصول اليه من غير أن يعرض نفسه لما تكره ، وبخاصة بعد ما عاناه من تجربتيه مع سيف الدولة وكافور ، وما أفاده منهما من عبـــــر وعظات ربما غيرت من رؤيته إلى الحياة وفلسفته فيها • هذا فضلا عن إحساسه بتقدم عمره •إلاّ أن يكون قد أضمر في نفسه شيئا ما لمّا نعلمه بعد وهذا ليس ببعيــــد • أما ما وصل الينا من شعر وأخبار فلا تشير الى أنه طلب شيئا من ساسة بغداد ، بل إنه ترفع عن مدح أى منهم • كما ((أن شعره عند ابن العميد وعضد الدولة لا يتضمن طلبا ولا أملا بحكم • واذا أردنا أن نصدق هذا الشعر نوافق القائلين بأنه فعلا قد تخلى عن طموح المجد واكتفى بالوجاهة والمال وامارة الشعر))(٢)•

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن في قول المتنبي في مدح ابن العميد(٣) :

إنْ لم تُغِثْني خيلُهُ وسلاحُهُ   فمتىْ أقودُ إلىْ الأعادي عسكرا

وفي قوله في مدح عضد الدولة(٤) :

وَلِّ السلاطين مَنْ تولاّها   والجأْ إليهِ تَكُنْ حُدَيّاهــــا

طلبا للجيوش والولايات ••(٥) إلا أن سياق البيتين في القصيدتين ، فضلا عما نحســـــه من خفوت الحدة في هذا الطلب في المكانين ، لا ينبيء عن رغبة ملحة تعتمل في نفـــس المتنبي تدفعه إلى الإصرار على ذلك ، فإن لم يكن هذا منه على سبيل المدح فإنه بقايا رغبـــة

---

(١) الرؤوس ٢٨١ وينظر : مطالعات في الكتب والحياة عباس محمود العقاد ١٨٣ـ١٨٤
(٢) المحصول الفكرى للمتنبي ١٨٢ •
(٣) التبيان ٢ : ٢٠/١٢٤ •
(٤) نفسه ٤ : ٤٥/٢٨٤ •
(٥) ينظر : فصول في الشعر ونقده ١٠٤ـ١٠٥ •

خبت جذوتها في نفسه أو تكاد •

إن رحلة المتنبي نحو المجد الذى تمثل له ــ فيما تمثل ــ في الحكم والسلطان • والذى قال عنه الثعالبي ((وما زال في برد صباه الى أن أخلق برد شبابه ، وتضاعفت عقود عمره ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف))(١) ، خلقت في نفسه تمزقا فظيعا ، ومؤلما ((مبعثه تلك المعادلة الصعبة التي أخفق في تحقيقها ، وطرفاها المتنبي الرجل والشاعر ، ثمّ المتنبي الطامح الى مركز اجتماعي وسياسي يرى أن حقه أن يتبوأه بجدارة))(٢) • ولقد عبر عن مثل ذلك بقوله(٣) :

وفؤادي من الملوكِ وإن كـا ن لساني يُرَىٰ من الشعراءِ

لقد كان المتنبي يسعى ــ فيما يسعى اليه ــ الى رئاستين : إمارة الشعر ، وحكم ولاية • وكان عمله في سبيل إحداهما يسير موازيا للعمل من أجل الأخرى • وإذا ما حصل أن اهتم بإحداهما أكثر من الأخرى ــ ولا أقول دونها ــ فإن ذلك يكون بحسب الظروف التي يمر بها ، والحالة النفسية التي تتلبسه ، فضلا عن أن كلا منهما كانت تسخر في خدمة الأخرى وبخاصة إذا ما اقتضته الظروف أن يزيد من عنايته بإحداهما • لقد ((كان يأمل أن يصنع مجدا سداه الأدب ، ولحمته أمجاد حربية يحققها بحد السيف))(٤) ، وما الأدب إلا إمارة الشعر ، وما الأمجاد الحربية إلا الملك والزعامة • ألم يقل(٥) :

---

(١) يتيمة الدهر ١/١١٣ •

(٢) المتنبي والطموح القلق ، منذر الجبوري ، مجلة الطليعة الأدبية ، العدد الثالث ، السنة العاشرة ، آذار ١٩٨٤ ص ٢٣ •
ولقد حاول عدد من الباحثين التكهن بما يمكن أن يكون من المتنبي فيما لو تمّ له ما أراد من حكم وولاية ، من ذلك ما ذهب اليه إبراهيم عبد القادر المازني بقوله ((وهو لا يعرف على وجه الدقة ماذا يريد من الأيام • نعم لقد طلب الحكم ، وبغى أن يؤمر على الناس ، ولكني أحسب أن لو كان نال ذلك لما قنع به ولا قعد عن الطلب)) (حصاد الهشيم ٢٢١ــ٢٢٢) • ومنه قول الدكتور شكرى عياد ((لست أشك أنه لو أنيل ما تمناه من الامارة لعافتها نفسه بعد قليل • فقد كانت عظمة روحه بقدر فساد زمانه)) (المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس (صيغة التفضيل في شعر المتنبي) ١٤٩) ومنه أيضا تساؤل الدكتور جعفر ماجد ((ومن يدعي أن الولاية لو تمت للمتنبي كانت تريحه من حيرته وتحميه من هواجسه وأحلامه ؟)) (حكمة المتنبي ، مجلة الأقلام ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشرة ، كانون الثاني ١٩٧٨ ص ٦٨ •

(٣) التبيان ١ : ٥/٢٤ •

(٤) مع شعراء الأندلس والمتنبي ، أميليو غرسيه غومث ٤٧ •

(٥) التبيان ٣ : ٢٢٢/٢٢ (وتنظر رواية العرف للبيت ٢/٢٤٣) وينظر ١ : ٣٦/١٨ •

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ

فقرن بين السيف والقلم مساويا بينهما كتساوى أهمية دورهما في بناء ما سعى إليه من مجد .

المرأة ــ الاستقرار :

إن علاقة المتنبي بالمرأة بوصفها باعثا على الرحلة ، ينبغي أن ينظر اليها ــ كما أرى ــ من زاويتين متداخلتين ومتكاملتين . أما الأولى ، فإن المرأة كانت باعثا على الرحلة من حيث عدم استطاعتها جذب المتنبي الى الاستقرار والمكوث في مكان واحد معين . وربما كان من ذلك ، قوله (١) :

ولِلخُوْدِ مني ساعةٌ ثمّ بيننا فلاةٌ إلى غيرِ اللقاءِ تُجابُ

وسواء أكان في مثل هذا البيت يقرر محدودية بقائه إلى جانب المرأة بإصرار ، أم أنه يتألم لأنه لم يستطع الركون اليها أكثر ، فإن ذلك يعود الى عدم قدرة المرأة على شده إلى المكوث بجانبها ، فطفق يجوب الآفاق .

أما الزاوية الثانية (المكملة للأولى) ، فإن المتنبي ــ كأى رجل ــ كان يبحث عن امرأة يستطيع أن يسكن اليها مطمئنا ، هادىء البال ، بل قل تجبره على ذلك إذا ما أحس بارتباط نفسي بها ، فضلا عن الالتقاء الروحي والتقارب الفكرى ، وأظن أنه على الرغم من سعيه الدائب والمتجدد نحو المجد فقد كان على استعداد لأن يذر حياة الرحلة والقلق، أو يقلل منها في الأقل، فيما لو وقع على صدر يحس به ، ويقدر على احتواء كل ما يكتنف شخصيته من قلق ومخاوف وآمال وطموحات وحب ، فضلا عن جسده . ألم يقل شاكيا ، متألما (٢) :

لم يتركِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي شيئا تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ ولا جِيدُ

إن هذا البيت هنا تعبير عن شكواه الدهر وألمه منه لأنه لم يمكنه من العثور على امرأة تنتشله من هذا الخضم المتلاطم من الصراعات فيهدأ ويسكن . وبخاصة بعد أن ذاع صيته ، وبعد أن لن يعوزه المال . ولعل من ذلك قوله (٣) :

---

(١) التبيان ١ : ١٣/٣٦ .
(٢) التبيان ٢ : ٥/٨٦ .
(٣) التبيان ٢ : ٨/٨٦ .

اذا أردتُ كُمَيْتَ الخمرِ صافيةً   وجدتُها وحبيبُ النفسِ مفقودُ

إن أول نموذج للمرأة في حياة المتنبي بحث فيه القلق وعدم الاستقرار ، من حيث فقده اياها ، ثمّ بحثه عمن يداني منزلتها في نفسه ويملأ الفراغ الذى تركته فيها ، ذلك هو نموذج الأم .

لم يصل الينا عن أم المتنبي أى نص تاريخي يذكر شيئا عنها ، كما لم يبين لنا شعر المتنبي نفسه شيئا من ذلك . ولكن الذى نخمنه من خلال استقرائنا شعر المتنبي وما وصل إلينا من أخباره ، أن أمه ماتت وهو لما يزل رضيعا ، هذا إن لم تكن ماتت ساعة ولدته . ومن هنا بدأ الشعور بالفراغ وبالخوف يدبان إلى نفسه . وهل هناك أمس حاجة من طفل رضيع الى أمه ؟ وبذلك فإني لا أتفق مع هادى الخفاجي فيما ذهب إليه من عزوه بدء إحساس المتنبي بالفراغ وبعدم الاطمئنان إلى ما سماه ((بالظلم الاجتماعي)) الذى استشعره المتنبي بعد أن أحس بالألم من جدته وأبيه ، ثمّ من لداته لما شعر منهم من تشاؤم منه ، لانه السبب في موت والدته ، أفلم تمت حينما ولدته ؟ . ويعزو الخفاجي هذا التشاؤم من الطفل الذى يتوفى أحد أبويه عند ولادته إلى العادات الاجتماعية الموروثة . ثمّ يذهب الى أن المتنبي قد تساءل في نفسه عن سبب حقد الأهل عليه (كذا .) في شيء لم يكن له فيه يد .[1]

وهنا يأتي دور الجدة ــ وبخاصة أنها جدته لأمه ــ . لا شك أن هذه المرأة الطيبة قد حاولت أن تهب هذا الطفل اليتيم ، ثمّ الشاب ما يسعها من حب وعطف وحنان ، ولكني أرى أن الانسان بما فطره اللّه ــ عزّ وجل ــ عليه ، يحس بمن حوله ، كل بما هيأه اللّه له ، فالأم أم والجدة جدة . المهم أن هذا الإحساس بالفراغ وعدم الاطمئنان قد دفع بالمتنبي إلى اللجوء إلى جدته هذه عسى أن يجد لديها العوض عما فقده بوفاة أمه . قال في قصيدته التي رثاها بها :[2]

فوا أسفا ألاّ أُكِبَّ مُقَبِّلا   لرأسِكِ والصدرِ الّذَيْ مُلِئا حَزْما

فمع ((أن تقبيل الصدر فيه ما هو غير مألوف من تقبيل الناس لأمهاتهم وجداتهم وأخواتهم وبناتهم في الحياة أو بعد الموت))[3] ، فإنه يوحي بما كان به من

---

(١) ينظر : ظاهرتا الـ ((أنا)) والـ ((نحن)) في شعر المتنبي ٤٦ ــ ٤٧ . والحقيقة أني لم أسمع بمثل هذه العادة .

(٢) التبيان ٤ : ٢٤٤ / ٢٠ .

(٣) المتنبي والنفس ٢٥ .

حاجة ماسة إلى الحب ـ ولن أذهب ههنا مع النفسيين في تفسير هذا البيت وغيره الى أبعد من ذلك ، حتى لا نخرج عن غاية هذا البحث وحدوده[١] ـ إلا أن هذه المرأة (الجدة) لم تمسك بالمتنبي فيبقى إلى جانبها ، بل انه خرج يطوف الآفاق، فهل يعود هذا إلى عدم تمكنها من جعله يستقر ويسكن لما كان يملأ نفسه من آمال وطموحات بعيدة المرمى ؟ أو إلى أنها هي التي دفعته إلى تحقيق شيء ما ؟ يقول في رثائه اياها[٢]:

طلبتُ لها حظّا ففاتَتْ وفاتني وقد رَضِيَتْ بي لو رَضِيتُ لها قَسْما

الذى أراه في هذا البيت أن رحيله هذا في طلب الحظ كان بدافع من نفسه أولا ، لأن جدته كانت سترضى بما قسم لها إذا ما رضي هو . ولكنها مع ذلك تشكل دافعه الثاني إلى الرحلة من حيث عدم تمكنها من إقناعه بأن يرضى بالذى رضيت به فلا يرحل ، أو من أنها أوحت اليه بأمر ما خرج يطلبه أو يصنعه ، وبخاصة أن هناك شامتين فرحوا بموتها . قال[٣]:

لئن لذَّ يومُ الشامتين بموتِها لقد وَلَدَتْ مني لآنافهم رَغْما

بل إنه بعد هذا البيت في القصيدة يذكر سفراته ورحلاته وما عزم على الحصول عليه بالقوة ، فضلا عن فخره بنفسه[٤] .

أما النموذج الثاني للمرأة في حياة المتنبي فيتمثل في <u>الزوجة</u> . ((وقد تزوج المتنبي ، ورزق ولدا ، ولكنه لم يحدثنا بشعره شيئا عن امرأته وحبه لها . ولو لم نعلم أن له ولدا لجهلنا أمر زواجه لأن مؤرخي الآداب سكتوا عنه))[٥] . وبسبب من هذا الغموض الذى يلف حياة المتنبي الأسرية ، نشط الدارسون والباحثون في تلمس الأسباب الموصلة إلى إماطة اللثام عن هذه الحقيقة الخافية المخفية ، وهل هذه

---

(١) ينظر : المتنبي والنفس ٢٤ـ٢٧ .
(٢) التبيان ٤ : ٢٤٤/١٥ .
(٣) التبيان ٤ : ٢٤٤/٢٣ .
(٤) ينظر : التبيان ٤ : ٢٤٤/٢٤ـ٣٤ . ويربط الدكتور علي كمال ـ في معرض حديثه عن نرجسية المتنبي ـ بين نموذات المتنبي وتقديره لها من جهة ـ التي تنعكس في فخره بنفسه في هذه القصيدة فضلا عن غيرها ـ وطبيعة علاقته بأمه وجدته من جهة أخرى (تنظر تفصيلات هذا الرأى وأبعاده في : المتنبي والنفس ٢٠ ـ ٢٧) .
(٥) أدباء العرب في الأعصر العباسية ٣٣٩ .

الأسباب إلا في استقراء شعر الرجل ، وإنعام النظر تأملا وتفتيشا في ما وصل إلينا من سيرته وأخباره • وهكذا أبدى كل منهم رأيه في هذه المسألة حسبما قرأ الديوان واستنادا إلى طريقته الخاصة في النظر والتفكير • فقال محمود محمد شاكر ((وكان المتنبي لسنته تلك ، سنة ٣٢٣ ، عزبا لا يأوي إلى سكن من النساء ، ولعل جدته رأت أن تهدئ منه قليلا بالزواج ، فزوجته على غير رغبة منه قريبا من سنة ٣٢٥ قبل خروجه من الكوفة ، وذلك لأن المتنبي بعد مرجعه الى الشام سنة ٣٢٦، ذكر لأول مرة في شعره ((الأبوة)) • فمما عرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل به أمر أو جدّ في حياته جديد ، فسرعان ما يتلجلج ذلك في صدره ولا يستقر حتى يشير إليه في شعره ، لكثرة ما تلد الحوادث في شاعرية هذا الرجل من المعاني والآراء))(١) ، والشعر الذى استدل به شاكر على رأيه هذا هو قوله في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران(٢) :

وترى الفتوّةَ والمروّةَ والأبـ ـوّةَ فيَّ كلُّ مليحةٍ ضرّاتِها
هُنَّ الثلاثُ المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوفُ من تَبِعاتِها

ثمّ يقول ((ولعل ولده الذى ذكره في قوله : ((الأبوة)) هو ((محمد))))(٣) •

وخلافا لما ذهب اليه الأستاذ شاكر في أن المراد بالأبوة هنا هو المسؤولية الأبويـة ((أى المنسوبة الى الأب))(٤) • أرى أن المقصود بها هو الإباء والأنفة وعزة النفس(٥) ، إذ تصبح بذلك أكثر تناسبا مع ما قبلها من كلمتي : المروّة ـ من المروءة ـ والفتوّة ، بما يقوى المعنى ويزيد من دلالته • وتأسيسا على ذلك فانني أرجح رأى الدكتور عبد الوهاب عزام ، الذى يذهب فيه الى أن قول المتنبي(٦) :

في الناسِ أمثلةٌ تدورُ حياتُها كمماتِها ومماتُها كحياتِها
هِبتُ النكاحَ حِذارَ نسلٍ مثلِها حتى وَفَرْتُ على النساءِ بناتِها

ـ من القصيدة نفسها التي اعتمد عليها الأستاذ شاكر في تحديد تاريخ زواج المتنبي ـ

---

(١) المتنبي ١/١٢٠ •
(٢) التبيان ١ : ٤٥/٨-٩ •
(٣) المتنبي ١/١٢٠ •
(٤) ينظر : التبيان ١/٢٢٧ •
(٥) ينظر : العرف الطيب ١/١٩٠ •
(٦) التبيان ١ : ٤٥/٣٨ـ ٣٩ •

((يدل على أنه لم يتزوج إلى ذلك الوقت • وإذا أخذنا بترتيب الديوان فقد أنشأ هذه القصيدة بعد مفارقته بدر بن عمار أي بعد سنة ٣٢٩ هـ ، وسن أبي الطيب حينئذ زهاء ستة وعشرين عاما • ولا ندرى متى تزوج • ولكن دلنا على أن له عيالا حين قال لسيف الدولة سنة ٣٣٧ ، وقد أزمع السير لنصرة أخيه ناصر الدولة وسأله أن يسير معه • قال : •••••

إنّ الذي خَلّفتُ خلفي ضائعٌ ... مالي على قَلَقي إليه خِيارُ
وإذا صُحبتَ فكلُّ ماءٍ مَشرَبٌ ... لولا العيالُ، وكلُّ أرضٍ دارُ
إذْنُ الأميرِ بأن أعودَ إليهمُ ... صلةٌ تسيرُ بذكرِها الأشعارُ

••••• فهؤلاء العيال زوجه وأولاده أو زوجه وحدها ، وقد كنى عنها • تزوج الشاعر اذن قبل سنة ٣٣٧ • وان صح ترتيب الديوان في القصيدة الثانية كما قلت آنفا ، فزواجه بين سنتي ٣٢٩ و ٣٣٧ هـ))[١] •

ويلجأ الأستاذ شاكر الى تقليب النصوص وتفسيرها بما يتناسب ووجهة نظره الخاصة ، لينتهي الى استنتاج تفصيلات في هذا الموضوع يصعب إثباتها أو تأكيدها • إذ يذهب إلى أن قول المتنبي يخاطب سيف الدولة[٢] :

نحن من ضايقَ الزمانُ لهُ فيكَ وخانَتْهُ قُربَكَ الأيامُ ••••

وقوله[٣] :

رُوَيْدَكَ أيها الملكُ الجليلُ ... تأيَّ وعُدَّه مما تُنيلُ ••••

إشارة الى مرض زوجه التي يبدو أنها كانت حاملا ، ثمّ جاءها المخاض فأعضلت وعسرت ولادتها ثمّ رمت ذا بطنها وماتت • وكان مرضها ذلك في حملها ، ثمّ ما تركت له وراء ظهرها ، ولعل الوليد مات بعد أشهر قبل أن يستمسك[٤] •

واذا ما تأملنا الديوان فسنرى ورود إشارات أخرى تدل على وجود أهل للمتنبي قد يكونون زوجا أو عيالا أو كليهما • من ذلك قوله في رثاء ابن سيف الدولة[٥] :

---

(١) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ١٩٧ والأبيات ، التبيان ٢ : ٩٣/١٤ــ١٦ •
(٢) التبيان ٣ : ٢١٩ / ٢ •
(٣) نفسه ٣ : ١٧٤/١ وما بعده •
(٤) ينظر: المتنبي ١ / ٢٠٨ ــ ٢١٢ •
(٥) التبيان ٣ : ١٧٨/ ٣٠ •

وقد ذقتُ حلواءَ البنين على الصِبا　　فلا تحسَبَنّي قلتُ ما قلتُ عن جهلِ

وقوله في توديع ابن العميد (١) :

وقد كنتُ أدركتُ المنى غيرَ أنني　　يُعَيِّرُني أهلي بإدراكِها وحدي

وهكذا نرى أن المتنبي على الرغم من ترداده ذكر الأهل والبنين ، لم يقر له قرار . وهذا ما يجعلنا نذهب أحد مذهبين : إما أن تكون زوجه قد ماتت ، أو أنه تزوج بغير رغبة منه — من أجل ارضاء جدته مثلا — ، وفي كلتا الحالين لن يستقر في مكان معين ما دام يفتقد ما يربطه به .

أما الأولاد فلا نعرف عنهم إلاّ كلامه الغامض عليهم في شعره ، وإلاّ ماورد من أخبار قليلة لا تشفي غليلا عن ابن له يدعى ((محسد)) (٢) . بل إن هذه الأخبار لا تذكر محسدا هذا إلاّ بما يشير إلى كونه فتى ، أما أمه أو أين ولد ومتى ؟ وكيف تربى ؟ وهل صحب أباه في جولاته أو لا ؟ وأين كان يبقى وعند من إذا لم يصحبه ؟ فأسئلة لا جواب عنها ولا مجيب .

ولعل هذا الغموض الذى أحاط بأسرة المتنبي من زوج وعيال — سواء أكان ذلك بتعمد من المتنبي أم بسبب من الرواة ونقلة الاخبار أم غيرهم — مما دفع الباحثين الى القول ((ان هموم الرجل لم تكن لتسمح له بالانصراف الى عائلته والارتياح الى حياة الاستقرار البيتي ، فآماله أغلى عليه من أهله ، ولذلك استطاع أن يسافر ويتجول ولا يطمئن في مكان ويقلب ظهر الممالك الاسلامية ظهرا لبطن ، مما لا يقوم به الاّ عزب متوحد أو شخص متحرر الى حد كبير من العواطف العائلية ، وقد كان أبو الطيب هذا الشخص المتحرر . . . . . ان الصدى الذى يرن في نفسه هو المغامرة والرحلة والإقدام من غير أن تثقل العواطف العائلية رجله أو تشل حركته . وطموح شاعرنا شخصي اذ لم يعلن بأنه يجمع المال لأبنائه أو يبني المجد لذريته ، بل لنفسه وربما للمجتمع الكبير)) (٣) . ولا بدّ لي بعد هذا القول أن أتساءل : أما كان المتنبي ليعاف حياة الرحلة والتنقل لو أحس بعاطفة أسرية صادقة ؟ أو ألا يمكن أن يكون في رحلاته هذه يبحث — فيما

---

(١) التبيان ٢ : ٨٩/٣٩ وينظر ١ : ٣٥/٢٥ــ٢٨ و ٢ : ١٧٣/٢٢ــ٢٩ .
(٢) ينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ٢٢، وخزانة الأدب ٢ / ٢٦٠ و ٢٦٣، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٧٤ و ٢٦٦، وذكرى ابي الطيب بعد ألف عام ١٩٩ــ٢٠٠ .
(٣) المحصول الفكرى للمتنبي ١١٥ــ١١٦ .

يبحث ــ عن عاطفة أسرية صادقة تشده الى حياة الاستقرار عندما فقد الإحساس بها ، أو حين لم يحس بها ؟ أنا أرى أن بلى • ثمّ هل من الممكن لشاعر مرهف الحس ، رقيق المشاعر ــ على الرغم مما يبدو عليه من قوة أو ما يحاول أن يبديه منها ــ كالمتنبي أن يترك عياله أو أطفاله ــ لو كان له عيال ــ ؟ وبخاصة إذا ما كانت بهم حاجة إليه ؟ وهو الذى قد عبر عن أصدق مشاعر الأبوة حين قال في مدح كافور (١) :

إنما أنتَ والدٌ والأبُ القا ... طـعُ أحنى من واصلِ الأولادِ (٢)

أما ما يمكن أن يكون قد أخذ عليه واتهم به ، من مثل قوله :

هل الولدُ المحبوبُ إلا تَعِلَّةٌ ... وهل خلوةُ الحسناءِ إلا أذى البَعْلِ

فلم لا يعد مما يقال في ساعة ألم أو لحظة غضب ، بمعنى أنه شعور آني يزول بـزوال مؤثره ؟ فهل الشعر الآ نفثات والتماعات تند عن الصدر وقد تصل حد التناقض، ذلك أنه ((تعبير عن يقين اللحظة النفسية وليس عن اليقين المطلق الذى ينتظم من خلال مبدأ عام)) (٣) •

أما النموذج الثالث للمرأة في حياة المتنبي ، مما له علاقة بترحله الدائم فهو نموذج الحبيبة • تلك التي تكلم عليها في شعره الغزلي الذى قدم به لعدد كبير من قصائده • ولعل ما قاله من غزل تعبير عن حاجته إلى الاستقرار ، إلى المرأة التي يسكن في جوانحها كما تسكن هي في جوانحه ، فيجعله حبها يأوي اليها آمنا مطمئنا ملقيا عصا ترحاله في كنفها •

لقد كان المتنبي يبحث عن صاحبة مثواه ، أفلم يقل قديما إن المرأة هي أم مثوى الرجل وصاحبته (٤) • ولا شك في أن ((من طبيعة المثوى أن يخلد فيه الرجل الى دعته الخاصة ، ويلقي فيه نفسه اللائبة مطمئنة بعد خوف ، مرتاحة بعد لأي ونصب وغربة وضياع)) (٥) • لذلك قال (٦) ، مما قال :

---

(١) التبيان ٢ : ١٦/٨٥ (٢) نفسه ٣ : ٢٩/١٧٨
(٣) نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص ٢٢٤ •
(٤) ينظر: لسان العرب ١٣٦/١٨ ، والمرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها ، عبد الله الطيب ٨٩٩/٣ •
(٥) الرحيل من الوطن اليه ، د • عبد الوهاب محمد علي العدواني ، مجلة الأقلام العدد العاشر ، السنة الثالثة والعشرون ، تشرين الأول ١٩٨٨ ص ٣٨ •
(٦) التبيان ٢ : ٤/٨٦ •

وكان أطيبَ من سيفي مُضاجَعةً　　　أشباهُ رونقِـه الغيدُ الأ ُماليدُ

فهو يعلم أن الحياة ليست كلها صراعا وتحديات ، وانما لا بدّ له فيها من ومضات نعومة وحنان تمسح عنه ما تركت فيه الهبوات السود من آثار دامية(١).

إن غزل المتنبي الذي هو تعبير عن كل حاجته إلى الحب ، بما يحنيه هذا الحب له من استقرار نفسي واطمئنان روحي وراحة جسدية ، كان ـ ككل شعره ـ عرضة لتأويلات شتى وتفسيرات مختلفة ، وصلت حد التناقض ، تحدوها جميعا ـ ولا شك ـ الرغبة في الوصول إلى حقيقة هذا الغزل ، وفهم نفسية قائله • ولعل مما ساعد على خلق ذلك النشاط في استقراء هذا الشعر ودراسته ، ما لفّ شطرا كبيرا من حياة المتنبي وفنه من غموض وخفاء • ومن هنا حاول الباحثون والدارسون الإجابة عن أسئلة من مثل : أأحب المتنبي أم لم يحب ؟ فإن كان قد أُحب فمن المرأة التي أُحبها ؟ وان لم يكن قد أُحب فما دلالة هذا الشعر الغزلي ؟ • فذهب عدد من الباحثين الى أن المتنبي قد أُحب خولة أخت سيف الدولة الحمداني(٢) • وذهب عدد آخر الى احتمال أن يكون قد أُحب خولة هذه(٣). وترى مجموعة من الباحثين أن قلب المتنبي قد عرف العشق ، ولكنهم ـ أي الباحثين ـ لم يتمكنوا من تحديد المرأة التي خفق لها(٤).

---

(١) ينظر : المتنبي بين البطولة والاغتراب ١٧٣، والصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٧١ ـ ٣٧٢ •

(٢) من هؤلاء الباحثين : محمود محمد شاكر في (المتنبي)، ومارون عبود في (الرؤوس) ، و د • زكي المحاسني في (المتنبي)، وابراهيم العريض في (فن المتنبي بعد ألف عام)، و د •صفاء خلوصي في (المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس (لغة الحب عند المتنبي)) •

(٣) من هؤلاء الباحثين : محمد أبو شلباية في (المتنبي والمرأة)، وسهيل عثمان ومنير كنعان في (المحصول الفكرى للمتنبي) •

(٤) من هؤلاء الباحثين : د • جلال الخياط في (المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته) ، ومحمد ابراهيم أبو سنة في (الغزل في شعر المتنبي)، و د • علي شلق في (المتنبي شاعر الفاظه تتوهج •••)، و د • حسن الشماع في (صورة المرأة في غزل المتنبي وعلاقته بها)، ومحمد شرارة في (المتنبي بين البطولة والاغتراب) ، ونورة الشملان في (المتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس) •

في حين ترى مجموعة أخرى أن المتنبي لم يحب البتة ولم ينبض قلبه لعشق أبدا[(١)] • كما ذهب آخرون الى أن غزل المتنبي تقليدي ومتكلف ولا يخلو من التصنع[(٢)] • ثم ليذهب أحد الباحثين إلى القول إن المتنبي قد يكون أحب امرأة من آل أبي العشائر ، أخته أو زوجه[(٣)] (كذا !) • ومن المثير ههنا أن كل هؤلاء الباحثين والدارسين قد التمسوا في شعر المتنبي نفسه ، وفي ما ورد عنه من أخبار ، أدلة لإثبات آرائهم وترجيحها[(٤)] •

ان من يقرأ غزل المتنبي ، من مثل قوله[(٥)] :

لعينيكِ ما يلقىٰ الفؤادُ وما لَقي	وللحُبِّ ما لم يبقَ مني وما بَقي
وما كنتُ مِمَّنْ يد خلُ العشقُ قلبَهُ	ولكنَّ مَن يُبصِرْ جفونَكِ يَعشَقِ

وقوله[(٦)] :

وعذلتُ أهلَ العِشقِ حتىٰ ذُقتُهُ	فعجبتُ كيف يموتُ من لا يعشقُ
وعذرتُهمْ وعَرَفتُ ذنبي أنَّني	عيَّرتُهمْ فلقيتُ فيه ما لَقُوا

لما شك في أن الحب قد مس شغاف قلبه ، وداعب أوتار روحه • فكيف لمن لم يعان الحب بكل مسراته وعذاباته أن يقول مثل هذا الشعر المفعم بجمال الإحساس وتدفق العاطفة ، والمليء بصور الحب من رضى وغضب ، ووصل وهجر ، وخوف وأمن ، وحزن وفرح ،

---

(١) من هؤلاء الباحثين : اميليو غرسيه غومث في (مع شعراء الأندلس والمتنبي) ، وبطرس البستاني في (أدباء العرب في الأعصر العباسية) ، وعدنان الحوادي في (التضخم الذاتي عند المتنبي) ، و د • عبد الفتاح صالح نافع في (لغة الحب في شعر المتنبي) •

(٢) من هؤلاء الباحثين : عباس حسن في (المتنبي وشوقي) ، وجورج غريب في (المتنبي) ، ود • محمد مهدي البصير في (في الأدب العباسي) •

(٣) هو عبد الله الطيب في (مع أبي الطيب) •

(٤) للاطلاع على المزيد مما قيل حول حقيقة غزل المتنبي ، ينظر : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٣٢٣ ـ ٣٢٩ ، وصورة المرأة في غزل المتنبي وعلاقته بهـا د • حسن الشماع ، مجلة المورد ، المجلد التاسع العدد الثالث خريف ١٩٨٠ ص ٨٤ ـ ٩٥ ، والمتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ١٤٦ ـ ١٤٩ •

(٥) التبيان ٢ : ١٥٢ / ١ ـ ٢ وينظر ما بعدهما •

(٦) نفسه ٢ : ١٥٤ / ٥ ـ ٦ وينظر ما قبلهما • وينظر ٢ : ١٥١ / ١ ـ ٩ و ٣ : ١٨٧ / ١ ـ ١١ و ٤ : ٢٢٣ / ١ ـ ١١ ••• وغيرها •

وقلق واطمئنان • وهذا كله كان على الرغم من كل ما عاشه وعاش فيه من مطامح صعبة المرتقى ، وآمال بعيدة المنال، أحاطت حياته بالخوف والقلق والألم • فلقد كان الحب الحقيقي الصادق هدفا من أعز الأهداف التي سعى اليها ، وأمنية من أغلى الأماني التي رغب في تحقيقها ، ولو وجد مثل هذا الحب لعاشه بكل ذرة في كيانه •

قد يكون المتنبي عايش تجربة أو أكثر من تجارب الحب ، لكنه لم يجد فيها حبه الكبير ، الراسخ ، الثابت ، الذى يجذ به إلى حياة الاستقرار • ولعل غزل المتنبي الجميل هذا ، الذى قاله على امتداد حياة قضاها راحلا متنقلا ، مما دفع بالدكتور جليل رشيد إلى أن يصف المتنبي بأنه ((عاشق غير متفرغ لعشقه))(١) • وأزعم أن لو وجد المتنبي حبه أو عشقه الذى بحث عنه ـ في خضم ما كان يبحث ـ ، لكان قد تفرغ له ، ولكان قد أبان ـ فضلا عمّا ظهر ـ عما في داخله من نفس رقيقة ، مرهفة ، كان يمكن أن تصبح مشروعا دائما للحب والهيام لو وجدت توأم روحها ، أو ولدت في ظروف أخرى أكثر ملاءمة ، تفجر فيها كوامن العشق والهوى •

ولعلّ مما يثبت رأينا في ما ذهبنا اليه من بحث المتنبي عن حب كبير يحتويه وليس لذة وقتية أو متعة عابرة ، احترامه للمرأة التي يذكرها في غزله أو قل التي يفتش عنها فيه • ويظهر هذا في تصويره تمنعها وإبائها ، فضلا عن عزة قومها ومنعتهم • من ذلك قوله(٢) :

مُنَعَّمَـــةٌ مُمنَّعَـــةٌ رَدَاحٌ ‏ ‏ ‏ يُكَلِّـــفُ لفظُها الطـيرَ الوُقوعـــا

وقوله(٣) :

عدويـــة بدوية من دونهـــــا ‏ ‏ ‏ سلبُ النفوسِ ونارُ حسوبٍ توقَـــدُ

ثمّ انه لا ينيء يذكر عفته في أثناء لقائه بها ، حقيقة أو حلما ، قال(٤) :

عواذلُ ذاتِ الخالِ فيَّ حَواسِـدُ ‏ ‏ ‏ وإن ضجيعَ الخَوْدِ مني لَماجِـــدُ

يردُّ يدا عن ثوبها وهو قـــادرٌ ‏ ‏ ‏ ويعصي الهوىٰ في طيفها وهو راقـدُ

متىٰ يشتفي من لاعجِ الشوقِ في الحشىٰ ‏ ‏ ‏ مُحِبٌّ لها في قربـه متباعِـــدُ

يقول رضوان الشهال في معرض تعليقه على هذا البيت الثاني (يرد يدا •••) ((معنى ذلك أن العفة ليست عند صاحبنا العملاق مجرد سلوك يقسر نفسه عليه في

---

(١) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٧٠ •
(٢) التبيان ٢ : ٤/١٤١
(٣) نفسه ١ : ٧/٦٥ وينظر ٣ : ٦/١٨٧ـ٧ •
(٤) نفسه ١ : ١/٥٩ـ٣ وينظر ١ : ٧/٤٥ـ٩ و ٢ : ٨/١٥٢ •

حالة الوعي ، بل لقد نفذت العفة الى الضمير اللاوعي منه فاذا هي عفة طبيعية أصيلة وعميقة في النفس حتى لتحول دونه ووصال طيف الحبيبة في المنام • وبعد فما اعتقد أن الاحترام للمرأة وللحب يمكن أن يبلغ الى أعمق من هذا أو أكثر خلوصا))(١) • ولا يعني كل هذا أن يكون ما عرض لـه المتنبي من وصف جمال الحبيبة وذكر محاسنها انتقاصا من شخصيتها وانتهاكا لحرمتها ، أو إشارة الى عدم مبدئية المتنبي وهشاشة التزامه الأخلاقي حيال المرأة ــ الحبيبة التي يفتش عنها • بل إنه كأى انسان يبحث عن جمال الهيئة في من يحب كما يبحث عن جمال الجوهر، فضلا عما تقتضيه طبيعة التعبير الفني من ذلك(٢) •

أما ما ورد من شعره يصور فيه أنفته من الحب ورفضه اياه من مثل قوله(٣) :

وما العشقُ إلا غِــرَّةٌ وطَماعَـةٌ يُعَرِّضُ قلبٌ نفسَــهُ فتُصــابُ
وغيرُ فؤادي للغوانـي رمِيَّـــةٌ وغيرُ بناني للرماحِ رِكــابُ

فقد يكون ذلك منه ((ترفعا وخجلا وابتعادا عن المواجد الخاصة ، وترسيخا لمواقف الجد والبطولة والنضال ، وايمانا بأن الحب يكشف بوضوح ، عقدة الكمال التي اجتاحت الشاعر ، باظهار نقص فيه محتم ، تطمئنه وتتممه المرأة ، فهو بدونها لا يستقل بذاته عن هذه الدنيا ، ولا يصطنع عالما خاصا له حدود وأسوار ، فيرفض وجودها أحيانا ليوهم نفسه بالكمال التام • الا ان حبه وتطلعه الى النساء ورد ، بالرغم منه ، واضحا في ثنايا بعض قصائده))(٤) • أو لعله قال ذلك في ساعة يأس أو غضب بحكم ظرف ما •

وقد يقول قائل ، لقد ورد في قصيدة المتنبي (أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب •••) البيت الآتي :(٥)

تُخَوِّفُني دون الذي أمرتْ بـــهِ ولم تَدْرِ أن العارَ شــرُّ العواقبِ

---

(١) أبو الطيب المتنبي عملاق الواقعية في الشعر العربي ٣٣٦ ــ ٣٣٧ •
(٢) للاطلاع على أخلاق المرأة التي تغزل بها المتنبي وأوصافها الحسية ، ينظر: المحصول الفكرى للمتنبي ٢٨٥ــ٣٠١، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١٣٨ــ١٤٢، وصورة المرأة في غزل المتنبي وعلاقته بها ٧٦ــ٨٤، ولغة الحب في شعر المتنبي ١١٥ــ١٢٥، والمتنبي الإنسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ١٥٠ــ١٥١ •
(٣) التبيان ١ : ٢٦/١٤ــ١٥ •
(٤) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ٨٥ وينظر: الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٧٤ــ٣٧٨ •
(٥) التبيان ١ : ٣٣/٨ •

ومما جاء في شرحه ((•• وقال الواحدي : الذي أمرت به ترك السفر وملازمة البيت • أي تخوفني بالهلاك ، وهو دون ما أمرت به من ملازمة البيت ، وفيه العار ، والعار شر من النوائب))(١) • فما دامت حبيبته ههنا قد دعته الى الركون والتزام البيت ، فلم لم يستجب لها ، لو أنه حقا كان يبحث عن الحب ليستقر ؟ فأقول ، لو تأملنا القصيدة لرأينا المتنبي يقول قبل هذا البيت(٢) :

أراكِ ظننتِ السلكَ جسمي فعُقْتِهِ — عليكِ بدُرٍّ عن لقاءِ الترائبِ
ولو قَلَمٌ أُلقيتُ في شقِّ رأسهِ — من السُّقمِ ما غيرتُ من خطِّ كاتبِ

ومعنى ذلك أنك لما رأيت ضعفي ونحولي منعتني من مواصلتك ، كما منعت هذا السلك الذي يشبهني في الضعف والنحول من لمس صدرك • وفي هذا ما فيه من الدلالة على عدم تحمل هذه المرأة ضعف هذا الرجل ، بل على العكس من ذلك نفرت منه وأبعدته عنها ، وما من شك في أن هذا الموقف آلمه بما سببه له من جرح في عزة نفسه وكبريائه ، فحمله على الرحيل ، على الرغم مما ذكره من محاولتها منعه عن ذلك • ولعل محاولتها هذه جاءت شعورا بالذنب أو خوفا من تأنيب الضمير إذا ما أصابه سوء في رحلته هذه ، فموقفها منه هو السبب في مغادرته • ولكن أين منها ذلك ، وكيف تستطيعه ، وقد طعنته في رجولته • ولهول الرحلة ومخاطرها أهون عليه من ألم الشعور بالعجز أو الإثقال على الآخرين فضلا عن عدم مساعدتها إياه لتجاوز ما به ، ليقول بعد ذلك ــ أي البيت الذي ذكر فيه محاولتها لمنعه من الرحيل ــ بثلاثة أبيات(٣) :

إليكِ فإنّي لستُ ممن إذا اتقى — عِضاضَ الأفاعي نام فوقَ العقاربِ

ان كلامي هذا على غزل المتنبي ، ودور المرأة ــ الحبيبة في تطوافه الدائم وترحاله المستمر ، لا يعني أنني أغفل عما ذهب اليه عدد كبير من الباحثين من أن المتنبي اتخذ من جزء ليس بالهين من أبياته الغزلية ((رمزا ليتغنى آماله وآلامه ، وليضع فيها كل ما يحس به وما يجيش في صدره • وتكاد تكون هذه الظاهرة شبه عامة في مقدماته الغزلية مما يشعرنا بأن الرجل كان يعيش عالمه الخاص وعالمه الخارجي تحت وطأة

(١) التبيان ١/١٥٠ وينظر: الحرف الطيب ١/٢٣١ •
(٢) نفسه ١ : ٣٢/٦ــ٧ •
(٣) نفسه ١ : ٣٢/١٢ •

هذه الآمال العظام والآلام المبرحة التي تأخذ من نفسه كل مأخذ))[١] • وهل العثور على امرأة تحتويه بكل عنفوانه إلا من هذه الآمال ، وهل فقدانها أو عدم العثور عليها إلا مما يشعره بالألم • فضلا عما يكون قد قام به من التعبير عن أكثر من هم وألم وأمل في مثل هذه المقدمات ، وأحدها : بحثه عن الحبيبة •

ان كل ما قيل حول رمزية غزل المتنبي ، لا ينفي ما ذهبنا اليه من شعورنا بصدق المتنبي في غزله وإحساسنا بأنه كان يبحث فيه عن حبه الكبير ، أو يقلل من شأنه •فالرمز هنا لا يلغي الحقيقة • وبناء على ذلك فانني أتفق مع الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب في ما ذهب اليه من أن غزل المتنبي كان المتنفس الطبيعي للتعبير عن حنينه إلى الحياة الأسرية الظامئة إلى الود والعطف ، وإلى الهدوء والاستقرار • وذلك لما عاناه في حياته من حرمانه من أمه صغيرا ، ثمّ معيشته الجافية ببطن الصحراء ، ورحلاته الكثيرة المليئة بالخوف والقلق والترقب ، فضلا عن كثرة الخصوم من حوله وتعرضه للقتل مرارا[٢] • ولكنني أخالفه في قوله ((فليس حنينه الى امرأة تطارحه الهوى وتبادله الغرام ••• ولكن الى حياة يعمرها الولاء ويغمرها السلام))[٣] ، إذ أن حنين المتنبي إلى حياة مثل هذه لا يمنع أن يكون حنينه كذلك إلى امرأة تطارحه الهوى وتبادله الغرام • وبخاصة إذا ما قدر أن تكون هذه المرأة زوجا ، فينعم بالحب الذى يريد ، فضلا عن الحياة الأسرية الهادئة ، المستقرة ، التي منها يبدأ استقرار الحياة وسلامها • وهل ينعم الانسان بكل ولاء الدنيا وسلامها وازدهارها ما لم يكن ينعم بحياة أسرية دافئة أو بحب كبير يملأ نفسه ثقة واستقرارا ورغبة في الحياة ؟ •

---

(١) لغة الحب في شعر المتنبي ١٢٨ • وقد أخذ عدد من دارسي شعر المتنبي بتلمس كل ما من شأنه أن يأول بالرمز من شعره ، بما يتناسب وموضوع القصيدة ومناسبتها • ينظر في ذلك : مع المتنبي طه حسين (في مواقع مختلفة)، والرمزية في الأدب العربي د • درويش الجندى ٢٨٢ــ٢٨٨، وكافوريات أبي الطيب دراسة نصية ١٥٥ــ١٥٦ و ٢٥٥، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١٤٢ــ١٥٣، والتطلع القومي عند المتنبي ٥٦ــ٥٧، والمتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ٧٣ــ ٧٤، ولغة الحب في شعر المتنبي ٢٦٣ ــ٢٦٥ •

(٢) ينظر : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٣٢٩ •

(٣) المصدر نفسه المكان نفسه •

ثالثا : المـــــال :

قال المتنبـي[(١)] :

ضاقَ صدري وطال في طلبِ الرز ... قِ قيامي وقَلَّ عنه قُعــــودي

مهما يكن من أمر تفسير معنى (الرزق) هـهنا ، فإنني أذهب الى اشتمالـــه ــ فيما يشتمل ــ على الدلالة على المال ، فقد رحل المتنبي قاصدا الى الحصول عليـــه وجمعه كما سعى وراء أمور أخر •

ان سعي المتنبي من أجل جمع المال كان النتيجة الطبيعية والحتمية لأسـبـاب وظروف عدّة تواشجت لتدفع به الى لجة البحث عن مزيد من الجوائز والهبات والعطايا • ولعل أولها ، فقره ونشأته المتواضعة • فلقد أشار ما وصل الينا عنه من أخبار فضــلا عن شعره ، الى أنه عانى في صباه ونشأته من شظف العيش ، فاذا ما مات أبـــوه ازدادت حالته سوءا • وعلى الرغم من أن الفقر مؤذ في كل زمان ومكان فإنه ربما كـان آنذاك أكثر ايذاءا وإيلاما بحكم اضطراب الظروف في ذلك العصر ، وفقدان الأمن فيه ، ناهيك عن سوء الحالة الاقتصادية •

ولعلي لا أجانب الصواب اذا ما ذهبت الى أن ما مر به المتنبي من موقف محرج وشعور مؤلم في بغداد ، وهو لما يزل صبيا ، حين أراد شراء بطيخ فرفض البائـــع أن يبيعه اياه بما معه من الدراهم لقلتها ، ورفض مساومته عليها ورده ردا عنيفــا ، ثمّ ليعرضه بائعا اياه بأقل من الثمن الذى عرضه عليه المتنبي لرجل ثرى ، لأنـــه يملك مئة ألف دينار[(٢)] ، قد حفزه ودفع به الى العمل على جمع المال والاســـتزادة منه ، ليهرب من فقره ويعوض ما عاشه من مرارة الحرمان وذل الحاجة من جهة ، وليكسب احترام الناس وتقديرهم من جهة أخرى ، أولئك الناس الذين روي على لسانه أنه قال فيهم ((فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مئة ألـــف دينار ، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون ، إن أبا الطيب قد ملــك

---

(١) التبيان ١ : ٢٢/٦٣ •
(٢) تنظر تفاصيل هذه الحادثة في الصبح المنبي عن حيثية المتنبــي ٩٥ ــ ٩٦ •

مئة ألف دينار)) (١) (٢) • قال :

إذا لم تجِدْ ما يَبْتُرُ الفقرَ قاعداً   فقمْ واطلُبِ الشيءَ الذي يَبْتُرُ العُمرا
هما خَلّتان ثروةٌ أو منيــــــةٌ   لعلّكَ أن تُبقي بواحدةٍ ذِكــــرا

فإذ لم يقتنع أو قل لم يرض لنفسه بما هو عليه من فقر وخمول ذكر ، فلقد قـــرر السعي وراء المال حتى إن اضطره ذلك لمواجهة المخاطر ، عسى أن يحصل عليه وعلى ما يريد من ورائه وإلا فالموت عنده أهون من حياة الذل والعوز •

ويقول يوسف الحاشي ، معلقا على بيتي المتنبي (٣) :

فسرتُ نحوكَ لا ألوي على أحـــدٍ   أحثُّ راحِلَتَيَّ الفقرَ والأدبـــا
أذاقني زمني بلوىً شَرِقْتُ بهـــا   لو ذاقها لَبَكى ما عاش وانتَحَبـا

((فقد تجاوز الموقف عنده مجرد الحديث عن الخصاصة ليشكل اعترافا بحدة الفقــــر وأثره في نفسه • وتتمثل حدة تأثير الفقر عليه في الاستعمالات ((أذاقني)) ((والبلوى)) ((وشرقت)) ، وقد حمله هذا الوضع على التشبث برغبة الكسب ••• ، وتدل على ذلـــك عبارات مثل ((سرت لا ألوى ، أحث))))(٤) •

إن اقتران الفقر والأدب ، في البيتين الآنفـي الذكر ، بوصفهما راحلتين توســـل بهما المتنبي الى ممدوحه ، يشير الينا بما لجأ اليه للحصول على مطامحه الماديـــة ــ فضلا عن المعنوية ــ ، ألا وهو المديح • اذ لم يجد هذا الشاعر الطموح من ســـبيل للوصول الى آماله ومطامحه ورغباته غير مديح الآخرين ، عسى أن يصل من خلالهـــم وبوساطتهم الى ما يريده من مجد • فان لم يحقق له هؤلاء ذلك ، فليس أقل مـــن أن يحصل منهم على الهبات والجوائز ، يستعين بها على بناء المجد الذى يروم • هـــذا

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٩٦ • إن اهتمامنا بهذه الحادثة ــ فيما لو صح ما جاء فيها ــ يتأتى من ذلك الأثر البليغ الذى أحدثته في نفس المتنبي ، حتى إنه تعلل بها سببا وحيدا لما رمي به من تهمة البخل ، اذ كانت الشرارة التـي أشعلت فتيل إدراكه لأهمية المال وانتزعت منه قرار السعي من أجل الحصـــول عليه والعمل على الاستزادة منه •ففضلا عن سنوات الحرمان التي قاساها طفـلا هنا هو ذا يجبه بالرفض والزجر لأنه لا يملك ما يمكنه من شراء شيء بسيط هفتـه اليه نفسه فشعر بشدة ألم العوز وعظم ذل الحاجة • ثم يرى الناس ــ ممثلين بهذا البائع ــ يحترمون الأثرياء ويحتفلون بهم لا لشيء إلا لأنهم يملكون المال الوفير •

(٢) التبيان ٢ : ١٠٢ / ١ــ٢ (٣) نفسه ١ : ٢٢/ ٣٤ــ٣٥ •

(٤) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ٢٠١ •

اذن ، هو السبب الثاني في رحلة المتنبي لجمع الأموال فلقد رأى ((بروز عامل ((المال)) وسيلة اغراء وحلا ممكنا لتحقيق المجد وبروز الشخصية في عصر تغلب فيه الوساطات والامتيازات ، فقد أصبح المال المسلك المؤدى الى منافسة مكانة الساسة المحظوظين وفرض سلطة الأثرياء))(١) ولقد عبر عن ذلك خير تعبير في قوله(٢) :

فلا يُنْحَلْلْ في المجدِ مالُك كلُّه ... فيَنْحَلَّ مَجدٌ كان بالمالِ عَقْدُه
ودَبِّرْه تدبيرَ الذي المَجدُ كفُّه ... إذا حارب الأعداءَ والمالُ زَنْدُه
فلا مجدَ في الدنيا لمن قَلَّ مالُه ... ولا مالَ في الدنيا لمن قَلَّ مجدُه

إن فكرة كون المال وسيلة من وسائل المجد ، معنى قال به شعراء وحكماء ، من قبل(٣) ، إلا أن المتنبي لم يقل به فحسب ، وإنما عايشه وعمل مستندا اليه • لقد كان يريد من وراء سعيه الدائب في جمع الأموال أن يحصل على أكبر قدر ممكن منها ، مما يساعده على أن يحقق استقلاليته عن الآخرين ، فيستغني عنهم ويفلت من إسار الحاجة اليهم ، ليبني مجده الذى يريد • ولعل هذا المبدأ الذى سار المتنبي بمقتضاه يتفق وما ذهب اليه بعض الباحثين من أن ((((الملكية هي التجسيد الأول للحرية)) بمعنى أنه من خلال حيازة الملكية يوجد مجال موضوعي للفرد يمكنه أن يتحرك فيه بصورة متحررة ومستقلة))(٤) •

---

(١) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ٢٢٧ـ٢٢٨ • وممن ذهب من الباحثين الى أن المال عند المتنبي كان وسيلة للمجد ، إبراهيم عبد القادر المازني في (حصاد الهشيم) ٢٤٤ ، وطه الراوى في (الفخر في شعر أبي الطيب) مجلة الرسالة العدد ١٦٩ السنة الرابعة ٢٨ سبتمبر ١٩٣٦ ص ١٥٨١ ـ ١٥٨٢ ، و محمود محمد شاكر في (المتنبي) ١/١٣٦ ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد في (حياة أبي الطيب المتنبي) مجلة الأزهر ، المجلد السابع الجزء العاشر شوال ١٣٥٥ ص ٧٢٢ ، و أحمد أمين في (فيض الخاطر) ٤ / ٩٦ ، وبطرس البستاني في (أدباء العرب في الأعصر العباسية) ٣٢٦ ، و أنيس المقدسي في (أمراء الشعر العربي في العصر العباسي) ٣٤٣ـ ٣٤٤ ، وأحمد الشايب في (أبحاث ومقالات) ٧٤ ، و د • محمد مهدى البصير في (في الأدب العباسي) ٣٤٤ ، ود • مهدى علام في (دراسات أدبية) ٥٧ ، ومارون عبود في (الرؤوس) ٢٧٩ ، و د • عبد الوهاب عزام في (ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام) ٢٠٩ •

(٢) التبيان ٢ : ٨٤/١٠ـ١٢ • ويرى إبراهيم العريض أن المتنبي في هذه الأبيات ((يعيد إلى المال اعتباره الاقتصادى الصحيح ، كما ظهرت آثاره اليوم في حضارة الغرب المادية)) (فن المتنبي بعد ألف عام ٢٢٤) •

(٣) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٨٧ •

(٤) الاغتراب ١٣٢ •

واذا ما توسل المتنبي بالمديح ، متنقلا بين الولاة والأمراء والملوك لجمع الأموال من هبات وجوائز وعطايا ، فليس في ذلك ما يشينه أو ينتقص منه ومن فنه . اذ كانت الخلع والعطايا ((عادة سارية ، وهدية مألوفة للشعراء الذين يمدحون الملوك وذوى الجاه في ذلك الزمان))(١) ، فضلا عن كون مثل هذا المديح ((الطريق الأوحد لنشر الشعر ، واشتهار الشاعر ، ومن ثمّ التبشير بقيم وأهداف الشاعر، ان كانت له قيم وأهداف . وثمة حقيقة يجب أن لا تغرب عن بالنا ، وهي أن شعر تلك العصور ، لم يكن ليصلنا بهذه الوفرة ، لولا مدح الممدوحين ، ولولا منتديات القصور))(٢).

واستنادا الى ذلك يكون المال الذى يسعى المتنبي الى الحصول عليه في رحلاته ، وسيلة للشهرة كذلك . وفي ذلك يقول الدكتور منجي الكعبي عن المتنبي ((لأنه كان يحب أن يمدحه الناس بشعره . فلم يكن أمامه الا أن يمدح به الملوك والعظماء ليشتهر أمره ويذيع خبر جوائزهم له ويعظم قدره عندهم فيكون الممدوح على الحقيقة وهم المادحين))(٣). كما يمكن أن يكون تعبيرا عن التنافس والاعتداد بالنفس،(٤) فلا شك أن الجائزة كلما كبرت ، أشارت الى تعاظم رضا الممدوح عن الشاعر، وهذا يعني تفوقه على أقرانه من الشعراء . فضلا عن استغلاله مدائحه للدعوة الى ما كان يعمل من أجله ويسعى اليه من آمال ومطامح أخرى .

ليس من شك في أن المتنبي قد ألح في طلب الجوائز والهبات ، ولكنه لم يتذلل ولم يتهالك ((مدح أناسا كثيرين وما حنى رأسه لأحد منهم))(٥) ، بل انه فرض شروطا لكي يمدح سيف الدولة(٦) وكافورا(٧) وعضد الدولة(٨) ، كما امتنع عن مدح الوزير المهلبي،(٩) ورفض دعوة الصاحب بن عباد الى زيارته مع أنه ضمن له مشاطرته جميع ماله(١٠). فلا تستغرب ، بعد ما عرفنا ذلك ، أن جلس طاهر العلوى (الممدوح) بين يدى المتنبي،

---

(١) جنون العظمة في المتنبي فضيلة خلقية ١٨٣ وينظر : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٢٩٨ .
(٢) التطلع القومي عند المتنبي ٤٧ .
(٣) المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس (المتنبي شاعر العظمة والطموح) ١١٨ .
(٤) ينظر : أدباء العرب في الأعصر العباسية ٣٣٨ .
(٥) فن المديح وتطوره في الشعر العربي ٢٧٢ .
(٦) ينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٠، وخزانة الأدب ٢ / ٣٥٠، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٧١ .
(٧) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١١٢ .
(٨) ينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٩ـ٢٠، وخزانة الأدب ٢ / ٣٥٨ـ٣٥٩
(٩) ينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٥ وخزانة الادب ٢ / ٣٥٥، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٤٣ .
(١٠) ينظر : يتيمة الدهر ١ / ١٢٢، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٤٥ـ١٤٦ .

حين مدحه[1] • فضلا عن فخره بنفسه الى الحد الذى يساويها بممدوحه ، هذا ان لم يتفوق عليه ، ((والعادة في المدح ــ بله الاسترضاء ــ أن يتضاءل المادح ليرفع من قدر الممدوح ، ولكن ((لكل أمرئ من دهره ما تعود)) كما قال))[2]•[3]

لعل لجاجة المتنبي في الطلب أتت من أنه ((كان يعتبر ما يأخذه من خلع وعطاء ليس سوى مقابل ضئيل لما يعطيه هو من فنه ، ويرى أن ما يخلعه على الملوك والأمراء من أثواب الخلود أفضل وأجل مما يخلعونه هم عليه ، ويهدونه اليه من بدر المال وربات الجمال))[4]• فهو يعطيهم ما يبقى بقاء النيرين ، ويعطونه عرضا فانيا • ويزداد ألمه اذا ما كان ممدوحوه لا يقدرون قيمة شعره ، ومن ثمّ لا يعطونه ما يرى أنه حقيق به ، ولعله أراد الاشارة الى ذلك حين قال ((الملوك قرود يشبه بعضهم بعضا لا على الجودة يعطون))[5]• ولذلك قال لأحد ممدوحيه[6]:

كلُّ شِعْرٍ نظيرُ قائلِهِ فيـــكَ وعَقْلُ المُجيزِ عقلُ المُجازِ

---

(١) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٣٢٠• ولعل مما يؤكد عدم تهالك المتنبي في طلب المال ، مع أنه كان يسعى وراءه من بلد الى آخر ما جاء في (معجم الأدباء لياقوت الحموى ٢ / ٦٨) وعلى لسان أبي اسحاق الصابي ((قال راسلت ابا الطيب المتنبي ــ رحمه الله ــ في أن يمدحني بقصيدتين ، وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بيني وبينه رجلا من وجوه التجار ، فقال له : قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب عليّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وان أنا مدحتك ، تنكر لك الوزير ، يعني ــ أبا محمد المهلبي ــ ، وتغير عليك ، لأنني لم أمدحه ، فان كنت لا تبالي هذه الحال ، فأنا أجيبك الى ما التمست ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعرى عوضا ، قال ••• : فتنبهت على موضع الغلط وعلمت أنه قد نصح ، فلم أعاوده)) • فلو كان المتنبي طامعا ، مستجديا لاهتبل الفرصة ، ولما همه ما يكون بين الصابي والمهلبي • كما قال ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤ / ١٧٣) في حديثه عن الحسن بن حامد أبي محمد الأديب الشاعر ((كان فاضلا يتجر وله مال كثير • ولمّا قدم المتنبي بغداد خدمه : فقال له المتنبي ، لو كنت مادحا تاجرا لمدحتك)) • ولا شك في ان المتنبي لو مدح هذا التاجر لحصل منه على الكثير ولكنه لم يقبل تمسكا بمبدأ اتخذه •

(٢) ينظر : التبيان ١ : ٥ / ١ــ٢ و٢ : ١٦٢ / ٣٦ و٣ : ١٧٩ / ١٨ و٣ : ١٨١ / ٢١ و٤ : ٢٦٩ / ٦٠٤ •

(٣) شخصية المتنبي في شعره ١١٢٤ •

(٤) جنون العظمة في المتنبي فضيلة خلقية ١١٨٥ •

(٥) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٧ ، وينظر : خزانة الأدب ٢ / ٣٥٧ •

(٦) التبيان ٢ : ١٢٥ / ٣٨ •

وربما كان ما يعانيه من وعثاء التنقل وما يقاسيه من مشاق الترحل ، من الأسباب التي جعلته يطلب المزيد من ممدوحيه ، بمعنى أنه كان يحاول الإفادة من رحلاته الى الممدوحين قدر ما يستطيع ، ما دام تجشم عناء السفر وتعرض لأخطاره •

ولا شك أن المتنبي بانطوائه على تلك النفس الأبية ، المترفعة ، الطموح ، كان يتحرق ألما ، لاضطراره الى مدح أناس لا يكن لهم أية عاطفة أو احترام ، ولكنها الحاجة أنزلته هذا المنزل وأجبرته على الوقوف هذا الموقف • قال[(١)] :

مدحتُ قوما وإن عشنا نظمتُ لهم قصائدا من إناثِ الخيلِ والحُصُنِ

لقد شعر المتنبي ((بالطعنة وبالتحطيم الذى أصاب كيانه المترفع بسبب المديح الراغب في الجائزة ، وأرجعها الى قسوة الظروف والزمان واستنكر بيعه الشعر في سوق الكساد وطول قيامه في طلب الرزق ورجائه من غير الخالق ••• ولا شك أن سعادته كانت عظيمة حين يمدح رجالا يحترمهم ، فيجمع بين المال والصدق ، كما جرى له مع أبي العشائر وسيف الدولة وابن عمار ، وربما ابن العميد • وكان يعد كرامته الجريحة بأن جمع المال ليس الا مرحلة ستنقضي عندما يصل الى الكفاية ويتفرغ لأحلامها المجيدة))[(٢)] •

وإذ يتعب المتنبي في جمع المال متنقلا من ممدوح الى آخر ، لعلمه بقيمته في طرد شبح الفقر ، وفي بناء المجد وصنع الشهرة ، فقد غدا حريصا عليه معتنيا بأمره ، لا يتلفه ولا يصرف منه كيفما اتفق • من غير أن يصل الى مرتبة البخل الصريح[(٣)] • ونحن بهذا ننفي تهمة البخل والكزازة التي رمي بها ، استنادا الى أخبار وروايات وردت في ذلك[(٤)] ، تلك الأخبار التي أخذ إبراهيم عبد القادر المازني والدكتور عبد الوهاب عزام على عاتقيهما مؤونة الرد عليها ، مدققين فيها ومناقشين ما جاء خلالها ، لينتهيا الى رفض بعض منها ، والشك في بعض آخر ، وليقررا أنّ

---

(١) التبيان ٤ : ٢٦٩/١٧ ، وينظر : ١ : ٧٠ / ٥ـ٦ •

(٢) المحصول الفكري للمتنبي ١٨٧ـ١٨٨ •

(٣) ينظر : المحصول الفكري للمتنبي ١٨٨ـ١٨٩ وعماد الهشيم ٢٤٢ وأدباء العرب في الأعصر العباسية ٢٢٦ وفن المتنبي بعد ألف عام ٢٢٤ •

(٤) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٩٢ـ٩٦ •

هذه المسألة لا تخلو من دس وعبـــث (١) •

---

(١) ينظر:حساد الهشيم ٢٣٧ــ٢٤٤ وذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٢٠٧ــ٢١١ • وإن كان الدكتور عزام ،مع ذلك ، يقول ((ربما كان شيوع الحديث عن بخله دليلا عليه ، ولكن ينبغي أن يحسب في هذا كلف حساد الرجل بالطعن عليه ، ومبالغـة الناس في مثل هذا ، وتوهمهم أن الشعراء أغنياء بما ينالون من صلات ، ومحاسبتهم اياهم على هذا الغنى محاسبة يبالغون فيها مبالغتهم في تقدير الصلات التـي ينالونها)) • ومن الباحثين الذين لم يستبعدوا أن تكون روايات بخله من عمـل حساده ودسهم عليه : طه الراوي في (الفخر في شعر أبي الطيب المتنبي) ١٥٨٢ وبطرس البستاني في (أدباء العرب في الأعصر العباسية) ٣٢٦ وأنيس المقدسي في (أمراء الشعر العربي في العصر العباسي) ٣٤٤ و محمود محمد شاكر فـي (المتنبي) ٢٧٢/١ •

وما دمنا بصدد الحديث عن الدس والعبث يهمنا أن نشير ههنا الى أننا حاولنا، في معرض حديثنا عن دور المال في دفع المتنبي الى الرحلة ، أن نرد على ذلـك السيل من التهم التي كيلت للمتنبي من باحثين معاصرين ، مثل : التجارة بالأدب والطمع والبخل وغيرها •(ينظر : أبو الطيب المتنبي كان عبقريا ، ولكن ••• خليل مطران،مجلة الهلال،العدد الخاص بالمتنبي أول أغسطس ١٩٣٥(ص١١٤٠ـــ ١١٤٣ وأبو الطيب المتنبي تاجر من تجار الأدب سليم عبد الأحد،المصدر نفســه ص١١٩٤ـــ١١٩٩ ونفسية المتنبي،محمد مظهر سعيد،المصدر نفسه ص١٢١٠ ـــ ١٢١١ وفيض الخاطر ٩٩/٤ والتعقيد في شعر المتنبي،د •محمد كامل حســين ، مجلة الكاتب المصري، المجلد ١ العدد ٢ نوفمبر ١٩٤٥ ص١٦٤ ومتنوعات،د •محمد كامل حسين ٤١ والمتنبي وشوقي،عباس حسن ٣٤١ـــ٣٤٣ والمتنبي،جورج غريب ٣٠٤ وأبو الطيب المتنبي في مصر والعراقيين ٤٦٤) وكنا نتمنى لو أن طبيعة هذا البحث تسمح لنا بالإفاضة في ذلك ، لكنا رددنا على تهم أخرى رمي بها المتنبي مما له علاقة بموضوع المال، فقد تخلى كثير منها عن البحث الدقيق والمنطق العلمي الرصين • ولعل أكثرها تخليا عن الدقة وبعدا عن الحقيقة فضلا عن علاقتها القوية بما ندرسه ههنا ، ما ذهب اليه عبد المجيد لطفي بقوله ((ان الحاجة هي التي كانت تحمله على المغامرة والسفر والاتجاه بحمولة شعره الى أقاصي ما تصل اليه الأسفار فلقد ذهب في رحلتـه الأخيرة الى بلاد فارس مع ابنه المحسد فمدح هناك السادة والأغنياء والأمراء مـن عرب وغير عرب وعاد سعيدا بما جمع)) (المتنبي فارس الفكر العربي ١٢) فاذا كانت الحاجة هي التي دفعت بالمتنبي الى المغامرة والسفر في مستهل حياته ، فإنه بعـد ذلك وتحديدا بعد اتصاله بسيف الدولة لم يقصد ممدوحا إلا للاستزادة والتكثير ، ليتمكن من تحقيق ما يصبو اليه ، ودليلنا على ما نقول أن المتنبي كان يملك الكثير قبل ذهابه الى بلاد فارس، يتجلى لنا ذلك فيما لو استعرضنا شعره وعرفنا مناســبات قصائده فضلا عما وصل الينا من أخبار الهبات والعطايا التي حصل عليها ، ففضلا عما لا نشك في امتلاكه إياه من نقود ودواب (للركوب والحمل) والكثير من أنواع الثياب والأسلحة والغلمان ـــ وربما بعض من الجواري ـــ فإنه كان يملك حين كان في كنـف سيف الدولة اقطاعين هما : (صف أو صفا) و (سبعين) ، وقد أورد ياقوت الحموي ذكرهما في معجم البلدان منسوبين إلى المتنبي (ينظر:معجم البلدان ١٨٥/٣ و ٤١٣) ، وجاء في (الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٢) ان مجموع ما وصله بـه (=)

بعد هذا كله ، فاني لا أتفق مع الدكتور شوقي ضيف في ما ذهب اليه من أن المتنبي ((لم يلتمس قط ثروة ولا غرضا صغيرا من أغراض الدنيا ، انما كان يلتمس الجاه والسلطان ونفاذ الأمر والنهي)) (١) ، فقد التمس المتنبي الثروة • كما التمس الجاه والسلطان ، بل إنه رأى صعوبة بل استحالة الوصول إلى المجد والجاه من غير المال فهو الوسيلة إلى ذلك ، كما أنه واحد من الطرق المؤدية إلى الشهرة وبعد الصيت ، فضلا عن كونه غاية يعوض بالوصول اليها ما عاناه من أيام الفقر والضنك •

ان كل ما قدمناه لا يدل الا على حزم المتنبي ((وحسن تقديره للمال ومعرفته بأحوال الدنيا)) (٢) ، مما حدا به الى البحث عن المال وجمعه ، والاستزادة منه ، متحملا في سبيله وعناء السفر ومشاق الترحل ، حتى اذا ما أحس في كنف سيف الدولة بالاستقرار والأمان وعلو المنزلة فضلا عن الثراء ، قال له (٣) :

تركتُ السرى خلفي لِمَن قَلَّ مالُهُ   وأنعلتُ أفراسي بنُعماكَ عَسْجدا

أي أنه لما حصل على مايريد الوصول اليه من وراء المال ، عند هذا الممدوح ، اكتفى بما كان قد وصل اليه في جمعه • فإذا ما شعر بفقدان ذلك ـ لأي سبب ـ أطلق ساقيه للريح ، وعاد الى حياة التنقل من ممدوح الى آخر ، يجمع المال ويستزيد منه ، ليحقق بنفسه ـ بوساطة ما جمعه من مال ـ لنفسه ما يتمناه لها من ورائه •

(=) سيف الدولة في مدة أربع سنين فقط ـ من ثمانية قضاها في كنفه ـ خمسة وثلاثين ألف دينار (وينظر خزانة الأدب ٢/ ٣٥٢) ـ وان كنا لا ندرى هل يعني هذا المبلغ الصلات المادية والعينية أو المادية فقط ـ فإذا ما انتقل الى مصر وصله كافور بالكثير من الأموال والهدايا فضلا عما أمره له من منزل (ينظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١١١) ويبدو أن المتنبي كان يملك ملكا خارج مصر ، واستنتجنا ذلك مما جاء في الديوان من أنه طلب من كافور مرة أن يأذن له في الخروج الى الرملة ليخلص مالا كتب له به (ينظر: التبيان ٣/ ٢٧٥ والعرف الطيب ٢ / ٥٤٧) ثم ان فاتكا الرومي قد وصله بجوائز تبلغ قيمتها عشرين ألف دينار (ينظر: الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٢ وخزانة الأدب ٢/ ٣٥٣ والعرف الطيب ٢/ ٥٢٥) • فهل بعد هذا كله يكون سبب ذهاب المتنبي الى فارس هو الحاجة ؟ أما ما ذهب اليه لطفي من أن المتنبي مدح هناك السادة والأغنياء والأمراء من عرب وغير عرب، فمبالغة بعيدة عن الصواب اذ أنه لم يمدح هناك سوى ابن العميد وعضد الدولة • وأخيرا ف ((المحسد)) هو الذى ذهب مع أبيه وليس العكس •

(١) فصول في الشعر ونقده ٨٨ •

(٢) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ٣٤٤ •

(٣) التبيان ١ : ٦٠/ ٤٠

رابعا: الحسد والوشايات والمكائد :

تتواشج عوامل الحسد ، والوشايات ، والمكائد فيما بينها مكملة احداهما الأخرى ، لتشكل باعثا آخر من بواعث الرحلة عند المتنبي . فحسبنا أن نتصفح ديوانه حتى نحس بما كان للحسد وما ينتج عنه من مؤامرات من أثر كبير وبارز في حياته ، وبما كان السبب في تغيير بعض من مجرياتها . ((فلا تكاد تخلو قصيدة للمتنبي من ذكر الحسد بلفظه أو بمعناه ومن الايماء تارة الى حساد ممدوحيه وتارة أخرى الى حساده هو))(١) ، بل إنه ليسمي ابنه ((محسدا)) وما هو من الاسماء المطروقة المعروفة ولا المحبوبة ذات المعنى الجميل ،((فيدلنا ذلك على ما لقيه الرجل من محنة الحسد ونكاية المنافسين وأنه قد أصابه من هذا الأذى ما لم يصب أحدا من الشعراء))(٢) . وربما لم يقع شاعر تحت تأثير الحسد والمكائد ، حتى راح ضحية لهما ، مثلما وقع المتنبي(٣).

إن ذكر الحسد والحساد ، والتعرض للمكائد والمؤامرات ، يطالعنا على امتداد ديوان المتنبي ، إن لم يعبر عنه باللفظ الصريح فبالمعنى الواضح . قال في مدحه الحسين بن إسحاق التنوخي(٤) :

تُطيعُ الحاسدين وأنتَ مَرْءٌ ... جُعِلتُ فِداءه وهُمُ فدائي

وهاجي نفسه من لم يميزْ ... كلامي من كلامِهِمُ الهُراءِ

وإنّ من العجائبِ أن تراني ... فَتَعْدِلَ بي أقلَّ من الهباءِ

وتُنكِرَ موتَهم وأنا سُهَيلٌ ... طَلَعْتُ بموتِ أولادِ الزناءِ

فمنذ ذلك الوقت المبكر من حياته يشكو المتنبي من وشايات الحاسدين.

---

(١) مطالعات في الكتب والحياة عباس محمود العقاد ١٩٦ . ومما قاله المتنبي يذكر حساد ممدوحيه أو التحاسد عليهم ما جاء في التبيان ٢: ١٢٧/١٤ و ٢: ٣/١٦٨ و ٤: ٢/٢٦١ . ويقول العقاد في معرض تعليقه على مثل هذه الأبيات ((وهذا لا يكون الا من اشتغال الذهن بهذا المعنى وسرعة وروده على الخاطر وقرب مأتاه من الخيال)) (المصدر نفسه ١٩٧) .

(٢) المصدر نفسه ١٩٧ .

(٣) ينظر: المثال والتحول آراء في شعر المتنبي وحياته ٣٤ .

(٤) التبيان ١ : ٢/٧ ـ ١٠ وجاء في تقديم القصيدة في الديوان : وقال يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي ، وكان قوم قد هجوه ونحلوا الهجاء أبا الطيب فكتب اليه يعاتبه ، فكتب أبو الطيب اليه .

ومكائدهم (١) • فيتكلم عليهم مغضبا محنقا ،فهم يريدون تنغيص عيشه وقض مضجعه ، ويعاقب ممدوحه هذا لتصديقه اياهم ، حتى يعرّض به متهما اياه بعدم الفهم ، حين لا يميز بين كلامه وكلامهم الهراء • وحين يعد لهم هم أولاد الزناء به هو ، سهيل • فإن يكن المتنبي قد هوجم هنا ، فإنه لم يعدم المبادرة بالهجوم ، حين مدح محمد بن زريق الطرسوسي من قبل ، اذ قال (٢) :

إني نثرتُ عليك دُرّا فانتقِدْ ... كثُرَ المُدَلّسُ فاحذرِ التدْليسا

فهو هنا يحذر ممدوحه من أن يدلس الشعراء الآخرون عليه عيوب أشعارهم ويخدعوه بها • وهذا لا شك اتهام لهم بالكذب والخداع فضلا عن رداءة النظم • حتى إذا ما مدح عليا بن إبراهيم التنوخي قال (٣) :

إني وإن لمتُ حاسِديّ فما ... أُنكر أني عقوبةٌ لهمُ
وكيف لا يُحسَدُ امروٌ علمٌ ... له على كلِ هامةٍ قَدَمُ • • • •

فعلى الرغم من لومه حاسديه فانه لا يتورع عن أن يجبههم بكلام مليء بالتفاخر والتحدى ، مما لا أراه إلاّ مضاعفا من حدة خلافاته معهم لا محتويا إياها • وبينما كان، ذات مرة ، يجتاز بمكان يعرف بالفراديس من أرض قنسرين ، سمع زئير الأسد فقال (٤) :

أجارُكِ يا أُسدَ الفراديسِ مكرَمٌ ... فتَسكُنُ نفسي أم مُهانٌ فمُسْلِمُ
ورائي وقدامي عداةٌ كثيرةٌ ... أُحاذِرُ من لصٍ ومنكِ ومنهمُ
فهل لكِ في حِلفي على ما أُريدُهُ ... فإني بأسبابِ المعيشةِ أَعلَمُ

---

(١) لعل أول ذكر للوشاة والأعداء في شعر المتنبي ما ورد في قوله حين سجن ، يخاطب الوالي دافعا عن نفسه ما اتهم به :

فما لك تقبلُ زورَ الكلامِ ... وقدرُ الشهادةِ قدرُ الشهودِ
فلا تَسْمَعَنّ من الكاشحين ... ولا تعبأنّ بمَحْكِ اليهودِ
(التبيان ١ : ٢٥/٦٦ ـ ٢٦)

ثم ماجاء في قصيدته التي أولها (قفا تريا ودقي فهاتا المخايل • • •) اذ قال :

رماني خِساسُ الناسِ من صائبِ استِهِ ... وآخرُ قُطْنٌ من يَدَيهِ الجنادِلُ
(التبيان ٣ : ١٩٧ / ٢) •

(٢) التبيان ٢ : ٢٧/١٢٩ •
(٣) نفسه ٤: ٢٢٨/ ٦ ـ ٧ وما بعدهما •
(٤) نفسه ٤ : ٢٤١ / ١ ـ ٣ •

إنه ، في هذه الأبيات ، يلجأ إلى الأسد لعله يحصل منها على العون والموازرة بعد أن شعر بأن كل من حوله من البشر يعادونه أو يشون به أو يكيدون له ، حاسدين إياه،((فقد أصبح الشعور بالحسد عند المتنبي ضربا من العقدة اذ يتصور الشاعر نفسه دائما محاطا بالحساد ، يطلب الأمن حتى من الطبيعة))[١].

ويحس المتنبي بشيء من الراحة والاستقرار حين يتصل ببدر بن عمار والي طبرية . يتضح لنا ذلك فيما قاله فيه من قصائد . أولها قصيدته[٢]:

أحُلْما نرىْ أم زمانا جديـــــدا　　　أمِ الخَلْقُ في شخصِ حيٍّ أُعيدا

ثمّ قصيدته[٣]:

أَبَعْدَ نأْيِ المليحةِ البَخَــلُ　　　في البعدِ مالا تُكَلَّفُ الإبـــلُ

فبدر قائد عربي أكرم الشاعر ورفع منزلته عنده . ومع القصيدة الثالثة التي قالها فيه ، لا تخطئنا إمارات الحسد والمكيدة تلك التي بدأت تقوم بدورها في محاولة التفريق بين القائد والشاعر ، إذ بدأ القصيدة بذكر رحيل الأحبة ، قال[٤]:

بقائي شاء ليس همُ ارتحـــالا　　　وحُسنَ الصبرِ زَمّوا لا الجمالا

فإن كان هذا (الارتحال) يدخل في إطار النسيب الذى بدأ به القصيدة ، فإنه يوحي إلينا بشيء ما في نفسه ، فقد انتقل من النسيب الى ((غناء يذكر فيه نفسه . ولا شك في أنه يعرض فيه بحاله الخاصة ، ويكاد ينبئنا بأنه سيضطر الى الرحيل عن بدر))[٥] . من ذلك قوله[٦]:

أَشَــدُّ الغمِ عندي في ســـرورٍ　　　تَيقّنَ عنه صاحبُهُ انتِقـــالا
أَلِفتُ تَرَحُّلي وجعلتُ أرضـــي　　　قُتـودي والغُـرَيْرِيَّ الجُلالا
فما حاولتُ في أرضٍ مُقامـــــا　　　ولا أزمعتُ عن أرضٍ زوالا
علىْ قلقٍ كأن الريحَ تحتــــي　　　أُوَجِّهُها جَنوبا أو شَـــمالا

---

(١) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ١٩٠ .
(٢) التبيان ١ : ٧١ / الابيات .
(٣) نفسه ٣ : ٢٠٢ / الابيات ، وفي العرف (١/١٢٤) أَبْعَدُ ....
(٤) نفسه ٣ : ١/٢٠٣ .
(٥) مع المتنبي ، طه حسين ١٣٣ .
(٦) التبيان ٣ : ٢٠٣ / ١٣ـ١٦ .

ويبدو أنه ((أشفق أن يفهم عنه هذا التعريض على وجهه ، وأن يشعر بما يدبر في نفسه ، فجعل هذا البيت الأخير تخلصا الى صاحبه ، وزعم أنه يوجه هذه الريح الى بدر))[١] • قال[٢] :

إلى البدرِ بنِ عمارِ الذي لم　　　يكُنْ في غرةِ الشهرِ الهلالا

وبعد أن يمدحه ، يبدأ بذكر الحساد والواشين • وكأني به ينبهه الى ما يتعرض له في بلاطه من مضايقات • قال[٣] :

أرى المتشاعرين غَرُوا بذمّي　　　ومن ذا يَحمَدُ الداءَ العُضالا
ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ　　　يجد مُرّاً به الماءَ الزُلالا

ثمّ يعود الى مدحه •

ويبدو أن أبرز من كاد للمتنبي في كنف ابن عمار ، هو ابن كرّوس (الأعور) ، ولعله هو الذى قال فيه مخاطبا ابن عمّار[٤] :

وأنهُ المشير عليكَ فِيَّ بِضَلّةٍ　　　فالحُرُّ مُمتَحَنٌ بأولادِ الزنا ••••

ثمّ هجاه صراحة بعد مفارقته بدرا بقوله[٥] :

فيا بْنَ كَرَوَّسٍ يانصفَ أعمى　　　وإن تفخرْ فيا نصفَ البصيرِ
تُعادينا لأنّا غيرُ لُكْنٍ　　　وتُبغِضُنا لأنّا غيرُ عورِ
فلو كنتَ أمرءً يُهجى هجونا　　　ولكن ضاقَ فِترٌ عن مسيرِ

وابن كروس هذا هو الذى دفع ببدر إلى اختبار سرعة خاطر المتنبي ، حين شكك في قدرته على الارتجال ، واتهمه بإعداد ما يقوله قبل حضوره[٦] • وربما كان سبب ما تعرض له المتنبي من حسد ومكائد في بلاط بدر بن عمار ، نبوغه الشعرى الذى بز به من حوله من الشعراء ، فأعجب به بدر وأرضاه وقربه منه ، على الرغم مما اتهم به من جفاء وغلظة ، وعدم معرفة بأصول منادمة الأمراء والملوك ، فقد كان يرفض دعوة بدر

---

(١) مع المتنبي ١٣٣ •
(٢) التبيان ٣ : ١٧/٢٠٣ ، (٣) نفسه ٣ : ٢٨/٢٠٣–٢٩ •
(٤) نفسه ٤ : ٣٥/٢٦٧–٣٩ • وجاء في تقديم القصيدة التي ورد فيها هذا التعريض في العرف الطيب (١/١٥١) وسار بدر الى الساحل ولم يسر أبو الطيب معه ثم بلغه أن ابن كروس الاعور كتب الى بدر يقول له ان ابا الطيب انما تخلف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك •ولما عاد بدر الى طبرية ضربت له قباب عليها أمثلة من تصاوير فقال أبو الطيب: وأشار صاحب التبيان (٤/٢٠٦) إلى مثل ذلك في معرض شرحه لهذا البيت الآنف الذكر •
(٥) التبيان ٢ : ١٤/١١٦–١٦ •
(٦) ينظر : التبيان ٢/١٤٠ والعرف الطيب ١/١٦٠ •

إلى شرب الخمر ، كما لم يوافقه في مسيره الى الساحل ، وهذا ما استغله أعداوءه لإيغار صدر بدر عليه ، وتأليبه ضده • ولعل مما ساعدهم على النجاح في مسعاهم هذا اعتداد المتنبي بنفسه وتعاليه على من حوله من شعراء بدر وحاشيته وبهذا يفارق المتنبي بدرا ، بعد أن لم يجده دفاعه عن نفسه ، فقد استطاع خصومه أن يوءثروا على بدر ، ومعاملته له[(١)] •

ويتكرر دور الحسد بوصفه باعثا على رحيله من ممدوح الى آخر ، كما نلحظ في مخاطبته لأبي حسين الخراساني حين أراد الارتحال عنه[(٢)] ، وللقاضي أبي الفضل الأنطاكي عندما مدحه[(٣)] • حتى قال وهو يمدح الحسين بن علي الهمداني ، يشير الى ذلك ، مفتخرا بنفسه ومسفها من حوله من الحساد[(٤)] :

فلا زلتُ ألقى الحاسدين بمثلها وفي يدهم غيظٌ وفي يدي الرفدُ
وعندي قباطيُّ الهُمام ومالُهُ وعندهُمُ مما ظفرتُ به الجَحْدُ
يرومون شأوي في الكلامِ وإنما يحاكي الفتى فيما خلا المنطقَ القردُ

وبعد تنقل هنا وهناك ، يتصل المتنبي بأبي العشائر • وما أن يبدأ اتصاله به حتى تعود اليه تلك ((النفحة التي رأيناها في شعره لبدر وتوطد إحساسه بنفسه وشخصيته ، وازداد رسوخا وقوة واطمأن الى أن شاعريته العظيمة لا تجارى ، وأن الشعراء مهما بلغوا عاجزون أن يباروه أو أن يلمسوا طرفا مما يأتي به •وزاده ثقة أن الأمراء يتهافتون عليه ويسعون اليه ليمدحهم ويمجدهم))[(٥)] • وبسبب من ذلك نراه يفخر بنفسه ، مساويا إياها بممدوحه ومنتقصا من الشعراء الآخرين • قال[(٦)] :

شاعرُ المجدِ خِدْنُهُ شاعرُ اللفظِ كلانا ربُّ المعاني الدقاقِ
لم تزلْ تسمعُ المديحَ ولكنَّ صهيلَ الجيادِ غيرُ النُهاقِ

إن هذه المساواة بينه وبين ممدوحه ، هي تعبير عما أحس به المتنبي ـ بعد ما عركه من ظروف ومرّ به من أحداث ـ من أنه لا يقل عن ممدوحيه شيئا ، إلا ضيق

---

(١) ينظر : مع المتنبي ١٢٥ـ١٣٧ ، والمتنبي ٣٤٨ ، وفي الأدب العباسي ٣٢٩ـ٣٣٠ ، وتاريخ الشعر في العصر العباسي د •يوسف خليف ١٦١ـ١٦٢ ولغة الحب في شعر المتنبي ٣١ •

(٢) ينظر : التبيان ٢ : ١١٥ / ١ـ٣ • (٣) ينظر : نفسه ٢ : ٢٠٩ / ٣٩ •

(٤) التبيان ٢ : ٧٥ / ٣١ـ٣٣ •

(٥) لغة الحب في شعر المتنبي ١٧٠ •

(٦) التبيان ٢ : ١٦٢ / ٣٦ـ٣٧ •

ذات اليد ـ وذلك بالقدر الذى يمكنه من أن يكون ممدوحا ـ • وحتى هذه يستطيع تعويضها بما يملكه من نبوغ فني • أما الشعراء الآخرون من دونه ، فلا يعدون كونهم حميرا • بالقياس اليه هو الجواد الأصيل •

ليس من شك في أن تعريضه هذا بالشعراء قد هاجمهم عليه ((وأغراهم بالكيد له • فلم ينوا عن ذلك ولم يقصروا فيه ، ولكن المتنبي لم ينهزم لهم ولم يفر منهم ، كما فعل مع الذين كادوا له عند بدر بن عمّار ، وانما ثبت لهم وألح في الهجوم عليهم ، وكان يرى أن هذه الموقعة حاسمة بينه وبين الدهر الذى يخاصمه • فهو ان انهزم ردّ الى شقاء متصل ، وان انتصر بلغ ما أمله من الوصول الى سيف الدولة))[١] • ولعله قد انتصر بقصيدته[٢] :

لا تحسَبوا ربعَكم ولا طَلَلَهْ　　　أولَ حيٍّ فراقُكمْ قتلَهْ

فبعد المقدمة الغزلية التي نلمح فيها رمزا الى معنيين ((الأول يلمح فيه لأبي العشائر بأنه سيرحل عنه ويفارقه كما فارق غيره ، وفي الثاني يؤكد له أن هذا الفراق سيكون تأثيره عظيما عليه نظرا لما يحمل له في نفسه من محبة وتقدير))[٣] • ينقض ثائرا ، مغضبا ، على حساده من الواشين والكائدين ، أولئك الذين يبحثون عمّا يشينه من نسب أو عمل أو صفات • قال[٤] :

أنا ابنُ مَن بعضُهُ يفوقُ أبا الـ　　　باحثِ والنَّجْلُ بعضُ مَن نَجَلَهْ
وإنما يذكرُ الجدودَ لهمْ　　　مَن نَفَروهُ وأنفَدوا حِيَلَهْ
فخرا لِعَضْبٍ أروحُ مُشتَمِلَهْ　　　وسَمْهَرِيٍّ أروحُ مُعْتَقِلَهْ •••

حيث يقول[٥] :

إن الكِذابَ الذي أُكادُ بهِ　　　أَهْوَنُ عندي من الذي نَقَلَهْ •••

وهكذا يصب حمم غضبه على هؤلاء (الباحثين) الذين يكيدون له (بالكذاب) ، مفتخرا بنفسه ومعليها عليهم • ثمّ ينتقل بعد أن يصيب منهم مقتلا ، إلى مدح أبي العشائر الذى لا يمكن أن يصدق أقوال أمثال هؤلاء[٦] :

مالي لا أمدحُ الحسينَ ولا　　　أبذُلُ مِثْلَ وُدِّي مثل ما بَذَلَهْ

---

(١) مع المتنبي ١٦٥ •
(٢) التبيان ٣ : ٢١٣ / ١ •
(٣) لغة الحب في شعر المتنبي ١٧١ •
(٤) التبيان ٣ : ٢١٣ / ٩ ـ ١١ وما بعدهم •
(٥) نفسه ٣ : ٢١٣ / ١٥ وما بعده •
(٦) نفسه ٣ : ٢١٣ / ٢٤ ـ ٢٥ وما بعدهما •

أأخفت العينُ عنده خَبَرا ... أم بلغ الكَيْذُبانُ ما أَمَلَهْ ...

فضلا عن أنه هو الذى غمره بنعمائه (١) :

مُستحيِيا من أبي العشائرِ أنْ ... أسحبَ في غير أرضِهِ حُلَلَهْ
أسحَبُها عنده لدى مَلِكٍ ... ثيابُهُ من جليسِهِ وَجِلَهْ ...

فكأني به يقول له : سأرحل عنك لأني أعاني في كنفك من الحساد والواشين ، ولكني أستحيي منك أن أغادرك وأنت الذى غمرتني بنعمائك ، فانصرني عليهم حتى أبقى بقربك .

وبقي المتنبي عند أبي العشائر الى أن مرّ سيف الدولة بأنطاكية ـ حيث هما ـ فقدمه أبو العشائر اليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب . فكان ما كان من خلوص المتنبي فنه لسيف الدولة يمدحه ، ويعلي من شأنه حبا وإعجابا . كما أن سيف الدولة ، بدوره ، قربه منه ، ورفع منزلته لديه .

ان المتنبي الذى ((شقي بالحساد في مختلف مراحل حياته ، والذين تبعوه كظله في كل بلاط ، تبعوه أيضا في بلاط سيف الدولة ، بل هو صادف في هذا البلاط من الحساد والوشاة أضعاف ما شاهده في أي بلاط آخر .... وقد اختلف حساده هنا في أنهم كانوا على جانب عظيم من القوة والدهاء ، وكانوا علماء وشعراء ، الى جانب أن بعضهم كان من أقارب الأمير نفسه)) (٢) .

بدءا ، لا يمكننا إنكار أن المتنبي دخل بلاط سيف الدولة ((غازيا لا ضيفا ، واتصل بحاشية الأمير مخاصما لا مسالما)) (٣) ، قال يعرّض بشعراء سيف الدولة ، في أول قصيدة له عنده (٤) :

غضبتُ له لمّا رأيتُ صفاتِهِ ... بلا واصفٍ والشِعرُ تهذي طماطِمُهْ
وكنتُ إذا يمّمتُ أرضا بعيدةً ... سريتُ وكنتُ السرَّ والليلُ كاتِمُهْ ..

فهو ينتقص منهم حين جعل من أشعارهم هذيان أعاجم لا يرقى الى بيان صفات سيف الدولة وإظهار أمجاده ، فضلا عن افتخاره بقدرته هو على ذلك ، في إشارة

(١) التبيان ٣ : ٢١٣/٢١ـ٢٢ وما بعدهما .
(٢) لغة الحب في شعر المتنبي ١٧٧ .
(٣) مع المتنبي ٢٥٨ .
(٤) التبيان ٣ : ٢١٨/٣٥ـ٣٦ وما بعدهما .

منه الى إبراز تفوقه الفني عليهم • وما من شك في أن هذا الاعتداد بالنفس مع ازدرائه غيره من الشعراء ، كان خليقا ((أن يحفظ الصدور ويملأها ضغينة وحقدا ، وقد فعل • ولكن المتنبي آثر أن يكون مهاجما على أن يكون مدافعا • وقد جرّب موقف الدفاع عند بدر بن عمار فلم يغن عنه شيئا ، فليجرب عند سيف الدولة خطة الهجوم ، وقد أغنت عنه ، فاستطاع أن ينعم بالحياة في ظله تسعة أعوام[١])) •

ان مما زاد من غضب شعراء سيف الدولة وأفراد حاشيته على المتنبي ، ومن خوفهم منه ، ما كان المتنبي لا ينفك يعلن عنه من حبه الكبير لسيف الدولة ، وتصريحه المستمر بأنه الشاعر الوحيد ، القادر على إشهار مآثره وفضائله ، فضلا عن تهوينه من شأن الآخرين غيره في ذلك ، قال[٢] :

وبدونِ ما أنا من ودادِك مُضْمِرٌ   يُنْضَى المطيُّ ويَقربُ المُسْتارُ •••

ومن ذلك أيضا قوله[٣] :

ولم تأتِ الجميلَ إليَّ سهوا   ولم أظفَرْ به منكَ استراقا
فأبلِغْ حاسِدِيَّ عليك أنّي   كبا برقٌ يحاوِلُ بي لَحاقا

تسنده في ذلك موهبة شعرية فذة ، وبخاصة أن سيف الدولة قد قرّبه منه ، فكان له امتياز الدخول عليه ((في مجالسه وفي خلواته ، فقد حضر جلسات التسلي كافة ، كما حضر أيضا احتفالات البلاط كالأعياد الدينية والمقابلات مع الشعراء ، والاستعراضات العسكرية بعد الغزوات المظفرة))[٤] ، فضلا عما كافأه به وأكرمه من جوائز وأعطيات ارتفعت به الى مصاف الأغنياء • ليسهم هذا كله في زيادة اعتداد المتنبي بنفسه أولا ، وبفنه ثانيا ، وليؤدي الى ذيوع صيته وارتفاع منزلته بين الناس •

انّ كل ذلك تواشج وتضافر لاستثارة كوامن الحسد والأحقاد ، ثمّ نموها وتزايدها حدة وشراسة في صدور المحيطين بالمتنبي في بلاط حلب • فلقد كانت ((المنازعات والخصومة بين شعراء سيف الدولة من الكثرة بمكان ولكنها في الغالب لم تتسم بطابع العنف الذي اتسمت به معركة المتنبي وخصومه الذي أكل الحقد قلبهم))[٥] •

---

(١) مع المتنبي ٢٠٠ •
(٢) التبيان ٢ : ٩٣ / ١٣ وما بعده •
(٣) التبيان ٢ : ١٥١ / ٣٣ـ٣٤ وينظر ١ : ٥٩/ ١٥ و٤٢ـ٤٤ و٣ : ٢٢١ / ١ـ٢ و ٤ : ٢٥٩ / ٣ •
(٤) أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٢٠٠ •
(٥) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، د • مصطفى الشكعة ١٢٥ •

فذاك أبو فراس الحمداني ، الأمير الشاعر ، يحرض سيف الدولة على المتنبي ، حين يصرّض بكثرة ما يعطيه اياه، وهو المتشدق المدل على الأمير[١] ، كما أنه هو الذى تصدى للمتنبي حين أنشد قصيدته (واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ــ)[٢] ، ويرى الدكتور بلاشير أن حقد أبي فراس على المتنبي ((مرده الى نفور فطرى ، نفور السيد الكريم من الرجل العامي ، والكريم السجايا من النفّاج ، والرجل الحساس من المحاج الهادئ))[٣] . أما بطرس البستاني فيعزو ذلك الى أن أبا فراس ((كان يتأذى من شهرة أبي الطيب ، وتقديم سيف الدولة له ، ويغيظه أن يحرض أبو الطيب عنه فما يخصه بمديح ... فكرهه أبو فراس ، وتمنى اسقاطه ، وخضد كبريائه ، فطفق يضافر الشعراء على ثلبه ويلوم ابن عمه على تقديمه))[٤] .

وذلك أبو العشائر ((الذى لم يغفر للمتنبي عدم مبالاته به بعد الخدمات التي قدمها له))[٥] . ويرى محمود محمد شاكر أن (((خولة) كانت السبب الأكبر الذى جلب عليه كيد أبي فراس ، ثمّ أبي العشائر ، مع أنه هو الذى قدمه الى سيف الدولة وقربه اليه))[٦] . أما ابن خالويه الذى كانت ((له دالة على الأمير لأنه مؤدبه))[٧] ، فقد كان كرهه للمتنبي نابعا من احتقار المتنبي اياه ، وازدرائه آراءه في النحو[٨] . ولعل انتقاص المتنبي من الأعاجم من أسباب كرهه اياه أيضا[٩] .

ومن شانئي المتنبي في بلاط سيف الدولة كذلك أبو العباس النامي الذى كان سيف الدولة يميل اليه ((ميلا شديدا الى أن جاءه المتنبي ، فمال عنه اليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه وقال : أيها الأمير لم تفضل علي ابن عيدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح ، وطالبه بالجواب فقال : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كلِّ فتحٍ غيرَ مُفتخِرٍ ... وقد أغَذَّ إليه غيرَ مُحتفِلِ

---

(١) ينظر : الصبح المبني عن حيثية المتنبي ٨٧ـ ٨٨ .
(٢) ينظر : العرف الطيب ٢/٣٤٦ ــ ٣٤٧ والصبح المنبي ٨٩ ــ ٩١ .
(٣) أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٢٠٥ .
(٤) أدباء العرب في الأعصر العباسية ٣١٧ .
(٥) أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٢٠٥ .
(٦) المتنبي ١/٢٥٤ .
(٧) أدباء العرب في الأعصر العباسية ٣١٩ .
(٨) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٨٦ـ٨٧ .
(٩) ينظر : أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٢٠٥ .

فنهض من بين يديه مغضبا ، واعتقد ألا يمدحه أبدا)) (١) .

ومنهم أيضا أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان اللذان عرضا على سيف الدولة أن يقترح عليهما ما شاء من قصائد المتنبي ، حتى يعملا أجود منها ، فدافعهما زمنا ، ثمّ كررا عليه فأعطاهما قصيدته (لعينيك ما يلقى الفؤادوما لقي ...)، فلما أخذاها ، قال أحدهما لأخيه : ما هذه من قصائده الطائلات ، فلأي شيء أعطاناها ؟ ثمّ فكرا ، حتى عرفا أنه أراد قوله منها :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ — أراه غباري ثمّ قالَ له الْحَقِ

فتركا القصيدة ولم يعاوداه ، ولم يعملا شيئا (٢) . فضلا عن حساد وواشين أُخر لم نعرف أسماءهم ، مثل ذلك الذى قال حين أنشد المتنبي قصيدته :

لكلِ امرئٍ من دهرِه ما تعَوَّدا — وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العِدا

في دار سيف الدولة ، قاعدا — يريد أن يكيده — ، لو أنشدها قائما لأُسمع ، فان أكثر الناس لا يسمعون ، فقال المتنبي : أما سمعت أولها ، لكل امرئ من دهره ماتعودا (٣) .

ويقول الدكتور طه حسين في معرض حديثه عن قصيدة المتنبي (٤) :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخدِعُ — إن قاتلوا جَبُنوا أو حَدَّثوا شَجُعوا

— التي قالها وقد ظفر بسيف الدولة من قبل الروم ، والتي كان فيها شديد الوطأة على الجند الذين تفرقوا عن سيف الدولة ، وانهزموا أمام الروم اذ وصفهم بالجبن والذلة والضعف والنفاق — ، ((وليس من شك في أن كثيرا من الأشراف الذين انهزموا في تلك المعركة لم يقع من أنفسهم ما قاله المتنبي موقعا حسنا ، فأنكروه وكرهوه . وانتهز أعداء المتنبي وحساده هذه الفرصة ، فسعوا به ، وألبو عليه ، وكثر كلام الناس في المتنبي ، واجترأ بعض الشعراء على أن يجاهره بالمداوة بعد أن كان يسر له البغضاء ويدبر له الكيد)) (٥) .

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٨٠ــ٨١ وينظر : وفيات الأعيان ١ / ١٢١ والبيت في التبيان ٣ : ١٧٧ / ١٦ ،وان كان النامي هذا قد اعترف بفضل المتنبي في معنيين من معانيه حتى تمنى لو كان سبقه فيهما (ينظر المصدران السابقان نفسهما في المكانين نفسهما) .

(٢) ينظر : التبيان ٢ / ٣١٤ ،والبيت في التبيان ٢ : ١٥٢ / ٣٦ .

(٣) ينظر : وفيات الأعيان ١ / ١٢٥ ، والبيت في التبيان ١ : ٢٦٠ / ١ .

(٤) التبيان ٢ : ١٣٨ / الأبيات .

(٥) مع المتنبي ٢٦٠ .

ان هذا الذي ذكرنا عن حساد المتنبي وأعدائه في بلاط سيف الدولة ، وما كان منهم معه ، فضلا عمّا لم نذكره مما لم يصل الينا ، ليشير بوضوح الى تلك الدوافع والأسباب المباشرة وغير المباشرة ، الخاصة والعامة ، التي وحدت بين أعدائه هؤلاء، وجمعت كلمتهم على التخلص منه — فضلا عما ذكرنا من دوافع أخر من قبل — ، وليس من شك بعد هذا في أنهم لم يدخروا وسعا ولم يألوا جهدا في سبيل الكيد له والائتمار به . كما لم ين المتنبي بدوره ، يعلن عمّا يعانيه من دسائسهم ومؤامراتهم . قال يخاطب سيف الدولة[1] :

رويدَكَ أيها الملكُ الجليلُ ... تأيَّ وعُدَّه مما تُنيلُ
وجودَك بالمقامِ ولو قليلا ... فما فيما تجودُ بهِ قليلُ
لأكبتَ حاسدا وأرىْ عَدُوّا ... كأنهما وداعُكَ والرحيلُ

ثمّ قال بحدة أكبر ، وبتحد سافر ، ولعله أحس بتزايد خطر الوشايات والمكائد عليه[2] :

فأبلغْ حاسِدِيَّ عليك أني ... كبا برقٌ يحاولُ بي لحاقا
وهل تُغني الرسائلُ في عدوٍ ... إذا لم يكُنَّ ظُبىً رِقاقا

حتى اذا ما بلغ السيل الزبى ، وشعر المتنبي بتحول قلب الأمير عنه بفعل نجاح دسائس أعدائه وتمكنهم منه ، ((لم ير الا أن يفجأ خصومه ويلقاهم وجها لوجه ، ويسترد قلب الأمير عنوة واقتدارا))[3] ، فقالها مدوية[4] :

واحرَّ قلباه مِمَّن قلبُهُ شَبِمُ ... ومَن بجسمي وحالي عنده سُقَمُ

وفي هذه القصيدة ، يعرّض المتنبي بميل سيف الدولة الى خصومه ، قال[5] :

يا أعدلَ الناسِ إلاّ في معاملتي ... فيكَ الخِصامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً ... أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرهِ ... إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظُلَمُ

---

(١) التبيان ٣ : ١٧٤/١ـ٣ .
(٢) نفسه ٢ : ١٥١/٣٤ـ٣٥ .
(٣) مع المتنبي ٢٦٢ .
(٤) التبيان ٣ : ٢٢٢/١ .
(٥) نفسه ٣ : ٢٢٢/١٢ـ١٤ .

واذ يستنكر ميل سيف الدولة عنه هو (الأنوار) اليهم (الظلم)، يبدأ بالفخر بنفسه، معلنا عن فضله عليهم (١):

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي　　وأسمعت كلماتي من به صمم ....

ثمّ يعرض بالرحيل، وهو الرحالة الجرىء . ومع ذلك فما رحيله، ان تمّ، الا بسبب تخلي سيف الدولة عنه . فهو يحبه ويعز عليه فراقه (٢):

يامن يعز علينا أن نفارقهم　　وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم

ثمّ كأني به يهدأ محاولا اقتناص فرصة يكسب فيها عطف سيف الدولة ووده، عسى أن يغير موقفه منه ويؤيده (٣):

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا　　فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة　　إن المعارف في أهل النهى ذمم

ولكنه يعود فجأة الى غضبه وعتابه (٤):

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم　　ويكره الله ما تأتون والكرم ...

ويعرض بالرحيل مرة أخرى، مؤكدا أن السبب في دفعه اليه — لو حصل — ليس هو، بل من تخلى عنه (٥):

لئن تركن ضميرا عن ميامننا　　ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا　　أن لا تفارقهم فالراحلون هم

ويختم قصيدته بالانتقاص من أعدائه، وبالإعلان عن حبه لسيف الدولة (٦):

بأيّ لفظ تقول الشعر زعنفة　　تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلاّ أنه مقة　　قد ضمّن الدرّ إلاّ أنه كلم

---

(١) التبيان ٣ : ١٥/٢٢٢ وما بعده .
(٢) نفسه ٣ : ٢٤/٢٢٢ .
(٣) نفسه ٣ : ٢٦/٢٢٢ـ٢٧ .
(٤) نفسه ٣ : ٢٨/٢٢٢ وما بعده .
(٥) نفسه ٣ : ٣٢/٢٢٢ـ٣٣ .
(٦) نفسه ٣ : ٣٦/٢٢٢ـ٣٧، وينظر في شرح هذه القصيدة : المتنبي بين نفسيته وشاعريته د . محمد مهدى علام، مجلة مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ الجزء الخامس العشر ١٩٦٢ ص ١٥ـ٢٩ .

فهو عاتب عليه لسماعه من هم أقل شأنا منه • ومع حبه له فانه لا يتنازل عما قالـه في هذه القصيدة ، لأنه الحقيقة •

وما أن خرج المتنبي من دار سيف الدولة بعد إنشاد هذه القصيدة، حتـى تعرض لمحاولة اغتيال دبرها له أبو العشائر[١]، الا أن المتنبي لم يغضب منه ، بـل إنه قال مقطوعته[٢] :

ومنتسبٍ عندي إلى مَن أُحِبُّهُ ... وللنبْلِ حولي من يديهِ حفيفُ

التي يعبر فيها عن حبه له وإعجابه به ، فضلا عن ألمه منه لمحاولته هذه • فهل كان موقف المتنبي هذا إزاء هذه المحاولة لأنه ((كان يضع (الرجولة) وتوابعها فـي المنزلة الأولى ، ويحب من عدوه أن يستمسك بعروتها ، فلذلك لم يحتد على أبـي العشائر حين أخذته الغيرة على حرمه ، بل ازداد تعطفا عليه وتلطفا له ، على تكبره وتعاليه وعتوه))[٣] ؟ أو لأنه كان يحب أبا العشائر حقيقة ، لكنه لم يشر الى ذلـك أو يعبر عنه حين انشغل بحبه الاكبر ، سيف الدولة ؟ أو أن هذا الموقف كان محاولة منه لامتصاص غضب حساده وأعدائه في بلاط سيف الدولة ، واحتوائه ، مما قد يمكنه من العودة فيما بعد ، لو حاول ؟ أو أن هناك شيئا ما ، لمّا يزل خافيا علينا ، كان يتحكم في مجمل العلاقة بين المتنبي وآل حمدان ؟ أو لعلها هذه الأسباب مجتمعة •

وعلى الرغم من كل ذلك ، فان الصلح يتم بين المتنبي وسيف الدولة • وانـي لأرى المتنبي صادقا في قوله لسيف الدولة بعد تلك الحادثة ((رأيت الموت عندك أحب اليّ من الحياة عند غيرك • فقال له بل يطيل اللّه عمرك))[٤].

---

(١) ينظر: التبيان ٢/٢٩٢، والعرف الطيب ١/٢٥٩ـ٢٦٠ • ربما كان سبب تدبير أبي العشائر لهذه المحاولة ، أنه انتقام من أمير ضد شاعر عرض به وبأهلـه وبأصدقائه وانتقص منهم ، حتى لو كان هذا الشاعر هو المتنبي • فضلا عما يمكن أن نضيفه من أسباب مما مر ذكره آنفا من مثل إنكار أبي العشائر على المتنبي أن ينكره وهو الذى قدمه لسيف الدولة فوصل الى ماوصل اليه بفضله (ينظر: أبـو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٢٠٥) ، أو أنها غيرة من أبي العشائر على بعض حرمه أى خولة أخت سيف الدولة لما قيل من حب المتنبي لها (ينظـر: المتنبي ١/٢٢٥ـ٢٥٤) • ويذهب عبد اللّه الطيب الى عزو محاولة أبـي العشائر هذه الى حب المتنبي لبعض آل أبي العشائر ، وأن أبا فراس هـو الذى أرسل الغلمان على سبيل التهديد (ينظر : مع أبي الطيب ١٥٦) •

(٢) التبيان ٢ : ١٤٩/١ـ٥ •

(٣) المتنبي ١/٢٥٤ •

(٤) العرف الطيب ٢/٣٤٨ •

لا شك في أن أعداء المتنبي وحساده وشانئيه في بلاط سيف الدولة ، لم يرتاحوا لما تحقق بين الاثنين من صلح ، لذلك قرروا استمرار حملتهم على المتنبي ، ان لم يكن تأجيج نيرانها • وهذا ما نلمحه في شعره ، اذ أكثر — بعد تلك الحادثة وما أعقبها من صلح — من ذكر الحساد وأحقادهم • من ذلك قوله (١) :

وما كَمَدُ الحسادِ شيئا قصدتُهُ ... ولكنه مَن يَزْحَمِ البحرَ يَغرقِ

وقوله (٢) :

أُعادَى على مايوجِبُ الحبَّ للفتى ... وأهدأُ والأفكارُ فيَّ تجولُ

سوى وجعِ الحسادِ داوٍ فإنه ... إذا حَلَّ في قلبٍ فليس يحولُ

ولا تَطْمَعَنْ من حاسدٍ في مودّةٍ ... وإن كنتَ تُبديها له وتنيلُ

((ولكن هذه التعاويذ الشعرية لم تجد نفعا ولم تحقق أملا • وبقي موقف سيف الدولة يميل تارة مع الشاعر وأخرى مع الحساد وبدأت الأرضية التي يقف عليها المتنبي في حلب تميد)) (٣) ، وبخاصة أن المتنبي نفسه ، كان يرفض — أحيانا — التنازل لسيف الدولة ، أو في الأقل الاستجابة لرغباته ، من ذلك أن سيف الدولة كان يحب الاستكثار من شعره ، ويعلن تبرمه اذا ما تأخر عنه (٤) ((وتأتي المناسبات ليقول الشعراء وينتظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول فلا يقول)) (٥) ، فاذا ما أحس المتنبي بخطر مثل هذه المواقف عليه وفائدتها لحساده ، بدأ بالاعتذار (٦) :

أُسارِقُكَ اللحظَ مُسْتَحْيِيا ... وأزجُرُ في الخيلِ مُهري سِرارا

وأعلمُ أني إذا ما اعتذرتُ ... إليك أراد اعتذاري اعتذارا

ويستمر هذا المد والجزر بين المتنبي وحساده ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا • فاذا كان المتنبي ، على الرغم من نبوغه الفني ، وما يمكن أن يكون قد ساعده فيه بعض من

---

(١) التبيان ٢ : ٣٧/١٥٢ •

(٢) التبيان ٣ : ١٨٧/٥٧ـ٥٩ ، وينظر : ١ : ١٦/١٤ـ١٥ و١ : ٦٠/٣٢ـ٣٩ و ٢ : ١٦٥/١ـ٣ و ٣ : ١٨٩/٢٤ـ٣١ •

(٣) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ١٦ •

(٤) ينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١١ ، وخزانة الأدب ٢/٣٥١ •

(٥) فيض الخاطر ٤/٨٦ •

(٦) التبيان ٢ : ٩٧/٣ـ٤ ، وينظر : المتنبي بين نفسيته وشاعريته ٢٩ـ٣٢ •

أصدقائه أو معجبين به ، لم يستطع الصمود بوجه حساده ومناوئيه في حلب الا بمساندة سيف الدولة له ، وبما خصه به من حظوة عنده ، فانه ما ان فقد هذه الحظوة عند حاميه ، حتى ساءت أحواله وصار لزاما عليه الاستسلام لمشيئة الاعداء[1] ، وهكذا يقول في آخر قصيدة له عنده ــ بل آخر بيتين ــ[2] :

لا تَطْلُبَنَّ كريما بعد رؤيته ... إن الكرامَ بأسخاهم يدا خُتِموا
ولا تُبالِ بشِعرٍ بعد شاعرِه ... قد أُفسِدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَمَمُ

ليس من شك في أن خسارة المتنبي كانت كبيرة ، ((وقد تكون أكبر مما يطيق ، ولكنها ستكون أكبر ما دامت الدسائس قادرة على أن تجد لها ثقوبا في الجدار الذى كان قائما بينه وبين الوشاة . والرحيل هو الشيء الوحيد القادر على سد هذه الثقوب التي بدأت تتسع وتتحول الى نوافذ))[3] .

ولا بدّ أن ما عاناه المتنبي من حسد ووشايات ومكائد ، طوال إقامته في حلب سيف الدولة ، كان قاسيا ومؤلما الى الحد الذى كان يمنعه من العودة الى كنف سيف الدولة ، حتى بعد أن أنفذ اليه كتابا بخطه يسأله فيه المسير اليه ، بعد ثماني سنين من مغادرته اياه ، خوفا من أن تتكرر المعاناة . اذ قال مجيبا اياه[4] :

وما عاقني غيرُ خوفِ الوُشاةِ ... وإن الوشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ
وتكثيرُ قومٍ وتقليلُهُمْ ... وتقريبُهُم بيننا والخَبَبْ
وقد كان ينصرُهُم سمعُهُ ... وينصرُني قلبُهُ والحَسَبْ

ولا أرى المتنبي في هذا البيت الثالث الا مجاملا . اذ ما الذى جعله يرحل عنه لو كان ينصره قلبه ؟ الا اذا كان يعني أن حب سيف الدولة اياه صادق وأصيل ، حتى انه لم ينسه بل حن اليه طالبا منه العودة ، على الرغم من كل ما حصل ، وما مر من سنين .

---

(١) ينظر: أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٢٠٧ .
(٢) التبيان ٤ :٢٢٠/ ٥٤ــ٥٥ .
(٣) المتنبي بين البطولة والاغتراب ٣٧ .
(٤) التبيان ١ :١٩/ ٣ــ٥ .

ولا يعدم المتنبي الحساد والمناوئين في مصر (١) وان كان ذلك بقدر أقل مما في حلب ، من ذلك ما جاء في قوله يمدح كافوراً (٢) :

أبا المسكِ أرجو منكَ نصراً على العدا ... وآملُ عِزّاً يُخْضِبُ البيضَ بالـــدمِ
ويوماً يَغيظُ الحاسدين وحالـــةً ... أُقيمُ الشَقا فيها مقامَ التَنَعُّـــمِ

وان كنت أرى أن الأعداء والحساد المقصودين بهذين البيتين ، يمكن أن يكونوا حساده في حلب ، اذ يريد أن يرد عليهم ويغيظهم بما يمكن أن يحصل عليه من كافور • كما يمكن أن يكونوا حساده ومناوئيه في مصر ، ممن لم يودوا قدومه اليها ، ولم يأنسوا به فيها ، من الشعراء والأدباء أو من أفراد الحاشية أو ربما غيرهم •

ومن ذلك أيضاً قوله (٣) :

قليلٌ عائـدي سَـقِمٌ فـــؤادي ... كثيرٌ حاســدي صَعْبٌ مَرامـــي

أما من هم حساده وأعداؤه في مصر ؟ فان ما وصل الينا من أخبار المتنبي وأشعاره في مصر ، يشير باصبع الاتهام ـ ولو على استحياء ـ الى ابن حنزابـة ، وزير كافور و ((عصبة شعرائه)) (٤) • جاء في الصبح المنبي ، عن الوحيد ، أنه قال عمّا عاناه المتنبي في مصر ((••• وهو جنى ذلك على نفسه ، لأنه ترك مدح ابن حنزابـة

---

(١) مر المتنبي في طريقه الى مصر من حلب بدمشق ، وكان بها آنذاك ((يهودي من أهل تدمر يعرف بابن ملك من قبل كافور ملك مصر ، فالتمس من المتنبي أن يمدحه ، فثقل عليه ، فغضب ابن ملك ، وجعل كافور الأخشيدي يكتب في طلب المتنبي من ابن ملك ، فكتب اليه ابن ملك ، ان أبا الطيب قال : لم أقصد العبد وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيده ، ونبت دمشق بأبي الطيب ، فسار الى الرملة)) (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١١٠) ، ومن هناك الى مصر • من الممكن أن يكون هذا الخبر إشارة الى أن المتنبي لم يعدم في طريقه الى مصر الوشاية والكيد ، ولكن الدكتور عبد الوهاب عزام قال ـ في ما قال ـ في معرض تعليقه على هذا الخبر ((•• وما كان ابن ملك ليجترئ على أن يفترى سب كافور على لسان أبي الطيب)) (ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ١٠١) • ولما كنا نرى في ملاحظة الدكتور عزام ما يجعلها مقبولة ، فضلا عن أننا لم نعرف عن هذه الحادثة وأبعادها ومداخلاتها أكثر مما ورد في هذا الخبر ، آثرنا الإشارة اليها هاهنا •

(٢) التبيان ٤ : ٢٥٢/٢٣ـ٢٤ ، وينظر ١ : ٣٦/٣٦ ـ ٣٧ •

(٣) نفسه ٤ : ٢٥٣ /١٩•

(٤) كافوريات أبي الطيب دراسة نصية ١٧٧ •

وهو وزير كافور ، والمقرب منه ، وهو مع ذلك من بيت شريف أهل وزارة ورياسة ومن العلم والأدب بموضع جليل ، وهو باب الملك ، فأتى من غير الباب))[١]. وقيل إن ابن حنزابة هذا ، هو المقصود بقول المتنبي[٢] : ٦٨٠٤٦٥

وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهل السواد ... يدرس أنساب أهل الفلا

وقد ذهب عدد من الباحثين المحدثين ، كذلك ، الى عد ابن حنزابة وعصبته ، حسادا وأعداء للمتنبي في مصر ، حتى قالوا إن ابن حنزابة كان يشنع على المتنبي ، ويشير على كافور بعدم الاستجابة اليه ، هذا ان لم يكن قد حرضه عليه ، وشككه فيما قاله فيه ، وذلك لأنه لم يمدحه ، ولأنه لجأ الى حام سواه يحميه[٣]. واني لأتساءل ، هل يعقل أن رجلا قيل فيه انه كان ((أجد الحفاظ ، حسن العقل ، كثير السماع ، مائل الى أهل العلم والفضل))[٤] ، وانه ((كان كثير الحديث ، جم السماع مكرما لأهل العلم ، مطعما لأهل الحديث .. ولم يزل في أيام عمره يصنع شيئا من المعروف عظيما ، وينفق نفقات كثيرة على أهل الحرمين من أصناف الاشراف وغيرهم))[٥] ، يناصب شاعرا العداء لأنه لم يلجأ اليه أو لم يمدحه ، حتى لو كان ذلك الشاعر هو مالئ الدنيا وشاغل الناس ، وبخاصة أن المتنبي لم يعرض له بسوء ، وان لم يمدحه ؟

ويرى الأستاذ محمود محمد شاكر — أيضا — أن المتنبي في مصر ، كان ((مقصودا بالعداوة من أقوام بعينهم كانوا يمهدون للدعوة الفاطمية))[٦] ، وما من شك في أن الأستاذ شاكرا قد اعتمد في رأيه هذا على ما ذهب اليه من علوية المتنبي[٧].

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١١٣ .
(٢) ينظر: التبيان ١/ ٤٣ ، والعرف الطيب ٢/ ٥٥٥ ، والمتنبي ١/ ٢٦١ ، والبيتان في التبيان ١ : ٢٩/٧ — ٣٠ .
(٣) من هؤلاء الباحثين : د . ريجيس بلاشير في (أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي) ٢٨٤ — ٢٨٥ و ٢٩٢ — ٢٩٣ ، ومحمود محمد شاكر في (المتنبي) ١/ ٢٦١ ، وبطرس البستاني في (أدباء العرب في الأعصر العباسية) ٢/ ، و د . النعمان القاضي في (كافوريات أبي الطيب دراسة نصية) ١٧٦ — ١٧٨ ، وعبد الله الطيب في (مع أبي الطيب) ٨٣ — ٨٧ .
(٤) معجم الأدباء ٤ : ٧/ ١٦٥ .
(٥) المصدر نفسه ٤ : ٧/ ١٦٩ .
(٦) المتنبي ١/ ٢٦٠ .
(٧) ينظر: المصدر نفسه ١/ ١٣ — ٥٤ .

أما عبد الله الطيب فيرى أن المتنبي كان قد حرص ((على البقاء بمصر • ولكن كيد حلب اتصل بالفسطاط فلم يكن له الا الفرار))[١]، وكان قد قال : ((وكأن أهل حلب اتصلوا بابن حنزابة ومن حول كافور وابتدأت حرب السياسة والوشاية))[٢]، ويذهب في الكلام على ذلك في صفحات عدّة ، وهو كلام مبني على الظن محتملا الترجيح ، اذ لم يصل الينا من الأخبار ما يؤكده ، فضلا عن أنه قسر الشواهد التي أتى بها ، لإثباته ، قسرا[٣]• وان يكن شيء ما من ذلك قد حصل بتحريض من أعدائه في بلاط حلب ، في أثناء وجوده في مصر ، فلعله ما ذهب اليه محمد شرارة بقوله ((لم يقض رحيله على الدسائس والمؤامرات ، بل خاف أصحابها أن تكون له عودة ، واذا عاد طال أرق الدسيسة واقترب أجلها ان لم تمت وتذهب الى القبور • ولذلك تتابعت الإشاعات حوله ويضمنها إشاعة موته التي ظهرت في مجلس سيف الدولة ، وامتدت منه الى خارجه))[٤] • ولعل في هذا ما يؤيد ما أرجحه من سبب في عدم عودة المتنبي الى حلب ، فيما بعد • ومهما يكن من أمر ، فقد وقع المتنبي ضحية الكيد له والائتمار به ، ان لم يكن كيد ابن حنزابة ومن معه من مصريين وحمدانيين ، أو ائتمار الفاطميين به ، فيكفيه دهاء كافور نفسه الذى استطاع أن يحتوى جموح المتنبي وغضبه وألمه ، ويجعله يمدحه ، فضلاً عن تقييده حركته لسنين أربع ، محاولا منع نفسه هجاء المتنبي له فيما لو أفلت من إساره أو غاب عن عينيه • ألم يقل المتنبي عن نفسه في ذلك ، أنه[٥] :

تَعَوَّدَ أن يُغَبِّرَ في السرايا ويدخلَ من قتامٍ في قتامِ
فأُمسِكَ لا يُطالُ له فيرعى ولا هو في العليقِ ولا اللجامِ

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد تمكن المتنبي من النجاة بنفسه ، فأسلم ساقيه للريح ، راحلا عن مصر ، هاربا مما لحقه فيها ، قال[٦] :

وضاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ منها خلاصَ الخمرِ من نَسْجِ الفدامِ
وفارقتُ الحبيبَ بلا وداعٍ وودعتُ البلادَ بلا سلامِ

---

(١) مع أبي الطيب ١٠١ •
(٢) المصدر نفسه ٩١ •
(٣) ينظر: المصدر نفسه ٩١ـ٩٥ •
(٤) المتنبي بين البطولة والاغتراب ١٤٧ •
(٥) التبيان ٤ : ٢٥٣/٣٧ـ ٣٨ •
(٦) نفسه ٤ : ٢٥٣/٣٣ـ٣٤ •

بعد هرب المتنبي من مصر الى الكوفة ، خرج منها الى بغداد • ومنذ أول دخوله اليها ، ساء معز الدولة ((أن يرد حضرته وهي دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك ، رجل صدر عن حضرة سيف الدولة وكان عدوا مباينا ، فلا يلقى أحدا بمملكته يساويه في صناعته))(١) • وهذا استهلال لا يبشر بخير ، ولعله ينبئ عما سيكون •

لقد استقبل المتنبي ، بسبب من رغبة الوزير المهلبي في مدحه اياه ، استقبالا حافلا ، حين زار المهلبي في داره لأول مرة ، لكنه خرج من غير أن يمدحه ، وفعل مثل ذلك في زيارته الثانية له ، مما أحفظ المهلبي عليه(٢) : ((فأغرى به شعراء بغداد ، حتى نالوا من عرضه ، وتباروا في هجائه ، وفيهم ابن الحجاج ••• وابن سكرة الهاشمي والحاتمي ، وأسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه ، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم ، وقيل له في ذلك فقال : اني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء ••• :

أرى المتشاعرين غُروا بذمي ... ومن ذا يَحْمَدُ الداءَ العُضالا
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يَجِدْ مُرّا به الماءَ الزُلالا

وقولي ••• :

أفي كلِ يومٍ تحت ضِبْني شُوَيْعِرٌ ... ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يُطاوِلُ •••

وقولي ••• :

إذا أتتكَ مذمتي من ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لي بأني فاضل))(٣)

أما عدم مدحه الوزير المهلبي ، فاني أرى أن السبب فيه ما قيل من أن ماصده عن ذلك ، هو ما سمعه من تماديه في السخف والهزل والخلاعة(٤) ، لا ما قيل من ذهابه بنفسه عن مدح غير الملوك(٥) ، اذ أننا سنراه ، فيما بعد ، يمدح الوزير ابن العميد •

---

(١) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره لأبي علي الحاتمي ٧ •
(٢) ينظر : أبو الطيب المتنبي دراسة في التأريخ الأدبي ٣٢١ •
(٣) يتيمة الدهر ١ / ١٢٠ ـ ١٢١ ، وينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٥ ، وخزانة الأدب ٢ / ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٤٣ ـ ١٤٤ • والأبيات في التبيان ـ حسب تسلسل ورودها هنا ـ ٣ : ٢٠٣ / ٢٨ ـ ٢٩ و ٣ : ١٨٩ / ٢٥ وما بعده و ٣ : ٢٠٩ / ٣٩ ورواية البيت في التبيان ••• كامل •
(٤) ينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ١٥ ، وخزانة الأدب ٢ / ٣٥٥ •
(٥) ينظر : يتيمة الدهر ١ / ١٢٠ ، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٤٣ •

وأما الدافع وراء هجاء هؤلاء الشعراء له ، فلعله ثقل وطأته عليهم لأي سبب كان ، من مثل تفوقه الفني ونبوغه الشعري أو تفاخره بنفسه واعتزازه بها فضلا عن اعتداده بأدبه وعلمه • أو لعله الرغبة في الارتزاق من خلال التقرب من الساسة الذين يكرهونه •وربما هذه البواعث جميعا • ثمّ لينضم الى هذه العصبة من الشعراء أبو الحسين بن لنكك ، بعد أن بلغه بالبصرة ، ما جرى بين المتنبي وشعراء بغداد ، وما أوقعوه فيه • وكان هذا حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا اياه ، زاعما أن أباه كان سقاء بالكوفة (١) •

لقد فعل المتنبي حسنا ، عندما لم يرد على أمثال هؤلاء الشعراء ((فقد كانوا من أصحاب التخصص في بذيء الشعر ووبيء الكلام ، فضلا عن أنهم لم يكونوا أندادا له حتى يرد عليهم بشعره أو يناقضهم بقصائده)) (٢) • ولعل سكوته عنهم ، مما أجج نار الحقد والبغضاء في صدورهم ، لما أشعرهم به من استهانته بهم ، وتحقيره لهم •

أما الحاتمي ، لسان ساسة بغداد البذيء ويدهم الطويلة ، فان قراءة لرسالته

(١) ينظر : يتيمة الدهر ١/ ١٢١ والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٤٤ـ ١٤٥ •ومنا ، لا بدّ من الإشارة الى ماذهب اليه عدد من الباحثين والدارسين من أن ما قيل عن ادعاء المتنبي النبوة ، والزعم بأن أباه كان سقاء ، فضلا عن اتهامه بالشح والبخل ، ربما كان من دس حساده وأعدائه عليه ، سواء أكانوا شعراء بغداد وأدباءها أم غيرهم • ومن هؤلاء الباحثين :الثعالبي في (يتيمة الدهر) ١/ ١٢١ اذ بدأ الكلام على ادعاء ابن لنكك بأن ابا المتنبي كان سقاء بـ (الزعم) • كما أنه لم يذكر دعوى النبوة ،والخطيب البغدادي في (تأريخ بغداد) ٤/ ١٠٤ إذ ربط ذكر ما نسب الى المتنبي من قرآن بمشاغبة الآخرين اياه فضلا عن إشارته الى إنكار المتنبي هذا القرآن ورفضه هذا اللقب (المتنبي)،وابن خلكان في (وفيات الأعيان) ١/ ١٢٤ إذ بدأ كلامه عن كون أبي المتنبي سقاء ، بفعل القول المضارع المبني للمجهول (يقال)،ومحمود محمد شاكر في (المتنبي) ١/ ٧٧ـ ١١٦ ،وطاهر الطناحي في (جنون العظمة في المتنبي فضيلة خلقية) ١٨٢ و ١٨٧ ،وأنيس المقدسي في (أمراء الشعر العربي في العصر العباسي) ٣٤٨ ـ ٣٤٩ ، و د • شوقي ضيف في (فصول في الشعر ونقده) ٧٥ و ٨٣ و د • جلال الخياط في (المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته) ٢٦ • وحتى اذا ما فرضنا أن هذه التهم لم تكن من دسهم ، فانهم قد أسهموا إسهاما فعالا في تضخيمها والمبالغة فيها •

(٢) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ٤٢٨ـ٤٢٩ •

الموضحة [١]، ترينا مدى ما كان يحتمل في نفسه من حقد بازاء المتنبي، ومقدار الكراهية التي كان يحملها له • قال في هذه الرسالة، عن الهدف من المهمة التي أوكلها اليه الوزير المهلبي، حول المتنبي: ((سامني هتك حريمه، وتمزيق أديمه، ووكلني بتتبع عواره، وتصفح أشعاره، واحواجه الى مفارقة العراق واضطراره كراهية لمقامه بعد تناهيه ــ كان ــ في ادنائه واكرامه)) [٢] • فالهدف من هذا الكيد، اذن، هو إجبار المتنبي على مغادرة العراق • وبعد أن يصف نفسه، مغرورا، بمثل قوله ((•• وكنت اذ ذاك ذا سحاب مدرار، وزند في كل فضيلة وار، وطبع يناسب صفو العقار •••)) [٣] ــ حتى لكأني به في محاولته هذه الرفع من شأن نفسه، يصدر عن شعور بالنقص والتهافت حيال المتنبي ــ يرسم لنا تلك المناظرة ــ بينهما ــ التي أخرج نفسه منها منتصرا، حتى انه قال يصف سرور ساسة بغداد بما جاء فيها من هزيمة المتنبي: ((ونمي الخبر واشتهرت الحال، ونودي بها في كل ناد، ورسم الوزير أبو محمد والرئيس أبو الفرج محمد بن العباس ــ واياه خاطبت بهذه الرسالة وأمر المسموع في نظمها امتثلت ــ وهما كوكبا المملكة وناظرا الدولة، شرحها فشرحتها، وأنهيا الصورة الى معز الدولة فأنعمت في مسرّته، ووكّد الوصاة بمراعاتي والتكرمة الشديدة لي)) [٤] •

ولعل من الأسباب الأخرى التي زادت في حماسة الحاتمي للانتقاص من المتنبي، ما يمكن أن يكون قد رآه أو ناله منه، من أذى أو تعريض أثار حفيظته، وذلك حين التقيا في بلاط سيف الدولة ــ من قبل ــ، فأسره في نفسه، حتى اذا ما سنحت الفرصة للانتقام، استغلها للنيل منه بطريقته الخاصة [٥] • وهكذا لم يجد المتنبي مناصا من الرحيل عن بغداد، بعد أن لقي فيها ما لقي • ويبدو أن فعل المكائد والدسائس في كل مكان نزل به، كان أقوى أثرا وأكثر تأثيرا مما يقع عليه من ود وحب •

---

(١) هي رسالة ألفها أبو علي الحاتمي، يصور فيها مناظرة جرت بينه وبين المتنبي، في مستقر المتنبي ببغداد • حاول فيها أن ينتقص من شعر المتنبي، ويسفه ما أورده من آرائه في الشعر والأدب واللغة، حتى ينهيها بانتصاره، وبهزيمة المتنبي • واني ليعروني الشك مما جاء في هذه الرسالة، لما فيها من تحامل أولا، ولأنها رويت بلسان طرف واحد من أطرافها هو الطرف المتحامل، الذي أعلن عن سوء نيسته فيما قدم لها به، فضلا عما ذكره في خاتمتها من احتفال ساسة بغداد بالنتيجة التي أنهاها بها •

(٢) الرسالة الموضحة ٣ •

(٣) المصدر نفسه ٧ •

(٤) المصدر نفسه ٩٦، وينظر: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ١٦٠ •

(٥) ينظر: الرسالة الموضحة مقدمة المحقق ى ــ ك، والاصالة في شعر أبي الطيب المتنبي، د • نوري جعفر ٨١ ــ ٨٢ •

ان مكائد السياسة، وتنافس الولاة والأمراء فيما بينهم ، كان من أسباب رحلة المتنبي أيضا ، وذلك من حيث اشتهاره وبعد صيته ، بوصفه شاعرا كبيرا بزّمن حوله من معاصريه من الشعراء ، حتى رغب كل ذى سلطان في أن يكون ممدوحا له كغيره ممن مدحهم ، فلا يبدو أقل شأنا ولا أصغر ، ولعله بمثل هذا المدح يفضل من لم يمدحه • ومن ذلك ــ فضلا عن تجربتي المتنبي في مصر وبغداد ــ دعوة ابن العميد له ، الى زيارته في أرّجان ، حتى إنه لما سمع أن المتنبي خرج متوجها الى بلاد فارس ((كان يخاف ألا يمدحه ، ويعامله معاملة المهلبي ، فيتكره من ذكره ، ويعرض عن سماع شعره))(١) • ولعل من ذلك ، أيضا ، دعوة عضد الدولة له ، وان كانت دلالته من زاوية أخرى ، الا أن الغرض منها هو نفسه • فما أن وصل المتنبي شيراز حيث عضد الدولة ، حتى سأله ((عن مسيره من مصر وعن علي بن حمدان))(٢) أى سيف الدولة • ثمّ ان عضد الدولة هذا ، البويهي الأعجمي ، حين أكرم المتنبي وأجزل له العطاء ، أرسل وراءه من يسأله عن حيثية عطائه ، مقارنة بعطاء سيف الدولة ، الحمداني العربي ، فأجاب المتنبي ، ((ان سيف الدولة كان يعطي طبعا ، وعضد الدولة تطبعا ، فغضب عضد الدولة))(٣) • بل انه كان يسمع شعر المتنبي ويفهمه ويتأمل فيه ، حتى انه قال : ((المتنبي قال جيد شعره بالعرب ، فأخبر المتنبي به فقال : الشعر على قدر البقاع))(٤) • فما غاية عضد الدولة من السؤال عن سيف الدولة ؟ وما مراده من المقارنة بين عطائه وعطائه ؟ ثمّ ، ما دلالة هذا التمييز العنصرى حين يخصص جودة شعر المتنبي بكلمة (العرب) ؟ بمعنى ، لماذا لم يقل كما قال ابن العميد عندما أرسل ((بعض ندمائه الى المتنبي : كان يبلغني شعرك بالشام والمغرب وما سمعته دونه ، فلم يحر جوابا))(٥) ، فخصص المكان دون القومية •

لا شك في أن وراء أسئلة عضد الدولة هذه ، ما وراءها من نيات أو مقاصد ، قد نوفق في تخمينها أو لا نوفق • ولننتبه الى أن إجابات المتنبي عنها ليست مما يريح مثل عضد الدولة أو يشفي له غليلا • فالأمر هنا ، فيما أرى ، أكبر من كونه رغبة ممدوح في شعر مادح •

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٤٦ •
(٢) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ٢١ ، وينظر : خزانة الأدب ٢/ ٣٥٩ •
(٣) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٧٤ •
(٤) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ٢٥ ، وينظر : خزانة الأدب ٢/ ٣٦٢ •
(٥) المصدر نفسه ١٦ ــ ١٧ ، وينظر : خزانة الأدب ٢/ ٣٥٧ •

ومن الجدير بالذكر ، أن مقارنة هذين الممدوحين ــ المسؤولين ما مدحهما به المتنبي مما مدح به غيرهما ــ بصرف النظر عمّا يمكن أن يكون لها من دلالات أخر ــ يثبت ما ذهبنا اليه من أن الحسد والصراع بين الساسة أنفسهم ، من الأسباب التي دعتهم الى توجيه الدعوات اليه ، هو الشاعر النابغة ، مادح الأمراء والـــــولاة ، والعارف بالكثير من أمور السياسة وخفاياها ، بحكم تنقله بين أهم وأكبر بلاطات الدولة العربية الاسلامية ومجالسها ، وبحكم مطامحه الخاصة ، فيكون لمدحه ــ اذا ما مدح ــ معنى خاص .

ان ما تعرض له المتنبي ، على امتداد حياته ، من حسد ووشايات ومكائد ، لم يكن ليمر عليه بسلام ، ولعل بعضه ــ ان لم يكن كله ــ قد نما وامتد حتى تسبب فـــــي مقتله[١]. أفلم يقل[٢]:

فلو أني حُسدتُ على نفيسٍ لجُدتُ به لذي الجَدِّ العَثُورِ
ولكني حُسدتُ على حياتـــي وما خيرُ الحياةِ بلا سُـــــرورِ

ولعله لم يكن يغادر بلـــدا الى آخر ، أو ممدوحا الى آخر الا وهو يشـــــعر بخطر ((محيق من هؤلاء الحساد الذين لا يخلو منهم مكان))[٣]. قال[٤]:

لا أقتري بلدا إلا على غَـــرَرٍ ولا أمُرُّ بخَلقٍ غيرِ مُضطَغِـــنِ

لقد ادعى المتنبي ، في خضم كلامه على الحساد والأعداء والوشاة ، عـــــدم اهتمامه بهم ، وبما يرجفون به من قول أو فعل . من ذلك قوله[٥]:

أبدو فيسجُدُ من بالسوءِ يذكُرني ولا أُعاتِبُهُ صَفْحا وإهوانـــا

وقوله[٦]:

---

(١) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٧٤ـ١٧٥، والمتنبي ١/٢٨٣ـ٢٨٩، والمتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٢٩ـ٣٠، والمتنبي يسترد أباه ١٩٨ـ ٢٠٢، ومع أبي الطيب ٢٦ـ٣١، والمثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ٢٧، ومع المتنبي في شعره الحربي د. هادي نهر ٦١ .

(٢) التبيان ٢ : ١١٦ / ١٢ـ١٣ .

(٣) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ٣٣ .

(٤) التبيان ٤ : ٢٦٩ / ٤ .

(٥) نفسه ٤ : ٢٧٠ / ١٠ .

(٦) نفسه ٤ : ٢٦٧ / ٣٩ .

غضبُ الحسودِ إذا لقيتكَ راضيا   رُزْءٌ أخفُّ عليَّ من أن يوزَنــــا

ولكن الحقيقة هي أنه لم يكن ليقدر على ذلك ، أو يستطيع اليه سبيلا ، ((فالرجل الذي يكثر من ذكر حساده ومنافسيه لا بد أنه كثير التفكير فيهم ، حريصا على اغاظتهم ورد كيدهم))[1] ، وهكذا ، فنحن – في الواقع – لا نجد ((سوى الاهتمام بالحساد وما لفقوا))[2] ، والأعداء وما كادوا ، حتى انه اضطر – والحال هذه – الى التنقل الدائم ، وعدم الاستقرار في أي مكان يحس فيه بوجودهم أو بما يدبرونه له ، وبخاصة اذا ما شعر بقلة حيلته وضعفها حيالهم . ولكنه ، على الرغم من ذلك ، قد اعتذر لهم . ولكن ، أيما عذر . قال[3] :

وللحُسادِ عُذرٌ أن يشِحّوا   علىٰ نظري إليه وأن يذوبوا
فإني قد وصلتُ إلىٰ مكانٍ   عليه تحسُدُ الحَدَقَ القلوبُ

فما أرى (مكان) ههنا الاّ (مكانة) .

ولكن ، هل كان المتنبي المحسود حاسدا ؟ هذا ما حاول علي أدهم الإجابة عنه ، قال ((المعروف أن المتكبرين المعجبين بأنفسهم الواثقين بها أقل تعرضـا للحسد من المتواضعين المعتدلين ، لأن المتكبر المعتد بنفسه يعتقد أنه لا ينقصه شيء مما عند الناس ، وان الناس ليس عندهم ما يستحقون أن يحسدوا عليه))[4] ، ثم ذهب الى أن المتنبي كان ، على الرغم من ثقته بنفسه وإعجابه بها ((طموحا شديد التطلع الى ما في يد الناس ، وقد ذاق البؤس وعرف الحرمان في طفولته الحزينة ونشأته القاسية ، وخالط الملوك والرؤساء ، ولم يجد لهم مزية يمتازون بها عليه ، وهو مع ذلك محروم من الاستمتاع بالنفوذ والسلطان ، ومن المحتمل جدا أنه كان يحسدهم على ذلك))[5] . ثم ليرى أن ذلك تجلى في طلبه ضيعة أو ولاية من كافور ، فلما لم يوفق في ذلك ، هجاه هجاء مرا[6] .

---

(١) أبو الطيب المتنبي بين الغرور والطموح والحزن ، علي أدهم ، مجلة الكاتب المصري مجلد ١ عدد ٤ يناير ١٩٤٦ ص ٣٠٥ .
(٢) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ٣٠ .
(٣) التبيان ١ : ١٦٠ / ١٤ – ١٥ .
(٤) على هامش الأدب والنقد ٩١ .
(٥) على هامش الأدب والنقد المكان نفسه .
(٦) ينظر : المصدر نفسه المكان نفسه .

وما أراه هو أن المتنبي لم يكن حاسدا بالمعنى الذى يتمنى فيه زوال ما عند غيره — مهما كان ذلك — ، وانما حسده هو أن يكون عنده مثل ما عند غيره • وبذلك يسوغ لنا أن نصف هذا التوجه بالغبطة أو الاغتباط • فقد كان يريد أن يصبح واليا كبقية الولاة ، وغنيا كأثرياء عصره ، كما كان يرغب في التفوق الشعرى ، والاستقرار العاطفي — الاسرى • وكل هذا — كما أرى — طموح وليس بالحسد •

خامسا : الحرب والصيد :

لقد كان للحرب والصيد أثر مهم في دفع المتنبي الى الرحلة ، في فترات معينة خلال مسيرة حياته ، بسبب من ظروف محددة اقتضته الاستجابة لها ، فضلا عن دوافعه النفسية ، الذاتية ، التي تفاعلت مع تلك الظروف •

أما رحلة الحرب ، فهي النتيجة الطبيعية والحتمية لمجموعة من الاسباب ، تواشجت وتكاملت حتى دفعت بالمتنبي اليها • وتتجلى هذه الاسباب في ، طبيعة العصر الذى ولد فيه ، ونشأ وترعرع في رحابه • اذ يولد ((وقعقعة الأعنة وصهيل الخيول وغبار الوقائع وصليل السيوف يصدع الآذان ويملأ الآفاق ، والجيوش تتحرك في كل مكان ، ولا مجد الا للمقاتلين • ومعدات الحرب تهيىء للناس أسباب المنعة والجاه والغنى والسطوة والحكم ، ولا قانون يحمي الفرد سوى السيف ، والجبن صفة مرذولة بين الناس ، لا يلقى صاحبها غير الهوان والاحتقار))(١) •

ولم يكن المتنبي ليعي هذا فحسب ، وانما ليحس في نفسه بالكثير من الآمال والطموحات ، ولدت معه(٢) • ورافق نموها في نفسه نموه • وهذه لا يمكن تحقيقها في عصر مثل هذا الا بالقوة والسلاح • قال(٣) :

ومَن يبغِ ما أبغي من المجدِ والعلا   تساوىْ المَحايي عنده والمَقاتِلُ

فضلا عمّا أكسبته اياه حياته البدوية من فروسية غدت عنصرا ((من عناصر تكوينه النفسي))(٤) ، فلقد ذهب في صباه الى بلاد الشام ولم يزل يتنقل ((من باديتها

---

(١) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ٦٤ ، وينظر : المحصول الفكرى للمتنبي ٢٦٤ وملامح من صورة البطل عند المتنبي وقيمتها الفنية د • مصطفى عبد الحميد مجلة كلية الآداب — جامعة البصرة — العدد ٩ السنة السابعة ١٩٧٤ ص ١١٥ — ١٢٢ •

(٢) ينظر : المثال والتحول ٦٤ •

(٣) التبيان ٣ : ١٩٧/١١ •

(٤) مع المتنبي في شعره الحربي ٧٠ •

الى حواضرها ، ومن برها الى مدرها فأكسبته البادية والتنقل فيها فروسية وشجاعة وفصاحة • وما كان أهل البادية غير فرسان فصحاء ومحاربين))[١] • وذهب غومث الى مثل ذلك في قوله ((فلم يتعلم المتنبي عبادة الحرب ، واجادة الضرب ، وحب المغامرة، والولوع بالآفاق الصافية ، في أبهاء بغداد أو حلب أو القاهرة أو فارس ، أو بين أزقتها • وانما جاءه هذا كله من تكوينه الممتزج ، دما وثقافة ، بعالم الجاهلية القديم))[٢] • واستنادا الى ذلك ، فضلا عما يمتلئ به ديوانه من صور البطولة والشجاعة ، وعما وردنا من أخبار ، فاننا نرفض الفرية التي رماه بها بعض الباحثين القدماء من ((أنه لم تكن فيه فروسية وانما كان سيف الدولة سلّمه الى النخاسين والرواض بحلب فاستجرأ على الركض والحضر وأما استعمال السلاح فلم يكن من عمله))[٣] •

وهكذا يدعو المتنبي ، منذ أن بدأ يقول الشعر ، الى خوض المعامع والحروب • قال[٤] :

فثِبْ واثقا بالله وثبة ماجدٍ يرى الموتَ في الهيجا جنى النحلِ في الفمِ

وقال[٥] :

عِش عزيزا أو مت وأنت كريمٌ بين طعنِ القنا وخفقِ البنودِ
فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغيظِ وأشفى لغِلِّ صدرِ الحقودِ

ولعل مما زاد من إيمانه بالقوة وسيلة لتحقيق ما يبغيه ، ما ألفاه سنة الحياة وقوامها آنذاك ، ((حرب مستعرة لا راحة فيها ولا أمان، لا رحمة فيها ولا عدل • لا كلمة فيها لغير القوة أو الحيلة التي هي نوع من القوة • حرب قائمة دائمة في السر والعلن وبين الأصحاب والأعداء وفي صفوف الأقوياء والضعفاء))[٦] • ألم يقل معبرا عن ذلك[٧] :

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإنْ تَجِدْ ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يَظلِمُ

كما قال[٨] :

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة، د •زكي المحاسني ٢٩١ •
(٢) مع شعراء الأندلس والمتنبي ٥٥ •
(٣) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ٢٧ وينظر: خزانة الأدب ٢ / ٣٦٣ •
(٤) التبيان ٤ : ٢٢٢ / ٣ •
(٥) التبيان ١ : ٣٢٢ / ٢٦ـ٢٧ وينظر ٣ : ٢٠٠ / ٩ و ٤ : ٢٢٣ / ٢٦ـ٢٧ و ٤ : ٢٤٣ / ٩ـ١٠ و ٤ : ٢٦٤ / ٧ـ ٩ •
(٦) مطالعات في الكتب والحياة ٢١٨ •
(٧) التبيان ٤ : ٢٤٩ / ١٣ •
(٨) نفسه ٣ : ١٩١ / ٤٣ـ٤٤ •

إنما أنفسُ الأنيسِ سِباعٌ ... يتفارسْنَ جهرةً واغتيالا
من أطاقَ التماسَ شيءٍ غلابا ... واغتصابا لم يلتمِسْهُ سؤالا
كلُّ غادٍ لحاجةٍ يتمنّـى ... أن يكونَ الغضنفرَ الرئبالا

لم يخض المتنبي حربا حقيقية الا بعد اتصاله بسيف الدولة الحمداني • واذا كان قد مدح كثيرين قبله بالشجاعة ، وأشار الى حروب خاضوها ، فانه لم يشترك فيها • وهنا تبرز خصوصية علاقته بسيف الدولة من حيث تفجيرها لكثير من كوامن نفسه ، كان بعضها نتيجة لتراكمات مشاعر وأحاسيس وأفكار اعتملت في نفسه واختلج بها صدره ، لكنه لم يجد لها قبل اتصاله به متنفسا • في حين كان بعضها الآخر وليد ظروف اتصاله به ، وما فرضه هذا الاتصال عليه •

ان مصاحبة المتنبي سيف الدولة ، الذى قال فيه (١) :

وإن الذي سمّى عليا لمنصِفٌ ... وإن الذي سمّاه سيفا لظالِمُهْ
وما كلُّ سيفٍ يقطع الهامَ حَدُّهُ ... وتقطعُ لَزْباتِ الزمانِ مكارِمُهْ

((في أغلب حروبه)) ، تأتي تحقيقا لمطامحه في المجد والنصر ، ((فقد كان يحمل بين جنبيه نفسا نزاعة الى القتال تدفعها الآمال الكبار ، وكانت وقائع سيف الدولة مع الروم حافزة لهذه النفس موجّجة لتلك الجذوة)) (٢) ، فلقد وجد في قيادة سيف الدولة الجيوش ، واقتحامه بها أرض الأعداء ، ردا لشرهم من العرب ، فضلا عن حنكته وفروسيته ، ما كان يراه في نفسه • ناهيك عما تمثله هذه الحروب والمعارك من اختبار حقيقي ، كان المتنبي يتطلع نحوه دوما ، ليثبت من خلاله شجاعته ، ويرى حساده وأعداءه ما هو عليه من فروسية وإقدام • قال مخاطبا سيف الدولة (٤) :

وما أنا إلا سَمْهَرِيٌّ حَمَلتَـهُ ... فَزَيَّنَ معروضا وراعَ مُسَدَّدا

وذهب عدد من الباحثين الى أن من الأسباب المهمة والرئيسة فيما برع فيه المتنبي من وصف لهذه الحروب ، رغبته في جمع المال ، ونيل الأعطيات ، فضلا عما توسمه

---

(١) التبيان ٣ : ٢١٨ / ٤١ــ ٤٢ •
(٢) الحرب في شعر المتنبي د • محمود حسن عبد ربه أبو ناجي ١ / ٤٦ •
(٣) الشاعر أبو الطيب ، علي الجارم ، مجلة الهلال ، العدد الخاص بالمتنبي ، أول أغسطس ١٩٣٥ ص ١١٤٧ ، وينظر : التطلع القومي عند المتنبي ٤٢١ ولغة الحب في شعر المتنبي ٢٢٦ •
(٤) التبيان ١ : ٣٥/٦٠ •

فيه سيف الدولة من عبقرية شعرية نادرة ، دفعته الى اصطحابه في حروبه ومعاركـــه ، حتى يجيد تصويرها ، ويبدع في تمجيد أبطالها[(١)] • واني وإن كنت لا أنكر دور هذيـــن الدافعين في شعر المتنبي الحربي ، فانني أتحفظ في إيلائهما تلك الأهمية القصوى والمبالغ فيها على ما ذهب اليه هؤلاء الباحثون • فقضية إبداع المتنبي في وصـــف حروب سيف الدولة ومعاركه ــ فيما أزعم ــ أكبر من أن نحددها بالمال ــ على الرغم من أُهمية المال لدى المتنبي ــ وبرغبة سيف الدولة الذاتية • فلقد شارك المتنبي في هذه المعارك مقاتلا قبل أن يكون شاعرا ، وحامل سيف قبل أن يكون صاحب قلم ، حتى انه كان أحد ستة أُنفار ثبتوا مع سيف الدولة في احدى غزواته الى بلاد الروم ، فـــي الوقت الذى انهزم فيه جيشه وهرب رجاله ، وذلك في غزوة (القنا)[(٢)] ، مما حـــدا بالمتنبي الى نظم قصيدته[(٣)] :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخدعُ　　　إن قاتلوا جَبُنوا أو حَدَّثوا شَجُعوا

في فضح مثل هؤلاء المقاتلين ، وتسويغ الهزيمة ، وتهديد الروم بما سيكون في الأيـــام المقبلة • فهل يكون كل ذلك ، رغبة في مال ، وتلبية لطلب فحسب ؟

انّ هذا الصدق في القول والفعل ، لا يخلو من دوافع قومية ودينية ، فضلا عمـــا أُشرنا اليه من دوافع ذاتية ، تفاعلت جميعا فيما بينها ، حتى دفعت بالمتنبي الـــى ساحات المنازلة ، يضرب بسيفه ويشدو بلسانه •

أما الدافع القومي ، فيتجلى في اشتراكه في الدفاع عن أرض العرب والمسلمين ضد جيوش الروم المعتدية وبخاصة انه هو الذى استنكر خضوع كثير من العرب تحـــت ربقة الحكام الأعاجم ، فضلا عن الحكام الضعفاء الأذلاء[(٤)] • وقد ذهب عدد ليـــس بالقليل من الباحثين الى القول بهذا الدافع القومي ، الذى جعل المتنبي يندفع نحو

---

(١) من هؤلاء الباحثين : د • زكي المحاسني من (شعر الحرب في أدب العرب) ٢٨١ ، و د • محمد مهدى البصير في (في الأدب العباسي) ٣٦٢ ، وإحســـان الملائكة في (غربة المتنبي) ١١٨ •
(٢) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٧٨ ــ ٧٩ •
(٣) التبيان ٢ : ١٣٨ / ١ •
(٤) ينظر : التبيان ٤ : ٢٣٨ / ١ ــ ٥ و ٤ : ٢٣٩ / ٢ ــ ٦ و ٤ : ٢٣٣ / ٢٨ ــ ٣١ • فضـــلا عن فخره بالجنس العربي ومدحه اياه وهو العربي النسب والأخلاق (ينظر التبيان ١ : ١٣ / ١٦ و ١ : ٦٣ / ٣٢ ــ ٣٣ و ٣ : ١٨٨ / ١ ــ ٣ و ٤ : ٢٦٤ / ١ ــ ٢) وحنينه الى أرض العرب اذا ما غادرها (ينظر : التبيان ٤ : ٢٧٨ / ١ ــ ٢ و ١٠ ــ ١٣ و ٤ : ٢٨٤ / ١٢ ــ ٢) ، ناهيك عن حبه لحياة البدو العرب وتغزله بالبدويات (ينظر التبيان ١ : ٢٣ / ٦ ــ ١٠ و ١ : ٣٤ / ١ ــ ١٦ و ١ : ٦٥ / ٧ ــ ٩ و ٤ : ٢٨٤ / ١ ــ ٢) •

المشاركة في حروب سيف الدولة ، ثمّ يتغنى بها [١] •

وأما الدافع الديني ، فيبرز لنا بصورة أوضح وجلاء أكثر من خلال إشـــارة المتنبي اليه في مرات عدة ، وبصيغ مباشرة وغير مباشرة • من ذلك قوله لسيف الدولة [٢] :

ولستَ مليكا هازما لنظيرهِ ولكنك التوحيدُ للشركِ هازمُ

ويجعله سيف الملك ، والضارب به هو اللّه ، ولواء الدين واللّه عاقد [٣] :

فأنت حسامُ الملكِ واللّهُ ضاربٌ وأنت لواءُ الدينِ واللّهُ عاقـدُ

بل انه سيف اللّه [٤] :

أيا سيفَ ربِّكَ لا خَلْقِـــــــهِ ويا ذا المكارمِ لا ذا الشُطَبْ

ومن ثمّ ، تكون انتصاراته بعون اللّه وتأييده ، ليعلو بها صوت الاسلام [٥] :

خَضَعتْ لمُنْصُلِكَ المناصِلُ عنوةً وأذَلَّ دينُكَ سائرَ الأديـــانِ

وهكذا ،في كل قصائده الحربية في سيف الدولة ، يجعل المعارك ((بيــــن معسكرين : معسكر الايمان يقوده ممدوحه مع عشيرته وأنصاره ومساعديه وحلفائه ، ومعسكر الروم يقوده الدمستق باسم ملكهم مع حلفائهم من بلغار وروس ، الصفة البـارزة للمعسكر الأول أنه مسلم موحد ، يرضى عنه اللّه لانه حزبه الذى ينصر دينه ويؤمن حجيجه ويقطع دابر أعدائه ، والصفة البارزة للمعسكر الثاني أنه كافر مشرك •••)) [٦]

---

(١) فن هؤلاء الباحثين ، محمود محمد شاكر في (المتنبي) ١/ ٢١٩ود •شوقي ضيف في (فصول في الشعر ونقده) ٩٦،وإبراهيم العريض في (فن المتنبي بعد ألــف عام) ٢٨ــ٢٩،و د •النعمان القاضي في (كافوريات أبي الطيب دراسة نصيـــة) ١١٣،و جاسم محسن عبود في (التطلع القومي عند المتنبي) ١٤٢ــ١٤٣، و د • هادى نهر في (مع المتنبي في شعره الحربي) ٢٩٩ •

(٢) التبيان ٣ : ٣٩/٢٢٥،وينظر ١ : ٤٥/١٣ و ١ : ٤/٦٠ •

(٣) نفسه ١ : ٣٨/٥٩ ، وينظر ٢ : ٥٦/١٠٠ و ٤ : ١٣/٢٦١ .

(٤) نفسه ١ : ١٩/١٩ ، وينظر ٣ : ٤٦/٢٢٥ .

(٥) نفسه ٤ : ٢٩/٢٦٢،وينظر ١ : ٣٤/١٩ و ٣ : ٤٥/٢٢٥ و ٤ : ٤١/٢٦٢ •

(٦) المحصول الفكرى للمتنبي ٢٢٧ وينظر : في الأدب العباسي الرؤية والفن . د • عزالدين اسماعيل ١٦٣،والمتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس (حماسة المتنبي بين الحمية الدينية والحمية القومية) محمد البحلاوى ٣٢٦ــ٣٢٩،وفن المديــــح وتطوره في الشعر العربي ٢٧٤،ومع المتنبي في شعره الحربي ٢٩٩ •

ولعل من أسباب اهتمام المتنبي بالجانب الديني في حروب سيف الدولة ضد الروم ، وتركيزه عليه ، ما يكون قد رآه أو سمع عنه من الأهداف والبواعث الدينية التي أعلن عنها الروم واستغلوها في إثارة جيوشهم ضد الحمدانيين [1].

ان قصائد المتنبي التي قالها في وصف حروب سيف الدولة ، من مثل قصائده [2] :

ليالِيَّ بعد الظاعنين شُكولُ　　طِوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ

و: على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ　　وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

و: عُقبى اليمينِ على عُقبى الوغى نَدَمُ　　ماذا يزيدُكَ في إقدامِكَ القَسَمُ

و: بغيرِكَ راعيا عبثَ الذئابُ　　وغيرَكَ صارما ثَلَمَ الضرابُ

ترسم صورا رائعة لحروب سيف الدولة ، من حيث وصف تفصيلات القتال ، ونفسيات المتقاتلين ، فضلا عن حركة الجيوش ، وبخاصة جيش سيف الدولة ، في تنقلاته من موقع الى آخر ، ومن مدينة الى غيرها ، وفي صعوده جبلا أو عبوره نهرا ، وكل ذلك على ظهور الخيل والابل ، والسفن أحيانا . سواء أكانت المعركة مع الروم أم مع المتمرد ين العرب وأكانت نصرا أم هزيمة [3]. وعلى الرغم مما تحتوى عليه هذه القصائد من ((قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن المعاني والأسلوب وسمو في الصنعة فانها تجمع في أبياتها (قيمة تأريخية) وجغرافية) عالية القدر ، وتعد (وثائق) في غاية الخطورة لكتابة التأريخ السياسي والتحقيق الأدبي عن عصر سيف الدولة)) [4]. اذ أن مواقع

---

(١) ينظر فيما اعلن عنه الروم من أهداف دينية في حروبهم مع سيف الدولة: زبدة الحلب من تاريخ حلب ١/ ١٢٠ـ١٤٥، وسيف الدولة الحمداني د . مصطفى الشكعة ١١٤.

(٢) هذه القصائد في التبيان ـ حسب الترتيب ـ ٣: ١٨٧/ الأبيات و ٣: ٢٢٥ / الأبيات و ٤ : ٢٣٠ / الأبيات و ١: ١٧/ الأبيات. وينظر : ١: ١٣/ الابيات و ١ : ٥٩ / الأبيات و ٢ : ١٠٠ / الابيات و ٢: ١٣٨/ الابيات و ٢: ١٥٢/ الابيات و ٣ : ١٧٦/ الابيات و ٣: ٢١١/ الابيات و ٤ : ٢٥٩/ الابيات و ٤ : ٢٦٢ / الابيات .

(٣) ينظر : أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الادبي ٢٦٥، ومع المتنبي ١٧٤، وفنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ٣٩٤ ـ ٤٠٢، وشعر الحرب في أدب العرب ٢٦٢ـ ٢٨٨، ومن النقد والأدب (المجموعة الرابعة) د . أحمد احمد بدوى ١٦ـ٢١، وفصول في الشعر ونقده ٩١ـ٩٨، وفي الأدب العباسي الرؤية والفن ١٥٧ـ١٦٤، وأدب الحرب حتى إعلامه ونجاح العطار ٨٧ـ١٠١، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ٥٥ـ ٩١، ولغة الحب في شعر المتنبي ٢٢٨ ـ ٢٣٤ .

(٤) شعر الحرب في أدب العرب ٢٦٢، وينظر : أدب الحرب ٩٢ـ١٠٠، ومع المتنبي في شعره الحربي ٢٩٧ـ٣٠٧ .

الجبهة العربية البيزنطية التي أشار اليها المتنبي في أشعاره هذه ، ((لم يذكرها أى موئرخ أو أى جغرافي قبله ، بل وبعده والفضل يعود الى المتنبي في تعيين هذه المواضع ، ولو على سبيل التقريب أحيانا •••• ويذكر ياقوت في (" معجم البلدان " الجغرافي) المتنبي في كل لحظة وأحيانا لا يذكر الاه • فهو اذن مصدر استعلامات عن طبوغرافية المناطق التي اخترقها الأمير الحمداني ، الذى ينبغي ادخاله في الحساب رغم ضآلة دقته • أشعاره كذلك لها أهمية تاريخية لا تنكر اذ أنها وثائق معاصرة لشاهد عيان ، حضر معظم كبريات المعارك، وألف غالبا مقطوعة في الموضع نفسه وفي اللحظة التي حدثت في بحرها هذه الواقعة أو تلك أو على الأقل بعد الحدث بقليل لدى عودته مثلا من احدى المعارك • فأشعاره مصدر تزداد أهميته بعدم وجود مصدر آخر معاصر في نفس الموضوع ، لهذه الفترة وهذه المنطقة في تاريخ القرن العاشر))[١] • وفي خضم ذلك كله ، كان لا بدّ للمتنبي أن يرسم صورة البطل ــ القائد، بكل ما يتصف به من فروسية[٢] •

ان مما يوقع قارئ شعر الحرب عند المتنبي على مدى حبه ــ أى المتنبي ــ للحرب وعشقه اياها ، لما تمثله من وسيلة لتحقيق الأماني والطموح ، ظاهرة برزت في شعره هذا ، وبخاصة ما قاله في سيف الدولة منه ، ألا وهي ((استعماله ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد وهو أيضا مما لم يسبق اليه ، وتفرد به ، وأظهر فيه الحذق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام))[٣] • من ذلك قوله[٤] :

أعلى الممالكِ ما يُبنى على الأَسَلِ　　　والطعنُ عند محبيهنَّ كالقُبَلِ

وقوله[٥] :

---

(١) المتنبي والحرب البيزنطية العربية ، ماريوس كنار ، مجلة المورد ، المجلد السادس ، العدد الثالث ١٩٧٧ ص ٧٥ ، وينظر : الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبي ، محمد علي الياس العدواني ، المصدر نفسه ١٣ ــ ٢٢ •

(٢) ينظر : ملامح من صورة البطل عند المتنبي وقيمتها الفنية ، مجلة كلية الآداب ــ جامعة البصرة ، العدد ٩ السنة السابعة ١٩٧٤ ص ١١٥ ــ ١٤٢ والعدد ١٠ السنة التاسعة ١٩٧٦ ص ١٨٠ ــ ٢٠٧ ، ومع المتنبي في شعره الحربي ١١١ ــ ١٣٩ ، والمتنبي بين البطولة والاغتراب ١٠٤ ــ ١١٩ •

(٣) يتيمة الدهر ١ / ١٩٣ وينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٤٣٢ ــ ٤٣٣ •

(٤) التبيان ٣ : ١٧٧ / ١ •

(٥) نفسه ٤ : ٢٠٩ / ٤ ــ ٦ وينظر ٣ : ١٧٧ / ٢٢ ــ ٢٣ و ٣ : ٢١٦ / ٣٤ و ٤ : ٢٦٢ / ٤٣ و ٤ : ٢٧٨ / ٣٣ ــ ٣٦ •

وقد علم الرومُ الشقيّون أننا ... إذا ما تركنا أرضَهمْ خلفَنا عُدنا
وأنّا إذا ما الموتُ صرّحَ في الوغى ... لَبِسنا إلى حاجاتِنا الضربَ والطّعْنا
قصَدْنا له قصدَ الحبيبِ لقاؤهُ ... إلينا وقُلنا للسيوفِ هَلُمّنا

ويعزو الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب هيام المتنبي هذا بالحرب ، وتغنيه بذكراها ، الى ((أن المتنبي وقد أدرك ما أدرك من الحروب مع سيف الدولة • وخاض ما خاض من المعارك • شعر بلذة النصر وما تستشعره النفس من فرح وغبطة وسرور بالانتصار على الأعداء ونشر السلطان عليهم وعلى بلادهم ثم ان كثيرا من الحروب التي خاضها أو التي أدركها مع سيف الدولة كانت مع الروم الذين كانوا يريدون القضاء على كل مجد عربي واسلامي في أرض الشام حتى يتمكنوا من نشر سلطانهم على البيت المقدس في فلسطين • وعلى سائر المعاقل الدينية التي ارتبط بها دينهم ولا بست عقيدتهم • ولم يكن رد سيف الدولة عليهم الا تأمينا لجنسه وتدعيما لدينه وحماية لممتلكاته بما يجعل الحرب حربا مقدسة تخوضها النفس آمنة راضية مطمئنة))(١) • ويرى الدكتور طه مصطفى أبو كريشة ، أن هذه الظاهرة ((انما هي أمر قائم في داخل نفس الشاعر ، وراجع في الأصل الى غرامه هو بالحرب ، وتمنيه أن يكون مقاتلا محاربا))(٢) •

أما سعاد عبد العزيز المانع ، فتقول ((ان فكرة القتال أو الحرب تقترن في ذهن الشاعر بالقيم الأساسية في الحياة وبانتصار الانسان • ومن هنا اقترنت الحرب بألفاظ الحب ، ومن هنا كان الانتماء الى الحرب))(٣) ، وتذهب الى أن فكرة الانتماء الى الحرب التي يضفيها المتنبي على سيف الدولة ، قد تكررت في شعره ، في مرحلة ما قبل السيفيات(٤) ، ويتضح ذلك في مثل قوله(٥) :

أنا ابنُ اللقاءِ أنا ابنُ السخاءِ ... أنا ابنُ الضرابِ أنا ابنُ الطعانِ

وقوله(٦) :

وإنْ عمِرْتُ جعلتُ الحربَ والدةً ... والسَمْهَريَّ أخا والمَشْرفيَّ أبا

---

(١) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ١٠٠ •
(٢) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ٦٤ •
(٣) سيفيات المتنبي ، دراسة نقدية للاستخدام اللغوي ٥٧ •
(٤) المصدر نفسه المكان نفسه
(٥) التبيان ٤ : ٣/٢٦٤ •
(٦) نفسه ١ : ٣٦/٢٢ •

واني أوافقها فيما ذهبت اليه من تحليل لهذا البيت الثاني ، بقولها ((هذه العلاقة الوثيقة بالحرب تبرز فيها الصلة العاطفية بين الشاعر والحرب حتى لتبدو أقرب الى الحب المرتبط بالقداسة (الحب والدة) فالأم تمثل في العرف العربي مكانة سامية ... وحين يماثل الشعور نحو الحرب ، الشعور نحو الأم لا يبدو هذا مجرد انتساب أو انتماء ، ولكنه يمثل نوعا من الصلات العاطفية العميقة الجذور . فالحرب تستحق الحب وتستحق الاجلال ، وحين نجد (المشرفي أبا) في البيت فهذا يعيد لنا الى جانب الانتماء الفكرة التي تكررت في السيفيات اقتران السيف بالقوة والسيطرة (الأب سيد الأسرة) ، والسيف سيد الموقف . والشاعر لا يرى القتال ضرورة قد تفرضها الظروف ، ولكنه يرى فيه طريقا وحيدا يحقق المجد ويحقق مطامح الانسان))(١) .

وكما تغزل المتنبي في شعره ، فانه حارب في شعره الغزلي . من ذلك قوله(٢) :

عدوية بدوية من دونها ... سلبُ النفوس ونارُ حربٍ توقدُ

وقوله(٣) :

كم زَوْرَةٍ لك في الأعراب خافيةٍ ... أدهى وقد رَقدوا من زَوْرَةِ الذيبِ
أزورُهُمْ وسوادُ الليلِ يشفعُ لي ... وأنثني وبياضُ الصبحِ يُغري بي

وما كل ذاك الا لأن روح الحرب والقتال ، بما تحمله الحرب من صراع وخوض معامع ، ومن ترحل دائب وتنقل مستمر ، كانت تسكن جسده . اذ هي رمز تحقيق الآمال والمطامح ـ الخاصة والعامة ـ . وهكذا أجاد المتنبي في شعره الحربي(٤) وبرع ، حتى لكأني به كان ((يستخرجه من أعماق قلبه))(٥) . قال عنه ابن الأثير : ((واختص بالابداع في وصف مواقف القتال . وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما وذلك أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ،

---

(١) سيفيات المتنبي دراسة نقدية للاستخدام اللغوي ـ ٥٨ .
(٢) التبيان ١ : ٧/٦٥ .
(٣) نفسه ١ : ٣٤/٦ـ٧ ، وينظر ٣ : ١٨٧/٦ـ٧ .
(٤) أشار الدكتور عبد الفتاح صالح نافع في كتابه (لغة الحب في شعر المتنبي) ص٢٢٥ إلى أن المتنبي أنشد في الحرب ثماني عشرة قصيدة ضمت واحدا وسبعين وسبعمائة بيت .
(٥) فيض الخاطر ٤/٨٤ .

فطريقه في ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى اليه عيانه)) (١) . وقال الشريف الرضي ((وأما المتنبي فقاتل عسكر)) (٢) .

لم يشارك المتنبي ، بعد خروجه من كنف سيف الدولة الحمداني ، في حرب ، ولم يرحل لتخوض معركة الا ما قيل عن مشاركته في الدفاع عن الكوفة في أثناء تعرضها لهجوم خارجي من بني كلاب ، ولكن هذه المعركة حصلت خلال إقامته في الكوفة ، فهو لم يرحل للقتال وانما كان مدافعا . كما أن قصيدته التي قالها في تلك المعركة لا تشير الى رحلة الى الحرب ، الا ما كان من حركة ، وكر وفر في أثناء المعركة (٣) . قال :

حَذِرْتِ علينا الموتَ والخيلُ تلتقي ولم تعلمي عن أيِّ عاقبةٍ تُجْلي

أما ما قاله في ممدوحيه ، بعد سيف الدولة ، مثل كافور وفاتك وابن العميد وعضد الدولة ، من معاني الشجاعة في الحرب ، وما أضفاه عليهم من صفات البطولة في ساحات الوغى ، فلم يكن ناجما عن مشاركته اياهم في معاركهم ، فرأى بطولاتهم وأمجادهم ، وانما كان ذلك منه باللجوء الى التصور واستثارة الخيال . وربما يأتي عدم مشاركته اياهم في حروبهم لأسباب عدة ، لعل أهمها أنه لم يجد في أحدهم من يستثير فيه كوامن نفسه ـ الذاتية والعامة ـ كما استثارها سيف الدولة . أو أنه لم تتح له فرصة مصاحبة أحدهم الى حرب أو معركة لأكثر من سبب ، قد يكون انتشار السلم في بلد الممدوح في الحقبة التي اتصل به فيها ، أو قد يكون ما أحسه من تعب بدأ يدب في جسده لتقدمه في السن وحياته غير المستقرة . غير أنه لم ينس الحرب والقتال البتة ، بل غالبا ما كان يحن الى صهيل الخيل ، وقعقعة السلاح ، وغبار أجواء المعارك ، فضلا عن الكر والفر ومطاردة الأعداء من بلد الى بلد ، ومن أرض الى أرض . من ذلك قوله حين أصابته الحمى بمصر (٤) :

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣ / ٢٢٧، وينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٧٨ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣ / ٢٧١، وينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١٧٩ .

(٣) التبيان ٣ : ٢١٦ / ١٠ وجاء في خبر هذه القصيدة التي مطلعها :

كدعواكِ كلٌّ يدّعي صحةَ العقلِ ومن ذا الذي يدري بما فيه من جَهلِ

وقال يمدح أبا الفوارس دلير بن لشكروز سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة ، وقد كان جاء الى الكوفة لقتال الخارجي الذى نجم بها من بني كلاب ، وانصرف الخارجي عن الكوفة قبل وصول دلير اليها .

(٤) التبيان ٤ : ٢٥٣ / ٣٥ ـ ٣٨ .

يقولُ ليَ الطبيبُ أكلتَ شيئا ... وداؤكَ في شرابك والطعامِ
وما في طبِّهِ أني جـوادٌ ... أضرَّ بجسمِهِ طولُ الجَمامِ
تعوَّدَ أن يُغبِّرَ في السرايا ... ويدخلَ من قتامٍ في قتامِ
فأُمسِكَ لا يُطالُ له فيرعى ... ولا هو في العليقِ ولا اللجامِ

فالقعود عن خوض المعامع هو سبب علته لا شيئا آخر . بل انه في احدى ساعات الحنين الجارف الى القتال يقول [1] :

حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي ... المجدُ للسيفِ ليس المجدُ للقلمِ
اكتُبْ بنا أبدا بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدمِ
أسمعتِني ودوائي ما أشرتِ به ... فإن غفلتُ فدائي قلةُ الفَهَمِ
من اقتضى بسوى الهنديِّ حاجتَهُ ... أجابَ كلَّ سؤالٍ عن هلٍ بلَمِ

أما رحلات الصيد ، فلم يكن للمتنبي هوى بها . اذ دخل يوما على أبي علي هارون الأوراجي ((فقال له يا أبا الطيب لو كنت اليوم معنا فقد ركبنا ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظبيا ولم يكن لنا صقر فاستحسنت صيده . فقال أنا قليل الرغبة في مثل هذا)) [2] . الا أنه ، على الرغم من ذلك ، قد نظم قصائد طرديات يصف فيها رحلات صيد لعدد من ممدوحيه .

وفي حين يخبرنا الديوان أن بعضا من هذه القصائد نظمها المتنبي تخيلا ، لا وصفا لرؤية عين ، مثل قصيدته في رحلة الأوراجي هذا ؛ الى الصيد ، التي أولها [3] :

ومنزلٍ ليس لنا بمنزلِ ... ولا لغيرِ الغادياتِ الهُطَّلِ

وان عددا منها ، قد قالها في رحلات صيد اشترك فيها فعليا ، مثل قصيدته [4] :

---

(١) التبيان ٤ : ٢٥٧/٢٣ـ٢٦ .
(٢) العرف الطيب ١/ ١٢٨ .
(٣) التبيان ٣ : ٢٠١/١ـ٢ وينظر خبر هذه القصيدة مفصلا في العرف الطيب ١/ ١٢٨ اذ يتأكد لنا عدم مشاركة المتنبي في هذه الرحلة .
(٤) نفسه ٢ : ٧٩/١ جاء في خبر هذه القصيدة ، واجتاز أبو محمد ـ ابن طغج ـ ببعض الجبال ، فأثارت الغلمان خشفا ، فالتقفته الكلاب فقال أبو الطيب ارتجالا (ينظر: التبيان ٢ /١٣ والعرف الطيب ١/ ٢٢٧) . ومما يؤكد اشتراك المتنبي في هذه الرحلة ، قوله في القصيدة نفسها .
زرناه للأمرِ الذي لم يُعهد ... للصيدِ والنزهةِ والتمرد (التبيان : ٢ : ٧٩/٥ـ٦)

وشامخٍ من الجبالِ أقْوَدِ   فردٍ كيافوخِ البَعيرِالأصْيدِ

وقصيدته[(١)] :

ما أجدرَ الأيامَ والليالي   بأن تقولَ مالهُ ومالـــي

فانه لم يخبرنا أوقعت الصحبة أم لم تقع ، وذلك في قصيدته التي وصف بها رحلة صيد قام بها بدر بن عمار ، والتي أولها[(٢)] :

في الخَدِّ أن عزمَ الخليطُ رحيلا   مطرٌ تزيدُ به الخدودُ مُحولا

التي وصف فيها قتل ابن عمار أسدا ، وفرار أسد آخر خوفا من أن يحل به ما حـــل بسابقه • والذى أرجحه أنه رافقه فيها ، وذلك لعلاقته الحميمة به ، اذ صحبـــه زيادة في التودد اليه والتقرب منه • ولعل إبداعه في هذه القصيدة لما يؤكد ترجيحنا ، فقد صور الأسد ((تصويرا رائعا في نظراته ، وفي توحده ، وفي مشيته وتيهه ، ووصف جسمه ولبدتيه وشعور الخيل نحوه ، وكيف دافع عن فريسته •••• وصور غيظه ودفعه صدره بالحجارة ، موضحا كل ذلك بتشابيه مبتكرة تزيد المعنى وضوحا))[(٣)] •

ويبدو أن المتنبي قد مارس الصيد والطرد في فتوته وشبابه ، يتضح لنا ذلك من قوله في مدح عضد الدولة[(٤)] :

---

(١) التبيان ٣ : ١/٢١٧ جاء في خبر هذه القصيدة : وخرج أبو شجاع ــ عضـــد الدولة ــ يتصيد ومعه آلة الصيد ، وكان يسير قدام الجيش يمنة ويسرة ، فلا يرى صيدا الا صاده ، حتى وصل الى دشت الأرزن ، وهو موضع حسن ، على عشـــرة فراسخ من شيراز ، تحف به الجبال ، وفيه غاب ومياه ومروج ، فكانت الوحوش تصاد ، واذا اعتصمت بالجبال أخذت الرجال عليها المضايق ، فاذا أثخنهـــا النشاب هربت من رؤوس الجبال الى الدشت ، فتسقط بين يديه • فأقـــام بذلك أياما على عين ماء حسنة ، ومعه أبو الطيب • فوصف الحال وأنشده فـــي رجب سنة أربع وخمسين وثلاث مئة ، وفي هذه السنة قتل أبو الطيب • (التبيـان ٣/١١ ٢ وينظر : أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٣٥٠ــ٣٥١) •

(٢) التبيان ٣ : ١/٢٠٤ •

(٣) وصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي لمجموعة من المؤلفين ٥٣، وينظر : الخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ٩٦ ــ ٩٩، والمتنبي الانسان والشاعر بن أبـــي تمام وأبي فراس ١٦٠ــ ١٦١ •

(٤) التبيان ٤ : ١٢/٢٨٤ــ١٩ •

أُحبُّ حِمصا إلى خُناصِرَةٍ ... وكلُّ نفسٍ تحبُّ مَحْياها
حيث التقى خدُّها وتفاحُ لبنانَ وثغري على حُمَيّاها
وصِفْتُ فيها مصيفَ باديةٍ ... شَتَوْتُ بالصَّحْصَحانِ مشتاها
إذا أعشَبَتْ روضةٌ رعيناها ... أو ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غزوناها
أو عَرَضَتْ عانةٌ مُقزّعةٌ ... صِدنا بأُخرى الجياد أولاها
أو عبرَتْ هَجْمةٌ بنا تُرِكَتْ ... تكوسُ بين الشروب عَقْراها
والخيلُ مطرودةٌ وطاردةٌ ... تَجُرُّ طولَ القنا وقُصْراها

اذا ما استثنينا طردية المتنبي في بدر بن عمار ، نلحظ أن باقي طردياته قيلت في ممدوحين غير عرب ، ((وهذا يعني أن أبا الطيب ، بنظمه تلك الطرديات ، كان يزاول أحلام اليقظة ، والهرب من واقع حياته في كنف ملك أو ممدوح غير عربي الى صحارى العرب ، ووديانها ، الى بحر الرجز وأجواء ومفردات روءبة والعجاج))[١] ، فحين يشترك في مثل هذه الرحلات ، وينظم فيها ، يرحل بروحه الى أرض العرب الأصيلة ، حيث الحياة البدوية التي عشقها ، حتى لو كان ممدوحه غير العربي يلي حكما في أرض العرب نفسها ، بل ربما كان هذا مما يزيده ألما من هذه الحال ، وحنينا الى حياة العرب الخلّص الذين كانوا سادة أنفسهم • ان وجوده في فارس عمّق من شعوره هذا ، فهو يمدح حاكما غير عربي — متسلطا على العرب — ، فضلا عن بعده المكاني عن أرض العرب • ولعل خير ما يشير الى ذلك ، ما طغى على شعره في وصف رحلات الصيد ، هذا من مفردات عربية بدوية قديمة ، وبخاصة في فارس • من ذلك قوله في طرديته التي قالها في عضد الدولة[٢] :

فَوَحْشُ نجدٍ منه في بَلبالِ ... يَخَفْنَ في سَلمى وفي قَيالِ
نوافِرَ الضِّبابِ والأَوْرالِ ... والخاضباتِ الرُّبْدِ والرِّئالِ

فضلا عما تند عنه مثل هذه المفردات ، من تأصل جذرى لروح البداوة العربية في نفسه[٣] •

وكما صحب المتنبي بعضا من ممدوحيه الى الصيد ، فقد صادف أن صحب بعضهم

---

(١) التطلع القومي عند المتنبي ٥٦ •
(٢) التبيان ٣ : ٢١٧/٤٥ — ٤٦ •
(٣) ينظر : أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ٣٥١ — ٣٥٢ ، ومع شعراء الاندلس والمتنبي ٥٨ — ٦٠ ، والطبيعة عند المتنبي د • عبد الله الطيب ٦٤ — ٧٦ •

من غير أن يعلم بوجهته معهم • وهذا ما حصل له مع أبي محمد بن طغج ، اذ سايره وهو لا يدري أين يريد به ، حتى دخل به كفرديس حيث كانت بها ضيعة لابن طغج [١] ، فقال [٢] :

وزيارةٍ عن غيرِ مَوعِـــدْ	كالغُمْضِ في الجَفْنِ المُسَهَّدْ
فَعَجَتْ بنا فيها الجيا	دُ مع الأميرِ أبي مُحَمَّـــدْ
حتى دخلنا جَنَّـــةً	لو أن ساكِنَها مُخَلَّـــدْ

ان هذا العرض لما قاله المتنبي من طرديات ينتهي بنا الى قلة ما قام به من رحلات صيد ، مما يؤكد لنا ما أعلنه من قلة رغبة فيها ، ولعلي لا أخطيء اذا ماذهبت في تعليل ذلك الى انشغاله المستمر في العمل من أجل تحقيق ما امتلأت به نفسه من مطامح وأمنيات • بل ربما كانت رحلات الصيد التي اشترك فيها — على قلتها — لما يصب في مجرى هذا العمل ، من حيث أنه صحب ممدوحيه فيها مجاملة وتقربا ، فضلا عما يمكن أن يكون من أسباب أخر ، من مثل توقه الى القيام بها ، ترويحا عن نفسه أو رغبة في ممارسة حياة البداوة ، أو تذكرا لأيام خلت • ومن مثل حبه للممدوح نفسه ، كما حصل له مع بدر بن عمّار • وغير ذلك • فقلة رغبته في مثل هذه الرحلات لا تعني انعدام ممارسته اياها كلية •

* * *

ان الإحساس بالغربة ، والاستشراف ، والمال ، والحسد والوشايات والمكائد ، والحرب والصيد ، عوامل دفعت كلها ، متضامنة ، متكاملة ، متداخلة ، بالمتنبي الى التنقل الدائم والرحيل المستمر • فاذا ما برز أحدها على غيره في مناسبة ما أو لغرض معين ، فان ذلك يعود الى نوعية الظروف التي كانت تحيط بالمتنبي في ذلك الحين ، فضلا عن طبيعة حالته النفسية آنذاك • وبروز أحد هذه البواعث على غيره ، لم يكن ليلغي تأثيرات البواعث الأخرى ، أو ينفيها ، فهي — كما أشرت — متكاملة ، فهل كان ما يبغيه ذلك الذي يكمن في هذه البواعث جميعا ، سواء أكان ذلك هربا من شيء أم بحثا عن شيء أم كليهما ، هو الذي جل أن يسمى ؟ •

---

(١) ينظر: التبيان ٢/ ١١ والعرف الطيب ١/ ٢٢٣ •
(٢) التبيان ٢ : ٧٦ / ١—٣ •

الفصل الثاني

عناصر الرحلة

الفصل الثاني

عناصر الرحلة

ان عناصر الرحلة في شعر المتنبي ، من وجهة نظر هذا البحث ، هي المفردات التي أسهمت في توضيح حالة الرحلة عنده وتجسيد مساراتها وتحديد معالمها • وقد بدت هذه العناصر ـ المفردات جلية لنا من خلال الصور التي رسمها المتنبي لتنقلاته من حيث تشمل مركوباته ورفاقه ، فضلا عما تشير اليه من طرق سلكها ، وأماكن مرّ بها ، وظروف كابد مشاقها أو استغلها مستفيدا منها سواء أكانت هذه الظروف أحداثا طرأت عليه أم تغيرات فلكية أحاطت به • ولقد آثرنا أن نقسم هذه العناصر على قسمين : مادية ومعنوية ، فيتضح لنا أثرها ويبرز دورها في تشكيل لوحة الرحلة عند المتنبي •

أولا : العناصر المادية : وتشمل •

أ ـ الخيل :

كانت الخيل من أهم الحيوانات التي ألفها العرب وارتفقوا بها وسكنوا اليها[١] ، لما تشغله من حيز مهم وتلعبه من دور بارز في حياتهم ، وهذا ما يتضح لنا جليا في تلك الصور الرائعة التي رسمها شعراء العربية للخيل بكل أشكالها وفي جميع حالاتها[٢] ، وما المتنبي الا واحد منهم ، سرى حب الخيل في دمه اذ هي وسيلة مهمة يجوب بها آفاق الأرض ويخوض على صهواتها المعامع • قال[٣] :

مُفْرَشي صهوةُ الحصانِ ولكنّ قميصي مسرودةٌ من حديدِ

فظهر الحصان مأواه ومخلده • فاذا ما عرفنا مدى قوة البواعث التي كانت تدفع بالمتنبي الى التنقل الدائم وعدم الإخلاد الى الاستقرار ، فضلا عن ارتباط الحصان ـ والخيل بعامة ـ في أذهان العرب ، حتى اليوم ، بمعاني القوة والأصالة وتحقيق الغايات ، أدركنا مدى إجادة المتنبي وإبداعه في تعبيره هذا حين جعل من صهوة الحصان مستقره • ولمّا كان الحصان أحد أبرز وسائله (مركوباته) وأهمها في جوبه

---

(١) ينظر: الحيوان، الجاحظ ١٨٩/٢ •بل ان العرب عدوا الخيل من مراكب الأنبياء ودواب الجنة ، ينظر في ذلك : المصدر نفسه ٢٠٤/٧ و ٣٩٥/٣ •

(٢) ينظر : وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، د • كامل سلامة الدقس •

(٣) التبيان ١ : ١٩/٦٣ الحصان : الفرس الفحل •

المستمر للآفاق ــ كما أخبرنا هو بذلك على امتداد شعره ــ فكأني به ههنا يقرر لنا أن راحته واستقرار نفسه اللذين توحي بهما مفردة (المفرش) يكمنان في ترحله ٠

لقد استعان المتنبي بالخيل في كل رحلاته وعلى اختلاف بواعثها ، متفننا في إبراز الصفات التي يحبها فيها من أصالة وسرعة ولون وقوة احتمال ٠٠ وغير ذلك من مميزات الخيل الكريمة الأصيلة ، فضلا عن أحوالها ٠ فمما جاء في شعره يذكر فيه (الخيل) قوله (١) :

ولقد أفنتِ المفاوزُ خيلي ... قبلَ أن نلتقي وزادي ومائي

ومما أورده من صفات هذه الخيل كونها (جيادا) ٠ قال (٢) :

وإذا الجيادُ أبا البهيِّ نَقَلْنَنا ... عنكمْ فأردأُ ما ركبتُ الأجودُ

وأنها (سوابق) ٠ قال (٣) :

وجدتُ أنفعَ مالٍ كنتُ أذْخَرُهُ ... ما في السوابقِ من جَرْيٍ وتقريبِ

وقد يصفها بـ (العتاق المذاكي) ٠ قال يخاطب نفسه (٤) :

إذا كنتَ ترضىْ أن تعيشَ بذلَّةٍ ... فلا تَسْتَعِدَّنَّ الحُسامَ اليمانيا
ولا تَستطيلَنَّ الرماحَ لغـارةٍ ... ولا تَستجيدَنَّ العِتاقَ المذاكيا

وخيله (جرد) ٠ قال (٥) :

ولكنَّ بالفُسطاطِ بحرا أزُرْتُهُ ... حياتي ونُصحي والهوى والقوافيا
وجردا مددنا بين آذانها القنا ... فبِتْنَ خِفافا يَتَّبِعْنَ العواليا

وقبل أن نمضي في عرضنا لما وسم به المتنبي خيله من سمات تدل على قوتها وتميز مظهرها الخارجي ، لابدّ لنا من الإشارة الى أن المتنبي ــ فضلا عن ذلك ــ ((يخلع على خيله دائما أو غالبا شيئا غير قليل من الوعي ٠ ومن الوعي تتولد الاستجابة التي

---

(١) التبيان ١ : ٥/٢٢ ٠
(٢) نفسه ١ : ٣/٧٤ الجياد : جمع جواد وهي الخيل الكرام ٠
(٣) نفسه ١ : ٣٦/٣٤ السوابق : جمع سابق ٠
(٤) نفسه ٤ : ٣/٢٨٥ــ٤ العتاق ، الكرام ، وفرس عتيق : كريم ٠ والمذاكي ، الخيل التي قد تمت أسنانها ٠
(٥) نفسه ٤ : ١٣/٢٨٥ــ١٤ الجرد : الخيل قليلات الشعر قصاره ، وهو مدح في الفرس ٠

يكفيها الأسلوب البرقي)) (١) • وهذا ما يتضح في البيتين الآنفي الذكر ، اذ لم تكن القنا لتمتد بين آذانها موءشرة طريق السير حتى عرفت ما يراد منها ، وباتت خفيفة في سيرها تتبع حركة العوالي •

ومن الصفات الأخرى التي أضفاها المتنبي على خيله هي أنها (سراحيب) • قال (٢) :

فُتْنَ المهالكَ حتى قال قائلُها ... ماذا لَقِينا من الجُردِ السراحيبِ

واذ يعرض للحديث عن خيله بصيغة الجمع ، كان من الطبيعي أن يصفها ب (المقانب) • قال (٣) :

ومقانبٍ بمقانبٍ غادرتُها ... أقواتَ وحشٍ كُنَّ من أقواتها

وقد يصفها ب (ماشية الهيدبى) قال (٤) :

ألا كلُّ ماشيةِ الخيزلى ... فِدى كلِّ ماشيةِ الهَيدبى

وقد تكون كل فرس من أفراس خيله (طمرة) • قال (٥) :

عَليَّ لأهلِ الجَوْرِ كلُّ طِمِرَّةٍ ... عليها غلامٌ ملءُ حَيْزومِهِ غِمْرُ

ومما ورد من صفات خيله بصيغة المفرد ، أن فرسه (طيار) • قال (٦) :

وإني لتَعدوني عطاياك في الوغى ... فلا أنا مذمومٌ ولا أنت نادمُ

على كلِّ طيّارٍ إليها برِجلِهِ ... إذا وقعت في مِسْمَعَيْهِ الغماغمُ

وفرسه (كميت) • قال (٧) :

وأسرجت الكميت فناقلتْ بي ... على إعقاقِها وعلى غِشاشي

---

(١) المتنبي بين البطولة والاغتراب ٧٥ •

(٢) التبيان ١ : ٣٨/٣٤ السراحيب : جمع سرحوب وهي الفرس الطويلة ، وتوصف به الإناث دون الذكور •

(٣) التبيان ١ : ١١/٤٥ المقانب : الواحد مقنب وهو الجماعة من الخيل ، ما بين الثلاثين الى الأربعين •

(٤) نفسه ١ : ١/٧ الخيزلى : مشية فيها استرخاء من مشية النساء والهيدبى من مشي الخيل فيه جد • وقيل انه من مشي الناقة • وفي كلتا الحالتين إشارة الى حبه السفر وتفضيله اياه على حياة الاستقرار واللهو •

(٥) نفسه ٢ : ١١/٣٢ الطمرة : الفرس العالية المشرفة الوثابة •

(٦) نفسه ٣ : ٤٢/٢٢٥ـ٤٣ طيار : أي يجري بسرعة الطير •

(٧) نفسه ٢ : ٣٠/١٣٢ الكميت من الخيل بين الأشقر والادهم ، يقال للذكر والأنثى •

كما أنها (سبوح) (١) • قال :

وتُسعِدُني في غمرةٍ بعد غمرةٍ   سبوحٌ لها منها عليها شواهِدُ

ويبدع المتنبي في الأبيات التالية حين يصف فرسه بـ (الأغر) وبأنه أسود كأنه قطعة من الليل ، والغرة في وجهه كأنها كوكب من كواكب الليل بقي بين عينيه ، فضلا عن عرض الصدر وسعة الجلد عليه وكلاهما يقتضي سعة الخطو وسرعة العدو (٢) ، ناهيك عن صفات الانتباه والنشاط والمرح والذكاء والقوة (٣) • قال :

وعَيْني إلىٰ أُذْنَيْ أغَرَّ كأنـــــهُ   من الليلِ باقٍ بين عينيهِ كوكبُ
له فضلةٌ عن جسمهِ في إهابـــــهِ   تجيءُ على صدرٍ رحيبٍ وتذهــبُ
شققتُ به الظلماءَ أُدْني عِنانَــهُ   فيَطغىٰ وأُرخيهِ مِرارا فيلعــبُ
وأصرعُ أيَّ الوحشِ قفَّيْتُهُ بـــــهِ   وأَنزِلُ عنه مثلَه حين أركـــبُ

ان أربعة الأبيات هذه صورة رائعة للطاعة الجميلة ، المتولدة من التصافي الذى تمّ بين الفارس وحصانه (٤) •

وقد يطلق على فرسه (المهر) ــ كما سمّاه بـ (الحصان) (٥) ــ • قال (٦) :

أبلىٰ الأَجِلَّةَ مُهري عند غيرِكـــم   وبُدِّلَ العُذْرُ بالفُسطاطِ والرَّسَنُ

ان هذه الصفات والمميزات التي أضفاها المتنبي على خيله ــ أو فرسه ــ التي كان يتخذها مركبا لتنقلاته الدائبة ورحلاته الدائمة ، من أبرز الصفات وأجلها قدرا عند العرب مما سعوا الى توفره في خيلهم • بل ان ما ألبسها اياه من معان مثالية ، هي مما ظلّ واصفو الخيل يترددون عليها ((ويتبارون فيها ، فيأخذ اللاحق عن السابق هذه المعاني ، ويبالغ فيها ، حتى يبز جواده في أوصافه وفضائله ، الجواد الذى وصفه من قبله ، اظهارا لتفوقه وفضله على خيل الآخرين)) (٧) • وفي قصيدة المتنبي التي

---

(١) التبيان ١ : ٥٩/١٠ السبوح ، الفرس الشديدة الجرى ، كأنها تسبح في عدوها • ومثله (السابح) ، قال المتنبي بصرح بان سرج الفرس اعز مكان لان راكبه يسافر عليه في طلب المعالي :
أعزُّ مكانٍ في الدنىٰ سرجُ سابحٍ   وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ (التبيان ١ : ٣٦/١٨) •
(٢) ينظر : العرف الطيب ٢/٥٠٣ •
(٣) التبيان ١ : ٣٥/٨ ــ ١١ الأغر : أى ذو غرة ، وهي البياض في جبهة الفرس •
(٤) ينظر : المتنبي بين البطولة والاغتراب ٨٨ ــ ٩١ •
(٥) ينظر : ص ١١٠
(٦) التبيان ٤ : ٢٧٣/٢٢ •
(٧) وصف الخيل في الشعر الجاهلي ٨٧ •

وصف بها فرسا أو ما قيل من أنه مهره (الطخرور)(١) ، والتي أولها(٢) :

ماللمُروجِ الخُضْرِ والحدائقِ ... يشكو خَلاها كثْرةُ الحوائقِ

ما يؤكد ذلك ، اذ أُسبغ عليه كل ما من شأنه أن يرتفع به الى الصورة المثالية للجواد(٣) .

وما كل ذلك الاّ تعبير عمّا كان المتنبي يريده في فرسه ومنه بوصفه وسيلة يتمكن بوساطتها من أن يغادر الأرض التي خاب أمله فيها الى أرض بزغ منها أمام عينيه بريق أمل جديد ، فيقف من الفرس أو الخيل بعامة ((وقفة المتأهب للسفرة الطويلة أو المعركة الحاسمة ، يهمه منها أن تكون متلائمة مع ما يطلبه منها ، وما الذى يجعلها متلائمة ؟ إنها السرعة وقوة الحواس وطاعة الفارس الجدير بامتطاء صهوتها ، وتحملها مشاق الطريق ورضاها بالقليل من الماء والزاد .. انها أشبه بالابل من حيث صبرها على الجوع والعطش وعوامل الجو))(٤) .

ان دور الخيل المهم والرئيس في رحلة المتنبي يظهر كذلك في ذكره الخيل أداة بارزة ـ ان لم تكن أبرز أداة ـ في رحلة الحرب التي يكون فيها أحد أفراد جيش الممدوح . وهذا ما يتجلى في سيفياته بخاصة ، اذ لا تبدو الخيل ((مجرد حيوانات نبيلة تستخدم في الركوب ، ولكنها تبدو معلما من معالم الحرب))(٥) . من ذلك قوله(٦) :

قاد الجيادُ إلى الطِّعانِ ولم يَقُدْ ... إلاّ إلى العاداتِ والأوطانِ

كلُّ ابنِ سابقةٍ يُغيرُ بحُسْنِهِ ... في قلبِ صاحبِهِ على الأحزانِ

إنْ خُلِّيَتْ رُبِطَتْ بآدابِ الوغى ... فدُعاؤها يُغني عن الأرسانِ

في جحفلٍ سَتَرُ العيونَ غُبارُهُ ... فكأنما يُبصِرْنَ بالآذانِ

يرمي بها البلدُ البعيدُ مظفَّرٌ ... كلُّ البعيدِ له قريبٌ دانِ

فنلحظ كثرة الألفاظ المتعلقة بالخيل من صفات تتعلق بأجسامها وألوانها وأعضائها وسرعتها وحركتها والأدوات المستخدمة معها ، فضلا عما يشير منها الى

(١) ينظر: العرف الطيب ١/ ٢٣٥ .
(٢) التبيان ٢: ٦٠ / ١ ـ ٤ـ٢٦ .
(٣) ينظر: وصف الخيل في الشعر الجاهلي ٨٦ـ١٤٢ .
(٤) المحصول الفكرى للمتنبي ٣١١ .
(٥) سيفيات المتنبي ١٠٠ .
(٦) التبيان ٤ : ٢٦٤ / ١١ـ١٥ ، وينظر نفسه ٣: ٢٢١ / ١١ـ٤٦ و٣: ١٨٧ / ١٤ـ٤١ .

شجاعتها وقوتها ونشاطها وذكائها وأعدادها [١].

وعلى الرغم من اعتزاز المتنبي بخيله وثقته المفرطة بها حد التباهي ، فانه أشار مرة الى خشيته من أن تحرن فلا تستجيب لما يبغيه منها . جاء هذا في معرض كلامه على شعب بوان يصف جماله . قال [٢] :

طَبتْ فرسانَنا والخيلَ حتى خشيتُ وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ

ولعلها المرة الوحيدة التي يظهر فيها المتنبي خوفه من فتور العزم في خيله ، وما أرى في ذلك الاّ إسقاطا لما بدأ يراود نفسه على الخيل ، فقد أثار جمال المكان في داخله ، الإحساس بروعة جمال الطبيعة ، بخاصة انه بدأ يتلمس بوادر آثار التعب الذى عاناه خلال السنين العجاف الخوالي تدب في جسده ، مما جعل الرغبة في الراحة والاستقرار تتسلل الى نفسه . بل انه ليقول، وعلى لسان حصانه هذه المرة ، وفي القصيدة نفسها [٣] :

يقول بشِعْبِ بَوّانٍ حصاني أعن هذا يُسارُ إلى الطعانِ
أبوكمْ آدمُ سَنَّ المعاصي وعلمكمْ مُفارقةَ الجِنانِ

ولعل ما في هذا التساؤل من استنكار ما يؤكد لنا ((أن النار التي بين جنبي المتنبي بدأت تخبو ، وأن هناك نبرة جديدة بدأت تتسلل الى شعره)) [٤].

ان حب المتنبي الخيل وإعجابه بها ، فضلا عن مقدرته الكبيرة في التعبير عن هذا الحب وذلك الإعجاب ، أنتج لنا صورا بارعة عن الخيل ، مليئة بالحركة والجمال ومفعمة

---

(١) ينظر: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ٣٩٤ ـ ٤٠٢، وشعر الحرب في أدب العرب ٢٦٢ ـ ٢٩٧، والمتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ٢٥٤ ـ ٢٦٥، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ٥٨ ـ ٦١ و ٧٩ ـ ٨٦، والحرب في شعر المتنبي ٢ / ٧٨ ـ ٧٩، وسيفيات المتنبي ٩٩ ـ ١١٣، والمتنبي بين البطولة والاغتراب ٧٥ ـ ٨٨ .

(٢) التبيان ٤ : ٢٧٨ / ٤ .

(٣) التبيان ٤ : ٢٧٨ / ١٧ ـ ١٨ .

(٤) دراسات في النص الشعرى العصر العباسي ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

بصدق التجربة التي عايشها المتنبي معها ، في رواحه وغدوه ، في ترحاله واستقراره ، في حربه وسلمه ، في سعادته وشقائه . بل ان الخيل شغلت ذهن المتنبي الى الحد الذى جعله يشبّه بها ويكني بها عن الكثير من مفردات حياته من مثل نفسه هو ، وشعره ، وممدوحيه ، وحاسديه ، وبعض مما مرّ به من مجالي الطبيعة[١] . فكان من الطبيعي ، والحال هذه ، أن يوصف المتنبي بتميزه بنعت الخيل[٢] ، وبصد اقتهما[٣] ، بل بعشقها والغرام بها[٤] . واستنادا الى هذا كله ، يصبح من غير اليسير التسليم بما ذهب اليه الدكتور طه حسين في معرض تعليقه على بيت المتنبي[٥] .

ليتَ أنّا إذا ارتحلتَ لك الخيلُ وأنّـا إذا نزلتَ الخيـامُ

اذ قال ((وما رأيك في هذا الشاعر العظيم الذى يفاخر الشعراء ويستعلي عليهم ، ويسرف في الكبرياء والخيلاء ، يتمنى أن يكون فرسا يحمل الأمير اذا سار ، أو خيمة تظل الأمير اذا قام ؟ ولكن لا ينبغي أن ننسى أن المتنبي مناص ومنافس في رضا الأمير ، وأن الذلة والملق أقرب الطرق وأيسرها الى بلوغ هذا الرضا))[٦] . فالشاعر الذى هام حبا بالخيل وعرف أهميتها لا يجد أى ضير في تمنيه أن يكون منها أو أن يشبه نفسه بها . بل لعله ، من خلال ذلك ، يشير الى أن صدقه وإخلاصه وشجاعته وقوة تحمله ستكون بالمستوى نفسه الذى هي عليه عند الخيل الأصيلة ، الكريمة . ثمّ انه لم يكن في هيامه هذا بها نسيج وحده ، اذ أن العرب كلها كانت تعز الخيل وتحبها وتكرمها لما لها من دور مهم وحيوى في حياتها . فضلا عن أن طبيعة العلاقة بين المتنبي وسيف الدولة أكبر

---

(١) ينظر: أبو الطيب المتنبي عملاق الواقعية في الشعر العربي ١١٩ـ١٢٠، وفن المتنبي بعد ألف عام هامش ٢٠٢، والطبيعة عند المتنبي ٦٢، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١٢٢ـ١٢٤، والمتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ٢٥٨ـ٢٥٩، والصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

(٢) ينظر: الواضح في مشكلات شعر المتنبي ٢٧، وخزانة الأدب ٢/٢٦٣، وفن المتنبي بعد ألف عام ١٩٩ـ ٢٠٠ .

(٣) ينظر: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٢٧٩ .

(٤) ينظر: مع أبي الطيب ٨٥، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١٠٠ ـ ١٠١، والمتنبي بين البطولة والاغتراب ٢١٤، وسيفيات المتنبي ١٢٥، ولغة الحب في شعر المتنبي ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٥) التبيان ٣ : ٤/٢١٩ .

(٦) مع المتنبي ٢٠١ .

من أن تجعل المتنبي يشعر بالذل اذا ما تمنى أن يكون فرسا له ، فما رآه المتنبي في سيف الدولة من أمل ، ومن وسيلة لتحقيق شيء من مطامحه ، جعله ينذر نفسه ويجندها في خدمته ، فكأني به يقول له : إنا معك ، وإنا سنصل بك الى ما تبغي لأنه طموحنا نحن أيضا ، بخاصة انه يقول، قبل هذا البيت (١) :

في سبيلِ العُلا قتالُك والسِّلْـ ـمُ وهذا المُقامُ والإجذامُ

لقد كانت الخيل من أفضل ركائب المتنبي وأصدقها في الرحيل من أرض الى أرض، ومن بلد الى بلد ، وعلى امتداد ذلك ((السفر المتواصل كانت الخيل تتجسد وتحمل الاحساس اللائق بها)) (٢) وبفارسها الرحالة ، المتنبي •

ب ـ الإبـــل :

كانت الإبل ـ كما الخيل ـ من الدواب التي ألفها العرب وارتفقوا بها وسكنوا اليها ، (٣) فهي ((أنيسة السفر ، ومطية الرحلة ، وزاد المتنقل ، وعماد البيت)) (٤) • ومن هنا كانت لها تلك الأهمية الكبيرة التي توازى أهمية الخيل وتساويها ـ ان لم تتفوق عليها ـ •

ان المتنبي بوصفه فارسا رحالة ، ذا روح متبدية ونفس تعشق حياة الصحراء ، فضلا عما ورثه من تراث شعرى ضخم قيل في الناقة ـ كما الفرس ـ ، عني بالإبل عنايته بالخيل • بل ان ذكره رحيله وإعلانه عنه غالبا ما يأتي به مقرونا بالإبل • قال (٥) :

أَلِفتُ تَرَحُّلي وجعلتُ أرضي قُتودي والغُرَيْرِيَّ الجُلالا

فهو هنا يقول ((تعودت الارتحال ، فجعلت ظهر هذا البعير بمنزلة الأرض لا أفارقه ، فأرضي ظهر بعيرى ، لأني أبدا على ظهره ، كالأرض للمقيم الذى لا يفارقها)) (٦) • وهكذا ندرك مدى تحقق الرغبة في الترحل في نفسه ، بخاصة انه قرنها بفحل من الإبل كريم ، بما يدل عليه ذلك من قوة راحلته وأصالتها •

---

(١) التبيان ٣ : ٣/٢١٩ •
(٢) المتنبي بين البطولة والاغتراب ٧٥ •
(٣) ينظر: الحيوان ٢/١٨٩ ، حتى أنهم عدوها من مراكب الأنبياء • ينظر: المصدر نفسه ٧/٢٠٤ •
(٤) المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ١٠٢ ـ ١٠٣ ، وينظر: أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار د • محمد محمد حسين ٥١ •
(٥) التبيان ٣ : ٤/٢٠٣ ، قتودى : جمع قتد وهو خشب الرحل • والغريرى : فحل كان في الجاهلية تنسب اليه كرام الإبل • والجلال : الجليل وقيل : الضخم •
(٦) نفسه ٣/٢٢٥ •

ومن ذلك أيضا ، قوله (١) :

تُبدِّلُ أيامـي وعيشي ومنزلـي ... نجائبُ لا يفكرنَ في النحسِ والسعدِ

فابله كريمة قوية ، تمضي به من غير أن تبالي بالمخاطر أو بالمكاسب ، بل انه يجعل من الإبل حبالا للحياة ووسيلة لكيد العداة ودفع الأذى ، اذا ما مكنته من الرحيل عن الأرض أو القوم الذين كره ، فيجتاز بوساطتها ومساعدتها المهالك والتيه حتى يصل الى مأمنه ، قال (٢) :

ألا كلُّ ماشيةِ الخيزلـى ... فدى كلِ ماشيةِ الهيد بـى
وكلُّ نجاةٍ بُجاويـةٍ ... خنوفٍ وما بي حُسْنُ المشى
ولكنهنّ حبالُ الحيـاةِ ... وكيدُ العُداةِ ومَيْطُ الأذى

لقد أورد المتنبي في ذكره الإبل وإشارته الى دورها في رحلاته وأسفاره كثيرا من أسمائها وصفاتها ، من ذلك ـ فضلا عمّا مر ذكره ـ (العيس) ، قال (٣) :

تُركنا من وراء العيسِ نجدا ... ونُكّبنا السَّماوةَ والعِراقا

ومنه (قلص الركاب) ، قال (٤) :

نازعتهُ قُلُصَ الركابِ وركْبُها ... خوفُ الهلاكِ حُداهُمُ التَسبيحُ

ومنه كذلك (المهارى) و (الأيانق) ، قال (٥) :

سَلِ البيدَ أينَ الجنُّ منّا بِجُوزِها ... وعن ذي المهاري أينَ منها النقانقُ
وليل دجوجيّ كأنّا جُلِتْ لنا ... مُحيّاكَ فيه فاهتدَيْنا السَّمالقُ
فما زالَ لولا نورُ وجهِكَ جُنْحُهُ ... ولا جابَها الركبانُ لولا الأيانِقُ

---

(١) التبيان ٢ : ٩/٨٩ النجائب : جمع نجيب وهو الكريم من الإبل ، وقيل : جمع نجيبة وهي الناقة الكريمة .

(٢) نفسه ١ : ٧/١ـ٣ النجاة ، يريد الناجية التي تنجي صاحبها ، وهي الناقة السريعة . وبجاوية : منسوبة الى بجاوة ، وهي قبيلة من البربر ينسب اليها النوق البجاويات ، وهي تمتاز كذلك بالخفة والسرعة . وخنوف ، يقال للبعير اذا سار فقلب خف يده الى وحشيه .

(٣) نفسه ٢ : ١٥١/١١ العيس ، الإبل البيض .

(٤) نفسه ١ : ٥٢/١٢ قلص الركاب : الفتية من الإبل .

(٥) نفسه ٢ : ١٥٦/٦ـ٨ المهاري : جمع مهرى ، ويجوز فيه فتح الراء وكسرها كصحاري وصحارى ، وهي ابل منسوبة الى قبيلة من اليمن ، وهم بنو مهرة بن حيدان . يقال : مهاريّ ومهارى في الجمع ، بتشديد الياء وتخفيفها . والأيانق : النياق : جمع ناقة .

ومن ذلك أيضا (الجمال) و (بنات الجديل) • قال[١] :

نحنُ ركبٌ مِلْجِنٍّ في زِيِّ نـــاسٍ ... فوقَ طيرٍ لها شخوصُ الجِمالِ
مِن بناتِ الجَديلِ تمشي بنا في الـ ... بيدِ مَشْيَ الأيامِ في الآجالِ

يشير المتنبي هنا الى سرعة إبله حتى لكأنها طيور في صورة جمال ، ولكأن مشيها مشي الأيام في الآجال •

ومنه (الركائب) • قال[٢] :

وقَطَعتُ في الدنيا الفَلا وركائبي ... فيها ووقتيَّ الضُحىٰ والمَوْهِنـا

ومنه (الرواسم) • قال[٣] :

تَحْبو الرواسِمُ من بعد الرسيمِ بها ... وتسألُ الأرضَ عن أخفافِها الثِفَنُ

أي ((لطول السير في تلك الأرض ومتابعته تبرى الأرض أخفاف الابل فتحبو على ثفناتها وتقول الثفنات للارض أين ذهبت الأخفاف حتى صار المشي علينا بعد أن كان عليها))[٤] •

ومن أسماء الإبل ، وصفاتها ، ما أتى به المتنبي بصيغة الإفراد ، منذلك (العنس) • قال[٥] :

جزىٰ اللهُ المسيرَ إليه خيـــرا ... وإنْ تركَ المطايا كالمَـــزادِ
فلم تلقَ ابن إبراهيمَ عَنْســــي ... وفيها قوتُ يومٍ للقُــــرادِ

ان المتنبي يشير في هذين البيتين ، الى أن رحلته الى هذا الممدوح قد أهزلت إبله وأفضت بها الى الضمور ، حتى صارت كالقراب التي جف ماؤها ، فلم تصل ناقته الى الممدوح — وهي القوية — الصلبة — الا وقد غدت هزيلة خائرة ، ليس فيها من الدم ما يقوت القراد يوما واحدا ، وما ذاك الا لطول الطريق ووعورته •

---

(١) التبيان ٣ : ٢٠٠ / ١٠ــ١١ الجديل : فحل كريم كانت العرب تنسب اليه الإبل الكرام •

(٢) نفسه ٤ : ٢٦٧ / ٧ الركائب : جمع ركاب ، وهي الابل • وقد ورد ذكر (الركاب) في شعر المتنبي يحكي رحلة له • قال :
تخدي الركابُ بنا بيضاً مشافرها ... خضراً فراسنها في الرغْلِ واليَنَمِ (التبيان ٤ : ٢٥٧ / ١٥)

(٣) نفسه ٤ : ٢٧٣ / ١٧ الرواسم، الابل التي سيرها الرسيم • وهو ضرب من السير • والثفن : جمع ثفنة ، وهي واحدة ثفنات البعير ، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه اذا استناخ ، كالركبتين وغيرهما •

(٤) العرف الطيب ٢ / ٥١٠ •

(٥) التبيان ١ : ٧٠ / ١١ــ١٢ العنس : الناقة الصلبة • والقراد : دويبة تتعلق بالبعير ونحوه وهي كالقمل للانسان •

ومن ذلك (البعير) . قال (١) :

أو اناً في بيوتِ البدوِ رحلي ... وآونةً على قَتَدِ البعيرِ

ومنه (يعملة) . قال (٢) :

أنكحتُ صُمَّ حَصاها خُفَّ يَعْمَلَةٍ ... تَغَشْمَرَتْ بي إليكَ السهلَ والجبلا

ومنه (الوجناء) . قال (٣) :

كأني من الوجناءِ في ظهرِ موجةٍ ... رَمَتْ بي بِحارا مالهنَّ سواحلُ

يشبه المتنبي ـ هنا ـ ركوبه الناقة ، بركوب الموجة المندفعة دائمة الحركة من غير استقرار . يريد بذلك الإشارة الى أنه دائم الترحال ، لا يلقي عصا تسياره في مكان ، حتى يغادره .

ومنه (هوجاء) . قال (٤) :

كلُّ هوجاءَ للدَّياميمِ فيها ... أثرُ النارِ في سليطِ الذُّبالِ

ومنه (عذافر) . قال (٥) :

رُكِبتُ مُشَمِّرا قدمي إليها ... وكلَّ عُذافِرٍ قَلِقِ الضُّفورِ

ومنه كذلك (ناقة) . قال (٦) :

شِيَمُ الليالي أن تُشَكِّكَ ناقتي ... صدري بها أفضى أم البيداءُ
فتبيتُ تُسئِدُ مُسْئِدا في نَيِّها ... إسْآدَها في المَهْمَهِ الإنضاءُ

ان المتنبي ـ ههنا ـ يذكر ما يكلفه ناقته من الجهد والعناء ، فيشق الأمر عليها

---

(١) التبيان ٢ : ١١٦/٤ .
(٢) نفسه ٣ : ٢٣/١٩٥ اليعملة : الناقة القوية التي يعمل عليها في السير . والجمع : يعامل ويعملات . وقد ورد تصيغة (يعملات) في شعر المتنبي في قوله (التبيان ١ : ١١/٣٦) .

وأصدى فلا أُبدي إلى الماءِ حاجةً ... وللشمسِ فوق اليعملاتِ لعابُ

والبيت في العرف الطيب : أوطأت صم حصاها ... (العرف ١/١٤) .
(٣) التبيان ٣ : ١٩/١٩٧ الوجناء : الناقة الخليظة الوجنات ، ويقال : هو من الوجين ، وهو ما غلظ من الأرض .
(٤) نفسه ٣ : ١٢/٢٠٠ الهوجاء : الناقة التي ترمي بنفسها في السير للنشاط ، ولا يوصف به الذكر ، فلا يقال : بعير أهوج .
(٥) نفسه ٢ : ٣/١١٦ العذافر : القوى من الإبل . وعذافر من أسماء الأسد . وأصله الشديد من كل شيء .
(٦) نفسه ١ : ٤/٩ـ١٠ .

((ويعظم الخطب وتشتد المحنة ، فهي تريد أن تفهم ما يلم بها ، ولن تخرج من حيرتها ، وهي تسائل في كثير من الشك : أيهما أفضى بها : هذه البيداء التي لا تنتهي ، أم صدر صاحبها هذا الذى لا يعرف لهمه حدا ينتهي اليه • والناقة مع ذلك ماضية في قطع البيد واجتيابها مضي الهزال في أثناء شحمها))[1] • وعلى الرغم من رغبة المتنبي هذه ، في بيان قوة تحمل ناقته ومجابهتها الصعاب ، فاني لا أستبعد ما ذهب اليه الدكتور جليل رشيد فالح من أن المتنبي ((جعل هذا الشك متجها الى ناقته على سبيل الاسقاط في حين أن هذا الشك يساوره هو ، ذلك أنه هو الذى يعاني من مشاق الرحلة وهو الذى يتحمل لأواءها))[2] •

ومن الصفات أيضا (وآة)[3] • قال :

إليكَ طَعَنّا في مدىً كلِ صفصفٍ	بكل وآةٍ كلُّ ما لَقِيَتْ نَحْرُ
إذا وَرِمَتْ من لسعةٍ مَرِحَتْ لهـا	كأنّ نوالا صرّ في جِلدِها النَّبْرُ

عبّر المتنبي في هذين البيتين عن قوة ناقته وشدتها ، فضلا عن سرعتها بجعله ((سيرها طعنا لاختراقها الفلوات وجعل كل أرض قدامها نحرا لأن النحر موضع الطعن لاستقباله الطاعن))[4] ، بل انها لم تهتم بلسعة النبر ، حتى كأنه بما يسببه من ورم في جلدها ، يصرها نوالا[5] ••

وقال يصف (ناعجا)[6] من الإبل ، توسل به في احدى رحلاته :

وحَكَمْتُ في البلدِ العراءِ بناعجٍ	مُعتادِهِ مُجتابِهِ مُغتالِهِ
يمشي كما عَدَتِ المطيُّ وراءَهُ	ويَزيدُ وقتَ جَمامِها وكَلالِهِ
وتُراعُ غيرَ مُعَقَّلاتٍ حولَهُ	فيفوتُها مُتَجَفِّلا بعِقالِهِ
فغدا النجاحُ وراح في أخفافِهِ	وغدا المِراحُ وراح في إرقالِهِ

---

(١) مع المتنبي ١٢٠ •
(٢) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٥١ •
(٣) التبيان ٢ : ١٢٣ / ٢٨ـ٢٩ الوآة : الناقة الشديدة ، والذكر : وأى •
(٤) العرف الطيب ١/ ١٩٨ •
(٥) ينظر: العرف الطيب ١/ ١٩٨ •
(٦) التبيان ٣ : ١٧٩/ ١٤ـ١٧ الناعج : الأبيض الكريم من الإبل • والنعج : ضرب من سير الإبل •

فهذا الناعج قوي شديد التحمل ، سريع حتى حين يتعب ، بل انه يسبق غيره من الإبل وهو في العقال ، فضلا عمّا يتصف به من نشاط ومرح (١).

ومن ذلك أيضا (الهملعة الدفاق) (٢) . قال :

سَلي عن سيرتي فَرسي وسيفي ورُمحي والهَمَلَّعَةَ الدِّفاقا

ومن ذلك (الدعيلة) (٣) . قال :

لم يتركوا لي صاحبا إلاّ الأسى وذَميلَ دِعْلِبَةٍ كفحلِ نَعامِ

ان هذه الصفات التي وسم بها المتنبي إبله من قوة ، وسرعة ، ونشاط ، وقدرة عالية على التحمل ، وصبر طويل على الشدائد ، فضلا عن كرم الأصل وجمال الهيئة (٤) ، لهي من الصفات التي حرص الشعراء العرب بشدة على أن يوفروها لإبلهم مفتخرين بها ومعتزين (٥) .

وقد أحب المتنبي الإبل وعني بها في شعره ، حتى انه استخدم بعضا من أسمائها وصفاتها في دلالات مجازية (٦) .

أما ذكر الإبل في حديث الحرب ـ التي لم يخض لها غمارا الا حين اتصاله بسيف الدولة الحمداني ـ فانه يرتبط ((بهزيمة الأعداء أو السخرية منهم)) (٧) . من ذلك قوله (٨) :

---

(١) ينظر التبيان ٣/٥٨ ـ ٥٩ والعرف الطيب ١/٢٩٢ ـ ٢٩٣ . وان كانت سعاد المانع تذهب إلى ان الناعج هنا يتقمص شخصية الشاعر . (ينظر: سيفيات المتنبي ١١٦ ـ ١١٧) .

(٢) التبيان ٢ : ١٠/١٥١ الهملعة : الناقة الخفيفة القوية . والدّفاق : السريعة المتدفقة في السير .

(٣) نفسه ٤ : ١١/٢٢٩ الذميل : ضرب من السير سريع . والدعيلة ، الناقة السريعة .

(٤) من صفات الإبل الاخرى التي أوردها المتنبي في سياق حديثه عن الرحلة : الوخّادة الرسم (التبيان ٣ : ٣١/٢٢٢) . والرازحة (التبيان ٤ : ٤/٢٥٢) والراقصات (التبيان ٤ : ٣١/٢٥٣) والحرف (التبيان ٢ : ٣/٨٦) والعرامس الذلل (التبيان ٣ : ٧/٢٠٢) .

(٥) ينظر: الرحلة في القصيدة الجاهلية وهب رومية ٤٩ ـ ٩٢، وأساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار ٥١ ـ ٩٥ .

(٦) ينظر: سيفيات المتنبي ١١٧ ـ ١١٨ .

(٧) المصدر نفسه ١١٣ .

(٨) التبيان ٣ : ٢١/١٧٦ وتنظر القصيدة نفسها : البيت ٣٦ .

وجيشٍ إمامٍ على ناقـــةٍ　　　صحيحِ الإمامةِ في الباطـــلِ

وترد ألفاظ الإبل ((في القصائد التي تشير الى حروب الممدوح مع القبائل))[١] بخاصة • قال[٢] :

ولكنْ ربَّهُـمْ أسـرى إليهـم　　　فما نفعَ الوقوفُ ولا الذهـابُ
ولا ليلٌ أجَنَّ ولا نهـارٌ　　　ولا خيلٌ حَمَلْنَ ولا ركـابُ

أما في حروب الممدوح مع الروم ، فيورد لفظ (الجمل) في سياق يربطه بالخوف وإثارة الرعب • قال[٣] :

فكلما حَلُمَتْ عذراءُ عندهـم　　　فإنما حلمتْ بالسَّبْيِ والجَمَلِ

فلما كان الجمل من مفردات الحياة العربية لا الرومية ، فانه يبرز هنا ((رمزا للفزع والخوف من العرب • ويحمل في ثناياه دلالة اقتحام العرب أرض الروم))[٤] • وسواء أورد ذكر الإبل ، أسماء وصفات ، في حروب سيف الدولة مع القبائل أم في حروبه مع الروم ، فانها لا ترد في سياق الحديث عن الرحلة الى الحرب أو العودة منها ، وانما تأتي في إشارات الغرض منها الانتقاص من الطرف المقابل ــ أيا كان ــ • ومن ثمة يتضح لنا الفرق بين دور الخيل ودور الإبل في رحلة المتنبي •

لقد استعان المتنبي بالخيل والإبل كليهما في رحلاته وتنقلاته • وقد ساوى بينهما في الأهمية ، وبخاصة عندما كان يحن الى السفر ويطلبه فلا يقدر عليه • من ذلك أنه قال لمّا داهمته الحمى وهو قعيد مصر ، لا يستطيع عنها براحا بما فرضه عليه كافور من إقامة ومراقبة[٥] :

ألا ياليتَ شِعْرُ يدي أتُمسي　　　تَصَرَّفُ في عِنانٍ أو زِمامِ

أي لو وردت العافية اليه ((لكانت يده أول من يفرح بها ، لأنها سوف تعود الى سابق عهدها من قيادة الخيل والابل سعيا وراء المجد قبل أن تفرض عليها البطالة))[٦] •

---

(١) سيفيات المتنبي ١٢٦ •
(٢) التبيان ١ : ١٧/٣٤ــ٣٥ وينظر نفسه ٢ : ١٥٣/٢٨ •
(٣) نفسه ٣ : ١٨٢/٣٣ •
(٤) سيفيات المتنبي ١١٤ •
(٥) التبيان ٤ : ٢٥٣/٣٠ العنان : للفرس • والزمام : للابل •
(٦) في ميزان النقد الأدبي ١١٦ •

ومن ذلك أيضا ، ما جاء في قصيدته التي نظمها عند هربه من مصـــــر اذ قال[١]:

لولا العلى لم تُجبْ بي ما أجوبُ بها   وجناءُ حرفٌ ولا جرداءُ قيدودُ

فكل من الخيل والإبل تساعد المتنبي في سعيه نحو غاياته ومطامحه • ومن هنا كانت لهما أهمية متكافئة عنده ، وان اختلف دور كل منهما بعض الاختلاف عن دور الآخر • وربما تجلى هذا الاختلاف في مثل قوله[٢]:

ألا كلُّ ماشيـــــةِ الخيزلـــى   فدا كلِ ماشيـــةِ الهيدبـى
وكلِّ نجـاةٍ بُجاويَّـــــــــــــةٍ   خَنوفٍ وما بي حُسْنُ المِشـــى
ولكنهنَّ حبـــالُ الحيـــــــاةِ   وكيدُ العداةِ ومَيْـــطُ الأذى
ضربتُ بها التيهَ ضربَ القمــــا   رِ إمالهـــذا وإما لـــــذا
إذا فَزِعَتْ قدَّمَتْهــا الجيـــــادُ   وبيـــضُ السيوفِ وســمرُ القَنا

فبداية هذه الأبيات تنبئنا عن مستواهما المتكافيء من الأهمية والاعتزاز عنـــده ، الاّ أن الفرق في الدور يكمن في قدرة الخيل على خوض المعامع والحروب المهيأة لهـــا بطبيعتها ، دون الإبل التي ربما فضلت الخيل في تحمل مشاق السفر الطويل الصعـب ووعثائه • فالابل ((خير مطية للطرق الطويلة ، وفضل الخيل عليها في القتال))[٣]• وهذا الفرق أو الاختلاف مما عرفه العرب من قبل وأفادوا منه ، اذ ((كانوا يتخذون الابــل رواحل يركبونها ، ويحملون عليها الأمتعة والسلاح • أما الخيل فيجنبونهـا ادخـــارا لنشاطها وسرعتها في الغارة ، وحفظا لقوتها ، حتى يحين وقت القتال ، وحتى اذا كانوا على مقربة من القوم المقصودين بالغارة ، نزلوا عن الابل ، ولبسوا السلاح ، وركبـــوا الخيل))[٤]•

انّ حب الفروسية الذى تغلغل في روح المتنبي ونفسه حتى دفعه الى محاولـــة العيش بمقتضاه ، فضلا عن مشاركة المتنبي الفعلية في حروب سيف الدولة مقاتلا وشـاعرا ، ناهيك عن اتخاذه الخيل مركبا من مراكب أسفاره ، مما جعله يبدع ـ في شعره ـ فـي وصف الخيل بكل حالاتها وجميع أحوالها ، حتى غطى إبداعه هذا على الكثير مـــن تعبيراته البارعة وصوره الجميلة في ربطه الرحلة ، رحلته هو ، بالإبل • سواء أكان ذكـر

(١) التبيان ٢ : ٣/٨٦ الوجناء : الناقة العظيمة الوجنات أو الغليظة الخلق • والحرف : الناقة الضامرة • والجرداء : الفرس القصيرة الشعر • والقيدود : الطويلة •
(٢) نفسه ١ : ٧/١ـ٥ •
(٣) المحصول الفكرى للمتنبي ٢١٧ •
(٤) وصف الخيل في الشعر الجاهلي ٧١ •

الإبل ذلك مما حدث حقيقة ، أم أنه جاء به تأثرا منه بالتراث الشعرى العربي في وصف الناقة والرحلة • وان كنت أذهب الى إثبات كلا الأمرين : التجربة الحقيقية الصادقة ، والتأثر الفني •

ان مما يدعو الى مثل هذا القول ، هو الإحساس بأن أثر الإبل في حياة المتنبي ـ حقيقة ، وفنا ، فضلا عن انعكاسه في شعره ـ لم يحظ باهتمام الدارسين على النحو الذى ينبغي له ، كما حظي به أثر الخيل •

جـ ـ النعل والقدمان :

لقد ركب المتنبي قدميه ضاربا في بعض أنحاء الأرض ، على نحو ما امتطى الخيل والإبل • قال في ذلك[1] ، مخبرا عنه ، مفتخرا بقدرته عليه :

ومهمهٍ جُبْتُهُ على قدمـي تَعْجِزُ عنه العرامِسُ الذُلُـلُ

فهو جلد في المشي ، قوى عليه ، يستطيع أن يجتاز على قدميه ما تعجز عنه النوق الصلاب ، من صحراء مجدبة وأرض وعرة •

ويعلن كذلك ، انه يسير ، على قدميه ، الى الخطوب العظيمة ، بنفس السرعة والقوة والهمة التي يسير بها اليها ، فيما لو ركب العظيم الشديد من الإبل • نخلص الى ذلك من قوله[2] :

عَذيري من عَـذارىً من أُمـورٍ سَكَنَّ جوانحي بَدَلَ الخُـدورِ
ومبتسماتٍ هيجاواتِ عصـرٍ عن الأسيافِ ليس عن الثغورِ
رَكِبْتُ مُشَمِّرا قدمي إليهـا وكلَّ عُذافِرٍ قَلِـقِ الضُفـورِ

اذ ساوى بين قدمه والإبل القوية ، بل انه بدأ بذكر قدمه عاطفا عليه ذكر الابل •

ولعل اعتماده على قدميه في قصد ممدوحيه ـ أحيانا ـ مما جعله يفضلها حتى على الرؤوس ، فقد قال[3] :

خيرُ أعضائنا الرؤوسُ ولكـنْ فضَلَتْها بقَصدِكَ الأقـدامُ

(١) التبيان ٣ : ٢٠٢/٧ •
(٢) التبيان ٢ : ١١٦/١ـ٣ •
(٣) نفسه ٤ : ٢٤٣/٣١ •

وقد أشار الثعالبي من قبل الى فخر المتنبي هذا ، بالقدرة على المشي ، وجعله من قبيل ((الاعتداد بالرحلة ، والقدرة على السرجلة))[١]. كما أشار الى ذكر المتنبي النعل بوصفه مطية بقوله ((وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة أبعد من آماله ، ويمشي في مناكب الأرض ، ويطوى المناهل والمراحل ، ولا زاد الآ من ضرب الحراب ، على صفحة المحراب • ولا مطية الا الخف والنعل))[٢]. اذ أن المتنبي قد قال[٣] في امتطائه النعل وسيلة الى الممدوح :

لا ناقتي تقبلُ الرديفَ ولا | بالسَوطِ يومَ الرهانِ أُجهِدُها
شِراكُها كورُها ومِشفَرُها | زِمامُها والشُسوعُ مِقوَدُها
أَشَدُّ عصفِ الرياحِ يَسبِقُهُ | تحتي من خَطوِها تأيُّدُها

شبه المتنبي نعله ههنا ، بالناقة اذ ((جعل شراك نعله بمنزلة الكور للناقة • والمشفر : ما يقع على ظهر الرجل من مقدم الشراك ، جعل ذلك بمنزلة الزمام للناقة • والشسوع : التي تكون في الأصابع بمنزلة المقود للناقة • وهو الحبل الذى يقاد به سوى الزمام))[٤] •

أما ما يمكن أن يقال من أن المتنبي قد قال ثلاثة الأبيات ـ الآنفة الذكر ـ هذه ، على سبيل التقليد لمن سبقه ، أو أنه تَخَرَّصَ تخرصَ الشعراء ليستجدى ممدوحه ، اذ يزعم له أنه قاسى هولا ولقي أخطارا عظاما حتى وصل اليه ، سواء أكان ذلك تعظيما للممدوح أم على عادة بعض من الشعراء في المباهاة بالصعلكة والرحلة،[٥] فان سياق القصيدة وظروفها ، فضلا عن حال المتنبي المادية آنذاك ـ اذ كان معسرا ، ضيق ذات اليد ـ لمما ينفي مثل هذا الرأى • بخاصة أن القصيدة التي تضمنت هذه الأبيات ، من أوائل قصائد المتنبي[٦] • مما يدفعنا الى تصديقه في أن نعله كان مركبه الوحيد • ثمّ اننا لا نرى أن عليه جناحا فيما لو أفاد ممن سبقه من الشعراء في تعبيره عن حالته هذه ، فان كانوا هم متخرصين أو مبالغين فلقد كان هو صادقا •

---

(١) يتيمة الدهر ١/١١٥ ، وينظر: الصبح المنبي ٤٢١ .
(٢) يتيمة الدهر ١/١١٤ ــ ١١٥ وينظر: الصبح المنبي ٤٢٠ ــ ٤٢١ •
(٣) التبيان ١ : ١٣/٦٢ ــ ١٥ •
(٤) نفسه ١/٣٠٢ ، وينظر: العرف الطيب ١/٤ •
(٥) تنظر في ذلك مناقشة الأستاذ محمود محمد شاكر للدكتور طه حسين حول القصيدة التي قيلت في هذه الأبيات • (المتنبي ٢/١٦٤ ــ ١٦٨) •
(٦) هي قصيدته التي أولها : أهلابدارٍ سباك أغيدها
أبعدَ ما بان عنك خرّدها (التبيان ١ : ١/٦٢)

ومممـــا أتى فيه المتنبي على ذكر اتخاذه النعل راحلة ــ لمّا لم يكن يملك مــن راحلة سواه ــ قوله [١] :

أظْمَتْنـــي الدُنيا فلما جئتُهـــا مستسقيا مَطَرَتْ عليّ مصائبـــــا
وحُبيتُ من خوصِ الرِكابِ بأسودٍ من دارشٍ فغدوتُ أمشي راكبـا

فلم ينل من الدنيا أكثر من خف أسود ردىء الجلد ، بدلا من الابل •

انّ مثل هذا الشعر ينبيء أن المتنبي ((كان عاجزا عن راحلة يركبها الـــــى الممدوحين))[٢] ، مما اضطره الى أن يركب نعليه ((ويضطرب بهما في الحواضــــر والبوادى ، فاشتهر بجلده على المشي المتواصل))[٣]، حتى قيل إن قدرته على المشـــي السريع والمتواصل هذه كانت مما مخرق به على أهل البادية، حين ادعى أن الأرض تطوى له ، وجعل ذلك من دلائل نبوته[٤]• ولا شك أن لهذا القول ــ بصرف النظر عن مــدى صحة خبر ادعائه النبوة هذا ــ دلالته الواضحة والأكيدة على أن المتنبي كان مشـــاء قويا •

وهكذا اتخذ المتنبي من نعله وقدميه ركائب ، أيام لم يكن لديه غيرهما •وتحديداء قبل أن تتغير حاله من الفقر الى الغنى • لذلك لم يكن ذكرهما ، بوصفهما راحلتيــن ، ليرد الاّ في قصائده الأُول •

د ــ مفردات الطبيعة :

ان تطواف المتنبي في بعض من أرجاء الدولة الاسلامية آنذاك جعله يخوض فـــي طرق كثيرة ، طبيعتها مختلفة ، ويمر ببلدان وأماكن متعددة ، ويرى أشياء جمة • كــــل ذلك يتلمسه المتنبي ، ويحس به ، ويعانيه في أوقات زمنية متباينة •

ولقد أشار المتنبي في شعره الى كثير من ذلك ، ولكنه لم يكن ليعمد ((الــــى الوصف النقلي بل يراوح بين وصف المنظر الطبيعي ووصف الحالة النفسية التي يعانـــي

---

(١) التبيان ١ : ٢٤/١٠ ـ ١١ الخوص : جمع خوصاء ، وهي الناقة الغائرة العينين من الجهد والاعياء • والركاب : الإبل • والدارش : ضرب من الجلود ، وهو من جلـد الضأن •
(٢) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٦٩ •
(٣) أدباء العرب في الأعصر العباسية ١١٢ •
(٤) ينظر: الصبح المنبي ٥٥ •

منها)) [1] • وهذا مما سنعرض له في الفصل الثالث من هذا البحث ، لذلك سنكتفي ههنا بالإشارة الى ما عرض المتنبي له من مفردات طبيعية صادفها أو صادفته في أسفاره •

ان أول ما نعرض له ههنا ، هو ما جاء في شعره عما سلك من طرق في رحلاته الدائمة • ولعل أبرز هذه الطرق التي قطعها ، وأهمها وأكثرها ، هي الصحارى • ومفردات الصحراء ، بدلالاتها المتعددة ، تملأ شعره ، فهي تارة (مهمه) • قال [2] :

كم مهمهٍ قُذُفٍ قلبُ الدليلِ بهِ   قلبُ المحبِ قضاني بعد ما مطلا

وتارة (بيداء) • قال [3] :

وَسَمْنا بها البيداءَ حتى تَغَمَّرَتْ   من النيلِ واسْتَذْرَتْ بظلِ المُقَطَّمِ

وقد تكون (فلاة) • قال [4] :

صَحِبْتَني على الفلاةِ فتاةٌ   عادَةُ اللونِ عندَها التبديلُ

أو (تنوفة) • قال [5] :

كُن حيث شئتَ فما تحولُ تَنوفَةٌ   دونَ اللقاءِ ولا يَشِطُّ مَزارُ

أو (خرق) • قال [6] :

وخَرْقٍ مكانُ العيسِ منه مكانُنا   من العيسِ فيه واسطُ الكورِ والظَهرُ

أو (صفصف) • قال [7] :

إليك طَعَنّا في مدىً كلِ صفصفٍ   بكلِّ وآةٍ كلُّ ما لَقِيَتْ نَحْرُ

أو (يهماء) • قال [8] :

فغادرَ الهجرُ ما بيني وبينكمُ   يَهْماءَ تكذِبُ فيها العينُ والأُذُنُ

---

(١) المتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ١٦١

(٢) التبيان ٣ : ٢١/١٩٥ المهمه : ما بعد واتسع من الأرض • والقذف : البعيد •

(٣) نفسه ٤ : ٢٩/٢٥٢ البيداء : الفلاة البعيدة عن الماء •

(٤) نفسه ٣ : ١٠/١٩٢ •

(٥) نفسه ٢ : ١٢/٩٣ التنوفة : الفلاة البعيدة •

(٦) نفسه ٢ : ١٤/١٢٣ الخرق : المتسع من الأرض •

(٧) نفسه ٢ : ٢٨/١٢٣ الصفصف : الفلاة المستوية •

(٨) نفسه ٤ : ١٦/٢٧٣ اليهماء : الأرض التي لا يهتدى فيها •

وربما كان من قبيل الإشارة الى كثرة تنقلاته ، وسعة أسفاره ، فضلا عما يحانيه من صعوبات ومخاطر في أثنائها ، أن يورد ذكر الصحراء — على اختلاف الدلالات — بصيغة الجمع • فهي (بيد) في قوله [(١)] :

إليكَ ابنَ يحيىٰ بنِ الوليدِ تجاوزتْ   بيَ البيدَ عَنْسٌ لحمُها والدمُ الشِعرُ

وهي (فلوات) في قوله [(٢)] :

صحبتُ في الفلواتِ الوحشَ منفردا   حتىٰ تعجَّبَ مني القورُ والأكَمُ

وهي (فلا) في قوله [(٣)] :

وقطعت في الدنيا الفلا وركائبي   فيها ووقتيَّ الضُحىٰ والموهنا

وهي (دياميم) في قوله [(٤)] :

كلُّ هوجاءَ للدياميمِ فيها   أثرُ النارِ في سَليطِ الذُبالِ

وهي (سمالق) في قوله [(٥)] :

وليل دجوجيّ كأنّا جلتْ لنا   محيّاكَ فيه فاهتدينا السمالِقُ

وهي (مفاوز) في قوله [(٦)] :

ولقد أفنتِ المفاوزُ خيلي   قبل أن نلتقي وزادي ومائي

واذا ما أطلق المتنبي على الفلوات المهلكة — هنا — "مفاوز" ، فان ذلك لا يعني أنه لم يسمها (المهالك) صراحة ، كما في قوله [(٧)] ، يتحدث عن خيله :

فُتنَ المهالكَ حتىٰ قال قائلُها   ماذا لقينا من الجُرْدِ السراحيبِ

ولعله أورد (المهالك) ((ليجسد لنا واقع الصحراء ويقرر في النفس أن اجتيازها مغامرة تفضي الى الهلاك لا محالة ولا أمل في الفوز والنجاة)) [(٨)] •

---

(١) التبيان ٢ : ٦/١٠٤.
(٢) التبيان ٣ : ٢٣/٢٢٢ •
(٣) نفسه ٤ : ٧/٢٦٧ الفلا : جمع فلاة وتجمع أيضا على فلوات وفلى ، وهي الأرض البعيدة •
(٤) نفسه ٣ : ١٢/٢٠٠ الدياميم : جمع ديمومة ، وهي الفلاة •
(٥) نفسه ٢ : ١٧/١٥٦ السمالق : جمع سملق ، وهي الأرض البعيدة •
(٦) نفسه ١ : ٢٢/٥ المفاوز : جمع مفازة، وأصلها من الهلاك ، ومن قولهم ، فاز الرجل : اذا مات • وسميت المفازة : على سبيل الفأل بالسلامة • ومعنى الهلاك في (المفاوز) يتضح جليا في بيت المتنبي هذا •
(٧) نفسه ١ : ٣٨/٣٤ •
(٨) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٢٥ •

وكما ذكر المتنبي الصحارى أو الفلوات التي قطعها ، بعامة ، فقد أشار الى شيء من طبيعتها ، كما في قوله (١) :

في مثلِ ظهرِ المِجَنِّ متّصلٍ　　بمثلِ بطنِ المِجَنِّ قَرْدَدُها
مرتمياتٌ بنا إلى ابنِ عُبَيْدِ اللّهِ غِيطانُها وفَدْفَدُها

اذ يشير الى أن هذه الأرض ((كظهر المجن) مبترة مرتفعة غليظة ، ويعني بها التلال ، وهي متصلة بأرض (كبطن المجن) منخفضة كثيرة الحصا والحجارة ، ((والقردد)) مرتفع من الأرض الى جانب وهدة منخفضة ، وهي وهدة غليظة ، كلفظها ••••• والغيطان هو جمع غائط ، وهو المتسع المطمئن المنخفض من الأرض في البوادي ، لا في السواد والأرض المزروعة ••••• ثمّ ذكر (الفدفد) ، وهي الفلاة التي لا شيء بها ولا نبات ، وأرضها غليظة ذات حصى وفيها صلابة)) (٢) .

ومن ذلك أيضا ، قوله (٣) :

صَحِبتُ في الفلواتِ الوحشَ منفرِدا　　حتى تَعَجَّبَ مني القورُ والأكَمُ

فقد مرّ في أثناء جوبه الفلوات بقورها وأكمها ، ((والقور جمع قارة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء ، ويروى الغور وهو المطمئن من الأرض ، والأكم جمع أكمة وهي الجبل الصغير)) (٤) .

وقال يذكر الحصى ، في معرض حديثه عن شدة وطء ابله على الأرض ، مشيرا الى قوتها وثباتها ، فضلا عن سرعتها (٥) :

إذا الليلُ وارانا أَرَتْنا خِفافُها　　بقَدْحِ الحصى ما لا تُرينا المشاعِلُ

كما أشار الى ما يمكن أن يكون في طريقه من صخر وحجارة • قال ، يصف قوة خيله (٦) :

تماشى بأيدٍ كلما وافَتِ الصَفا　　نَقَشْنَ به صدرَ البُزاةِ حوافيا

---

(١) التبيان ١ : ١٦/٦٢ـ١٧ المجن : الترس •
(٢) المتنبي ٢/١٦٦ـ١٦٧ •
(٣) التبيان ٣ : ٢٣/٢٢٢ •
(٤) العرف الطيب ٢/٣٤٣ ـ ٣٤٤ •
(٥) التبيان ٣ : ٨/١٩٧ يقول : اذا سترنا الليل بظلامه ، أسرعت هذه الابل حتى تصطك الحجارة بعضها ببعض ، وتتقدح النار ، فترى ما لا نراه بضوء المشاعل •
(٦) التبيان ٤ : ١٥/٢٨٥ يقول : ان خيله اذا وطئت في الصخر ، وهي حافية بغير نعال ، أثرت فيه مثل صدور البزاة ، أي أنها لشدة حوافرها وصلابتها ، تؤثر في الصخر حافية •

ويعرض المتنبي كذلك لذكر ما قد يمر به في طريقه من سهول وجبال • قال (١) :

أنكحتُ صُمَّ حصاها خُفَّ يَعْمَلَةٍ تَغَشْمَرَتْ بي إليكَ السهلَ والجبلا

ومن ذلك أيضا قوله (٢) :

لقيتُ المَرورَى والشناخيبَ دونَـهُ وجُبْتُ هجيرا يتركُ الماءَ صاديا

ومما خص ذكره من الجبال ، جبال لبنان • قال (٣) :

بيني وبين أبي عليٍّ مثلُـهُ شُمُّ الجبالِ ومثلُهُنَّ رجاءُ
وعِقابُ لبنان وكيف بقطعِها وهُوَ الشتاءُ وصيفُهُنَّ شتاءُ
لَبَسَ الثلوجُ عليها مسالكي فكأنها ببياضِها سوداءُ

فبينه وبين أبي علي الأوراجي هذا جبال لبنان المرتفعة الشماء ، المغطاة بالثلوج مما يصعب عليه معها اجتيازها • ولكن ما كان عليه أبو علي من كريم الأخلاق وحميد الصفات ، فضلا عما يبغيه المتنبي منه من رجاء عظيم يقرب من حجم هذه الجبال ، سيساعده على تحمل ما يكلفه قطعه اياها وعبورها من مصاعب وأخطار •

وقد يمر المتنبي في أسفاره بالرياض الغنّاء الجذابة ، والجنائن الخضر الجميلة ، لكنها لا تقدر على وقفه عن مسيره ، حتى وان أعجب بها ، ولا تتمكن من ثنيه عن عزمه على إكمال طريقه ، ولو وصفها مفتنا بحسنها ، فما كان يشغله من هواجس ، ويملك عليه أقطار نفسه من مطامح ، أقوى من أن يدعه للتأمل في مجالي الطبيعة ووصفها والتغني بها • وقد أشار الى ذلك في قوله (٤) ، مخاطبا سيف الدولة :

كلّما رَحّبَتْ بنا الروضُ قلنا حلب قصدُنا وأنتِ السبيلُ

فلم يكن على استعداد للارتماء في أحضان الطبيعة ، على الرغم مما توحيه كلمة (رحبت) من إحساسه بجمالها ، فما يسعى الى تحقيقه في حلب أكبر — عنده — من أن يقف أمام الطبيعة متأملا ، فهي ليست أكثر من سبيل •

---

(١) التبيان ٣ : ١٩٥/٢٣ وينظر ٢ : ١٢٢/١٣ حيث يشير الى جوبه البحار فضلا عن الجبال •

(٢) نفسه ٤ : ٢٨٥/٢٧ المرورى ، جمع مروراة ، وهي الفلاة الواسعة • والشناخيب : جمع شنخوب ، وهو رأس الجبل •

(٣) نفسه ١ : ٣/١٣ــ١٥ •

(٤) نفسه ٣ : ١٩٢/١٦ •

واستنادا الى هذا لم تحظ منه بحيرة طبرية بأكثر من تسعة أبيات[(١)] • بل انه لينتهي من وصف شعب بوان — أحد جنان الدنيا — بقوله[(٢)] :

فقلتُ إذا رأيتُ أبا شجاعٍ سَلَوْتُ عن العِبادِ وذا المكانِ

ولكن على الرغم من قلة شعر المتنبي هذا في وصف الأماكن والبلدان ، فان فيه ((انطباعات قوية دقيقة مختصرة عن البلاد التي شاهدها))[(٣)] •

ان المتنبي ،في اجتيازه الطرق وقطعه السبل ، كان لا بدّ له من أن يتعامل مع ما احتوت عليه هذه الطرق والمسالك من أناس وحيوانات ومظاهر طبيعية فلكية ومناخية وما أشبه ، وما ضمته بين جنباتها منها • من ذلك ما أشار اليه من مروره ببيوت البدو الذين هم جزء مهم من بعض طرق أسفاره • قال[(٤)] :

أوانًا في بيوتِ البدوِ رحلي وآونةً على قتدِ البعيرِ

وقد يمدح من يساعده منهم[(٥)] ، ويهجو من يتسبب في إعاقته أو إثارة المشاكل له[(٦)] •

أما الحيوانات التي خصها بالذكر ، مما عرضت له في تنقلاته المختلفة ، فمنها النعام • قال[(٧)] في قلبه المكتظ بالآمال :

يُكلِّفني التهجيرُ في كلِّ مهمهٍ عليقي مراعيه وزادي رُبْدُهُ

أى أن مطامحه تدفعه الى قطع الهواجر في المفازات البعيدة حيث لا عليق لفرسه الاّ نبتها ، ولا زاد له هو الا ما يصيده من نعامها •

ويتخذ المتنبي من قدرة النعام على تحمل العطش، مثلا يشبّه به قدرته هو على ذلك حين يعز عليه الماء في تلك القفار الموحشة والطرق الطويلة • قال[(٨)] :

وإني لتُغْنيني من الماءِ نُغْبَةٌ وأصبِرُ عنه مثلَ ما تصبِرُ الرُّبْدُ

---

(١) ينظر:التبيان ٤ : ٢٢٨/٣٢-٤ (٢) ينظر: نفسه ٤ : ٢٧٨/١-٢٠ •
(٣) الطبيعة عند المتنبي ٤٢ وينظر:الفصل الثالث من هذا البحث •
(٤) التبيان ٢ : ١١٦/٤ •
(٥) ينظر:التبيان ٤ : ٢٧٧/١-٤ اذ مدح في هذه القطعة عبد العزيز بن يوسف الخزاعي، لإنفاذه الى المتنبي دليلا طلبه منه •
(٦) ينظر التبيان ٤ : ٢٨٣/١-٥ اذ هجا في هذه القطعة وردان الطائي لإفساده عبيده عليه •
(٧) التبيان ٢ : ٨٤/١٦ الربد : النعام الذى خالط سوادها بياض، التهجير : السير في وقت الهاجرة وهي حر نصف النهار • وينظر ٤ : ٢٥٣/٧ •
(٨) نفسه ١ : ٧٣/١٢ •

وربما قرن إبله ، في سرعة سيرها ، بالنعام ، في إشارة منه لبيان قوة هذه الابل وشدة سرعتها اذ يفضلها على النعام • قال[١] :

سَلِ البيدَ أينَ الجنُّ منا بِجَوْزِها ... وعن ذي المهاري أين منها النقانقُ

ومن هذه الحيوانات بقر الوحش • قال عند منصرفه من مصر ، وقد وصل الـ البسيطة ، فرأى بعض غلمانه ثورا ، فقال : هذه منارة الجامع ، ورأى آخر نعامة البرّية ، قال : هذه نخلة[٢] :

بُسَيْطَةُ مهلا سُقيتِ القِطارا ... تركتِ عيون عبيدي حيارى
فَظَنّوا النَعامَ عليك النخيلَ ... وظَنّوا الصُوارَ عليك المَنارا

وفضلا عن النعام وبقر الوحش، يجبه المتنبي في تنقلاته الوحش[٣] • قال مشيرا الى ذلك :

صَحِبتُ في الفلواتِ الوحشَ مُنفردا ... حتى تَعَجَّبَ مني القورُ والأَكَمُ

ولعل أصل الصحبة هنا ، أنه لم يمر في طريقه تلك بغير الوحوش والحيوانات المفترسة ، حتى صارت ، على الرغم مما تمثله من خطر يتهدده ، كأنها رفيق رحلته •

ومن ذلك أيضا، ما قاله يذكر تعرض الوحش له في طريقه الى سيف الدولة ، فيخاطبها مستنكرا ذلك منها ، اذ كيف تتعرض لرفاق سيف الدولة ومحبيه ، في حين أن سيف الدولة نفسه قد أباح لها فعل ما تشاء بأعدائه • قال[٤] :

أباحَ الوحشَ يا وحشُ الأعادي ... فَلِمْ تتعرَّضين له الرِفاقا
ولو تَبِعَتْ ما طرحتْ قناهُ ... لَكَفَّكَ عن رذايانا وعاقا

وليس من شك في أن أسد الفراديس التي خاطبها بقوله[٥] :

---

(١) التبيان ٢ : ١٥٦/٦ النقانق : جمع نقنق بالكسر وهو ذكر النعام •
(٢) التبيان ٢ : ١٢٢/١-٢ الصّوار : القطيع من بقر الوحش • كما يسميه (المهى)• قال عن ركائبه في قصيدته التي يذكر فيها طريق هربه من مصر :
وجابت بسيطة جوب الردا ... ء بين النعام وبين المهى
(التبيان ١ : ٧/١١)
(٣) نفسه ٣ : ٢٢٢/٢٣
(٤) نفسه ٢ : ١٥١/١٤-١٥•
(٥) نفسه ٤ : ٢٤١/١-٤ •

أجارَكِ يا أُسدَ الفرادِيسِ مُكـــرَمٌ ... فتَسْكُنَ نفسي أم مُهانٌ فمُسْـــلِمُ
ورائي وقدّامي عداةٌ كثيــــــرةٌ ... أُحاذِرُ من لصٍّ ومنكِ ومنهــــــمُ ...

مما جبهه في طريقه من وحش .

وكان للكلاب أيضا دور في رحلات المتنبي ، اذ كانت كلاب بعض من القبائل التي يمر بها ، تثور في وجه خيله وتصول عليها كأن هذه الخيل أعداء تحمل عليها . قال[١] يخاطب كافورا ، مشيرا الى مثل ذلك .

فلو لم تكنْ في مصرَ ماسرتُ نحوهـــا ... بقلبِ المَشوقِ المستهامِ المُتَيَّـــمِ
ولانَبَحتْ خيلي كلابُ قبائـــــــــلٍ ... كأن بها في الليل حملاتِ دَيْلَـــمِ

ويعرض المتنبي — فيما يعرض له — الى ذكر الجن وأصواتها . قال[٢] :

أنكحتُ صُمَّ حصاها خُفَّ يَعْمَلَـــــةٍ ... تَغَشْمرتْ بي إليكَ السهلَ والجبَلا
لو كنتَ حَشْوَ قميصي فوق نُمْرُقِهـــا ... سمعتَ للجنِّ في غيطانِها زَجَـــلا
حتى وصلتُ بنفسٍ ماتَ أكثرُهـــــا ... وليتني عشتُ منها بالذي فضَـــلا

وهو وان لـم يصـــرح هنا بأنه سمع أصوات الجن ، الا أن ذكره اياها يشير الى علوق ما يقال عنها في نفسه ، حتى ان كان ذلك على سبيل التأثر الفني بالشعر العربي القديم ، وبخاصة شعر الرحلات منه[٣] .

أما الظواهر الجوية والمناخية ، فانها مما كان لابدّ للمتنبي أن يشير اليـــه أو يخصه بالذكر ، لما لها من أثر خاص في أسفاره . ولعل من أبرز هذه الظواهر ما يتعلق منها بالحصول على المياه ، فضلا عما يتوفر منه . وبخاصة أن المتنبي قد أخبرنا بأنه قد ينتقل أحيانا في جو شديد الحرارة . قال[٤] :

لَقيتُ المَرَوْرَى والشناخيبَ دونَـــهُ ... وجُبْتُ هجيرا يَتْرُكُ الماءَ صاديـــا

فان مبالغته هذه في إحساس الماء بالعطش ، في مثل هذه الظروف ، تنبئنا بشـــدة إحساسه هو به . لذلك كان من الضروري له أن يتتبع مساقط الغيث ، في ظروف جويـــة ومناخية صعبة مثل هذه ، فضلا عما يسهم به طول بعض طرقه في زيادة هذه الصعوبة ، ومن هنا كانت مراقبته لبرق الغمام لأنه مما يدله على مواطن وجود الماء . قال[٥] :

---

(١) التبيان ٤ : ٢٦/٢٥٢ـ ٢٧ . (٢) نفسه ٣ : ٢٣/١٩٥ـ ٢٥ وينظر ٢ : ٦/١٥٦ .
(٣) ينظر : أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار والرحلة في القصيدة الجاهلية .
(٤) التبيان ٤ : ٢٧/٢٨٥ . (٥) نفسه ٤ : ٥/٢٥٣ .

فقد أَرِدُ المياهَ بغيرِ هادٍ		سوى عَدّي لها برقَ الغمامِ

وقد يجعل المتنبي من صوت الرعد حداءً لإبله هاديا اياها الى مواضع الخضرة والماء • قال (١) :

كفانا الربيعُ العيسَ من بركاتِهِ		فجاءتْهُ لم تَسمعْ حُداءً سوى الرعدِ
إذا ما استَحْيَنَّ الماءَ يَعْرِضُ نَفسَهُ		كَرَعْنَ بِسِبْتٍ في إناءٍ من الوردِ

وعلى الرغم من ابتهاج المتنبي وفرحه حين يتوفر على الماء أو يقع عليه بعد لأى ومعاناة ، فانه لا ينفك يعلن عن قدرته العالية على تحمل العطش والصبر عليه في أصعب الظروف وأقساها • قال (٢) :

وأَصدى فلا أُبدي إلى الماءِ حاجةً		وللشمسِ فوقَ اليَعْملاتِ لُعابُ

ومن المظاهر الطبيعية المهمة التي لا استغناء لمسافر رحالة عنها ؛ لأهميتها الكبيرة في ضبط الاتجاه الصحيح للطريق المقصود ، النجوم • وتتجلى أهميتها هذه في الليل بخاصة ، اذ أن مسالك الصحراء ، فضلا عن غيرها ((قد تلتبس على السارين في الليل البهيم فيضلون الطريق ، وعندئذ يجدون في بعض النجوم علامات يهتدون بها لتحديد الاتجاهات والمسالك)) (٣) • وقد برز أثر النجوم هذا في رحلات المتنبي في قوله (٤) :

عَقَدْتُ بالنجمِ طَرْفي في مَفاوِزِهِ		وحُرَّ وجهي بحَرِّ الشمسِ إذْ أَفَلا

أى أنه كان دائم النظر الى النجوم ، يهتدى بها في سيره ، حتى كأن أجفانه علقت بها وشدت اليها •

وقال ، مغضبا متألما (٥) :

حتّامَ نحن نُساري النجمَ في الظُلَمِ		وما سُراهُ على خُفٍّ ولا قَدَمِ
ولا يُحِسُّ بأجفانٍ يُحِسُّ بها		فَقْدَ الرُقادِ غريبٌ باتَ لم يَنَمِ

---

(١) التبيان ٢ : ٨٩/١٦–١٧ وهذان البيتان في مدح ابن العميد ، والضمير في (بركاته) و (فجاءته) يعود اليه •
(٢) نفسه ١ : ٣٦/١١ وينظر ١ : ٧٣/١٢ •
(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٠٢ •
(٤) التبيان ٣ : ١٩٥/٢٢ •
(٥) نفسه ٤ : ٢٥٧/١–٢ •

أي ، الى متى نسرى مع النجم في عتمة الليل ، ونحن نتألم من السير والسهر ، في حين لا يشعر هو بأى تعب ، لأنه ليس ممن يسير كالانسان والإبل . ولعل المتنبي رمز بخف الإبل هنا الى الدواب مما لا يعقل . ثمّ يقول : ان هذا النجم لا يلقى من السهر والتعب والألم ما يلقاه الغريب عن أهله الذى بات ساهرا لا يقر له قرار ، ويعني بذلك نفسه[١].

ويتضح مدى إدراك المتنبي لعظم دور النجوم في هداية السارين ، حين شبه نفسه بالنجم أهمية وبروزا وألقا ، ولم يكتف بذلك ، وانما اختار ظرفا هو أهم ما يحتاج في أثنائه الى النجم وأصعب ، وذلك عندما تحجب السحب النجوم من الأبصار الشاخصة اليهـــا ، المتعلقة بها ، دليلا وهاديا . قال[٢]:

وإني لَنجمٌ تهتـدي بي صُحبُتي إذا حال من دونِ النجومِ سَحابُ

ولا أشك في أن المتنبي قد مرّ في أثناء رحلاته الكثيرة بموقف حرج وصعب كهذا ، أثر في نفسه الى الحد الذى جعله يفيد منه في فنه ، فيجعل من نفسه نجما يهتدى بـه السارون في ليل تغشاه السحب . ((وهو بذلك يتحول الى رمز من رموز التمرس الحيـة بالصحراء وخبرة بمسالكها ومعرفة اتجاهاتها سواء في الليل أو في النهار))[٣].

وقد يتخذ المتنبي من النجوم رمزا الى المراكز العليا التي يحس بأنها حق مـن حقوقه سلب منه ، والتي يسعى لإعادتها ولو بالقوة[٤]، كما في قوله[٥]:

فُتنَ المهالكَ حتىَ قال قائلهـــا ماذا لقينا من الجُردِ السراحيبِ
تهوي بمنجَردٍ ليست مذاهبــُهُ لِلُبْسِ ثوبٍ ومأكولٍ ومشـــروبِ
يرى النجومَ بِعَيْنَيْ من يُحاوِلُهـا كأنها سَلَبٌ في عينِ مســلوبِ

ومن المظاهر الطبيعية الأخرى التي عرضت للمتنبي في بعض من رحلاته ، العجـاج ، الذى نحسب أنه مما يعرف هذه الأيام بالعواصف الرملية . ومن الملاحظ أن ذكـر العجاج ، بوصفه عنصرا من عناصر رحلة المتنبي ، لم يرد كثيرا ، ولعل ذلك يعود الـى قلة حصوله أو الى أنه لم يصادفه بكثرة في أسفاره ، أو لعله قد ألف حدوثه الى الدرجة التي أصبح فيها ، بالنسبة اليه ، أمرا اعتياديا ، لا يحتاج معه الى ذكره .

---

(١) ينظر: التبيان ٤ / ١٥٥ والعرف الطيب ٢ / ٥٣٦ـ٥٣٧ .
(٢) التبيان ١ : ٣٦/٨ .
(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٠٢ .
(٤) ينظر: بين شخص المتنبي وشعره ٣٩ـ٤٠، والمتنبي بين البطولة والاغتراب ٢١٣ .
(٥) التبيان ١ : ٣٤/٣٨ـ٤٠ .

قال[١]:

لو كنتُ أفعلُ ما اشتهيتِ فَعالَهُ   ما شق كوكبُكِ العَجاجَ الأكْدَرا

يخاطب المتنبي في هذا البيت خيله قائلا : ان فعلت ما تشتهينه ، وهو الراحة والجمام والقعود عن السفر ، لما أركضتك شاقا بك الغبار المظلم الى حيث الممدوح[٢].

ويفيد المتنبي من احد مظاهر الطبيعة ، التي ليس لها وجود الا بحركتها وانسيابها في فضاءات الكون ، ألا وهي الريح ، للتعبير عن حاجته الماسة الى الترحل الدائم بوصفه تنفيسا عمّا يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس ، ومحاولة لتحقيق ما يعج به صدره من آمال ورغبات ومطامح • قال[٣]:

أَلِفتُ تَرَحُّلي وجعلتُ أرضي   قتودي والغُرَيْرِيَّ الجُلالا
فما حاولتُ في أرضٍ مقاما   ولا أزمعتُ عن أرضٍ زوالا
على قلقٍ كأن الريحَ تحتي   أُوَجِّهُها جَنوبا أو شَمالا

في هذه الأبيات ((عرض المتنبي حقيقة القلق الذي يعيش في خضمه ، والاضطراب النفسي الذي يلم به جراء ما يواجه في رحلة الحياة من عنت ، وما يحتمل من أجل تحقيق آماله من مكابدة ، اذن هو في نزاع مستمر بين الرغبة في أن يقيم فلا يرحل ، وبين ذلك النداء الداخلي الذي يجلجل في أعماقه ويستحثه على قطع المفازات وتحدي الأهوال ، فيسارع الى تلبية هذا النداء))[٤] ولن يكون أكثر تعبيرا عن قلقه من (ركوب الريح) ، فالريح بما توحي به في النفس من حركة دائمة دائبة تصل الى حد السرعة الشديدة ، ومن قوة كامنة تبلغ درجة العتو والتدمير ، فضلا عمّا يمكن أن تكون عليه من تغيرات مفاجئة وحادة في الاتجاهات ، لتقربنا الى إدراك كنه ما أراد المتنبي الإيحاء به والتعبير عنه حين جعلها كأنها مركب له • ولكنه ، على الرغم من كل ذلك ، لم يزل مسيطرا ،((ويبقى بيده عنان القيادة وزمام التوجيه))[٥] •

واذ يغلب أثر الصحراء في شعر الرحلة عند المتنبي ، على غيره من آثار المناطق أو الأماكن الأخرى التي مرّ بها أو قضى فيها زمنا ، فاننا نعزو هذا الى أنه كان يجوب في

---

(١) التبيان ٢ : ١٢٤/ ١٦ •
(٢) ينظر: التبيان ٢/ ١٦٤ والعرف الطيب ٢/ ٥٦٧ •
(٣) التبيان ٣ : ٢٠٣/ ١٤ـ١٦ •
(٤) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢١٥ •
(٥) المتنبي بين البطولة والاغتراب ٢٥٣ ـ ٢٥٤ •

أكثر رحلاته فلوات وأراضي واسعة المساحة مترامية الأطراف ، ربما شابه بعضها في ظروفه ظروف الصحراء ، فضلا عن أن روحه المتبدية، وحبه لحياة البدو وجعلاه يضفي على رحلاته شيئا من روح طبيعة التنقل في الصحراء ، ناهيك عن تأثره الفني الذى لا نشك في حصوله ، بشعر الشعراء العرب الذين قصوا في شعرهم حكايات أسفارهم ممن سبقوه ، وبخاصة شعراء ما قبل الاسلام منهم [(١)].

لقد أسهم كل ذلك ، مع التجربة الصادقة ، والقدرة الفنية العالية ، في نجاح المتنبي في رسمه الشعرى لرحلاته بكل عناصرها وظروفها الطبيعية ، وبخاصة ما قرب منه ، من طبيعة السفر في الصحراء ، حتى قيل ان ((عرض المتنبي للصحراء عرض لصراع يتم بينه وبينها)) [(٢)].

ان كل ما مر بنا أو عرضنا له من مفردات الطبيعة ، نلمحه بصورة أو بأخرى في رحلة الحرب التي شارك فيها المتنبي بوصفه مقاتلا من المقاتلين [(٣)] . اذ أن المتنبي ذكر من ظواهر الطبيعة وعناصرها ، في شعره الحربي الذى يمثل تجربة حقيقية عايشها ، ما ذكره منها في رحلاته الخاصة ، ولكن توظيفها والتعامل معها ، ربما اختلف بعض الاختلاف في كل منها عن الأخرى ، وماذاك الا بحكم الخصوصية التي تتسم بها كل من الرحلتين .

هـ ــ رفاق الرحلة (شخوصا) :

بدءًا ، لا بدّ من القول، اننا ندرك أن الدواب أو المركوبات التي امتطاها المتنبي ، هي من أهم رفاقه في رحلاته وأبرزها ، وكما أشار هو الى ذلك [(٤)] ، بوصفها وسائله في تنقلاته . ومثلها في رفقتها اياه ، ما ذكره هو كذلك ــ أحيانا ــ من صحبة الشمس أو الظلام له ، لاشتمالهما عليه ، بوصفهما وقت أسفاره [(٥)] .

---

(١) ينظر: أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار، والرحلة في القصيدة الجاهلية، وفي الأدب العباسي الرؤية والفن ٤١٣ــ٤١٤، وبناء القصيدة العربية د . يوسف حسين بكار ٢٧٨ــ٢٩١، وقضايا الفن في قصيدة المدح العباسية د . عبد الله عبد الفتاح التطاوى ٢٧٤ــ٣٠٠ .

(٢) المحصول الفكرى للمتنبي ٣٠٤ .

(٣) ينظر: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ٢٩٤ــ٤١٥ وشعر الحرب في أدب العرب ٢٦٢ــ ٢٩٧ والمحصول الفكرى للمتنبي ٣٠٢ــ٣١٧ وفي الأدب العباسي الرؤية والفن ١٥٨ــ١٦٣، والمتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ٢٥٤ــ٢٦٥، وأدب الحرب ٨٧ــ١٠١ ومع المتنبي في شعره الحربي ١٤١ــ١٧٨ والمتنبي بين البطولة والاغتراب ٧٠ــ٩٤ والحرب في شعر المتنبي (مواضع متفرقة) وسيفيات المتنبي (مواضع متفرقة) ولغة الحب في شعر المتنبي ١٩٨ــ٢٣٤ .

(٤) ينظر: التبيان ٤ : ٢٢٩ / ١١ و ٣ : ٢٠٣ / ١٤ و ٢ : ١٥١ / ١٠ .

(٥) ينظر: التبيان ٣ : ١٩٢ / ١٠ و ٣ : ٢٠٢ / ٨ .

ولعل من الجائز لنا ، أن نعد ما يمكن أن يكون قد صادفه من أخطار أو تعرض له منها ، مما لزمه في رحلاته [١] • فضلا عن بعض من مظاهر الطبيعة [٢] •

لكن ما نريد الإشارة اليه هنا من الرفقة والمصاحبة ، ما ذكره المتنبي عن صحب لازموه في رحلاته وأسفاره ، مما يمكن تشخيصهم وتلمس أبعاد مادية لهم ، كالناس وبعض الحاجات •

لم ينفك المتنبي يذكر في شعره ، مصاحبة فتيان اياه في رحلاته وتنقلاته • وقد وصفهم بأوصاف شتى ، ووسمهم بمزايا كثيرة تصب كلها في قوة العزيمة وثبات الجنان فضلا عن كرم الأخلاق • قال [٣] يذكر مسيره من مصر :

في غِلْمةٍ أخطروا أرواحَهمْ ورَضوا ... بما لقينَ رِضا الأيسارِ بالزُّلَمِ
تبدو لنا كلما ألقَوا عمائمهمْ ... عمائمٌ خُلِقت سودا بلا لُثُمِ
بيضُ العوارضِ طَعّانون من لَحِقوا ... من الفوارسِ شلّالون للنَّعَمِ
قد بلغوا بقناهم فوقَ طاقتهِ ... وليس يبلغُ ما فيهمْ من الهممِ
في الجاهليةِ إلاّ أن أنفسهمْ ... من طيبهنَّ به في الأشهُرِ الحُرُمِ
ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة ... فعلّموها صياح الطير في البهمِ

فهاهو قد خرج بغلمان حملوا أرواحهم على الخطر ، ورضوا بما يستقبلهم من فوز أو هلكة كما يرضى المقامرون بما يخرج لهم من الأزلام • وعلى الرغم من صغر أعمارهم ، فانهم قتالون للفوارس ، مغيرون على الأموال أينما وجدوها • وقد كثر طعانهم بالرماح حتى جاوزوا بها مبلغ طاقتها ، ولم تبلغ الرماح مع ذلك غاية هممهم • وهم لخوضهم المستمر للمعارك كأنهم في الجاهلية ،الاّ أن أنفسهم لاطمئنانها لأفعال الرماح وسكونها بها كأنها في الأشهر الحرم أمنا واستقرارا • ثمّ إنهم اذا ما تناولوا الرماح ، وهي جماد لا تنطق ، أسمعوا الناس صريرها في الدروع والأبطال ، فصارت كأنها فرقة طير تصيح [٤] •

ومما ذكرهم فيه أيضا • قوله [٥] :

---

(١) ينظر: التبيان ٢ : ٥/١١٦ و ٢ : ١٤/١٥١ و ٤ : ١/٢٤١–٢ •
(٢) ينظر: التبيان ٤ : ١/٢٥٧ و ٣ : ٢٣/٢٢٢ •
(٣) التبيان ٤ : ٩/٢٥٧–١٤ •
(٤) ينظر: التبيان ٤ / ١٥٧–١٥٨ والعرف الطيب ٢ / ٥٣٧ – ٥٣٨ •
(٥) التبيان ٢ : ٩/٨٩–١٣ •

تُبدِّلُ أيامي وعيشي ومترلـــي نجائبُ لا يفكرنَ في النحسِ والسعدِ
وأوجُهُ فتيانٍ حيـاءً تلثّمـــوا عليهنّ لا خوفاً من الحرِّ والبـــردِ
وليس حياءُ الوجهِ في الذئبِ شيمةً ولكنه من شيمةِ الأسـدِ الـــوَرْدِ
إذا لم تُجِزْهُمْ دارُ قومٍ مـــودةٌ أجاز القنا والخوفُ خيرٌ من الـودِّ
يحيدون عن هَزْلِ الملوكِ إلى الذي تَوَفَّرَ من بين الملوكِ على الجِـدِّ

فوصفهم ((بالحياء وتحمل الحر والبرد ، وذهب الى تبرير حيائهم ، الا أنهم مـــع حيائهم هم أشداء شجعان ، اذا مروا بدار قوم ولم يكن بينهم وبين سكانه مودة استعملوا حد السيف ، وهم يجتنبون من تلهى من الملوك بالشراب ويقصدون الجدّ والمدبـــر منهم)) (١) .

ان كل ما أضفاه المتنبي على رجاله من صفات ، وميزهم به من خلال (٢) ، هو مما افتخر بتحليه هو نفسه بها ((فهم جزء منه وهو جزء منهم ، وفيهم تتجلى خصائصه ، وفيـــه تتجلى خصائصهم ، فالحديث عنهم حديث عن نفسه ، لأنه هو الذي يرسم لهم خطط الحياة والحركة والتوجه ، كما يغذيهم بما عمرت به نفسه واستنارت به بصيرته)) (٣) .

ومن رفاق رحلته كذلك ،عبيده . ومما ورد من شعر يذكرهم فيه ، مقطوعته التـــي يشير فيها الى حادثة وقعت لهم في طريق عودتهم من مصر ، اذ نزل المتنبي في أرض حسمى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائي فاستغوى وردان عبيد المتنبي فجعلوا يسرقون لـه من أمتعته فلما شعر المتنبي بذلك ضرب أحد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمـان فأجهزوا عليه . ومما قاله فيها يهجو وردان هذا ، ويذكر ما حدث (٤) :

مررنا منه في حِسْمى بعبـــدٍ يَمُجُّ اللؤمَ مَنْخِـرُهُ وفُـــوهُ
أَشَذَّ بِعِرْسِهِ عني عبيـــدي فأَتْلَفَهم ومالـي أتلفـــوهُ
فإن شَقِيَتْ بأيديهم جيـــادي لقد شَقِيَتْ بِمُنْصُلي الوجـــوهُ

كما ذكر عبيده في مقطوعته التي روى فيها ما حدث حين بلوغه الى البسيطة في طريـق عودته من مصر ، حيث رأى بعض عبيده ثورا فظنه منارة الجامع ، ورأى آخر نعامة فظنهـا نخلة (٥) . قال :

---

(١) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ٢٠٧ .
(٢) ينظر في ذلك - فضلا عما ذكر - التبيان ١ : ٢٢/٣٦ - ٣٨ و١ : ٧٣/٢ - ٥ و ٢ : ١٢٣/١١ - ١٢ .
(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٣٧ .
(٤) التبيان ٤ : ٢٨٣/٣ - ٥ .
(٥) نفسه ٢ : ١٢٢/١ - ٣ .

بُسَيْطَةُ مهلا سُقيتِ القِطارا ‏ ‏ ‏ تركتِ عيونَ عبيدي حَيارَى
فظنّوا النَعامَ عليكِ النخيلَ ‏ ‏ ‏ وظنّوا الصِوارَ عليكِ المَنارا
فأمسكَ صَحْبي بأكوارِهِمْ ‏ ‏ ‏ وقد قَصَدَ الضحكُ فيهمْ وجارا

وقد يصحب المتنبي في سفره أناسا لا يرتاح اليهم ، ولم يكن ليرضى بمصاحبتهم لو لم يضطر اليها • قال في مثل ذلك (١) :

ومُدقِعينَ بسُبروتٍ صَحِبتُهُمُ ‏ ‏ ‏ عارين من حُلَلٍ كاسين من دَرَنِ
خُرّابِ باديةٍ غَرثى بطونُهُمُ ‏ ‏ ‏ مَكْنُ الضِبابِ لهم زادٌ بلا ثَمَنِ
يَستخبِرون فلا أُعطيهم خبري ‏ ‏ ‏ وما يطيشُ لهم سهمٌ من الظِنَنِ

فصحبه هؤلاء ، صعاليك كانوا يجلسون ، لفقرهم ، على التراب عارين من الثياب ، مكتسين بما عليهم من أوساخ وأقذار • وهم لصوص جائعون لا زاد لهم الا بيض الضباب يأخذونه بلا ثمن • وقد يسألونه عن خبره ، فيكتم نفسه عنهم خوفا من غدرهم ، وان كان يحس بأنهم ، بالحدس والتخمين ، قد يعرفونه ، لذيوع صيته (٢) •

ان هذا الذى ذكره المتنبي ، في هذه الأبيات ، اما أن يكون صحيحا بحكم تنقلاته الكثيرة في الفلوات مما يجعله يلتقي أناسا كثيرين من مشارب شتى وأمزجة متباينة ، أو أنه تعبير فني عن أثر نفسي يتمثل في غضبه وألمه من الحساد والوشاة الذين تسببوا في رحيله عن بدر بن عمار ، وبخاصة ابن كروس ، فقد قال القصيدة التي منها هذه الأبيات ، على قرب عهد مما ناله منهم ـ على الرغم من أن القصيدة في مدح أبي عبد الله الخصيبي (٣) ـ •

أما عن دور الدليل في رحلة المتنبي ، فقد أعلن المتنبي مرارا بأن ليس به حاجة الى الدليل ، لخبرته الواسعة بالطرق والمسالك ، ومعرفته الوافية بها ، وذاك من خلال ما أخبرنا به في شعره من قطعه الفلوات بمفرده ، معتمدا على قدراته • من ذلك قوله (٤) :

ذراني والفلاةَ بلا دليلٍ ‏ ‏ ‏ ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ
فإني أستريح بذا وهذا ‏ ‏ ‏ وأتعبُ بالإناخةِ والمُقامِ

---

(١)- التبيان ٤ : ٢٦٩/ ٨ـ١٠ مكن : جمع مكنة ، وهو بيض الضب • والضب : دويبة • السبروت : الأرض التي لا نبت فيها •
(٢) ينظر: التبيان ٤/ ٢١٢ والعرف الطيب ١/ ١٧١ •
(٣) وهي قصيدته التي مطلعها :
أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لدى الزمنِ ‏ ‏ ‏ يخلو من الهمِ أخلاهُم من الفطنِ
(٤) التبيان ٤ : ٢٥٣/ ٢ـ٦ ، وينظر ٣ : ٢٢٢/ ٢٢ـ٢٣ و ٣ : ١٩٥/ ٢١ـ٢٢ •

عيون رواحلي إنْ حرتُ عيني — وكلُّ بُغامِ رازحةٍ بُغامي
فقد أَرِدُ المياهَ بغيرِ هادٍ — سوى عَدّي لها برقَ الغَمامِ
يُذِمُّ لمهجتي ربّي وسيفي — إذا احتاج الوحيدُ إلى الذمامِ

فهو هنا يشير الى قدرته على جوب الفلاة بغير دليل ، لخبرته بها ، ولاعتماده على رواحله المدربة الخبيرة ، حتى انه يتمكن من العثور على موارد المياه في تلك الصحارى والقفار ، معتمدا على معرفته هو الخاصة بالأمور الفلكية . أما عند مواجهة الأخطار فلا حامي له ولا نصير الا توكله على الله واعتماده على سيفه .

وعلى الرغم من اعتقادي بصحة ما أشار اليه المتنبي من معرفته الجيدة بالطرق والدروب ، وصدقه في الإعلان عن قيامه بمحاولات فردية لعبورها — وهذا ما وقفتنا عليه أخباره ، وقادتنا الى الانتهاء اليه أشعاره — ، فلست أشك في أنه ، لابدّ ، كان يجهل بعضا منها ، أو في الأقل ، لا يعرفه تماما ، مما يحتاج معه الى دليل . فضلا عن أنه لو كان يرود آفاق الأرض ويتنقل بين جنباتها بمفرده ، في الفترات الأولى من حياته ، فانه لم يكن ليستطيع ذلك فيما بعد ، ويتأتى عدم استطاعته من أنه — كما قالت الروايات[1] — كان يستصحب معه في تنقلاته كل أمواله فضلا عن أسلحته وكتبه ، وما من شك في أن هذا كان يتطلب منه توفير الحماية لها ، فاستعان بغلمان واستخدم عبيدا لهذا الغرض ، ناهيك عما نظنه من وجود خادم أو أكثر يوكل اليه أو اليهم خدمته ، وبخاصة بعد ما تقدمت السن به ، ولم يعد المال يعوزه لتحقيق ذلك . أفليس من المعقول ، والحالة هذه أن تظهر ضرورة الاستعانة بدليل يسهم بخبرته ودرايته في اختيار أكثر الطرق أمنا وملاءمة لهذا الجمع من الناس والأموال والدواب التي تحملها ؟

ثمّ ان ما ورد في الديوان من أن المتنبي بعد خروجه من مصر ((كتب الى عبد العزيز ابن يوسف الخزاعي في بلبيس يطلب منه دليلا فأنفذه اليه))[2] ، لمما يؤكد ما ذهبنا اليه ، فضلا عن أننا لا نستبعد أن يكون مثل هذا الطلب قد تكرر مرة أو مرات .

اذن ، اذا كان المتنبي قد قام ببعض من رحلاته وحيدا منفردا ، فانه قد حقق الأخرى — التي تذهب الى تفوقها الكمي على الأولى — مع رفاق وأصحاب . فلكل رحلة ظروفها الخاصة بها .

(١) ينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ١١٠—١١١ و١٢٥—١٢٦ و١٧٠—١٧٥ .
(٢) الحرف الطيب ٢ / ٥٥٦ .

ان المتنبي في رحلاته كلها ، لم يكن ليتخلى عن شيء يعده أفضل رفاقه وأصدقهم ، وأحيانا ما يكون هو الرفيق الوحيد ، انه سلاحه • فاذا ما قرنا أهمية السلاح لمن يقطعون الأراضي الشاسعة ، ويجوزون المسافات الطويلة ، بكل ما يمكن أن تنطوي عليه من أخطار ومفاجآت ، فلن ننسى ، فضلا عن ذلك ، خصوصية علاقة المتنبي بسلاحه ، وهو الشاعر الفارس الطموح • قال[1] :

ومهمهٍ جُبْتُهُ على قدمي ... تَعجزُ عنه العرامِسُ الذُلُلُ
بصارمي مُرْتَدٍ ، بمَخْبُرَتي ... مُجْتَزِئٌ ، بالظلامِ مشتمِلُ

ان المتنبي — هنا — يبين لنا قوته وشجاعته ورباطة جأشه فضلا عن معرفته الدقيقة بالطرق ، فهو يسير على قدميه في أرض شاسعة صعبة ، تعجز عن اجتيازها الإبل القوية ، متقلدا سيفه الذي يستغني به عن الأصحاب ، مكتفيا بخبرته في الأرض ، فليست به حاجة الى دليل ، متسربلا بالظلام كأنه يلبسه ثوبا •

ومما قاله ، كذلك ، يشير الى صحبته سلاحه في تنقلاته[2] :

سَلي عن سيرتي فرسي وسيفي ... ورمحي والهَمَلَّعَةَ الدِفاقا

بل انه ليذهب الى أبعد من ذلك ، حين يجعل السلاح هو الذي يصحبه • قال[3] :

سيصحبُ النصلُ منّي مثلَ مضرَبِهِ ... وينجلي خَبري عن صِمَّةِ الصِمَمِ

أما عن رفاق المتنبي في رحلة الحرب ، فلعل مما يفي بالإبانة عن القصد ، اكتفاءنا بالقول : ان المتنبي كان يشترك في الحرب بوصفه جنديا في جيش منظم ، وفرت له كل أسباب القتال ، بكل ما يحتمل أن يمر به من ظروف •

---

(١) التبيان ٣ : ٢٠٢ / ٧ — ٨ •

(٢) نفسه ٢ : ١٥١ / ١٠ ، وينظر ٤ : ٢٥٣ / ٢ — ٦ •

(٣) نفسه ٤ : ٢٢٣ / ١٧ يريد المتنبي هنا ، بتشبيهه نفسه بنصل السيف ، الإشارة الى شجاعته وشدة مضائه ، اذا ما قصد الحرب أو خاض قتالا •

ثانيا : العناصر المعنويـــة :

مثلما رسم لنا المتنبي رحلته من خلال عناصر مادية ملموسة ، فقد عمق خطوطها وأثرى ألوانها بعناصر معنوية محسوسة ، زادت من وضوح لوحة الرحلة ومن مدى إحساسنا بها • بل ان العناصر المعنوية بحد ذاتها ، قد رسمت لنا لوحة أخرى للرحلة مكملة للأولـــى (المادية) ومتممة لها ، حتى ان إحداهما لم تكن لتعبر عن كنه ما أراد المتنبي إيصاله الينا وحقيقته ، من دون الثانية • وتشمل العناصر المعنوية هذه :

أـ الفقر والأدب :

قال المتنبي (١) :

لمّا أقمتُ بأنطاكيةَ اختلفـــتْ إليَّ بالخبرِ الركبـانُ في حَلَبــا
فسِرتُ نحوكَ لا ألوي على أحدٍ أحُثُّ راحِلَتَيَّ الفقرَ والأدبـــا
أذاقني زمني بلوىً شَرِقْتُ بهـا لو ذاقها لبكىٰ ما عاشَ وانتَحَبــا

فقد حث المتنبي خطاه ، سائرا نحو ممدوحه لا يعرج على أحد سواه ، محمولا علـى راحلتين : الفقر والأدب •

أما الفقر فهو الذى سعى به الى باب هذا الممدوح طلبا للعطاء • وأرجو ألا أجانب الصواب ان قلت إن فقره لم يكن ماديا فحسب ، انما هو فقر معنوى أيضا ، فلقد كان يحس بالخوف وعدم الاستقرار ، وبالتفوق في الوقت نفسه ، ومن هنا كان شعوره بالغربة • وهـل الغربة الا فقر الاتصال بالآخرين الذين يملؤون الدنيا من حوله • ؟ فهو اذن يحـاول الاتصال بالآخرين عسى أن يثرى ماديا ، فيتمكن من تحقيق شيء من مطامحه ، وفي الوقـت عينه يسعى الى كسب أنصار ومؤيدين ، لعله يستطيع بهم الخروج ، ولو قليلا ، من غربتـه أولا ، وليخلص له منهم مساعدون ومرافقون في رحلة الأمل والطموح ثانيا •

وأما الأدب فقد كان وسيلة في قصد ممدوحه ، اذ أنه بامتلاكه ناصيته وتفوقه فيــه يتحقق له الوصول الى الآخرين الذين يرغبون في المديح • ولعله أحس برغبة الآخريـــن هذه ، وبخاصة أولي السلطان والنفوذ منهم في مدحه اياهم ، فأراد أن يفيد من وراء ذلك ما وسعه الجهد والوقت ، فيحاول أن يحصل منهم على الأموال أولا ، والتأييد فيما ينـوى القيام به ثانيا ، وربما تمكن من استثارتهم ودفعهم الى ما كان يتمنى أن يقوموا هم به ثالثا • ولعل نظرة الى الأفعال التي استخدمها في هذا البيت ، وهي (سرت) • (لا ألوى) ، (أحث) تؤكد ذلك •

---

(١) التبيان ١ : ٢٢/٣٣ـ٣٥ •

وهل تدل هذه الأفعال الثلاثة التي جاءت مجتمعة في بيت واحد ، فضلا عن ذكر الراحلتين: الفقر والأدب معها ، الا على السير الدائب نحو غاية مقصودة لن يخرج عنها ؟ ولا أشك في أن المتنبي كان يعاني ألما ممضا ، لأن الحاجة دفعت به الى قصد الآخرين الذين لم يكن يحترم كثيرا منهم ، ناهيك عن اضطراره الى التوسل بفنه الذى يعتز به ويفخر، ليتقرب منهم مداجيا ومصانعا .

لقد كان الفقر والأدب ـ بكل معانيهما ودلالاتهما في نفس المتنبي وفكره ـ ((من ممتلكاته التي تلازمه طوال رحلة الحياة ، وقد شبههما بالراحلتين لتصوير هذه الملازمة التي لا فكاك له عنها))(١) .

ب ـ الناس :

لقد تمنى المتنبي لو أنه يستطيع ركوب الناس بعرانا الى ممدوحه . قال(٢) :

لو استطعتُ رَكِبتُ الناسَ كلَّهُمُ   إلى سعيدِ بنِ عبدِ اللّهِ بُعرانا
فالعيسُ أعقلُ من قومٍ رأيتُهُمُ   عمّا يراه من الإحسانِ عُميانا

أحسب أن معنى هذه الأمنية التي أعلن عنها المتنبي ههنا ، أكبر من مجرد اتخاذ الناس بهيئاتهم الجسدية ـ المادية ركائب ، فضلا عن أن ليس لممدوحه الذى قال هذين البيتين في معرض مدحه اياه ، خصوصية وتميز تدفعانه الى الانتقاص من الناس بازائه ، حتى ان مدحه بالكرم والاحسان والشجاعة وغيرها من الصفات المحبوبة . انما المتنبي هنا ، فغضب من الناس وعليهم ، فما يراهم عليه من تشتت في القوى ، وفتور في العزيمة ، وحرص على المال وصل بهم الى حد البخل ، وخوف من العواقب جعل أشجعهم جبانا ، كل ذلك أثاره مغضبا ومتألما . فحالهم هذه لا تبعد بهم عن أن يكونوا حيوانات لا تعقل ، بل لعلهم أقل من ذلك .

لقد غدا هؤلاء الناس مطايا لكل راغب في التسلط والنفوذ ، فهم بخنوعهم واستسلامهم فسحوا المجال للغرباء والطامعين في أن يلوا أمورهم ، ويتحكموا في شؤونهم ، مسيريها على هواهم ، دون خوف منهم أو مبالاة بهم ، فلقد أرخوا زمام أنفسهم لكل من هب ودب . ولربما كان انتقاص المتنبي هذا منهم بمثل هذه الأمنية ، محاولة منه لإثارة انتباههم الى ماهم عليه من واقع مزر ، فينتفضون رافضين مغيّرين .

---

(١) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٣٥ .
(٢) التبيان ٤ : ٢٧٠ /١٦ـ١٧ .

جـ ـ الخطـــوب :

مرّ المتنبي بأحداث وظروف أقضت مضجعه وأتعبته جسدا ونفسا وفكرا ، فما برح يشكو من الدهر ونوائبه وأحداثه ، فضلا عن أهله • حتى اذا ما استمرأت خطوب الأيام ونوائبهـــا ملاحقته ، قال(١) :

عُرِفتْ نوائبَ الحَدَثانِ حتـــى	لو انتسبتْ لكنتُ لها نقيبـــا
ولمّا قلّتِ الإبلُ امتطينـــا	الى ابنِ أبي سليمانَ الخُطوبـا
مطايا لا تَذِلُّ لمن عليهـــا	ولا يبغي لها أحدٌ ركوبـــا
وتَرْتَعُ دون نبتِ الأرضِ فينـا	فما فارَقْتُها إلاّ جَديبـــا

فلكثرة ما أصابه من خطوب الدهر ومصائبه ، صار عارفا بها كل المعرفة ، حتى لو أن لها نسبا لكان هو نقيبها ومنتهى نسبها • واذ فعلت به ما فعلت ، توسل بما لحقه منها من أضرار ونكبات ، بوصفها مطايا الى هذا الممدوح ، عسى أن يجد عنده الحماية منهـــا والعون عليها • ولكنها لم تكن ككل المطايا التي تعامل معها • انها صعبة ، شرســـة جامحة ، لا تذل لأحد ، ولا تنقاد لراكبها ، بل تؤذيه ، تأكل من أعصابه وروحه ، تتعب جسده ، فلا تفارقه الا وقد جدب كيانه •

واستنادا الى هذا أرى أن المعنى الذى قصد اليه المتنبي من إعلانه عن اتخـــاذه الخطوب مطايا الى الممدوح أعمق وأكبر مما ذهب اليه الدكتور عبد الوهاب عزام من أن هذا مما ينبئ عن أن المتنبي كان عاجزا عن راحلة يركبها الى الممدوحين(٢) •

د ـ الحديـــث :

جعل المتنبي من طيب ذكر الممدوح ، راحلة تحمله اليه • قال(٣) :

وأسرجت الكميت فناقَلَتْ بـــي	علىَ إعقاقها وعلى غِشـــاشي
من المتمرّداتِ تُذَبُّ عنهـــا	بِرُمحي كلُّ طائرةِ الرَّشـــاشِ
ولو عُقِرتْ لبلّغني إليـــه	حديثٌ عنه يحمِلُ كلَّ ماشـــي

ان المتنبي هنا ، يصور شـــدة رغبته في الإسراع في الوصول الى الممدوح ، حتى إنه اذا ما فقد فرسه القوية السريعة الصبور ، التي يحبها وينافح عنها ، لن يعدم الوسيلة التي

(١) التبيان ١ : ٢٨ / ١٨ــ٢١ •
(٢) ينظر: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٦٩ •
(٣) التبيان ٢ : ١٣٣ / ٣٠ــ٣٢ •

يصل بوساطتها اليه • وهي ــ هنا ــ ما سمعه من حديث طيب عن كرم هذا الممدوح وفضله • هذا الحديث الذى سيدفعه الى مواصلة رحلته اليه ، فلا يشعر بما يقطعه من مسافات ، ولا يأبه بما يمكن أن يعرض له من مخاطر ومشكلات في طريقه اليه ، فكأن ذلك الحديث يحمله •

هـ ــ العـــزم :

ومما جعله المتنبي راحلة له ، العزم • قال (1) :

سُلكتُ صروفَ الدهرِ حتىٰ لَقيتُــهُ ... علىٰ ظهرِ عَزْمٍ مُؤَيّـداتٍ قوائِمُهْ

فجعل العزم مركوبه ، لأنه به عبر الحوادث واجتاز الخطوب ، ولم يكن المتنبي ليغفل عن الإشارة الى قوة عزمه هذا وشدته ،فاستعار له القوائم المؤيدات القوية ، فضلا عن الظهر • وما كل ذلك إلاّ لأن صروف الدهر هذه ، التي اجتازها المتنبي لم تكن الا :

مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ... ولا حملت فيها الغراب قوادمه (2) •

ان ما مر بنا آنفا من عناصر معنوية ، تمثل ما اتخذه المتنبي منها رواحل توسل بها في رحلاته • أما ما ذكره منها ، بوصفها طرقا وما يعترضه فيها ، فهي :

و ــ صروف الدهر :

سلك المتنبي صروف الدهر وحوادثه ، طرقا للوصول الى ممدوحه • قال (3) :

سلَكتُ صروفَ الدهرِ حتىٰ لَقيتُـهُ ... على ظهرِ عَزْمٍ مُؤَيَّداتٍ قوائِمُــهْ
مهالكَ لم تَصْحَبْ بها الذئبَ نفسُهُ ... ولا حَملتْ فيها الغرابَ قوادِمُهْ

إن المتنبي هنا يعيد ذكر ما رمته به الأيام من مصائب وخطوب ، ولكن بصيغة أخرى ، فهي هنا طرق سلكها ودروب اجتازها ــ وليست رواحل ــ حتى يصل الى ممدوحه ، اذ يجعل مما مر به من أهوال ونوائب ، قبل لقائه هذا الممدوح ، بمثابة المسافة التي يقطعها المسافر المتنقل، مستفيدا في التعبير عن ذلك ،من توظيف بعض من الظواهر الطبيعية ــ المادية ، فيشير الى أن صروف الدهر ومسافات الخطوب التي اجتازها ((لو كانت مفاوز من الأرض لهلك فيها الذئب جوعا ولو سلكها الغراب لم يستطع قطعها لطولها • وخص هذين

(1) التبيان ٣ : ٣٢/٢١٨ •
(2) نفسه ٣ : ٣٣/٢١٨ •
(3) نفسه ٣ : ٣٢ــ٣٣/٢١٨ •

لأن الذئب من أصبر الحيوان على الجوع والغراب من أسرع الطير))[(١)] •

وتذهب سعاد المانع الى احتمال أن المتنبي ، بربطه بين الذئب والغراب ، ههنا ، بما يتصف به الغراب من شؤم ، وبما يحمله الذئب من سمة التشرد واللؤم ((لا يريد مجرد الاشارة الى شجاعته واقتحامه المهالك التي يعجز عن الوصول اليها الذئب والغراب • ولكنه يريد الايحاء أيضا الى امتيازه على الآخرين أو انتصاره على عناصر الشر))[(٢)] • فهو ، اذن ، يتحمل من صروف الدهر وأهواله ـ مما يمكن أن يعرضه بعضها الى الهلاك ـ ما يعجز غيره عن تحمله، وسيلته في ذلك عزم قوى ، وسلاحه فيه بأس شديد • ليصل الى ما يبتغيه ، وهو الاتصال بهذا الممدوح •

ز ـ الناس والدنيا :

ذكرنا من قبل ، أن المتنبي تمنى ركوب الناس ليصل الى ممدوحه • وها نحن نراه هنا ، يجعل من الناس والدنيا طريقا يعبره الى ممدوحه • قال[(٣)] :

فقلتُ إذا رأيتُ أبا شجاعٍ	سلوتُ عن العِبادِ وذا المكانِ
فإن الناسَ والدنيا طريقٌ	إلى من ماله في الناسِ ثاني

فاذا ما علمنا أن قوله هذا ، جاء بعد وصفه شعب بوان ، وفي معرض إجابته حصانه الذى استنكر الخروج من هذا المكان الجميل الى حيث الضرب والطعان[(٤)] ، أدركنا أن مراده بجعله الناس طريقا ، أنهم ((يتركون في القصد الى هذا الممدوح))[(٥)] ، سواء في ذلك الخاصة منهم ، من الممدوحين والسراة ، فانهم لا يبلغون شأوه في حسن صفاته ونبلها حتى غدا نسيج وحده • والعامة منهم ، من الخانعين الراضخين •

أما مراده بجعله الدنيا طريقا الى هذا الممدوح ، فان سياق القصيدة التي جاء فيها هذا البيت ، يوحي بأنه أراد بالدنيا ، كل ما فيها مما يمكن أن يعوقه عن ممدوحه هذا ، من جمال وهدوء واستقرار ، فما عند الممدوح ، أو ما يمكن أن يجده عنده مما يريد ، مايغنيه عنها •

---

(١) العرف الطيب ٢/٢٦٦ •
(٢) سيفيات المتنبي ١٢٣ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٧٨/١٩ـ٢٠ •
(٤) ينظر: التبيان ٤ : ٢٧٨/ ١ ـ ١٨ •
(٥) نفسه ٤/٢٥٦ •

واننا لنرى أن المتنبي ، هنا ، كان أخف وطأة وأقل شدة في انتقاصه الناس، عنه عما قاله فيهم من قبل ، وبخاصة حين تمناهم موكوسات • ولعل هذا يعود الى تقدمه في السن بما يعنيه ذلك من فهم أكبر وإدراك أعمق لظروف العصر والناس، فضلا عما يمكن أن يكون قد بدأ يصيبه من فتور في الحماس، وتعب في الجسد نتيجة هذا التقدم •

وقد يرجع هذا أيضا ، الى عموم لفظة الناس، ههنا ، اذ تشمل السراة والحكام ، فضلا عن العامة ، ولا شك أن بينهم ، من يحبهم المتنبي ويحترمهم ، فلم يشأ أن يكون شديد الوطأة عليهم ، وان كنا نرى أنه كان بوسعه أن يجنب نفسه مثل هذا الإحراج • ولكنه — لا شك — كان يقصد من وراء ذلك الى أمر ما ، قد يكون التنفيس عن شيء في نفسه لم يتمكن من كبح جماحه في الظهور • أو يكون ذلك منه ، على سبيل المبالغة ؛ للتقرب من الممدوح عسى أن يحقق غاية يصبو الى الوصول اليها عن طريقه • واذ لم يستطع الا أن يقول مثل ذلك ، حاول أن يحده بسياج من الهدوء والحذر •

ح — يد الزمان :

كانت يد الزمان ، بما تعنيه من أحداث وحوادث فضلا عن النكبات والمصائب ، تمنع المتنبي من الرحيل الى ممدوحه ، وتحول بينه وبينه ، لكن المتنبي بما لجأ اليه من سرعة وحزم تمكن من أن يقطع دابر هذه المحاولة ، برحيله الى ممدوحه في غفلة من الزمن ، وعلى جناح السرعة • قال في ذلك ، متحدثا عن ناقته (١) :

بَدَرَتْ إليكَ يدَ الزمانِ كأنما — وَجَدَتْهُ مشغولَ اليدين مُفَكِّرا

أي أنه انتهز أول فرصة سنحت له للذهاب الى هذا الممدوح ، خشية أن يحدث مايعوقه عن ذلك • اذ ليس ما في الغيب مما سيأتي بمعلوم • فضلا عن أن لسعي المتنبي في تحقيق آماله ومطامحه التي لا تحقق الا بوساطة الآخرين وعونهم ، خصوصيته المهمة وأثره البارز في تحينه الفرصة المناسبة للرحيل ، ثمّ المضي فيه •

ط — الإحسان والهيبة :

قال المتنبي ، يذكر ما رآه أو وقع عليه ، في بعض من طرقه الى أحد ممدوحيه (٢) :

---

(١) التبيان ٢ : ١٢٤/٣٨ بدرت : أي سبقت ، من المبادرة •
(٢) نفسه ٣ : ٢٠٩/ ١٦—١٨ •

حتىٰ أبو الفضلِ بن عبد اللّـه رُؤْ　　يَتُهُ المنىٰ وَهْيَ المَقامُ الهائـلُ
ممطورةٌ طُرُقي إليها دونَهـا　　من جودِهِ في كلِّ فَجٍّ وابـلُ
محجوبةٌ بسُرادِقٍ من هيبـةٍ　　تَثْني الأزِمَّةَ والمَطِيُّ ذوامِـلُ

يقول المتنبي ، إن طرقه الى ممدوحه هذا ، ممطورة بكرمه ((يعني أن احسانه وصل اليه قبل وصوله الى داره ودون الوصول الى روءيته ••• وابل من جوده قد ملأ كـل فج))[١] • فالناس ((يصلون الى احسانه قبل الوصول اليه))[٢] • ثمّ يشير الىٰ أن ما عليه ممدوحه من هيبة يجعل الناس يترددون في مواجهته ، وان كانوا قد ذهبوا اليه مسرعين متلهفين ، ((حتى لو أن مطيا أسرعت في مسيرها واعترضتها هذه الهيبة لارتدت عن مسيرها وهابت الاقدام))[٣] •

وكان الواحدى ، قد أشار الى ذلك من قبل حين قال ((أى الطرق اليه محجوبـة ، والبيت يدل على أنه يتعذر الوصول اليه لهيبته ، وأن هيبته ترد عنه المطي الذوامـل اليه))[٤] • وان كنت لا أتفق مع الواحدى في ما ذهب اليه من أن قول المتنبي هـذا ((الى الهجاء أقرب منه الى المدح))[٥] ، اذ أن الهيبة ليست مما يشين المرء أو يقدح به ، حتى قيل فيها ، انها ترد الناس عن صاحبها ، بخاصة أن ممدوح المتنبي ، هنا ، قاض ــ هو أبو الفضل الأنطاكي ــ فهل أولى من الهيبة ، صفة لقاض ، له سلطان على النـاس وحكم ؟

ي ــ الاستهانة بالمخاطـر :

ان ما يتصف به ممدوح المتنبي من رفيع الأخلاق وكريم السجايا لمما يوءمن المتنبي في طريقه راحلا اليه ، ويبعث في نفسه الطمأنينة ، حتى إنه لا يخشى في قصده اياه أى خطر قد يجبهه أو يواجهه • فما امتلأت به قلوب الناس نحو هذا الممدوح ــ بسبب من صفاته الحسنة ــ من حب أو احترام أو خوف كفيلة بمنعهم من اعتراض طريق من يقصده • يقـول المتنبي عن مسيره الى سيف الدولة[٦] :

ولو سِرْنا إليه في طريـقٍ　　من النيران لم نَخَفِ احتِراقـا

أى ((نحن آمنون بقصده من الحوادى حتى لو سلكنا اليه في طريق من النيـران

(١) العرف الطيب ١٨٢/١ •
(٢) التبيان ٢٥٤/٣ •
(٣) العرف الطيب ١٨٢/١ •
(٤) التبيان ٢٥٥/٣ • (٥) نفسه ، المكان نفسه • (٦) نفسه ٢ : ١٥١/١٦

ماجسرت على احـراقنا)) • (١)

والشيء نفسه نلمحه في قوله عن مسيره الى ابن العميد (٢) :

ومَن يصحبِ اسمَ ابنِ العميدِ مُحمدٍ ... يَسِرْ بين أنيابِ الأساودِ والأُسْدِ
يُمُرُّ من السُّمِّ الوَحِيِّ بحاجـزٍ ... ويَعْبُرُ من أفواهِهِنَّ علـى دُرْدِ

فمن يسر الى ابن العميد ، ذاكرا اسمه بمعنى أنه يعلن قصده اياه وانتسابه اليه ، في خدمة أو زيارة أو مدح ، فلن يعترض أحد طريقه بسوء أو شر ، فيأمن • ويذهب المتنبي الى تجسيد هذا الأمان ، فيصوره في أن من يقصد ابن العميد لو سار بين أنياب الأسود والأفاعي ، لعجز سم الأفاعي عن التأثير فيه وإيذائه ، ولمر علـى أفواه الأسود من غير أن تضره فكأنها بلا أنياب • وأتى هنا بالأساود والأسد لانهما مثل لمن تخشى غائلته (٣) •

ك ــ رفاق الرحلة (معاني) :

كما صحب المتنبي في رحلاته ، رفاقا من الناس والحيوانات والأسلحة ، فقد صحب كذلك ، رفاقا من الأحاسيس النفسية والصفات المعنوية • منذلك قوله (٤) :

وما زِلتُ حتى قادني الشوقُ نحوَهُ ... يُسايرني في كلِّ ركبٍ له ذِكْـرُ
وأستكبِرُ الأخبارَ قبل لقائـهِ ... فلما التقينا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْـرُ

لم يزل المتنبي يسمع ذكر محامد هذا الممدوح ، حتى كأن هذا الذكر قد غـدا ــ لكثرة تردده على مسمعي المتنبي ــ رفيقا له وصاحبا في كل أسفاره وتنقلاته ، مما خلـق الرغبة لديه لقصد ذلك الرجل • فاذا ما سار اليه ، واتصل به ، تأكد له أن ما سمعه عنه وعده مبالغة ، لم يكن صدقا فحسب ، وانما هو أقل مما يفي هذا الممدوح حقه •

ومن رفاقه في رحلاته كذلك ، الأسى • قال (٥) يصف بعض ما خلّفه في نفسه رحيل أحبابـه عنه من حزن وألم :

لم يتركوا لي صاحبا إلاّ الأسـى ... وذميلَ دِعْبِلَةٍ كفَحْلِ نَعـامِ

فلم يبق له من صاحب ، بعد رحيل أحبابه ، الاّ الأسى والترحل ــ الذى كنى عنه بعدو ناقة تشبه في شدة سرعتها فحل النعام ــ • ان انتفاء الرابط الذى كان يشده الى هـذه الديار ، جعله يركب ناقته ، مرخيا زمامها ، تاركا اياها تطلق أرجلها للريح ، ليهيم علـى وجهه في الفلوات ، ولا من رفيق معه الا الحزن والألم •

---

(١) العرف الطيب ٢/٢٩٨ •
(٢) التبيان ٢ : ٩/٨٩ ١٤ـ١٥ الأساود : الأفاعي • الوحي : السريع •
(٣) ينظر: التبيان ٦٣/٢ والعرف الطيب ٥٨٠/٢ •
(٤) التبيان ٢ : ١٢٣/ ٢٦ ـ ٢٧ • (٥) نفسه ٤ : ٢٢٩/ ١١ •

ومن رفاقه أيضا ، اسم ممدوحه . قال[1] :

ومَن يصحبِ اسمَ ابنِ العميدِ مُحَمَّدٍ يَسِرْ بين أنيابِ الأساودِ والأُسْدِ ...

فهو هنا يستصحب اسم ممدوحه . ولعله يقصد بالاسم الإعلان عن قصده اياه وتوجهه اليه ، فيأمن مخاطر الطريق . فما يحمله اسم هذا الممدوح من هيبة أو احترام في نفوس الناس ، يصد عنه من يمكن أن يعترض طريقه اليه . وربما كانت صحبة اسم الممدوح تعني أنه — أي المتنبي — كان يتغنى بهذا الاسم ويترنم ، في أثناء مسيره اليه ، معللا نفسه ومؤنسها بما قد تصيبه من خير عند هذا الممدوح ، فيهون عليها ذلك من تعب السير ومشقة السفر .

واذ نشير الى رفاق الرحلة ، فلابدّ لنا من ذكر الدليل فيها . ودليل ركب المتنبي هنا ، هو رياح المسك التي تهب من قبل الممدوح . قال في ذلك ، متحدثا عن ابله[2] :

فما زالت تَرَى والليـــلُ داجٍ لسيفِ الدولةِ الملكِ ائتِلاقا
أَدِلَّتُها رياحُ المسكِ منـــهُ إذا فَتَحتْ مناخِرَها انتِشاقا

ان رياح المسك التي شمتها الابل ، فاهتدت الى الممدوح ، ما هي الا طيب ذكره وحسن أخباره ، ((فعبر عن المعنوى بالحسي مبالغة في ظهوره حتى أدركته النياق فاهتدت به اليه))[3] . وما من شك في أن المتنبي لم يعن إبله بذلك بل عنى نفسه . فلم يقل قصدت سيف الدولة لما سمعته عنه فأعجبني ، وانما قال : دل إبلي على طريق سيف الدولة ما شمته من رياح المسك التي تتضوع منه .

ونرى أن التفسير نفسه ، ينطبق على البيت الأول من هذين البيتين الآنفي الذكر ، فان كان المتنبي ، في البيت الثاني ، قد حدد الأدلة برياح المسك ، فان الدليل ، في البيت الأول ، هو ائتلاق سيف الدولة في ذلك الليل الداجي . ولعله أراد بهذا الائتلاق في هذا الليل المظلم ، مجد سيف الدولة وانتصاراته في ذلك الخضم من الانكسارات والهزائم ، المادية والنفسية ، الذى كان المجتمع العربي — الاسلامي يخوض فيه .

ومثل هذا المعنى — وان اختلف معه في خصوصية الممدوح — ما قاله المتنبي كذلك ، في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي[4] :

---

(١) التبيان ٢ : ٨٩/١٤ .
(٢) نفسه ٢ : ١٥١/١٢—١٣ .
(٣) العرف الطيب ٢ / ٢٩٨ .
(٤) التبيان ٢ : ١٥٦/٧—٨ .

وليل دجوجي كأنّا جلَتْ لنـــا   مُحَيّاك فيه فاهتدينا السمالِقُ
فما زال لولا نورُ وجهِكَ جُنْحُـــهُ   ولا جابَها الركبانُ لولا الأيانِـــق

فلم يكن ركب المتنبي ليهتدى الى طريق الممدوح ، لو لم تجل لهم الأراضي والفلوات التي كانوا يجتابونها ، غرة وجهه وضوءه ، فساروا اليه فيهداه وبدليل منه • وما أرى نور وجه الممدوح ههنا ، الا صفاته الطيبة ــ أيضا ــ ، ولا الليل الدجوجي الا سوء أحوال الناس من حوله •

ويبدو أن المتنبي أراد فيهذا الجزء من القصيدة ، التي أتى فيها هذاانالبيتان ــ وهو مقدمتها ، وكما يؤكد لنا ذلك ، السياق ــ القول ، انه كان يقطع الفلوات ، ويمـــر بالناس ، على غير هدى ، حتى دلته صفات هذا الممدوح الطيبة ــ بما سمعه عنه ــ اليه ، فقصده •

أما العناصر المعنوية فيرحلة الحرب ، فان قراءة لقصائد المتنبي الحربية في المعارك التي اشترك فيها ، ستقفنا على مارسمه المتنبي منهذه العناصر ، أو أعلن عنه منها ، بوصفه جنديا في جيش ، لا يعبر عن مشاعره وأفكاره وصفاته هو فحسب ، وانما يشير الى ما يحس به أفراد الجيش كلهم ويفكرون فيه ويتصفون به ، بوصفهم كلا واحدا ــ فضلا عما قد يحصل من اختلاف ــ ، حتى غدت هذه العناصر من لوازم رحلة الحرب •

واذ ننتهي من هذا الفصل ، ينبغي لنا أن نشير الى أن المتنبي قد أورد ذكـــر بعض من عناصر رحلته ، بما يمكن فيه تأويلها ماديا ومعنويا فيالوقت نفسه • منذلك ، قوله يذكر طيب مقامه وهناءة نفسه عند ابن الحميد (١) :

أنا من جميعِ الناسِ أطيبُ منـــزلا   وأَسَرُّ راحِلـةً وأربحُ متجـرا

فطيب المنزل ، وسرور الراحلة ، وربح المتجر ، مما يمكن لنا أن نشرحه بقضايـــا معنوية ، كما نفسره تفسيرا ماديا • وفي ما ذكرنا غناء عما لم نذكر •

---

(١) التبيان ٢ : ١٢٤/٤٦ •

اَلفَصلُ الثَّالِث

اَبعَادُ الرِّحلَةِ

الفصـــل الثالـــث

أبعـــاد الرحلـــة

لا بدّ لنا في مستهل هذا الفصل ، من الإشارة الى اننا نعني بالبعد ،في موضوع الرحلة، الإطـــار الـــذي احتوى الرحلة ، فكانت محدودة به ، والعمق الذى امتلكته ، مستندة اليه في توضيح صورتها وإبراز خطوطها •

واستنادا الى منهجنا ، هذا الذى نسير بمقتضاه في هذا البحث ، نرى أن هنـاك بعدين مهمين وأساسيين جدا صورة رحلة المتنبي وطبيعتها ، هما : البعد الزماني والبعد المكاني[١] • ويعود ذلك الى طبيعة رحلة المتنبي بخاصة ، وطبيعة كل رحلة بعامة ، اذ تحدث متواشجة بالزمان والمكان تواشجا عضويا ، لا فكاك لها عنهما البتة •

ولقد قال الدارسون والباحثون ، من فلاسفة وفيزياويين ، الكثير حول موضوعـــة الإحساس بالزمان والمكان ، وتفسيرهما من حيث الشعور الذاتي ـ الخاص بهما ووجودهما الطبيعي • فذهبت مجموعة منهم الى أن الزمان والمكان مجردان من المحتوى الموضوعي ، فهما لا يوجدان موضوعيا وانما هما مقولتان ذاتيتان ، بمعنى أنهما شكلان ســـابقان (خارج نطاق التجربة) لتأملنا ، مشروطان بطبيعة وعينا ، انهما حدس خالص ، مجرد صورة للفهم الانساني ، وليسا غير جملة من الإحساسات التي نظمها البشر •

وذهبت مجموعة أخرى الى أن للزمان والمكان وجودا مستقلا عن المادة ولكنـــه موضوعي ، فهما مطلقان ، ولا يتبدلان البتة • وقالوا ان الزمان والفضاء حقيقتان ، وليسا فعل الذهن ، انهما مظهران للوجود القائم بذاته الأزلي الأبدى[٢] •

فالزمان قد ميز فيه زمان طبيعي وهو الوقت ، وزمان نفسي وهو خصوصيـــة إحساس الشخص المعين بالزمان الطبيعي أو الوقت ، بحسب حالته النفسية أو الشعورية • كما ميز في المكان بين المكان الطبيعي وهو البقعة أو المساحة من الأرض بما تمتد فيه من طول وعرض وعمق ، والمكان النفسي وهو الإحساس الذاتي ـ الخاص بالمكان الطبيعي ، رغبة فيه أو عنه ، حبا له وارتباطا به أو كرها له وافتراقا عنه[٣] •

---

(١) ان طبيعة هذا البحث هي التي دفعتنا الى التركيز على هذين البعدين هـهنا • وما يمكن أن يقال عن إمكان وجود أبعاد أخرى مثل البعد النفسي والفكرى ، فقد تضمنتهما معالجاتنا التي شملت مفردات الفصول •

(٢) ينظر: الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم د • حسام الآلوسي ٥٢ـ٥٣ (وفيه كذلك إشارات الى بعض ما قيل في علاقة الزمان بالمكان وبالعكس)، وفي النفس والجسد د • محمود فهمي زيدان ٦٧، والزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام، عبد الاله الصائغ ٢٦٦ـ٢٦٩ و ٢٧٠ـ٢٧٥ •

(٣) ينظر: الزمان الوجودى د • عبد الرحمن بدوى ١٢٥ والتفسير النفسي للأدب ٦٦ـ ٦٧ •

أولا : البعد الزماني :

لا شك في أن الانسان مذ وجد نفسه على سطح هذه الأرض، وبدأ ينتبه الى ماحوله من ظروف طبيعية، شغله التفكير بهذا الذي يمر به وعليه من ليل ونهار ، وما يمكن أن يكونا عليه من طول وقصر ،أو ما يكتنفهما من مظاهر طبيعية تفرض عليه الالتزام بسلوك معين يتناسب وما جعل يشعر به ازاءهما من تغير مستمر ومنظم ومتعاقب يراه ويعايشه •ولعله فكر في علاقة السماء والأرض بكل هذا ، فضلا عما يكون قد شعر به من أثر ذلك في حياته هو ، من حيث بقاؤه وفناؤه ، فكان الزمان ((هو ((المقياس)) الذى ابتدعه •••في تصور هندسي لمتغيرات حياته •••وهو العلاقة الرياضية التي استنبطها من واقع ما يحوطه في عالم الأرض وعالم السماء • فالزمن ، هو الأيام في تتابعها ••••وهو الدنيا في شموليتها للكون والطبيعة والانسان وكل الكائنات• سواء ما عرفه بحواسه وبخبرته العلمية التطبيقية ، أو ادراكه بفكره وعرف علله المنطقية، أم تصوره بخياله أو باطن وجوده بمشاعره ••• ومن ملاحظات التغيرات المتكررة والمنتظمة في السماء ذات البروج ، والتغيرات الحادثة في الطبيعة المتزامنة مع هذه التغيرات أوجد الانسان علاقة بين عالم السماء بأجرامه وسحبه وأمطاره ، وعالم الأرض بنمائه ، وبين حياته هو من ميلاد وموت))(١).

وهكذا ارتبط الزمان — منذ بدأ الانسان يفكر فيه حتى يومنا هذا — بالحركة والتغير • فالحركة زمان ، والزمان حركة • أى أن كلا منهما ينبع من الآخر •(٢) ((فالتغير والزمان قد أصبحا يعنيان الواقع بمعناه الحقيقي))(٣).

وذهب الوجوديون ، كذلك الى أن وجود الذات وتحقيقها لا يمكن أن يتم ، الا اذا مارست الذات حقها في الحركة والاختيار • سواء أنجحت في ذلك أم لم تنجح • فالمهم أن تحاول، فان هناك ((وجودين : وجودا للذات على هيئة امكان • ووجودا لها على هيئة واقع • ويتم الانتقال من الإمكان الى الواقع بفضل الحرية • فبواسطة الحرية التي للذات الممكنة تختار الذات بعضا من أوجه الممكن وتحققه عن طريق الارادة وهذا التحقيق

---

(١) مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية دراسة أنثولوجية صفوت كمال ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن — العدد الثاني ١٩٧٧ ص٥١٦ •

(٢) ينظر: الزمن البيولوجي، د •عبد المحسن صالح ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن — العدد الثاني ١٩٧٧ ص ٣٢٣ •

(٣) الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ١٥٧ وينظر: مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية ص ٥١٦ •

العيلي يتم في العالم ، ويسمى حينئذ بالآنية))[(١)] •

ومما تنبغي الإشارة اليه ههنا ــ فضلا عما مر ــ ، مسألة تقسيم الزمان الى آنـات تكوّنه ، هي : الماضي والحاضر والمستقبل • اذ ذهبت مجموعة من الباحثين الى الإقرار بتألف الزمان من آنات ، في حين ذهبت مجموعة أخرى الى رفض هذا التقسيم ، مدعية أن الزمان شيء متصل لا يتألف من آنات اطلاقا •وذهبت مجموعة ثالثة الى القول بأن الآنات ليست مكونـات الزمان ، بل عناصر يمكن تحليله اليها على الرغم من عدم كونها من مكوناته[(٢)] •

واذ ننتقل الى الكلام على رحلة المتنبي وفق البعد الزماني ــ بعد أن مهدنـا له بما له علاقة به ــ نرى أن نعرض لذلك على مبحثين هما : **الزمان الوقتي والزمان النفسي** •

١ • الزمان ــ الوقــت :

ان وقت الرحيل ، أمر لا يكاد شاعر رحالة جوّاب يغفل عن ذكره أو يتهاون في الإشـارة اليه • اذ ((يتخير الشعراء أوقاتا تليق بالفتيان فاذا هم يخشون الليل على خشونتــه ومخاطره ، والهاجرة على قسوتها))[(٣)] والمتنبي من هؤلاء الشعراء • قال[(٤)] ، مشيرا الـى اختلاف أوقات رحيله :

وقطعتُ في الدنيا الفلا وركائبي ... فيها ووقتيَّ الضحىْ والمَوْهِنـا

ومنه أيضا قوله[(٥)] :

فالحمدُ قبلُ له والحمدُ بعدُ لها ... وللقنا ولإدلاجي وتأويبــي

ومما قاله يخصص به رحلاته ليلا[(٦)] :

وأسري في ظلام الليل وحـــدي ... كأني منه في قمرٍ منيـــر

---

(١) الزمان الوجودي ٤٤ •
ولعل هذه المقولة تصح في المتنبي لما نراه من أنه لم يكن في رحلاته الا ساعيا في سبيل تحقيق ذاته وإثراء معنى وجوده ، ألم يرد من زمنه ، هـذا الذي يسير المتنبــي متسربلا به حسا وشعورا ،أن يبلغه الأماني البعيدة • اذ قال :
أريدُ من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليس يبلغه في نفسه الزمنُ (التبيان ٤ : ٢/٢٧٣)
فقد كان يبتغي ما جل أن يسمى ــ حسب تعبيره ــ •

(٢) ينظر: الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ٥٤ والزمان الوجودي ٢٥٥ ــ ٢٦١ .ومن الطبيعي أن لكل مجموعة من هذه المجموعات أدلتها وحججها في إثبات ما تذهب اليه •
ومما يجدر ذكره ان الفكر الاسلامي يذهب الى رؤية الزمان بوصفه آنات وأوقاتا ، وهـذه الرؤية للزمان لها خصوصيتها النابعة من خصوصية النظرة الدينية الاسلامية للزمان بوصفه يطلعنا على أمر الله وقضائه • (ينظر: الزمان في الفكر الاسلامي ، لويس ماسينيون ، مجلة الآداب البيروتية، السنة الأولى ، العدد الثامن ، ١٩٥٣ ص ٩ ــ ١٢) •

(٣) الرحلة في القصيدة الجاهلية ٨٧، وينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ٤٥ ــ ٤٦ •

(٤) التبيان ٤ : ٧/٢٦٧ ، **الموهن** : القطعة من الليل وهو نحو نصفه •

(٥) نفسه ١ : ٤٣/٣٤ الإدلاج : سير أول الليل • التأويب : سير النهار •

(٦) نفسه ٢ : ٦/١١٦، وينظر ١ : ١٠/٣٥ و ٣ : ٨/١٩٧ و ٣ : ٧/٢٠٢ ــ ٨ •

بل انه ليقول (١) :

وكنتُ إذا يمَّمتُ أرضا بعيدةً　　سريتُ وكنتُ السرَّ والليلُ كاتمُهْ

فقد وصل ارتياحه الى الليل ، وألفته معه ، الى الحد الذى كتم فيه هذا الليل ، سر مسراه في أثنائه حبا له وخوفا عليه .

ولعل اطمئنانه هذا الى الليل ، هو الذى جعله يسرى خلاله بسرعة شديدة ، يتفوق فيها على الخيال . يقول في ذلك عن نفسه (٢) :

فهو أمضىْ في الرَّوْعِ من ملك المو　　تِ وأسرىْ في ظُلْمَةٍ من خيالِ

ويرجع اختيار المتنبي الخيال مثلا لسرعته ههنا ، الى ما يوصف به الخيال من سرى ، ((يقال : أسرى من خيال ، لأن الخيال يقطع من الشرق الى الغرب))(٣).

أما ما قاله يذكر فيه تنقلاته نهارا ، فمنه قوله (٤) :

صَحِبتني على الفلاةِ فتــاةٌ　　عادةُ اللونِ عندها التبديلُ

ومنه شعره الذى يعرض فيه لذكر حر الهجير ، من مثل قوله (٥) :

أُعَرِّضُ للرماحِ الصُمِّ نحري　　وأَنصِبُ حُرَّ وجهي للهجيرِ

وان يكن قد ذكر برد الليل ، كما ذكر حر النهار . يقول عن نفسه (٦) :

ألا ليتَ يومَ السيرِ يُخْبِرُ حَرَّهُ　　فتسألَهُ والليلُ يُخْبِرُ بَرْدَهُ

واذا ما حتمت عليه الظروف ، وقويت عنده البواعث ، يندفع الى السير واصلا الليل بالنهار ، من ذلك قوله (٧) :

ويومٍ وصلناه بليلٍ كأنما　　على أُفْقِهِ من بَرْقِهِ حُلَلٌ حُمْرُ
وليلٍ وصلناه بيومٍ كأنما　　على مَتْنِهِ من دَجْنِهِ حُلَلٌ خُضْرُ

---

(١) التبيان ٣ : ٣٦/٢١٨ السرى : سير الليل .
(٢) نفسه ٣ : ٨/٢٠٠ .
(٣) نفسه ١٩٣/٣ .
(٤) نفسه ٣ : ١٠/١٩٢ وأراد بالفتاة الشمس لان الدهر لا يؤثر فيها كبرا فلا تزال على شبابها ونضرتها ، وهي من عادتها أن يبدلَ اللون عندها أى لون من يصيبه ضوءها فيتحول الى السمرة أو الأدمة .
(٥) نفسه ٢ : ٥/١١٦ الهجير : شدة الحر ، ويكون وقت الهاجرة أى أنه حر منتصف النهار . ومنه التهجير : وهو السير وقت الهواجر . وينظر ٢ : ١٦/٨٤ و٤ : ٢٥٣/ ٢-٣ و ٤ : ٢٧/٢٨٥ .
(٦) التبيان ٢ : ٣٠/٨٤ .
(٧) نفسه ٢ : ١٦/١٢٣ .

في البيت الأول ((يصف السير ، ووصلهم اليوم بالليلة ، وكأن السماء من البرق عليها حلل حمر))[١] . أما في البيت الثاني ، فيقول ((كأن على متن ذلك اليوم من ظلمة السحاب حللا سودا ، والسواد يسمى خضرة))[٢] .

ان اختيار وقت الرحلة في شعر المتنبي ، يخضع لعوامل نفسية وجسدية وفنية ، تتواشج فيما بينها متحكمة في الإعلان عن هذا الوقت ، ثمّ القيام بالرحلة في أثنائه • ويظهر لنا ذلك جليا ، من خلال إدراكنا للملابسات النفسية التي تختلج في صدر المتنبي ، والمرتسمة في شعره ، ناظرين بعين الاعتبار لمناسبات قصائده وظروف إنشادها • وان كنا نرى أن صلة المتنبي بالليل ، أكثر حميمية وأكبر ألفة منها بالنهار ، ولعل السبب في ذلك يعود — أكثر ما يعود — الى علاقة المتنبي المتوترة بالناس من حوله • وخصوصية طبيعته النفسية ، فضلا عما يكون قد تأثر به من تراث العرب الفني[٣] .

٢ • الزمان النفسي :

أما الزمان النفسي عند المتنبي ، فيتضح من خلال وجود عوامل تحكمت في توجيه نظرته الى الزمان وتعامله معه ، اذ ترتب على هذه العوامل موقفه الخاص من الزمان •

أ— العوامل : وقد تجلت هذه العوامل في مسألتين مهمتين كان لهما الدور البارز في تحديد علاقة المتنبي بالزمان ، وهما : نظرة المتنبي الى أهل زمانه وصلته بهم ، وإحساسه بتقدم العمر •

— الزمان والناس :

ان نظرة المتنبي الى الزمان تمر من خلال الناس ، فهؤلاء الناس هم الذين شكلوا زمانه ويشكلونه : ((فالزمان ظرف والناس مادته ، فان طابت الناس طاب هذا الظرف وان فسدت فسد وهم الصورة التي تحاكي الزمن المنصرف معناه اليهم))[٤] . فاذا ما قال[٥] :

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغَـارٌ — وإن كانت لهم جُثَثٌ ضِخَـامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم — ولكن مَعدِنُ الذهبِ الرَّغَامُ
أرانبُ غيرَ أنهمُ ملـوكٌ — مُفتَّحةٌ عيونُهمُ نيـامُ

(١) التبيان ١٥٣/٢ .
(٢) نفسه المكان نفسه .
(٣) ينظر: الليل في الشعر الجاهلي ، جليل رشيد فالح ، مجلة آداب الرافدين ، العدد التاسع ١٩٧٨ ، والزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ٤٣—٤٧ .
(٤) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ١٩٠ .
(٥) التبيان ٤ : ٢٣٩/٢—٦ .

بأجسامٍ يَحَرُّ القتلُ فيها   وما أقرانُها إلاّ الطَعامُ
وخيلٍ لا يَخِرُّ لها طعينٌ   كأن قنا فوارسِها ثُمامُ

فانه يجسد مساوئ زمانه من خلال تشخيصه لمعايب الناس وذكره الظواهر السلبية في سلوكهم ، فهؤلاء الناس من حوله ضعاف الهمة ، خائرو القوى ، لا هم لهم الآ ملذاتهم ، ولا يعنيهم بشيء أن ينتشلوا الأمة مما هوت اليه من ضعف سياسي وانكسار عسكري وتفكك اجتماعي • فكيف يكون زمان حكامه ـ فضلا عن عامته ـ مثل هؤلاء ؟

وقال كذلك (١) :

وإنما نحن في جيلٍ سواسيةٍ   شَرٍّ على الحر من سُقْمٍ على بدنِ
حولي بكل مكانٍ منهمُ خِلَقٌ   تُخْطي إذا جئتَ في استفهامها بمَنِ

انه يحس بالألم اذ يحيا بين أناس ، هم ، في عدم إدراكهم لما هم عليه من سوء أحوال وتدهور أوضاع ، الى البهائم أقرب • ومن هنا كان بحثه الدائب عن أناس يفهمونه ويفهمهم ، أناس يجمعه واياهم الإدراك الحقيقي والواضح لطبيعة الظروف التي يعيشونها • عسى أن يخفف ذلك من حدة أزمته النفسية ، ويهون عليه الصراع من أجل المطامح •

لقد كان المتنبي ذا مطامح ((انسانية تتحدى الزمان والمكان)) (٢) • فاذا ما حاول الاستعانة بالناس من حوله ، جبهوه بالاستهانة وعدم المبالاة ، بل بالرفض والوقوف في طريقه ، وبخاصة أولئك الذين أشفقوا على أنفسهم أو على مراكزهم الرفيعة من أن يغلبهم عليها • فما كان منه الا أن ((اعتد نفسه غريبا عنهم وتبرأ منهم في ترفع وكبرياء لأنهم لم يحققوا له ما أراد ، وفيهم القادر على ذلك ، وبعضهم لم يعنه على القادرين المقتدرين فذهب يكيل لهم الذم ويكن لهم الاحتقار)) (٣) • وفي ذلك يقول (٤) :

أذُمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيْلَهُ   فأعلمُهُمْ فَدْمٌ وأحزمُهُمْ وَغْدُ
وأكرمُهُمْ كلبٌ وأبصرُهُمْ عَمٍ   وأسهدُهُمْ فَهْدٌ وأشجعُهُمْ قِرْدُ

وللشعراء الذين كادوا له أو وقفوا ضده ، خصوصية في ذمه الناس واحتقاره اياهم ، كما في قوله (٥) :

---

(١) التبيان ٤ : ٢٦٩/٢ـ٣ •
(٢) الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي ١١ •
(٣) بين شخص المتنبي وشعره ٤٥ •
(٤) التبيان ١ : ٧٣ / ٦ ـ ٧ •
(٥) نفسه ٣ : ١٨٩/ ٢٥ ـ ٢٨ •

أفي كل يوم تحت ضِبْني شويعرٌ ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطـــاولُ
لساني بنُطقي صامتٌ عنه عـادلٌ وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هـازلُ
وأتعبُ من ناداك من لا تجيبـهُ وأغيظُ من عاداك من لا تشاكـلُ
وما التيهُ طِبّي فيهم غير أننــي بغيضٌ إليّ الجاهلُ المتعاقـلُ

فالمتنبي ، اذن ((حينما يعلن الثورة على الدهر والأيام والدنيا ، وكلها لا تعني في نظره الا شيئا واحدا هو الناس والمجتمع ، فهم الذين يحولون بينه وبين تحقيق آمالــه ، وهم الذين سببوا له كل هذه الالام • فما الدنيا والدهر والأيام الا كلمات يخفي تحتهـا ثورته على الناس ، ورموز يخفي تحتها ما يضمر من حقد وثورة عليهم ، وفلسفة الشك في كل البشر لأنهم بشر حتى الذين يصطفيهم يشك فيهم لأنهم بعض الأنام))[١] ، حتى قال[٢] :

ومن عرَفَ الأيام معرفتي بهــــا وبالناسِ روّى رُمحَـهُ غيرَ راحمِ

فالناس في نظر المتنبي مجبولون على الشر بطبعهم ، فهم يستغلون كل ما يقع تحت أيديهم لتوظيفه في خدمة نواياهم الشريرة • قال[٣] :

وكأنّا لم يرضَ فينـا بريبِ الـــ دَهرِ حتى أعانهُ من أعانـــا
كلما أنبتَ الزمانُ قنــــاةً رَكّبَ المرءُ في القناةِ ســـنانا

ففضلا عن شرور الدهر ، هناك شرور الناس الذين يعينون الدهر في ظلمه •ويمثل المتنبي ، في البيت الثاني من هذين البيتين ، لمدى تغلغل الشر في نفوس بعض من الناس ، باستغلالهم ما ينبت على الأرض من خشب أو عصي في صنع السلاح ، توصلا به لإيـــذاء الآخرين[٤].

ومن الناس الذين آلم المتنبي وجودهم ، أولئك الذين رآهم أقل منه شأنا الا أنهم أصبحوا من ذوي المال والجاه والسلطان • فلم يكن منه الا أن عزا ذلك الى الحظ • ففكرة ((الحظوظ المقسومة تلح عليه •••الحاحا شديدا ، ولا غرو فهو لا يفسر اعتلاء كافــور

(١) هل كان المتنبي متشائما ١٠ ؟ وينظر: بين شخص المتنبي وشعره ٤٥ والدهر والقدر في شعر المتبي، د •محمود علي مكي، مجلة الهلال ، السنة السابعة والثمانون مارس ١٩٧٩ ، ص ٧٣ ، ودراسات أدبية ٥١ـ٥٢ •
(٢) التبيان ٤ : ٢٤٥/١١ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٧٤/٤ـ٥ •
(٤) ينظر التبيان ٤ / ٢٤٠ ، إذ نتفق مع ما جاء في رأي أبي الفتح والخطيب في شرح هذين البيتين • فضلا عمّا ورد في لسان العرب ٢٠ / ٦٦ من أن من معاني كلمة قناة ((كل عصا مستوية •• وقيل كل عصا مستوية أو معوجة فهي قناة ••• وكل خشبة عند العرب قناة وعصا ••)) مما يؤكد ما ذهبنا اليه •

وأمثاله من ((العبدى)) والموالي على عروش الأمصار الاسلامية الا بأنها ضربات حظ غاشم لا يعرف التميز ، وننبه هنا الى كثرة الحديث من ((الحظ)) في كافوريات المتنبي على نحو لا نرى له مثيلا من قبل في شعره))[(١)] • من ذلك قوله[(٢)] :

فيأيها المنصورُ بالجَدِّ سعيهُ ويأيها المنصورُ بالسعي جَدُّهُ
تولىّ الصبا عني فأخلفتَ طيبَهُ وما ضرَّني لما رأيتكَ فقدُهُ

واذا كان المتنبي قد أشار هنا الى سعي ممدوحه مع موافاة الحظ اياه ، فانه في مدحة أخرى له لا يذكر هذا السعي بل يرجع الأمر كله للحظ • كما في قوله[(٣)] :

فمالكَ تختارُ القِسِيَّ وإنما عن السَّعْدِ يرمي دونك الثقلانِ
ومالك تُعنىْ بالأسنَّةِ والقنا وجَدُّكَ طَعّانٌ بغيرِ سنانِ
ولِمْ تحملُ السيفَ الطويلَ نجادُهُ وأنت غنيٌّ عنه بالحَدَثانِ

ثمّ ليقول[(٤)] في هذا الممدوح نفسه (كافور) :

ما كنتُ أحسبني أبقىْ الى زمنٍ يسيء بي فيه كلبٌ وهو محمودُ

فهو هنا يستنكر بقاءه حتى هذا الزمن الذى يحيا فيه بين عبيد ولئام ، وهذا مما يؤكد لنا ، أن كلام المتنبي على الزمن وضيق الصلة بأهل زمانه الذين عاش بينهم •

واذا ما ذهبنا الى أن المتنبي ذمّ أهل زمانه وهجاهم حين لم يجد منهم عونا على تحقيق مآربه ، بل ان بعضهم وقف حائلا دون ذلك ، حتى أحس بأنه قد منع دون حق من حقوقه ، فاننا نتحفظ في قبول رأى ايليا الحاوى حين ذهب الى أن فخر المتنبي وتعاليه على الناس وهجاءه اياهم انما هو ((تعبير غير مباشر عن الخزى الذى كان يشعر به أبو الطيب عندما كان يتعالى عليه أولئك الناس الذين لا فضيلة لهم الا فضيلة الولادة من أصل رفيع أو فضيلة المال والسلطة))[(٥)] •

---

(١) الدهر والقدر في شعر المتنبي ٧٨ وينظر: المحصول الفكرى للمتنبي ٤٧ـ٤٩ •
(٢) التبيان ٢ : ٨٤/٢٧ـ ٢٨ • (٣) نفسه ٤ : ٢٧٥/٢٣ـ٢٥ •
(٤) نفسه ٢ : ٨٦/٢٠ •

(٥) فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ١٣٤ • ومبعث تحفظنا في قبول هذا الرأى ، هو أن الكثير مما بيناه من آراء عن المتنبي ، كان مصدره شعره •لذلك ظهر الاختلاف الواضح في عدد من هذه الآراء حتى وصل بعضها حد التناقض • وكل يؤكد ما يذهب اليه بشعر المتنبي نفسه • فما يقال عن ضعة أصله يمكن أن يرد بما يقال عن شرف هذا الأصل • وما يقال عن أثر فقره في شعوره بالنقص ، فان ذلك يجبه بما صار اليه ـ فيما بعد ـ من ثراء يستوجب معه انتفاء هذا الشعور أو، في الأقل ، خفة حدته •

ان علاقة المتنبي هذه بأهل زمانه ، حالت بينه وبين التوفر على عدد كبير من المحبين والأصدقاء . حتى انه مثّل لقلة أصدقائه بتشبيهه الخيل بهم في قوله[١]:

وما الخيلُ إلا كالصديقِ قليلـةٌ ... وإنْ كَثُرتْ في عينِ مَن لا يُجَـرِّبُ

وكان من أشد الأمور إيلاما له ، أن يضطر الى المداجاة والمصانعة ، وبخاصة في غياب الأصدقاء الحقيقيين . من ذلك قوله[٢]:

ومن نكدِ الدنيا على الحرِ أن يَرى ... عدوا له ما مِن صداقتِهِ بـُـدٌّ

ولعل ساعة من اليأس في أن يجد صديقا مخلصا ورفيقا صادقا ، هي التي دفعته الى القول[٣]:

خليلُكَ أنت لا من قلتَ خِلّـي ... وإن كثُرَ التَجمُّلُ والكـلامُ

لقد تقاطعت مطامح المتنبي وآماله وتوتر علاقته بالناس، فكان الرحيل الدائم[٤].

— الزمان والاحساس بتقدم العمر :

ان المتنبي الذى ((كان يعيش كل لحظة من يومه بأعصاب واعية))[٥] لما امتلأ به صدره من آمال ومطامح يريد تحقيقها ، ومشاعر وأفكار يود البوح بها ، كان من الطبيعي بل من الضرورى أن يلتفت بين الفينة والفينة الى حساب الزمان ، ما مر وما يمكن أن يكون قد بقي ، ما تحقق فيما مر وما يمكن أن يحقق بأسرع وقت فيما يمكن أن يكون قد بقي ، فلقد كان المتنبي مغرما ((بالحياة المليئة فعالية وقدرة ، ويتمنى لها الحكمة والتبصر ما أمكنه الى ذلك سبيلا ، وعلى هذا الأساس ينظر الى فترات العمر من شباب ومشيب))[٦].

لقد بكى شبابه وهو لمّا يزل في أوجه . من ذلك قوله[٧]:

إنعمْ ولَذَّ فللأمورِ أواخـرٌ ... أبدا إذا كانت لهن أوائـلُ

ما دمتَ من أَرَبِ الحسان فإنما ... رَوْقُ الشبابِ عليكَ ظِلٌّ زائـلُ

---

(١) التبيان ١ : ١٢/٣٥ .
(٢) نفسه ١ : ٨/٧٣ وينظر ٤ : ٢٥٣/ ٨ـ٩ .
(٣) نفسه ٤ : ٧/٢٣٩ .
(٤) ينظر: الفصل الأول من هذا البحث .
(٥) أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره ٧٩ .
(٦) المحصول الفكرى للمتنبي ٦٣ .
(٧) التبيان ٣ : ٢٠٩/١٢ـ١٣ .

كمـــــا ذكر شيبه وهو بعد في عز شبابه • قال [١] :

تَغَيَّرَ حالي والليالي بحالِها وشِبْتُ وما شابَ الزمانُ الغُرانِقُ

ولم يكن بكاؤه شبابه الا خوفا عليه وحذرا قبل فراقه • وفي ذلك يقول [٢] :

ولقد بَكَيْتُ على الشبابِ ولِمَّتي مُسْوَدَّةٌ ولماءِ وجهي رونـــقُ
حذرا عليه قبلَ يومِ فِراقـــهِ حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفْني أشْـرَقُ

فلقد كان يدرك أن الشباب اذا ما مر فليست له من عودة • قال [٣] :

وما ماضي الشبابِ بمُسْـتَردٍّ ولا يومٌ يمرُّ بمُسْـــتعادِ
متى لَحَظَتْ بياضَ الشيبِ عيـنٌ فقد وَجَدَتْهُ منها في الســوادِ
متى ما ازدَدْتُ من بَعدِ التناهي فقد وقع انتقاصي في ازديادي

وقال [٤] داعيا على الشيب بالهلاك فلا يأتيه :

ضيفٌ ألَمَّ برأسي غيرَ مُحتشِــمِ والسيفُ أحسنُ فِعلاً منه باللِّمَمِ
إبعد بَعِدْتَ بياضا لا بياضَ له لأنتَ أسودُ في عيني من الظُّلَمِ

وعلى الرغم من ان هذين البيتين من شعر صباه ، فانه ((يقدم لنا خلاصة نفســـه الثائرة الطموحة الغلابة التي تخشى من الزمن أن يسرقها وينهب عمرها قبل أن تستطيع تحقيق مآربها وأهدافها ، ومن ثمّ فهي ترى في الشيب علامة من علامات نهاية الشـــباب المتوقد وبداية من بدايات العجز الحاجز ، ومن ثمّ فهي ثائرة في وجه الشيب متألمة منـــه يبدو لها في سواد الظلام والعمى)) [٥] •

ومثل ذلك قوله [٦] :

وقد أراني الشبابُ الروحَ في بَدَني وقد أراني المشيبُ الروحَ في بَدَلي

انه يشعر ، وقد بدأ الشيب يتسلل الى شعره ، بالخوف ، لما ينبيء عنه هـــذا التســـلل من قرب انطفاء جذوة روحه المشتعلة ، مما يؤدى به فيما بعد الى الضعف والعجز • واذ لا مفر من الشيب قال [٧] :

ومن هوى كلِ من ليستْ مُموِّهـــةً تركتُ لونَ مشيبي غيرَ مخضـــوبِ

---

(١) التبيان ٢ : ٥/١٥٦ • (٢) نفسه ٢ : ١٤/١٥٤ـ١٥ •
(٣) التبيان ١ : ٧/٧٠ـ٩•
(٤) نفسه ٤ : ١/٢٣٢ـ٢ •
(٥) لغة الحب في شعر المتنبي ٣٧٣ •
(٦) التبيان ٣ : ١١/١٨٢ •
(٧) نفسه ١ : ١٦/٣٤ـ١٩•

ومن هوى الصدقِ في قولي وعادتِهِ رغبتُ عن شعرٍ في الوجهِ مكذوبِ
ليت الحوادثَ باعتني الذي أخذتْ مني بحلمي الذي أعطتْ وتجريبي
فما الحداثةُ من حِلْمٍ بمانعـــةٍ قد يوجد الحِلْمُ في الشّبّانِ والشيبِ

وعلى الرغم من إيثاره الشيب الظاهر الذي لا يخفيه خضاب ، بما يعنيه ذلك من محبة للصدق دون الكذب والمراوغة ، فانه يعدل الى الصراحة فيعترف باحتماله الشيب كارها لـه وراغبا عنه ، مناشدا الأيام ((أن ترد له صباه ويعيد اليها حكمتها ، حينما خشي أن يكون التقدم في العمر منقصا من الحيوية فخمدا لشعلة الهمة))(١) ، وان استدرك بعد ذلك بأن الحلم ليس حكرا على الشيوخ بل قد يوجد عند الشباب أيضا .

لم يضف المتنبي على الشباب معاني الفتوة والشجاعة والإقدام فحسب بل أضاف اليها صفات الحلم والعلم وبعد النظر . ويلفت الدكتور مهدي علام انتباهنا الى أن المتنبي لم ينسب النزق الى الشباب الا في موضع واحد من ديوانه(٢) ، حيث يقول(٣) :

والمرءُ يأملُ والحياةُ شـــهيةٌ والشيبُ أوقرُ والشبيبةُ أنـــزقُ
ولقد بَكَيْتُ على الشبابِ ولِمَّتـــي مُسْوَدَّةٌ ولماءُ وجهي رونـــقُ
حذرا عليه قبل يومِ فراقـــهِ حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفْني أَشْـرَقُ

ويعزو الدكتور علام ذلك الى أن المتنبي ((قال هذه الأبيات وهو صبي ولعله لم يكن قد كون له رأيا اذ ذاك . ذلك الى أنه ماكاد يقول : ان الشبيبة أنزق ، حتى بكاها حذرا على فراقها ، مما يدل على أنه لم يكن يومئذ صاحب فكرة واضحة أو عقيدة راسخة في تقدير الشباب))(٤) ، ولعله ((كان في هذه الأبيات يردد معنى قديما سبق اليه في الغض من ثورة الشباب ، والاشادة بحكمة الشيوخ))(٥) .

لقد حاول المتنبي تجنب الشيب ، ولمّا لم يجد منه مهربا عزّى نفسه بنفسه ، بمعنى أن لو شابت الذوائب منه فان له نفسا تظل شابة قوية ، وهمة لا يمسها الضعف والهرم ، فضلا عمّا يعنيه الشيب من وقار وحكمة . قال يعلن ذلك(٦) :

مُنىً كنّ لي أن البياضَ خِضـــابُ فَيُخفى بتبييضِ القرونِ شـــبابُ
لياليَ عند البيضِ فَوْدايَ فتنـــةٌ وفخرٌ وذاك الفخرُ عنديَ عـــابُ

---

(١) المحصول الفكري للمتنبي ٦٣ .
(٢) ينظر: دراسات أدبية ٤٠ ـ ٤١ .
(٣) التبيان ٢ : ١٣/١٥٤ ـ ١٥ .
(٤) دراسات أدبية ٤١ .
(٥) المصدر نفسه المكان نفسه .
(٦) التبيان ١ : ١/٣٦ ـ ٧ .

فكيف أذمُّ اليومَ ما كنتُ أشتهي — وأدعو بما أشكوهُ حين أُجابُ
جلا اللونُ عن لونٍ هدى كلَّ مسلكٍ — كما انجابَ عن لونِ النهارِ ضَبابُ
وفي الجسمِ نفسٌ لا تشيبُ بشيبِهِ — ولو أن ما في الوجهِ منه حِرابُ
لها ظُفُرٌ إن كلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ — ونابٌ إذا لم يبقَ في الفمِ نابُ
يُغَيِّرُ مني الدهرُ ما شاءَ غيرَها — وأبلغُ أقصى العمرِ وهي كَعابُ

ويهمنا ههنا ، أن نعرض لرأي الدكتور النعمان القاضي في هذه الأبيات اذ قال ((ونلمح في هذه المقارنة بين الشباب والمشيب والغوى والرشاد اعتماد الشاعر على الرمز وبخاصة رمز الألوان اذ جعل بياض الشعر الذى كان يتمناه وما رافقه من هدى ورشاد رمزا لأحبائه البيض من آل حمدان ، بينما صرف سواده الذى كان يتمنى اختفاءه وبعده وما رافقه من غوى وضلال الى كافور وهو رمز استعمله في أول لقاء به عندما قال :

خُلِقتُ ألوفا لو رجعت الى الصبا — لفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكيا))(١)

فنقول ان سياق القصيدة يشير الى أن البياض قد حلّ وحضر • والحقيقة أن البياض ، بوصفه رمزا لآل حمدان ، لم يكن زمن إنشاد القصيدة ــ وهو شوال سنة ٣٤٩ هـ ــ قد أتى بعد ، بل انه لم يأتِ أبدا ، الا اذا اعتددنا رغبته في الخروج من مصر هي البياض ، وحتى هذا ــ وان لم يصرح به الدكتور القاضي ، ولعله لم يكن يقصد اليه ــ لم يحدث الا بعد حوالي سنة وشهرين من إنشاد هذه القصيدة •

وهكذا ، عندما اقتنع المتنبي ((بأن الجبارين من أمثاله لا يخملون ولا يقعدون بالشيب أو بالكبر ، أكرم المشيب واتخذه مطلبا ما دام يكسب الحكمة ولا يضيع النشاط ، وان ظل متخوفا ، بشكل عام ، من الضعف وبرود الفاعلية))(٢) • قال(٣) :

راعتكِ رائعةُ البياضِ بعارضي — ولو أنها الأولى لراعَ الأسحَمُ
لو كان يُمكنني سَفَرْتُ عن الصبا — فالشيبُ من قبلِ الأوانِ تَلَثُّمُ
ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلا أرى — يَقَقاً يُميتُ ولا سوادا يَعْصِمُ

فقد جعل من الشيب لثاما ، لأنه جاءه قبل أوانه ، ولو أمكنه لكشف عن شبابه بإزالة شيبه • وهو بذلك يؤكد ما ذهب اليه من أن الشيب لا يعدو كونه شكلا ، أما الروح فانها في ذروة شبابها • ثمّ يقول ان حوادث الدهر تنال من الكبير والصغير ، فلا

---

(١) كافوريات أبي الطيب ، دراسة نصية ١٩٤ .والبيت في التبيان (٤ : ٢٨٥/١٢) •• لو رحلت ••
(٢) المحصول الفكرى للمتنبي ٦٣ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٤٩/٤-٦ •

فلا يكون بياض الشعر عند ذاك سببا للموت ، ولا سواده واقيا منه ، فكثيرا ما يقع الأمر على الخلاف •

لقد كان إحساس المتنبي بتقدم العمر ، إدراكا منه لأثر الزمن ودوره في تأجج جذوة الروح أو خفوتها وربما انطفائها ، لذلك ما انفك يسعى في سبيل تحقيق آماله ، وتنفيذ رغباته ، فطفق ينتقل من مكان الى مكان ، ويسافر من بلد الى بلد عسى أن ينال شيئا مما يريد ، قبل أن يدهمه الكبر بما يعنيه من عجز وتعب وكلال • وفي مثل ذلك قال[١] ، مخاطبا كافورا :

ولو كنتُ أدري كم حياتي قَسَمتُها   وَصَيَّرْتُ ثُلْثَيها انتظارَكَ فاعلمِ
ولكنّ ما يمضي من العُمْرِ فائتٌ   فجُدْ لي بحظِّ البادرِ المُتَغَنِّمِ

انه يدرك أن أيام العمر ـ وان طالت ـ معدودة ، فان ذهب بعض منها بغير طائل ، فلعله يتمكن من تحقيق شيء ما فيما بقي منها • وكأني به قد كان فيما تجشم عناءه من رحلات ، وتحمل وعثاءه من أسفار ، يسابق أيامه عسى أن يصل الى شيء من طموحاته قبل أن يجهز عليه كبر السن فيخلفه ضعيف الجسد ، خائر العزيمة •

ب ـ موقفه من الزمان :

ويتجلى هذا الموقف في نظرته الى الزمان بوصفه آنات ثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل ، ومدى إحساسه بكل منها وطبيعة هذا الإحساس ، فضلا عن رؤيته الخاصة للموت •

ـ الزمان آنات ثلاثة :

واذ ننتقل الى الحديث عن علاقة المتنبي بالزمان بوصفه آنات ثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل ، لا يفوتنا أن نشير الى أن المتنبي كان ((كسائر الآدميين وبخاصة كسائر المثقفين ، تتفاعل الأقسام الثلاثة في نفسه))[٢] • فأحدها متصل بالآخر متمم له ، سببا أو نتيجة ، فضلا عن التأثير المتبادل بينها •

وسنبدأ بالحديث عن الزمان الحاضر في شعره ، اذ يتجلى فيه ذلك الصراع المحتدم بينهما • عارضين فيما بعد للماضي والمستقبل ، مستندين في هذا الى شعر المتنبي نفسه ، اذ يعرض للماضي ويذكر المستقبل في خضم تعامله مع الحاضر • وسنبين ذلك في موقعه من الكلام •

---

(١) التبيان ٤ : ٢٥٢/٢٨ـ ٣٩ •
(٢) المحصول الفكري للمتنبي ٥٨ •

كـان المتنبي في صراع مرير مع حاضره [١] ، تردد موقفه فيه بين آمل ويائس ، وقوي وضعيف فقد كان ممتلئا مطامح واسعة وآمالا عريضة ، تدفعه نحوها نفس انفعاليـة ، عنيفة ، مقبلة على الحياة وان كانت نظرتها اليها سوداوية [٢] . يقول [٣] ، مشيرا الى وقوف الأيام ضده :

أَهُمُّ بشـيءٍ والليالي كأنهـا تُطارِدُني عن كونهِ وأُطـارِدُ

ان شعر المتنبي ، في مثل هذا الموقف ((نداء للكفاح ودعوة لقبول التحدي وعدم الهزيمة والانصياع)) [٤] ، حتى غدا شعاره في هذا الكفاح ((اذا انتصرت تابع واذا انهزمت قـاوم واذا هوجمت هاجم)) [٥] . وها هو يعلن عن عزمه على مواجهة الزمان [٦] :

إنْ تَرْمِني نكباتُ الدهرِ عن كَثَبٍ ترمِ امرأً غير رِعديدٍ ولا نَكِسِ

ان الشدائد والنكبات التي يرميه بها زمانه لن توهن من عزمه ، ولن تقوّض من نفسه جانبا . قال [٧] :

أمثلي تأخذُ النكباتُ منـهُ ويجزَعُ من ملاقـاةِ الحِمـامِ
ولو برزَ الزمانُ إليَّ شـخصا لخضّبَ شعرَ مَفْرقِهِ حُسـامي
وما بلغت مَشيئَتَها الليالـي ولا سارتْ وفي يدها زِمامـي
إذا امتلأتْ عيونُ الخيل منـي فويلٌ في التيقّظِ والمنـامِ

فهو يستنكر أن تنال من نفسه مصائب الزمان وحوادثه ، وينفي أن يكون ممن يهابون لقاء الموت ، ((فلو تمثل الزمان بما له من جبروت شخصا يبارزه لما استطاع أن يثبت فـي الحلبة ولخر صريعا مخضبا بدمائه ، وكذلك فان ليالي هذا الزمان لا تستطيع أن تبلـغ مرادها منه ، ولو أوكل اليها أمر قيادته لاستعصى عليها زمامه لقوته وشدة بأسه ، فمن أين يستطيع الدهر أن يغير من صفات هذه النفس الأبية القوية ؟)) [٨] .

---

(١) إن الصراع مع الزمان ، نظرة قديمة لها جذورها في ما وصل الينا من أساطير وموروثات شعبية ، فضلا عن الشعر العربي القديم . للاطلاع على ذلك ينظر: مفهوم الزمن بيـن الأساطير والمأثورات الشعبية ٢٢٥ ـ ٢٥٠ ، والزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ٢٦٩ .

(٢) ينظر: المتنبي والنفس ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) التبيان ١ : ٥٩/٨ ، وينظر ١ : ٣/٩ .

(٤) المحصول الفكري للمتنبي ٥٣ .

(٥) المصدر نفسه المكان نفسـه .

(٦) التبيان ٢ : ١٢٧/٧ ، وينظر ٤ : ٢٣٣/١٣ ـ ١٤ .

(٧) نفسه ٤ : ٢٣٤/٣ ـ ٦ .

(٨) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ١٢٠ .

ان حربه مع الزمان مستمرة ، تسلح لها بالصبر ، ورافقته فيها سلامة لا تتخلى عنه مهما أقدم على المهالك أو تعرض الى المخاطر . يتضح ذلك في قوله[١]:

أُطاعِن خيلا من فوارسِها الدهرُ ... وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشجعُ مني كلَّ يومٍ سلامتي ... وما ثبتتْ إلا وفي نفسها أمْرُ
تمرّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها ... تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِر الذعرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ كأن لي ... سوى مهجتي أو كان لي عندها وِترُ

((ويطول الصراع فيخبره الزمن ويحجم عوده ويدرك قوته ولكن الشاعر لا يستطيع العصر في تحديه له فأحسن حالاته وبال وفناء))[٢] . قال[٣]:

فما تُرَجّي النفوسُ من زمنٍ ... أَحمدُ حاليهِ غيرُ محمودِ
إن نيوبَ الزمانِ تعرفني ... أنا الذي طال عَجْمُها عودي
وَفيَّ ما قارع الخطوبَ وما ... آنسني في المصائبِ السودِ

فعلى الرغم مما قد يكون من تمكن الزمان منه ، فانه لم يستطع القضاء عليه أو النيل منه ، ففيه من القوة والإصرار ما يمكنه من الوقوف في وجه الزمان ومقاومة خطوبه ، حتى لو لم يستطع التغلب عليه . المهم أن لا ينحني أمامه .

ولم يمنع هذا الاصرار على المواجهة المتنبي من التعبير عن شدة ظلم الزمان اياه ، ورميه بنوائبه ووقوفه حائلا دون تحقيقه مطامحه . من ذلك قوله[٤]:

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتى ... فؤادي في غشاءٍ من نِبالِ
فصِرتُ إذا أصابتني سِهامٌ ... تكسّرتِ النصالُ على النِصالِ

لقد كان المتنبي يأمل تحقيق أشياء كثيرة ، لكن الزمان جبهه بالعراقيل ، ووضع في طريقه المصاعب ، فلم يملك حيال موقف الزمان هذا الا أن يقابله ((بالهجاء ، أقوى ما يملك شاعر ، وليكن التحدي رائده في موقفه وحيرته ازاء جبروته))[٥]. وهكذا كان . فقال[٦] — مما قال وفضلا عما سبق — :

قُبحاً لوجهكَ يازمانُ فإنه ... وجهٌ له من كلِّ لؤمٍ برقعُ

---

(١) التبيان ٢ : ١٢٣/١ـ٤ .
(٢) الشعر والزمن ، د . جلال الخياط ٤٣ .
(٣) التبيان ١ : ٥٨ / ١٠ـ ١٢ .
(٤) التبيان ٣ : ١٧٥/٥ ـ٦، وينظر ١ : ٣٥/٢٣ و ١ : ٧/٢٤ ـ ٩ و ٢ : ٦/٨٩ .
(٥) الشعر والزمن ٤٣ .
(٦) التبيان ٢ : ٢٨/١٤٣، وينظر ٤ : ١٢/٢٢٣ .

ان ما كان يملأ نفس المتنبي من مطامح وآمال تلح عليه في سبيل تحقيقها ، جعله في حالة مراقبة مستمرة للزمان ، هذا الزمان الذى غالبا ما يغدو خصماً عنيداً يصارعه محاولا ثنيه عما عزم عليه ، مما أدى الى انعكاس مشاعر المتنبي وأفكاره على إحساسه به ونظرته اليه • من ذلك ما أحسه المتنبي تجاه كثير من لياليه أنها كانت تمر عليه طويلة ، كئيبة ، مملة ، اذ كانت ليالي انتظار أو ترقب أو فراق أو حزن ، كما في قوله (١) :

أُحــادٌ أم سُـداسٌ في أُحـادِ ... لُيَيْلَتُنا المنوطةُ بالتنــادي

فهو لشدة رغبته في أن تنتهي هذه الليلة وتولي عنه ، لما عزم عليه من أمر يقضيه في الصباح ، جعل يحس بطول هذه الليلة كأنه دهر ((فرسم لطولها صورة امتداد زمني جعل طرفه الأول تلك اللحظات التي أحس فيها بطولها غير المألوف حتى جعل نهايته يوم القيامة)) (٢) •

ومثل ذلك قوله (٣) :

أعزمي طالَ هذا الليلُ فانظُـرْ ... أمنكَ الصُبحُ يَفْرَقُ أن يؤوبا
كأنّ الفجرَ حِبٌّ مستزارٌ ... يُراعي من دُجُنَّتِهِ رقيبا
كأنّ نجومَهُ حَلْيٌ عليــهِ ... وقد حُذِيَتْ قوائِمُهُ الجَبوبا
كأنّ الجوَّ قاسى ما أقاسي ... فصار سوادُه فيه شحوبا
كأنّ دجاهُ يجذِبُها سُهادي ... فليس تَغيبُ إلاّ أن يغيبا
أُقَلِّبُ فيه أجفاني كأنّي ... أعُدُّ به على الدهرِ الذنوبا
وما ليلٌ بأطولَ من نهارٍ ... يظلُّ بلحظِ حُسّادي مَشوبا

فهو لرغبته الشديدة في انقضاء ليلته هذه لما ينتظره في الصباح ، أحس بها طويلة جدا • وليـنقل لنا إحساسه هذا ، بالغ في تصوير طولها اذ علق بزوغ الفجر بزوال الليل ؛ لأن الليل لا يزول حتى يطلع الفجر وعليه لا يطلع الفجر أبدا • كما جعل النجوم كأنها حلي محلقة على الليل فلا تبرحه ، والأرض كأنها حذاء له فلا يستطيع المشي لثقلها • وجعل من سواد الليل شحوبا في وجه الجو فكأنه قاسى ما يقاسيه هو نفسه من الهموم والأحزان • ثمّ انه ربط طول الليل بطول سهره فيمتد ذاك بامتداد هذا • واذ يقلب أجفانه في هذا الليل ناظرا الى النجوم فكأنه يعد بها ذنوب الدهر التي تماثلها في العدد • ثمّ يخبرنا بأنّ ليله هذا ــ على طوله ــ ليس بأطول من نهار يقضيه بين حساده (٤) •

---

(١) التبيان ١ : ٧٠ / ١ •
(٢) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٠١ •
(٣) التبيان ١ : ٢٨ / ١٠ــ١٦ •
(٤) ينظر: الحرف الطيب ١ / ٢٠٠ ــ ٢٠١ والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١١٢ــ١١٥ •

فمثلما يحس بليله طويلا حين يرقب زواله وطلوع النهار لما علّق بزواله من أمل يرجو تحققه ، فانه قد يحس بنهاره طويلا ــ كذلك ــ اذا ما خالط فيه أناسا يخشى على نفسه منهم . وقد يكون النهار المشوب بروئية من لا يرتاح اليهم ولا يرتاحون اليه أطول عليه من ليل الانتظار ، اذ يكون وحيدا مختليا بنفسه بلا أعداء أو حساد أو مراقبين .

ويقول في رثاء فاتك الرومي ، حزينا متألما (١) (٢) :

النومُ بعد أبي شجاعٍ نافِرٌ ... والليلُ معيٍ والكواكِبُ ظُلَّعُ

فلا النوم يداعب جفونه ، ولا الكواكب تسير عسى أن يطلع الصبح .

وعلى العكس من ذلك نراه يحس بالليل قصيرا اذا ما كان يقضيه برفقة من يحب . قال (٣) :

نَسِيتُ وما أنسى عتابا على الصَّدِّ ... ولا خَفَرا زادتْ به حمرةُ الخَدِّ

ولا ليلةً قَصَّرْتُها بقَصُورةٍ ... أطالتْ يدي في جيدِها صحبةَ العِقدِ

وهكذا ((فالليل هو الليل لا يطول ولا يقصر عن زمنه المحدد في كل ليلة ، وانما هو الشعور النفسي الذي يخيل بهذا أو بذاك لملابسات نفسية يمر بها مستطيل الليل ومستقصره))(٤) . ولعل ذكر المتنبي الليل أكثر من النهار ــ مثلا ــ يعود الى طبيعة الليل اذ ينفرد الانسان بنفسه متأملا مفكرا ، فضلا عن خصوصية علاقة الألفة بين المتنبي والليل ، ناهيك عن تأثر المتنبي الفني بمن سبقه من الشعراء .

ومثل ذلك نرى أن المناسبة الواحدة قد تمر على المتنبي بإحساسين مختلفين ، وما ذاك الاّ لتغير الباعث على كل إحساس . فالمتنبي الذي كان ينتقل من ممدوح الى آخر وراء همومه ، كان لا بدّ له أن يشعر بأحاسيس ومشاعر مختلفة بإزاء كل واحد منهم ، تبعا لعلاقته به ومدى ما يحققه له من رغبات فضلا عن دور أفراد الحاشية . ومن ثمة كانت نفسه تضطرم بمشاعر معينة ومختلفة في كل مناسبة تمر عليه في كنف أي منهم . فحين يهل العيد وهو في كنف سيف الدولة ، لا نراه الا مهنئا سيف الدولة به ، مادحا اياه من غير أن يشير الى أثر هذا العيد في نفسه هو ، فقد شغلته الأحداث التي عايشها بجواره عن ذلك ، وان لم ينس التعرض لحساده . وهو تعرض فيه انتقاص منهم وفخر بنفسه ورجاء الى سيف الدولة أن

---

(١) التبيان ٢ : ٣/١٤٣

(٢) وينظر: التبيان ١ : ٣٣/ ١ــ٥ و٢ : ١٢٩/ ٩ و٣ : ١٨٧/ ١ــ٢، ومع المتنبي ٢٣٨ــ٢٤١، والخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ١١٥ــ١١٧ .

(٣) التبيان ٢ : ٨٩/ ١ــ٢.

(٤) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ١٤ ، وينظر: الليل في الشعر الجاهلي ٥٢٩ــ٥٦٥ والزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ٢٧٣ــ٢٧٥ .

يمتحهم عنهما ــ هووسيف الدولة ــ • قال يهنئه بالعيد (١) (٢) :

هنيئا لك العيدُ الذي أنت عيدُهُ ... وعيدٌ لمَن سمّى وضحّى وعَيَّدا
ولا زالتِ الأعيادُ لُبْسَكَ بعدَهُ ... تُسَلِّمُ مخروقا وتُعطي مُجَدَّدا
فذا اليومُ في الأيامِ مِثْلُكَ في الورى ... كما كنتَ فيهمْ أوحدا كان أوحدا

أما عند كافور ، حيث قيدت حركته وضيقت آماله ، فليس من شيء غير السكون ، وأي سكون • انه سكون مفروض عليه عند من لا يحب ، لذلك كان من الطبيعي أن يثير العيد اذ يمر به وهو على حاله هذه ، مشاعر وأفكارا غير ما أحس به في حلب • قال يمدح كافورا في شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمئة(٣) :

يُضاحِكُ في ذا العيدِ كلٌّ حبيبَهُ ... حذائي وأبكي من أُحِبُّ وأَندُبُ
أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءَهمْ ... وأين من المشتاقِ عنقاءُ مُغْرِبُ

فانه اذ يرى الناس من حوله يتضاحكون فرحين بهذه المناسبة ومحتفلين ، يعصر الحنين الى أهله وأحبابه البعيدين فؤاده ، فيبكي شوقا اليهم ، وألما مما يعانيه من وحدة في مثل هذه المناسبة السعيدة • حتى اذا ما مرت به السنون في مصر ، فلا أملا تحقق ولا رجاء نيل ، فضلا عن أنه آنذاك ((كان قد أدرك الكهولة ووقف أمام جدار الزمن فتحقق له أن حياته كانت خدعة من الأوهام والأكاذيب))(٤) • قال متألما مغضبا حين مر به العيد وهو يعد للهروب من مصر سنة خمسين وثلاث مئة(٥) :

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ ... بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبةُ فالبيداءُ دونَهُمُ ... فليت دونَك بيداً دونَها بيدُ

فقد أثار هذا العيد في نفسه كوامن الألم والحقد والخوف ، فلقد مرت به وعليه في مصر أيام طوال ضاعت بغير طائل كأنها الهباء المنثور ، وهو الذى صارع الزمان ((واعتبر الدهر من رواة قصائده على حد تعبيره ، وأصبح يسيطر سيطرة تامة على قضية الزمن ، وبخاصة حين عاش زمنا مشحونا كثيفا عند سيف الدولة ، ولكن حين أصبح الزمن بطيئا ومقيدا في مصر ، وحين أصبح مجرد انتظار لوعد سمعنا الأنين يبرز في شعره ، ثمّ ان فكرة الزمن أصبحت عذابا له حين أحس أنه ((مراقب)) داخل مصر ، وحين تحقق أن ما أمله لن يجيء ، وفي ضوء هذا أصبح الزمن عذابا وقهرا ومجرد انتظار طال أربع سنين وستة أشهر))(٦) •

---

(١) ينظر: التبيان ١ : ٣٢/٦٠ــ٤١ ، والمبحث الرابع من الفصل الأول من هذا البحث •
(٢) التبيان ١ : ٢١/٦٠ــ٢٣ • (٣) نفسه ١ : ٢٥/٣٥ ــ ٢٦ •
(٤) نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص ٢١٧ •
(٥) التبيان ٢ : ١/٨٦ــ٢ •
(٦) دراسات في النص الشعري ، العصر العباسي ١٨٨ ــ ١٨٩ •

ومما سبق يتضح لنا تراوح تعبير المتنبي ، في إشارته الى صراعه مع الزمان ، بين القوة والضعف ، وبين الأمل واليأس ، فهو قوي آمل حين يملك زمام نفسه ، وبخاصة اذا كان يقوى ذلك عيش في كنف ممدوح يباد له الحب والإعجاب ، ويحقق له شيئا مما يتمناه . وهو ضعيف يائس حين لا يملك من أمر نفسه شيئا ، وبخاصة اذا ما كان ، فضلا عن ذلك ، يحس بالوحدة سواء أكان هذا الإحساس لتوحده حقيقة أم عند ما يكون في كنف ممدوح لا تربطه به الا المصلحة . ولعله أشار الى شيء من هذا في قوله(١) :

تُبدِّلُ أيامي وعيشي ومنزلي نجائبُ لا يفكرنَ في النحسِ والسَعدِ

فهو في رحلاته المستمرة ، يشعر بتغير إحساسه بالزمان ، فضلا عن المكان وطبيعة العيش ، تبعا لطبيعة علاقته بممدوحه ، وبالناس الذين من حوله — أي المتنبي — في كل بلد أو مكان يلقي عصا ترحاله فيه .

لقد أكثر المتنبي من ذكر صراعه مع الزمان ، بل انه يشير اليه في شعره كله ، وهذا يدلنا على أن هذا الصراع كان شغله الشاغل على امتداد حياته . وكان في كل مرة يعرض فيها له يوحي الينا بأنه يتم في الوقت الذي يقول شعره فيه ، سواء أكان ذلك في صباه أم في كهولته ، بمعنى أنه يعيشه في جميع فترات حياته وبالحدة نفسها ، بصرف النظر عن قوة موقفه فيه أو ضعفه ، وبلغ من تأثير هذا الصراع في نفسه أنه تحكم في نظرته الى الزمان نفسه وإحساسه به .

ان هذا الصراع هو التعبير عن سعي المتنبي الدائب للوصول الى ما كان يطمح اليه ويرغب فيه ، فينجح تارة ويفشل أُخرى . ولعل هذا ينبئنا بما كانت تمور به نفسه من إحساس عظيم وممض بالقلق ، حتى قال(٢) :

علىٰ قلقٍ كأن الريحَ تحتي أوجِّهها جَنوبا أو شَمالا

كان المتنبي يشعر بامتلاء نفسه بإمكانات كبيرة وكثيرة — هي آماله ومطامحه — يود تحقيقها ، مما ولد لديه الإحساس بالقلق خوفا من أن لن يستطيع ذلك . فاذا ما حقق شيئا منها ، مثل الحصول على المال والمكانة الأدبية العالية ، شعر بالقلق على رغباته الأُخرى خشية من أنه لن يتمكن من تحقيقها هي الأُخرى ، فضلا عن قلقه على ما حققه خوفا عليه من أن يزول . فهو اذن حقق شيئا دون آخر . ومن هنا فهو يقلق على ما يراه وجودا حقيقيا له وهو تحقيق كل ما يريد ، ويقلق من أنه لن يستطيع تحقيق أكثر مما استطاع ، وهذا

---

(١) التبيان ٢ : ٩/٨٩ ، وينظر : الدهر والقدر في شعر المتنبي ٦٨ — ٧٩ .
(٢) نفسه ٣ : ١٦/٢٠٢ .

يعني العدم (١) .

واذ يغزو القلق نفس المتنبي ، يشعر بأن الزمان ((قد وقف نهائيا ، وهذا الشعور بوقوف الزمن هو الشعور بالآن ، لأن الآن ... لا تجرى فيه حركة ، وبالتالي لا يكون فيه جريان للزمان . فالشعور بالآن لا يتم حقا الا في حالة القلق الهائل . وهذا يفسر لنا لماذا نشعر بطول الزمان جدا في حال القلق والخوف ، بينما نشعر بقصره كل القصر في حال الأمن والسرور)) (٢) ، بل اننا قد نشعر في حال القلق بالسرمدية (٣) . ولعل المتنبي المفعم طموحا وآمالا منذ صغره ، قد عبر عن مثل هذا الإحساس بقوله (٤) :

وما أَرْبَتْ على العشرين سنّي ... فكيف مُللتُ من طول البقاءِ

فقلق المتنبي ، اذن ، الذى ((يرتبط بالحاضر ، ويقوم في الآن)) (٥) هو سبب إحساسه باستمرار أو قل بسرمدية صراعه مع الزمان .

ولعلّ مما جعل المتنبي يزداد إحساسا بالحاضر ، ويقوى شعوره به ، هو محاولاته ركوب الأخطار للحاق بمن يريد والوصول الى ما يريد . اذ ((المخاطرة تتم بفعل واحد لا نستطيع أن نعين فيه أجزاء ، ولذا فانها تتم في الآن وتشعر بطابع الحضور في الزمانية ، ومن هنا أيضا تشعر بالسرمدية)) (٦) . وفي ذلك يقول المتنبي (٧) :

ذكرتَ جسيمَ ما طلبي وأنّـا ... نُخاطر فيه بالمُهَجِ الجِسامِ

ويقول (٨) :

رِدي حِياضَ الردىٰ يانفسُ واتّركي ... حِياضَ خوفِ الردىٰ للشاءِ والنَعَمِ

فقد عرّض نفسه لمخاطر كثيرة ، في سعيه الحثيث نحو أحلامه وطموحاته ، ففضلا عن

---

(١) ينظر: الزمان الوجودى ١٧٠ــ ١٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ١٧٤
(٣) المصدر نفسه المكان نفسه . ويقول د .عبد الرحمن البدوى ص١٨٠: ان الشعور بالوجود لا يبلغ درجة أعلى مما هو في حالة القلق ، ففيه شعور بأخطر المسائل الانسانية من مصير وخطيئة ، وفيه إحساس بالسرمدية على هيئة الآن ، وفيه أعلى شعور بالحرية والإمكان ، والقلق يحفر أعماق الكائن وينزل مسباره الى أخفى خفاياه .. ولا توجد معرفة أيا كانت درجتها في النفوذ يمكن أن تشعرنا بالوجود في أعمق أعماقه مثل ما يفعل القلق .
(٤) التبيان ١ : ٤/٢ .
(٥) الزمان الوجودى ١٧٣ .
(٦) المصدر نفسه ١٨٥ .
(٧) التبيان ٤ : ٢/٢٣٤ .
(٨) نفسه ٤ : ٢٦/٢٣٢ ، وينظر ٢ : ٣٢/٨٤ .

أخطار الطرق التي كان يقطعها وراء آماله ، ترصد له الكثير من حاسدين وواشين وكائدين وأوقعوه في العديد من المواقف المحرجة والصعبة والخطيرة .ناهيك عن نظرات الارتياب التي رمقه بها بعض من ممدوحيه . ولا تقتصر إشارتنا ههنا الى المخاطر الجسدية أو المادية فحسب ، وانما نريد منها كذلك ما تعرض له من صدمات نفسية ومعنوية .

أما الماضي فقد برز في شعر المتنبي إيماضات ساطعة ، ترددت في ثناياه وتوزعت بين جنباته . ووصفنا إشارات المتنبي الى الماضي بالإيماضات ، يرجع الى تلفته اليه بين حين وآخر في الوقت الذي يخوض فيه صراعه مع زمانه الحاضر . أما وصفنا الإيماضات بالسطوع ، فذلك لسببين : أولهما أنها إيماضات ترينا نفسها جلية واضحة ، وثانيهما استنادا الى وجهة نظر المتنبي للماضي العام ـ بخاصة ـ اذ يراه أفضل من الحاضر وأحسن (١) . وسنبين ذلك فيما يأتي .

بدءا ، لابدّ لنا من الإشارة الى أن هذا العصر الذي عاش فيه المتنبي قد شهد ((كثيرا من وجوه التغيير على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، انعكست جميعها بشكل ملحوظ في الطراز الحضاري لحياة المجتمع . وفي نتاجه الفكري والروحي على السواء . وقد أصبح انسان ذلك العصر ـ لأول مرة ـ في موقف اختيار صعب بين التاريخ والواقع ، التاريخ ممثلا في ميراث العصور الماضية ، والواقع ممثلا في حياته الجديدة الصاخبة العريضة ، والغنية بشتى ألوان التجارب الحسية والمعنوية جميعا)) (٢) . فكان من الطبيعي ، والحال هذه ، أن يتأثر المتنبي بكل هذا الذي حوله ، تأثرا خاصا ينبع من تميزه هو ، بوصفه شاعرا فنانا ذا إحساس مرهف ، فضلا عن امتلاء نفسه بالطموح والآمال . حتى اذا ما خاض لجة صراع تحقيق ذاته وإثبات وجوده ، فلاقى ما لاقى وجوبه بما جوبه ، أحس بأن الماضي كان أفضل من حاضره الذي يحياه (٣) ، اذ ((أن زمانه لا يقيم التقييم الحقيقي للانسان على حين كانوا قبل زمانه يقدرون الانسان حق قدره)) (٤) ، فتمنى لو أنه عاش

---

(١) ان النظرة الى الماضي بوصفه أفضل من الحاضر ، نظرة قديمة لها جذورها في الفكر الإنساني القديم . ينظر في ذلك : الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ٤٤ ، والزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ٢٤٩ ـ ٢٥٤ .

(٢) في الأدب العباسي الرؤية والفن ٣١٩ .

(٣) يرى صاحبا المحصول الفكري للمتنبي ص ٥٨ أن اعتزاز المتنبي بالماضي ، يظهر في أنه استمد أمثلته وكثيرا من قيمه الدينية والأخلاقية من الأحداث السابقة على أيامه .كما اعتز بالاسلام وبالجاهلية وأشهرها الحرم . ويريا كذلك أن ما ورد على لسانه من أسماء الأنبياء والرسول العربي بخاصة والوصي علي وبقية الأبطال المشهورين والعلماء والفلاسفة السابقين يدخل في باب الاعتراف من الماضي ، ولو أنه اعتراف يقلل من أهميته جعله الممدوح المواجه له نظيرا للماضين ومتفوقا عليهم .

(٤) أثر الاخفاق في شعر المتنبي ١١٩ ، وينظر: هل كان المتنبي متشائما ١١٢ .

في الماضي مع القدماء • قال [١] :

وقتٌ يضيعُ وعمرٌ ليت مدّتَــهُ في غير أُمتهِ من ســالفِ الأممِ

فأيامه في حياته الحاضرة ليست أكثر من وقت يضيع هباء ما دام لا يستطيع الــ تحقيق ما يريد سبيلا • واعتداد المتنبي الزمان الذى يمر عليه دون أن يحقق شيئا وقتا ضائعا ، هو دليل ساطع على مدى إحساسه بأهمية الزمان ـ بخاصة أن ذلك مرتبط بتقدم السن ـ •

واذ يتمنى لو أنه عاش بين الأمم الماضية ، يربط الماضي ، بما يمثله من زهو لديه ، بالشباب بما يعنيه من قوة إرادة وشدة عزم فضلا عن الفتــاء والفروسية والإشراق • يقول [٢] :

أتىٰ الزمانَ بنوه في شــبيبتهِ فَسَرَّهُمْ وأَتَيناه علىٰ الهَــرَمِ

فهو يغبط الناس الذين عاشوا شباب الزمان وفتوته أى الماضي ، في حين يعيش هو شيخوخته وضعفه أى الحاضر •

اننا نلمح في هذا البيت والذى سبقه عرض المتنبي فيهما لذكر الماضي ـ وهما برأينا أوضح أبياته وأكثرها دلالة على طبيعة نظرته للماضي ـ ، أنه ينظر اليه بوصفه تاريخ أمة وتراثها • فهو اذ يتمنى العيش مع سالف الأمم ، يود لو أنه عاصر أيام عز الأمة وشــدة بأسها وامتداد سلطانها ، فضلا عن رقي حضارتها ـ وان يكن العصر الذى عاش فيــه المتنبي يعد امتدادا لرقيها الثقافي والفكرى ـ •

ولعل تعريج المتنبي هذا على ذكر ماضي الأمة ، كان بدافع من الحقيقة التي تمنى أن يحياها ، فضلا عمّا يمثله الماضي له من معاني القوة والعزة ، وهو ذو الطموح السياسي الكبير وصاحب المشاعر الدينية والقومية التي أعلن عنها في شعره وعلى امتداد ديوانــه وبخاصة السيفيات منه •

أما ماضيه الشخصي فانه لم يشر اليه ، وربما كان ذلك منه بسبب من ارتباطه الشــديد نفسا وروحا بالحاضر والمستقبل ، فالحاضر هو قلقه الدائم في صراعه المستمر مع الزمــان ، وأما المستقبل فهو الأمل بالقادم • وهو وان لم يصرح به الا أنه كان يحس به ، وإحساسه بماضيه هذا ، ينبع من شعوره بالألم ، ذلك أن التألم مطبوع بطابع الماضي [٣] • فهو شعور الذات بأن شيئا يحدها في وجودها العيني • فهي تريد أن تحقق إمكاناتها في العالــم

---

(١) التبيان ٤ : ٢٥٧ / ٣٨ •
(٢) نفسه ٤ : ٢٥٧ / ٣٩ •
(٣) ينظر: الزمان الوجودى ١٦٩ •

الذى قذفت به ، لان الاتجاه الأصلي فيها هو تحقيق الإمكانات قدر الوسع والطاقة ، وتحقيق الإمكانات يصطدم بالغير لأنه لا يجرى في داخل الذات وحدها ، بل لابدّ أن يجرى في الغير • فاذا ما لاقت في هذا التحقيق مقاومة ، تألمت • وكلما زادت الإمكانات التي ستحقق ، زاد الألم الناتج تبعا لزيادة المقاومة(١)•

ولا يخفى ما كانت تمتلىء به نفس المتنبي من طموحات كثيرة كان يود تحقيقها ، حتى أدى به ذلك الى خوض صراع مرير مع الزمان ، كان الألم فيه من المشاعر الطاغية على شعره ، وبخاصة حينما يشتد أذى الزمان عليه ، ووقوفه بوجهه ، لأن هذا الأذى وذلك الوقوف يعنيان عدم تحقق مطمح أو مطامح معا •

فالمتنبي يعبر عن ماضيه بما نحسه من ألم في شعره عندما يخسر جولة من جولات تحديه للزمان ؛ اذ الخسارة تعني فشله في تحقيق أمل أو مطمح ما • فتمر الفترة التي كان يخوض في أثنائها تلك الجولة بلا طائل ، حتى تصبح ماضيا • فان كان السرور كذلك يحمل طابع الماضي ، بما يعنيه من تحقق إمكانات(٢) ، فان المتنبي كان أكثر إحساسا بالألم منه بالسرور ؛ وذلك بحكم نوعية ما كان مسكونا به من آمال وطموح فضلا عن طبيعة الظروف التي مرت به في سعيه الى الوصول اليها ، ناهيك عن خصوصية نفسيته وأسلوبه في تعامله مع من حوله • قال(٣) مشيرا الى مثل ذلك :

صحبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم في شأنِه ما عنانا
وتولّوا بغُصَّةٍ كلهم منـ ... ـه وإن سَرَّ بعضَهمْ أحيانا
ربما تُحسِنُ الصَّنعَ لياليـ ... ـهِ ولكنْ تُكَدِّرُ الإحسانا

أما المستقبل في نظر المتنبي ــ كما أرى ــ فهو الوقت الذى يقدر فيه على نيل كل ما كان يصبو اليه ، ومن هنا كان صراعه مع زمانه الحاضر ، اذ كان يستعجل الحصول على ما يريد ، ولكن ظروفه التي خلع عليها صورة الزمان ، لم تكن تستجيب له أو تتجاوب معه ، مما أدخله في صراع معها وتحد فكان ما كان •

واستنادا الى ما مر فاننا نذهب الى أن رحلات المتنبي الدائمة الكثيرة ، كانت رحلات نحو المستقبل ، فقد كان يأمل من كل ممدوح يقصده أن يحقق له طموحاته عسى أن يقر ويهنأ ، ولمّا لم يجد مثل هذا الممدوح ، صار التململ سمته وأصبحت الرحلة رمز حياته ، فما استقر ((في مكان وما استطاع الانسجام طويلا مع قوم بسبب تطلعاته •••• وما

(١) ينظر: الزمان الوجودى ١٥٨ ــ ١٦١ •
(٢) ينظر: المصدر نفسه ١٦٢ ــ ١٦٣ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٧٤/ ١ ــ ٣ •

حياته القلقة المضطربة الا مظهر من مظاهر اندفاعه دائما نحو مقبل الأمور))(1) ، فهو القائل (2) :

أُريدُ من زمني ذا أن يبلّغني ... ماليس يبلغُهُ في نفسهِ الزمنُ

ومن هنا كان المتنبي يضفي على ممدوحه ، صفات التفوق على الزمان وجبروته والتحكم في مجريات الأيام ، أي كل الصفات والمزايا التي من شأنها أن تجعل الممدوح أقوى من الزمان والمتحكم فيه • وهي الصورة التي يريدها المتنبي ويتمناها لمستقبله ، اذ يطمح الى أن يكون مستقبله أقوى من حاضره وماضيه ، وأبهى • فممدوحه أقوى من الأيام (3) :

ولا تَفتقُ الأيامُ ما أنت راتقٌ ... ولا تَرتقُ الأيام ما أنت فاتقٌ

ويحفظه من شرور الزمان (4) :

يامَن نلوذُ من الزمانِ بظلّهِ ... حقا ونطردُ باسمهِ إبليسا

بل ان الزمان ليحتذر من المتبني ذليلا تائبا ، اذا ما علم الممدوح بحاله (5) :

حالا متى علِم ابنُ منصورٍ بها ... جاء الزمانُ إليَّ منها تائبا

فالممدوح يدفع عنه نوائب الزمان ، ويصلح ما أفسده من أموره • فالممدوح فوق أن يناله الزمان ، على الرغم من أنه رمز الفناء والتبديل (6) :

هان على قلبهِ الزمانُ فما ... يَبِين فيه غَمٌّ ولا جَذَلُ

واذا اما اختصم الممدوح مع الزمان ، فان النصر سيكون لممدوحه ولا ريب (7) :

تعرَّضَ سيفُ الدولةِ الدهرَ كلَّهُ ... يُطَبِّقُ في أوصالهِ ويُصَمِّمُ

فجازَ له حتى على الشمسِ حكمُهُ ... وبان له حتى على البدرِ ميسمُ

وهذا النصر يعني تأكيد سلطة الممدوح على الزمان ، ((فالشمس تمثل النهار ، والبدر يمثل الليل ، واذا ما بسط الأمير نفوذه على هذين الرمزين الشاخصين فانما يبسط بذلك نفوذه على (الزمن)))(8) •

---

(1) المحصول الفكرى للمتبني ٥٩ •
(2) التبيان ٤ : ٢/٢٧٣ ، وينظر ٣ : ٦/٢١٩ • (3) نفسه ٢ : ٢٥/١٥٦ •
(4) التبيان ٢ : ٢٣/١٢٩ •
(5) نفسه ١ : ١٢/٢٤ •
(6) نفسه ٣ : ١٣/٢٠٢ ، وينظر: الشعر والزمن ٤١ـ٤٢ والمتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ٦٤ •
(7) نفسه ٣ : ٢٢١ / ٤ ـ ٥ •
(8) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٩٧ •

ومما يؤكد ما نذهب اليه ــ فضلا عن الأمثلة الكثيرة التي جعل فيها المتنبي الغلبة لممدوحه على الزمان وحوادثه وما ينتهي اليه من موت (١) ــ ربطه بين أفعال ممدوحه والفجر أو النهار • فبعد مقدمة غزلية ذكر فيها طول لياليه ، قال (٢) :

لَقِيتُ بدربِ القُلَّةِ الفجرُ لقيةً ... شفَتْ كمدي والليلُ فيه قتيلُ
ويوما كأن الحُسنَ فيه علامةٌ ... بعثتِ بها والشمسُ منكِ رسولُ
وما قبلَ سيفِ الدولةِ اثّارَ عاشقٌ ... ولا طُلِبتْ عند الظلامِ ذُحولُ

فقد قرن هنا بين انتصار الممدوح وانبثاق الأمل في نفسه هو (٣) ، اذ كان ينتظر طلوع النهار متلهفا اليه • قال (٤) :

أما في النجومِ السائراتِ وغيرِها ... لِعَيْني على ضوءِ الصباحِ دليلُ

فصورة الصباح هذه ((ترتبط بالحب له وبالتفاؤل فيه • كما ترتبط بالقوة وما ينسبها الى نفسه أو الى الممدوح)) (٥) • ومن ذلك ما جاء في قصيدته التي وصف فيها هربه من مصر ، اذ قال (٦) :

ولاح لها صورٌ والصباحُ ... ولاح الشُغورُ لها والضحى

فجعل مطلع الصباح مؤذنا بدنو نهاية فراره ، بعد ما تجشمه من ليل الجهد والخوف في أثناء فراره هذا (٧) •

وهكذا يكون (الممدوح) و(المستقبل) و (الصباح) مفردات ذات معان تدل احداها على الأخرى وترمز اليها ، وبخاصة اذا ما أحب المتنبي ممدوحه بصدق وأحس بقربه منه •

لقد كان المتنبي ، على الرغم من كل صور الأمل والتفاؤل التي رسمها لمستقبله ، يعاني إحساسا داخليا مؤرقا بالخوف من غدر الزمان ومماحكة الأيام • أفلم يقل (٨) :

وما الدهرُ أهلٌ أن تُؤمَّلَ عنده ... حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النَسْلِ

---

(١) أحصينا منها ، فضلا عما تمثلنا به ، أكثر من ستين شاهدا ، توزعت على امتداد الديوان •
(٢) التبيان ٣ : ١٨٧ / ١٠ ــ ١٢ •
(٣) ينظر: فصول في الشعر ونقده ٩٣ ــ ٩٤ ، وسيفيات المتنبي ٥١ •
(٤) التبيان ٣ : ١٨٧ / ٨ •
(٥) سيفيات المتنبي ١٨٨ •
(٦) التبيان ١ : ٧ / ١٣ •
(٧) ينظر: الطبيعة عند المتنبي ٤٠ •
(٨) التبيان ٣ : ١٧٨ / ٣٢ ، وينظر ١ : ٥٩ / ٨ •

فقد كان يخشى على آماله وطموحاته من هذا الزمان الذي يناصبه العداء ، مما ظهر جليا في شعره في ممدوحيه ، بوصفهم المستقبل الذي يرغب فيه ، اذ كشف عن خوفه عليهم من غدر الزمان وخيانته • قال(١):

ذا جودُ مَن ليس من دهرٍ على ثقةٍ وزُهدُ مَن ليس من دنياه في وطنِ

وبما أنه يأمل من ممدوحيه الكثير ، فقد دعا لهم أن تتخطاهم مصائب الزمان ونوائبه • ونلمح هذا بخاصة في سيفياته بحكم علاقته الخاصة بسيف الدولة • اذ قال(٢):

فلا غفلَ الدهرُ عن أهلــــهِ فإنك عينٌ بها ينظـــــرُ

ففي هذا الدعاء ، اذ الممدوح عين للدهر ، سمة خوف أن تغمض هذه العين أو تصاب بمكروه(٣) • ومن ذلك ، أيضا ، قوله فيه(٤):

فلا تَنَلْكَ الليالي إنّ أيديَهــــا إذا ضربنَ كسَرْنَ النبْعَ بالغَـرَبِ
ولا يُعِنَّ عدوا أنت قاهــــرهُ فإنهن يَصِدنَ الصَقْرَ بالخَـرَبِ

انه يدعو له أن لا تناله الليالي ولا تعين من عاداه • فهو وان كان من أفاضل الناس وأحسنهم الاّ أن من طبع الليالي الغدر ومعاونة السيء على الحسن • ((واستعمال صيغة المضارع هنا في الدعاء تكشف عن إحساس قلق ، وتوجس من المستقبل ، فهي ترتبط بالأمل بتحقق هذا الدعاء دون الاطمئنان التام الى تحققه))(٥) • فاذا ما أصابت ممدوحه مصيبة ما فانه سرعان ما يضع صورة الصبر نصب عينيه ، حتى يصل من خلال ذلك الى أن الفاجعة مهما عظمت فانها لن تلقي بظلالها القاتمة الكئيبة على نفس هذا الممدوح فهو أقوى منها وأشد(٦)، من ذلك قوله(٧):

ولم أرَ أعصى منكَ للحزنِ عَبـــرةً وأثبتَ عقلا والقلوبُ بلا عقـــلِ
تخونُ المنايا عهدَهُ في سليلـــهِ وتَنصرُهُ بين الفوارسِ والرَّجْــلِ
ويبقى على مرِ الحوادثِ صبـــرُهُ ويبدو كما يبدو الفِرِنْدُ على الصقْلِ

وتأسيسا على ما ذهبنا اليه من كون الممدوح هو المستقبل المأمول ، فكأني بالمتنبي ههنا يصبر نفسه هو أو قل يحلمها الصبر ، مهيئا اياها لتحمل ما يمكن أن يجبهه به زمانه من صد وغدر فيما يستقبله من أيام ، يأمل أن تكون مشرقة •

لقد سعى المتنبي نحو المستقبل ليصل الى نيل ما رغب فيه وأحب تحقيقه من آمال وطموحات تغلغلت في دهاليز نفسه وتسربت في ثنايا روحه ، بكل ما تتمثل فيه من رغبة في الحكم والسيادة ، ومن شهرة تملأ الآفاق ، ومن حب امرأة يملك عليه قلبه ، ومن ثراء مادي لا يكون معه محتاجا الى أحد ، ومن أناس وممدوحين يحبهم ،

---

(١) التبيان ٤ : ٩ / ٢٦٩ ، ٤٠ ، وينظر ٤ : ١٣٨ / ٤٤ (٢) نفسه ٢ : ٩٦ / ١١ •
(٣) ينظر : سيفيات المتنبي ١٩٤ (٤) التبيان ١ : ١٨ / ٢٧ ـ ٢٨ •
(٥) سيفيات المتنبي ١١٩ •
(٦) ينظر : الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣١١ •
(٧) التبيان ٣ : ١٧٨ / ١٣ ـ ١٥ •

يخلصون له الود كما يخلصه لهم بعيدا عن الحسد والضغائن والمكائد • وبذل في سبيل ذلك كل ما وسعه من جهد نفسي وفكري وجسدي ، حتى إنه ما كان يستقر الا ليتهيأ لرحيل، وما ينزل في كنف ممدوح الا ليودعه • ولهذا كان يكره أشد الكراهية ويمقت غاية المقت كل ما من شأنه أن يعترض طريقه أو يعوقه فيه •

ان هذا السعي الذي دفع اليه الحب والرغبة والأمل ، بكل ما يعنيه من تغير وحركة مستمرين ، هو جوهر إحساس المتنبي بالمستقبل ونظرته اليه وعلاقته به ، لأنه بوساطته يحقق إمكاناته ويثري ذاته (١) •

واذ ننتهي من عرضنا للزمان النفسي في شعر المتنبي بوصفه آنات ثلاثة ، نخلص الى أن هذه الآنات تكمل إحداها الأخرى وتدل عليها وتوصل اليها ، متداخلة متفاعلة، متساوية في الأهمية والقيمة ، بما يجلو لنا طبيعة إحساس المتنبي بالزمن وحقيقة علاقته به وكيفية تعامله معه •

— الزمان والموت :

واذ استغنى المتنبي عن اللذائذ والملاهي ، التي سقط فيها غيره من شعراء زمانه بخاصة ، ليتجشم مصاعب التنقل وراء غايات ومطالب نذر لها نفسه ، فانه ، لا بدّ ، كان يفكر في رحلته الأخيرة ، رحلته من هذه الدنيا الى العالم الآخر ـ فرحلاته بين البلاد والممدوحين كانت ستستمر ما بقي في نفسه رمق ـ سواء أكان هذا التفكير في ساعة هدوء وصفاء أم في ساعة قلق وانفعال • وما من شك في أنه انتهى الى حتمية الموت • فقد قال (٢) :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نَعافُ مالا بدّ من شُربِهِ

فاذ يطلق على الناس (بنو الموتى) ، فانه يجعل الموت هو الأصل، ولا بدّ من الرجوع اليه • ولكنه ، على الرغم من ذلك، قد شعر بالقلق ازاءه • لذلك راحت أبياته الكثيرة في الموت والحياة تتراوح بين الذم والرضا ، والرفض والقبول ، والانفعال والتأمل ، والغضب والهدوء، والتشاؤم والأمل • كل ذلك بحسب حالته النفسية وموقفه الشعوري (٣) • لينتهي من ذلك الى أن الحياة

---

(١) ينظر: الزمان الوجودي ١٦٤ ـ ١٦٧ •
(٢) التبيان ١ : ٣٩ / ١٠، وينظر ١ : ٣٩ / ٨ و ٤ : ٢٤٤ / ٢.
(٣) ينظر في ذلك: مع المتنبي ٢٢١ وفن الفخر وتطوره في الأدب العربي ١١٨ ـ ١٢٢ و ١٣٢ ـ ١٣٤ والمتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٣٠٢ ـ ٣٠٤ والمحصول الفكري للمتنبي ٦٠ ـ ٦٩، وتفسير شخصية المتنبي من شعره ٣٢ ـ ٣٦ والمتنبي شاعر الوجودية، مجلة الهلال س ٨٢ ع ٦ ١٩٧٤ ص ١٢٦ ـ ١٢٨، والشعر والزمن ٤٥ ـ ٤٧، والمثال والتحول ٥٥ ـ ٦٠، وهل كان المتنبي متشائما ١١٠ ـ ١١١، وأثر الاخفاق في شعر المتنبي (مواضع متفرقة) وحكمة المتنبي ٦٩ ـ ٧١، والدهر والقدر في شعر المتنبي ٦٨ ـ ٧٩، والخوف في أدب المتنبي د • محمد عبد الرحمن شعيب ٦٠ ـ ٦٤، ودراسات أدبية ١٦ ـ ٢٠ وسيفيات المتنبي ٢٠٠ ـ ٢٠٨،

(=)

ما دامت قصيرة ، وبخاصة في نظر الممتلئين آمالا وطموحات من أمثاله ((فلن تستقر أو يهنأ بها صاحبها اذا زادت بعض الهنيهات ، فما على الشخص الا أن يلغي من قائمة أهدافه مطلب البقاء الذى لن يحصل عليه أبدا ، وينشغل بالأهداف الأخرى الواقعة في متناولـه كالرئاسات والعزة وذيوع الصيت وتقويم الإنتاج الرائع ، وليجب المرء البلاد وليقطع الصحارى ،وليجابه المخاطر في رحلة انتحارية طويلة تمتد امتداد العمر وتنهيه))(١).

فقال(٢):

غير أن الفتى يلاقي المنايا — كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو أنّ الحياةَ تبقى لحيٍّ — لعددنا أضلَّنا الشجعانا
وإذا لم يكنْ من الموتِ بدٌّ — فمن العجزِ أن تكونَ جبانا
كلُّ ما لم يكنْ من الصعْبِ في الأنـ — فسِ سَهْلٌ فيها إذا هُوَ كانا

فاذا ما سلّم المتنبي بحتمية الموت ، فانه آمن بأن خلود الذكر حياة أخرى . قال(٣):

ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثاني وحاجتُهُ — ماقاتَهُ وفضولُ العيشِ أشغالُ

ولذلك طلبه لنفسه قائلا(٤):

وما الدهرُ إلا من رواةِ قلائدي — إذا قلتُ شِعْرا أصبح الدهرُ مُنْشِدا
فسارَ بهِ من لا يسيرُ مُشَمِّرا — وغنّى به مَن لا يُغَنِّي مُغَرِّدا

وقد تحقق له ذلك ، وصدق قوله(٥):

أنامُ مِلءَ جُفوني عن شواردِها — ويَسهرُ الخلقُ جَرّاها ويَختصِمُ

(=) والرفض ومعانيه في شعر المتنبي ٢١٢ ــ ٢٢٢ ،وأبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره ٨٥ ــ ٩٤ ،والصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٠٥ ــ ٢١٣ و ٣٥٦ ــ ٣٦٢ . وينظر كذلك :الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ١٢١ ــ ١٧٦ .

(١) المحصول الفكرى للمتنبي ٦٧ .

(٢) التبيان ٤ : ٢٧٤/٧ ــ ١٠ ، وينظر ٤ : ٣٥/٢٥٢ .

(٣) نفسه ٣ : ٤٦/٢١٥ ،والخلود من مطالب الانسان منذ القدم . ينظر في ذلك :مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية ٥١٧ ــ ٥٢٠ .

(٤) التبيان ١ : ٣٦/٦٠ ــ ٣٧ .

(٥) نفسه ٣ : ١٦/٢٢٢ .

وان تكن رحلة حياته ، بكل ما تخللها من رحلات مادية ومعنوية ، قد انتهت ، فان رحلة خلود فنه لمّا تزل مستمرة •

أما عن رأى المتنبي في الروح وما بعد الموت ، فانه ليس من شأن هذا البحث • الاّ أننا نود القول هنا انّ المتنبي في رأيه في الروح وما بعد الموت لم يخرج عن حظيرة الاسلام ، على الرغم مما قد يفسر بعض من أبياته من حيرة أو شك أو تساؤل (١) •

لقد كان المتنبي ((ممتلئا بفكرة الزمن ، وكان يعدو عدوا سريعا وراء طموحه ، وكان أشق شيء على نفسه أن يرى الزمن واقفا وبليدا))(٢) ، لذلك ما برح يسعى الى إثراء كل لحظة زمانية تمر عليه وإغنائها وإملائها ، فهو في سباق صعب مع الزمان • فان مر به وقت أحس فيه بخواء لحظاته وهزالها غدا كئيبا متحسرا ولكن متململا مترقبا ، حتى اذا ما واتته فرصة ما ، انتفض رافضا ، محاولا السيطرة على الزمان وامتلاك أمره • وعلى الرغم من تردد محاولاته بين الفشل تارة والنجاح أخرى ، فانه لم يكن ليتخاذل عن إتمام سباقه مع الزمان ، فلم يعرف لنفسه مستقرا غير دابته يجوب عليها بين جنبات الأرض ، آناء الليل وأطراف النهار ، من أجل الوصول الى ما يريد ، ذلك الذى كان الزمان يشاكسه عليه ويماحكه فيه ، وربما حاربه دونه • ولئن انتصر الزمان بقتل المتنبي فلقد انتصر المتنبي بخلود ذكره على طول الزمان •

---

(١) ينظر فيما قيل حول ذلك: حياة أبي الطيب المتنبي، محمد محيي الدين عبد الحميد ، مجلة الأزهر ، مجلد ٢٧ ، ج ٠ ، شوال ١٣٥٥ ، ص ٧١٤ ـ ٧١٩ ، والمحصول الفكرى للمتنبي ٦٩ ـ ٧٢ ، ودراسات أدبية ١٦ •

(٢) دراسات في النص الشعرى العصر العباسي ١٨٨ •

ثانيا :البعد المكانـــي :

لا شك في أن المكان مساحة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم والأبعاد ، وينكون من مواد ، ولكنه فضلا عن ذلك نظام من العلاقات المجـــردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة والمحسوسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني ، أو الجهد الذهني المجرد(١) • ومن هنا كان تقسيم المكان الى طبيعي ونفسي(٢)، أو كمـــا ذهب بعض الباحثين الى تقسيمه الى موضوعي ومفترض(٣) •

إن المتنبي في إحساسه بالمكان وتعامله معه ، كان ينظر اليه بوصفه امتدادا جغرافيا طبيعيا ، يحتوي على أناس تربطه بهم ــ أي المتنبي ــ علاقة أو مجموعة من العلاقات ــ بصرف النظر عن طبيعة هذه العلاقات ودرجتها ــ • فضلا عن تعامل المتنبي الحسي ــ المادي مع المكان ، فانه لم يحد عن النظر اليه من واقع طبيعته النفسية الخاصة وحالاتـه الشعورية المختلفة ، التي تحكمت فيها الظروف التي أحاطت به ، أو الأحداث التي مـــرت عليه ، اذ الموقف من المكان ((موقف من الصراع الانساني في الواقع • وموقف من العلاقات الاجتماعية السائدة ، مضافا اليها الجوانب الفكرية والنفسية التي تحدد الممارســـة أو النشاط البشري على المكان الفعلي ، سلبا أو ايجابا))(٤) •

كان لا بدّ للمتنبي، بوصفه رحالة لا يقر ، أن يخبرنا ، بدءا ، بمعرفته الأرض وخبرتـه بمسالكها ، فضلا عن كثرة تطوافه وامتداد تجواله • فقال(٥) :

كأني دُحُوَّ الأرضِ من خِبرَتي بها كأني بنىَ الإسكندرُ السَّدَّ من عَزمسي

وقال كذلك(٦) :

بأيِّ بلادٍ لم أجُرَّ ذوائبـــي وأيَّ مكانٍ لم تطَـأهُ ركائبـــي

وما كان كل ذلك الا بسبب من هموم عظام وآمال كبار ملكت عليه أقطار نفسه ، حتـى جعلته يعتاد الأسفار • قال(٧) :

---

(١) ينظر: جماليات المكان ، اعتدال عثمان ، مجلة الأقلام ، السنة الحادية والعشرون ، العدد الثاني ، شباط ١٩٧٦ ص ٧٦ •
(٢) ينظر: في النفس والجسد ٣٧ •
(٣) ينظر: الرواية والمكان ، ياسين النصير ٢٧ • ويلخص الباحث خصائص المكان الموضوعي من أنه يبني تكويناته من الحياة الاجتماعية وتستطيع أن تؤثر عليه بما يتماثله اجتماعيا وواقعيا أحيانا • أما خصائص الثاني أي المفترض فهو ابن المخيلة البحت ، الـذي تتشكل أجزاؤه وفق منظور مفترض وهو قد يستمد بعض خصائصه من الواقع الا أنه غيـر محدد ، وغير واضح المعالم •
(٤) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام ، حيدر لازم مطلك ٢١٩ •
(٥) التبيان ٤ : ١٢/٢٣٧ • (٦) نفسه ١ : ١٦/٣٢ وينظر ٣ : ٢٢/٢٢٢ •
(٧) نفسه ٤ : ٢٦/٢٤٤ وينظر ٢ : ٧/٨٩ •

يقولون لي ما أنتَ في كلِّ بلدةٍ ... وما تبتغي ماأبتغي جلَّ أن يُسمى

وانه ليشعر بالملل اذا ما مكث في مكان واحد طويلا ، وبخاصة اذا كان هذا المكوث من غير طائل يجنيه من ورائه • منذ لك قوله(١) حين دهمته الحمى في مصر :

أقمتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائــي ... تخب بي الركاب ولا أمامــي

وملَّني الفراشُ وكان جَنْبــي ... يُمَلُّ لقاءه في كلِّ عـــامِ

ان رحيل المتنبي هذا من مكان الى آخر ومن بلد الى غيره ، جريا وراء آماله وهمومه ، هو شكل من أشكال وعي الذات ، ومحاولة تحقيق الذات ، اذ ليس بالاستقرار وحده يدرك الانسان وجوده (٢) •

واذا كانت هموم المتنبي وآماله ، بما تمثله من محاولة لتحقيق الذات وإدراك الوجود ، هي التي دفعت به الى التطواف في أرجاء الأرض ، فان روحه المتبدية قد أسهمت بدور فعال في ذلك ؛ فقد أحب المتنبي البداوة بكل ما تعنيه من ترحل دائم ، وحياة سهلة عمادها الفطرة ، والتزام خلقي مبدئي • وظهر هذا الحب جليا في شعره الذي تغزل به بالبدويات بخاصة • من ذلك قوله(٣):

مَنِ الجآذرُ في زيِّ الأعاريبِ ... حُمْر الحلى والمطايا والجلابيبِ

إن كنتَ تسألُ شكّاً في معارفِها ... فمَنْ بلاكَ بتسهيدٍ وتعذيبِ •••

وقوله(٤) :

هام الفؤادُ بأعرابيةٍ سكنتْ ... بيتا من القلب لم تَمْدُدْ له طُنُبا •••

فهو ، من خلال شعره ، ((يحمل الفكرة البدوية فكرة ابن الصحراء الذى يتنقل في أرضها من مكان الى آخر ويستبدل بقعة بأخرى •••• فالشاعر لا يحس الارتباط بأرض معينة مثل البدوى الذى ينتمي الى الصحراء المترامية الأطراف • فهو يألف الأرض أية أرض))(٥) اذا ما وجد فيها شيئا يشده اليها ولو بعضا من الوقت • قال(٦) يخاطب سيف الدولة :

---

(١) التبيان ٤ : ٢٥٣/١٧ـ١٨ •
(٢) ينظر: جماليات المكان، جاستون باشلار ١٦٨ •
(٣) التبيان ١ : ٣٤/١ـ٢ وتنظر بقية الأبيات •
(٤) نفسه ١ : ٢٣/٦ وتنظر بقية الأبيات •
(٥) سيفيات المتنبي ٦٩ وينظر: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٢١٥ـ٢٢١، والبداوة في طباع أبي الطيب مجلة الرسالة ، السنة الرابعة ، العدد ١٦٣، ١٧ أغسطس ١٤٣٦ ص ١٣٢١ـ١٣٢٢، والمتنبي د • زكي المحاسني ٤١ـ٤٢، ومع شعراء الاندلس والمتنبي ٥٥ ـ ٦١ •
(٦) التبيان ٢ : ٩٢/١٥، وينظر ٢ : ١١٦/٤ •

وإذا صُحِبتَ فكلُّ ماءٍ مَشْربٌ　　لولا العيالُ وكلُّ أرضٍ دارُ

قد لا تكون هذه الفكرة خاصة بالمتنبي وحده ، وان ظهرت جلية عنده ، وانما هي فكرة عامة شائعة ، مصدرها انتشار العرب على طول البقاع الاسلامية • اذ ألف العرب في حضارتهم الترحل في هذه البقاع ـ لأسباب عديدة ـ ، كما اعتادوا في بداوتهم التنقل في الصحراء (١) •

واذا ما خص المتنبي حياة البداوة والصحراء بالذكر ـ فضلا عن رحلاته بعامة ـ فلعل ذلك يرجع ـ فضلا عن حبه الشخصي ـ الداخلي لها ـ الى إرث نفسي وفني ، مصدره أن الصحراء ((في كل أبعادها تشكل المكان التأريخي المفترض للوعي الأول عند العرب • كونها الفردوس الأرضي الماثل في حلم الشعراء • وهي الملهم ، بوصفها بنية شعورية ثاوية في العقل العربي)) (٢) •

لقد كان لتعامل المتنبي مع المكان وجوه عدة • فالمكان عنده تارة طريق يسلكها وفلوات يجتازها • وهو تارة أخرى موضع يسقط عليه ، في أثناء وصفه اياه ، مشاعره وأحاسيسه • وهو ثالثة الوطن أو قل المستقر الذي يبحث عنه عسى أن يلقي فيه عصا تسياره •

أما المكان بوصفه طريقا ومحطات سفر ، فيتضح فيما أشار اليه من مدن وأماكن مر بها في سيره ، أو أعلن عن أنها ستكون وجهة سفره أو في طريقه • اذ ((يبدأ من مكان ويمر بأمكنة وينتكب أخرى ويهبط بمكان)) (٣) • من ذلك قوله (٤) ، يذكر مسيرته الى حلب سيف الدولة :

تَركنا من وراءِ العيسِ نَجداً　　ونَكّبْنا السَّماوةَ والعراقا
فما زالت تَرى والليلُ داجٍ　　لسيفِ الدولةِ الملكِ ائتلاقا

ثمّ انه حين اختلف ذات مرة مع سيف الدولة ، هدد بالرحيل الى مصر كافور ، وما اتضح هذا الاّ عندما أعلن أن (ضميرا) سيكون عن يمينه في رحلته اذا ترك حلب ؛ اذ (ضمير) هذا ، جبل عن يمين الراحل الى مصر من الشام • قال (٥) :

لئن تركْنَ ضُمَيْرا عن ميامِنِنا　　ليحْدُثَنَّ لمَن وَدَّعْتُهم نَدَمُ

ولعل قصيدته التي أولها (٦) :

ألا كل ماشية الخيزلى　　فدى كل ماشية الهيدبى

---

(١) ينظر: سيفيات المتنبي ٦٩ •
(٢) المكان في الشعر العربي قبل الاسلام ٤٠ •
(٣) المصدر نفسه ٢٩٢ •
(٤) التبيان ٢ : ١٥١ / ١١ـ١٢ •　(٥) نفسه ٣ : ٢٢٢ / ٣٢ •　(٦) نفسه ١ : ٧ / ١ •

من أهم قصائده وأكثرها دلالة على ما ذهبنا اليه ، اذ رسم لنا فيها خط سيره ، حين هرب من مصر الى الكوفة . وهي دليل ساطع على خبرته بالسير في البيد ((فقد سلك طريقا أنفا لا تسلكه القوافل))(١) ، وذكر فيها ((اثنين وعشرين موضعا ليس على السبل المطروقة منها الا اثنان أو ثلاثة ، فما سلك طريق الحاج المصرى الى الحجاز ، ولا طريق دمشق الى الكوفة ، ولا طريق الفرات))(٢) ، بل ((وقع في تيه بني اسرائيل الى أن جازه على الحلل والأحياء ، والمفاوز المجاهيل ، والمناهل الأواجن))(٣) .

وقال يعلن عن قصده أرّجان ، حيث ابن العميد(٤) :

أرّجانَ أيتُها الجيادُ فإنــهُ ... عزمي الذى يذَرُ الوشيجَ مُكسَّرا

ومن ذلك ، أيضا ، ما أشار اليه من مواقع ومدن مر بها أو ذهب اليها ، في أثناء رحلاته مع ممدوحه الى الحرب . حتى انه ذكر في قصيدة واحدة وهي التي أولها(٥) :

ليالىّ بعد الظاعنين شُكولُ ... طِوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ . . .

أربعة عشر اسما لموضع وبلدة ، هي على التوالي : درب القلة وحرّان ودلوك وصنجة وعرقة وموزار وملطية وقباقب والفرات وهنريط وسمنين والران وسميساط ومرعش .

ان ما ذكره المتنبي أو أشار اليه من مواضع ومدن ومياه مما مر به في سفراته أو عرض له في رحلاته ــ بعامة ــ أكثر مما يفسحه لنا المجال ههنا لذكره(٦) . ويكفي أن نشير الى أن ياقوتا الحموى في معجم البلدان كثيرا ما يستشهد بأبيات للمتنبي قالها في عدد مما عرض له من هذه الأماكن(٧) .

---

(١) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢١٦ ــ ٢١٧ .

(٣) الواضح ١٣ وينظر خزانة الأدب ٢ / ٣٥٣ . وقد خصصت لرحلة المتنبي هذه دراستان هما : رحلة أبي الطيب المتنبي من مصر الى الكوفة، أحمد رمزى ، مجلة الرسالة، الأعداد ٩٥٦ و ٩٥٨ و ٩٩٦ و ١٠٠٢ . ورحلة المتنبي في سيناء ، كمال النجمي ، مجلة الهلال ، السنة التاسعة والسبعون ، العدد السادس ، يونيو ١٩٧١ ص ٧٥ ــ ٧٩ .

(٤) التبيان ٢ : ١٥/١٢٤ .

(٥) نفسه ٣ : ١/١٨٧ وتنظر القصيدة كاملة .

(٦) ينظر التبيان ١ : ٣٢/٢٢ ــ ٣٤ و ٤ : ٢٦/٢٥٢ ــ ٢٩ و ٢ : ١١/١٣٨ ــ ١٤ و ٤ : ٢٢٠/ ١٠ ــ ٣٧ وغيرها . .

(٧) جمعها محمد علي الياس العدواني في بحثه: الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبي ، مجلة المورد ، المجلد السادس ، العدد الثالث ، خريف ١٩٧٧ ص ١٣ ــ ٢٢ .

وكما دلّنا المتنبي على عدد من طرقه ، التي عبرها في تنقلاته ، فقد أشار الى سلوكه مسالك لم توطأ من قبل ، من غير أن يذكرها أو يسميها • منذلك قوله ، يتحدث عن إبله[1] :

أَنْساعُها مَمْغوطَةٌ وخِفافُها منكوحةٌ وطريقُها عذراءُ

يرى صاحب التبيان أن مراد المتنبي من عذرية الطريق ((أن طريقها لم يسلكها أحد))[2] • وهذا صحيح ولا شك • وان كان هذا التعبير لا يخلو من الإيماء الى رغبة المتنبي بالتفرد ، فضلا عن احتمال وجود أعداء ، ربما تربصوا به في الطرق المعتادة ، فآثر أن يخفي نفسه عنهم بسلوكه مثل هذه الطرق العذراوات[3] •

هذا فضلا عما أشار اليه المتنبي مما مر به من صحارى وجبال وسهول وأنهار إشارات عامة دون تخصيص أو تحديد ، اذ ذكرها في معرض بيانه عن كثرة رحلاته وقدرته على اجتياز كل ما يعترض سبله من مصاعب[4] •

جاب المتنبي أطرافا واسعة من الأرض العربية ـ الاسلامية ، متنقلا بين أرجائها ، غير أننا لم نره ـ على الرغم منذلك ـ يتصدى لمكان مما مر به بالتأمل العميق والوصف الدقيق ، وكأني به لم يلتفت الى ذلك لأن ما كان يسعى اليه من غايات قد ملأ كل ذرة من كيانه ، فشغله عن تأمل الأماكن ووصفها ، وبخاصة مظاهر الطبيعة منها[5] •

واني وان كنت أذهب الى أن هذا الرأي هو السبب الرئيسي في هذا الانشغال عن الوصف ، فاني لا أستطيع اغفال آراء أخرى قيلت في ذلك ، ترددت بين عمومية التفسير وخصوصيته ، لما تنطوي عليه من منطق مقبول واجتهاد معقول •

---

(١) التبيان ١ : ٣/١١ •
(٢) نفسه ١/١٧ •
(٣) ينظر:الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٥٣ ـ ٢٥٥ •
(٤) ينظر:الفصل الثاني (عناصر الرحلة) من هذا البحث ، مبحث (مفردات الطبيعة) •
(٥) ممن ذهب الى مثل هذا الرأي من الباحثين :محمد شوكت التوني في (أبو الطيب في مصر) مجلة الهلال العدد الخاص بالمتنبي أغسطس ١٩٣٥ ص ١١٦٧ ،ود •طه حسين في (مع المتنبي) ٢٩١ ،وغومث في (مع شعراء الاندلس والمتنبي) ٣٤ ،وعباس حسن في (المتنبي وشوقي) ٢٦٣ ،وسهيل عثمان ومنير كنعان في (المحصول الفكري للمتنبي) ٢٠٢ ،ود •النعمان القاضي في (كافوريات أبي الطيب ـ دراسة نصية) ٤٢٩ ،ود •علي شلق في (المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ••) ٢٦٨ ،ود •حسن فتح الباب في (رؤية جديدة لشعرنا القديم) ٢٤١ ـ ٢٤٢ ،ود •نعمات أحمد فؤاد في (النيل في الأدب المصري) ١٥٢ ،ود • محمود حسن أبو ناجي في (الحرب في شعر المتنبي) ٢/٢٤٧ •

فالدكتور طه مصطفى أبو كريشة يعزو ((تلك الجفوة بين المتنبي وبين الطبيعة ، الى ما فطر عليه من طبيعة تشاؤمية ، تنظر الى الحياة بمنظار قاتم ، اذ ليس من السهل على من يغلب عليه مثل هذا الطبع ، أن تستهويه مظاهر الجمال ، أو تبهره ملامح الابداع في الكون ..))(١) . في حين ترى الدكتورة نورة الشملان أنه ((لا يمكن تعليل ازورار أبي الطيب عن الطبيعة الا بالقول انه لا يهواها ولا يعشقها))(٢) ، لكنها لا تنبئنا بالسبب في انتفاء حب المتنبي الطبيعة .

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن السبب في عدم تعرض المتنبي لوصف الطبيعة ، عندما كان في كنف سيف الدولة ، هو أن المتنبي خاف ان هو نازل شعراء سيف الدولة في وصف الطبيعة ألا يبلغ مستواهم فيه ، ومنهم من كان مجليا في هذا الجانب مثل الصنوبري والخالديين والوأواء الدمشقي وغيرهم ، فآثر عدم المغامرة . فلما اتجه الى عضد الدولة حيث خلا له الجو لم يجد غضاضة في أن يستهل احدى مدائحه بوصف الطبيعة(٣).

أما عن اغفال المتنبي ذكر الطبيعة المصرية ووصفها ، فقد ذهب عدد من الباحثين في تفسير ذلك ، فضلا عما ذكرنا من أسباب ، مذاهب مختلفة . فأحمد الشايب يعزو ذلك الى اتخاذ المتنبي شعره وسيلة للجاه والمال ، وعلى هذا فليس من المرجو أن يفرد لفن الوصف قصائد تكون لوحات تصويرية ، أو معارض للعبر والعظات . ثم ان المتنبي ليس من شعراء الوصف الخالصين . فضلا عن عدم اتصال المتنبي بمصر اتصالا قويا ، لذلك لم تتهيأ له الصلة النفسية التي تقربه منها متأملا وواصفا(٤). ويذهب الدكتور النعمان القاضي الى القول بأن التناقض الشديد بين هدوء الطبيعة الساكنة في مصر وعنف طبيعة المتنبي المتمردة العاصفة ، كان من الأسباب التي لم تدفعه الى التغني بمصر(٥).

أما الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فقد ربطت بين حب المتنبي لممدوحه ووصف الطبيعة ، اذ ترى أن المتنبي لمّا كان يحب سيف الدولة فانه رأى فيه وفي كل ما يحيط به مجلى للوصف ووحيا للشعر ، حتى انه وصف فازة سيف الدولة ، في حين لم تهزه طبيعة مصر الجميلة لأنه كان يكره كافورا وقد انسحب كرهه اياه على مصر(٦).

---

(١) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ٥٥ .
(٢) المتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ١٦٤ .
(٣) ينظر: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ٤٨٩ ـ ٤٩٠ وأبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ٤٨١ ـ ٤٨٥ .
(٤) ينظر: أبحاث ومقالات ٩٦ ـ ٩٩ .
(٥) ينظر: كافوريات أبي الطيب دراسة نصية ٤٢٩ ـ ٤٣٤ .
(٦) ينظر: النيل في الأدب المصري ١٥٢ ـ ١٥٣ .

لقد غالت الدكتورة فؤاد في رأيها هذا ، فلو كانت مسألة الوصف مقترنة بحب الممدوح ، فلم لم يصف المتنبي طبيعة حلب وما حولها من أشجار وبساتين ، تلك التي أبدع غيره من شعراء سيف الدولة في التغني بها والترنم بجمالها ؟ • أما وصف الفازة فهو التفاتة فنية ذكية وجميلة من المتنبي حين أفاد من الرسوم التي عليها في مدح سيف الدولة، ولا شك أن الفرق بيّن بين وصف الطبيعة مكانا ووصف قطعة من قماش مزينة بالرسوم • ثمّ هل كان المتنبي يحب عضد الدولة حين وصف شعب بوان ؟ •

على الرغم من هذا كله ، فان المتنبي ، بوصفه إنسانا أولا وشاعرا ثانيا ، كان لا بد له أن يلتفت ولو سريعا الى بعض ما حوله أو ما مر به من مجالي الطبيعة ، فيشير اليه واصفا متأملا، ليشكل هذا الوصف إلماعات قليلة في خضم شعره • ولم تكن هذه الإلماعات لتشير الى وصف عادي ((وانما كان يتخذ الوصف وسيلة الى مايثور في نفسه من العواطف والأهواء))[١]، بمعنى أنه ((لم يكتف بالعين بل مزج معها الانعكاس الداخلي لثقل ما يعانيه))[٢] • وقد أجمع الباحثون والدارسون ــ بحسب ما اطلعنا عليه ــ على براعته في وصف ما تصدى له بالوصف •

ولعل أبرز ما أثار انتباه المتنبي من هذه المجالي أو المظاهر الطبيعية ، بحيرة طبرية وجبال لبنان وشعب بوان • أما البحيرة ، فقال فيها[٣]:

لولاكَ لم أتركِ البحيرةَ والـ	غورُ دفيءٌ وماؤها شَبِمُ
والموجُ مثلُ الفحولِ مُزْبِدَةً	تَهدِرُ فيها وما بها قَطَمُ
والطيرُ فوقَ الحَبابِ تَحسِبُها	فرسانَ بُلْقٍ تخونُها اللُجُمُ
كأنها والرياحُ تضربها	جيشا وغىً هازمٌ ومنهزمُ
كأنها في نهارِها قمرٌ	حَفَّ به من جِنانِها ظُلَمُ
ناعمةُ الجسمِ لا عظامُ لها	لها بناتٌ وما لها رَحِمُ
يُبْقَرُ عنهنّ بَطْنُها أبدا	وما تَشَكّى ولا يسيلُ دَمُ
تَغَنَّتِ الطيرُ في جوانِبِها	وجادتِ الروضَ حولَها الدِيَمُ
فهْيَ كماويّةٍ مُطَوَّقةٍ	جُرِّدَ عنها غشاؤها الأَدَمُ

تطغى على نظرة المتنبي الى بحيرة طبرية هذه روح الحرب والقتال ، فكأنه لم يرَ فيها غير الفحول والجيوش والفرسان[٤] • ولا شك في أن ذلك يعود الى طبيعة حالته النفسية

---

(١) مع المتنبي ٢٩١ ، وينظر: المتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ١٦٣ •
(٢) الرواية والمكان ٦٧ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٢٨/٣٢ ــ ٤٠ •

(٤) ينظر: المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ••• ٢٧١ •

آنذاك ، فضلا عمّا كانت تضطرم به نفسه من آمال ومطامح ، يشعل ذبالتها شباب يتفجر نشاطا وحيوية وإصرارا ، واني أرى أن لمناسبة القصيدة وظروف إنشادها أثرا في ذلك • وهذا ما يتضح من سياق القصيدة •

أما جبال لبنان فقد قال فيها (١) :

بيني وبين أبي عليٍّ مِثْلُهُ ... شُمُّ الجبالِ ومثلهنّ رَجاءُ
وعِقابُ لبنانٍ وكيف بقَطعِها ... وهُوَ الشتاءُ وصيفُهنّ شتاءُ
لَبَسَ الثلوجُ بها عَلَيَّ مسالكي ... فكأنها ببياضِها سوداءُ

فهو اذ يشير الى ارتفاع هذه الجبال وعلوها ، والى اكتسائها بالثلج ، فانه لا يخفي عنّا ما كان يراها عليه من سواد • وهذا السواد هو إحساسه ازاءها ، لأنها بما عليها من ثلوج،سدّت عليه مسالكه ، ووقفت حائلا بينه وبين ما كان يمكنه الحصول عليه من هذا الممدوح الذي يقصده • ولا تخفى روعة مطابقته بين الحالة المادية (الجبال المتسربلة بالبياض) وحالته المعنوية(المتشحة بالتشاؤم والسوداوية) ، فهو هنا ((لا يعمد الى الوصف النقلي بل يراوح بين وصف المنظر الطبيعي ووصف الحالة النفسية التي يعاني منها فقد وصف الجبال ووصف أحاسيس إنسان تائه بين مجاهل تلك الجبال فلم يلتفت الى منظرها الأبيض الجميل لأنها تحولت في ناظره الى لون أسود يلائم حالته الداخلية))(٢) •

أمّا شعب بوان فقد عرض له في قصيدته التي أولها (٣) :

مَغاني الشِعْبِ طيبا في المغاني ... بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ
ولكنّ الفتىٰ العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

قال المتنبي هذه القصيدة بعد ما عانى ماعاناه من تعب جسدي وإرهاق نفسي وإجهاد فكري ، نتيجة سعيه الحثيث وراء آماله ومطامحه ، التي طوّحت به من أرض الى أرض ، وجعلته يتردد على هذا وذاك ، حتى انتهى به المطاف — حتى ذلك الحين — في شيراز حيث عضد الدولة ، لذلك نلمح تأثرا خاصا منه بهذه البقعة الجميلة من الأرض ، فاذ جعله التعب والإرهاق يلتفت اليها ، فانه أحس بها تبعث في نفسه مشاعر وأحاسيس لم يكن لينتبه اليها من قبل ، في خضم انشغاله بحرب تحقيق الأماني ، من مثل الشعور

---

(١) التبيان ١ : ٣/١٣—١٥ •
(٢) المتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ١٦١ •
(٣) التبيان ٤ : ٢٧٨/١—٢ وتنظر القصيدة كاملة •

بالارتياح والإحساس بجمال الطبيعة • فضلا عمّا أثارته في داخله من معاناة الإحساس بالغربة المكانية ، وهذا ما لم يمر به سابقا لأنه في كل رحلاته قبلها لم يخرج عن حدود أرض العرب • أما مدحه عضد الدولة — في هذه القصيدة — فلم يكن ليرقى الى مستوى مدحه سيف الدولة الفارس العربي والصديق الذى باعدت بينهما الأيام ، ولعله كان يشتاق اليه آنذاك ويحن الى لقياه [١] •

أما ما يخص الصحراء ، فيرى الدكتور طه حسين أن المتنبي ، بوصفه بدوى الطبع ، دائم التردد على الصحراء وفيها ، ((فكان خليقا أن يصور لنا بعض التصوير طبيعة البادية والصحراء • ولكنه لم يصنع من ذلك شيئا ، وقد احتاج الى أن يسلك سبيل الفحول من قبله ، فيصف الابل والطرق والأسفار ، وما تكلف من جهد وما تحمل من عناء • ولكنه استعار هذا كله أو أكثره من الذين سبقوه ، ولم يضف أو لم يكد يضيف شيئا جديدا)) [٢] • واذ كنت أتفق معه في أن المتنبي لم يصور شيئا من طبيعة البادية والصحراء ، فاني أراه قد أضاف شيئا الى وصفه الإبل والطرق والأسفار ، انه روحه وخصوصية تجربته •

وهكذا ، كان المتنبي يضفي خلجات روحه وذبذبات نفسه على ما يصف من أماكن أو مواضع • واستنادا الى ذلك فانني لا أتفق مع ما ذهبت اليه الدكتورة نعمات أحمد فؤاد بقولها ((ان المتنبي اذا شرع في الوصف فانه يصف المنظر ثمّ يفر الى التعميم • فهو لا يصف ما يحسه هو ، شاعرا ، ازاء ما يرى من طبيعة وانما يستخلص القضايا الكبرى)) [٣] •

ان هذا العرض لما تصدى له المتنبي من الأماكن بشيء من الوصف ، ينتهي بنا الى أنه لم يقف بأى مكان من هذه الأمكنة ، ومن ثمة لم يصفه ، الا بوصفه محطة في طريق رحلته أو معلما من معالمه • فوصفه المكان جاء في إطار الرحلة ، بمعنى أنه عرض لبحيرة طبرية

---

(١) لعل من أبرز ما كتب في شرح قصيدة الشعب كاملة ، فضلا عن تخصيص مواضع منها بالشرح والتعليق ما جاء في : المتنبي ١/٢٨٠ — ٢٨١ ، والصورة الفنية في شعر المتنبي الصورة الضاجة والهادئة ، سالم حميد أمين ، مجلة المعلم الجديد ، المجلد الثلاثون الجزءان الأول والثاني ١٩٦٧ ص ٥٤ — ٥٧ ، ووصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي ، المنباعي بيومي وآخرون ٦٤ — ٦٧ ، ودراسات في النص الشعرى العصر العباسي ٢١٤ — ٢١٩٣ ، والطبيعة عند المتنبي ٧٦ — ٨٥ ، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ٤٩ — ٥٢ و ٩٢ — ٩٦ ، وأبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ٤٧٨ — ٤٩٨ ، ورؤية جديدة لشعرنا القديم ٢٣٩ — ٢٦٠ ، والفصل الأول من هذا البحث ص ٢٩ — ٣٠ •

(٢) مع المتنبي ٢٩٢ •

(٣) النيل في الأدب المصرى ١٥٣ •

لأنها كانت موقفا من مواقف مسيرته ، تركه قاصدا عليا بن ابراهيم التنوخي • وذكر جبال لبنان لأنها اعترضت سبيله الى الأوراجي • أما شعب بوان فقد مر به في طريقه الى عضد الدولة • وما نلمحه من وصف قصير مقتضب لنهرى الفرات[١] وأرسناس[٢]، فانه أتى لمحا خاطفا في معرض كلامه على معارك سيف الدولة ووصفه اياها • أما الصحراء فلأنها طريقه الأثير الذى ما انفك يفخر باجتيازه اياه ،انها ((طريقه الى الأماكن التي يريدها ، فهي وسيلة وعائق في آن واحد))[٣] •

ثمّ ان روح المتنبي التواقة للترحل دائما ، تتضح في وصفه المواضع التي وصفها ، بما أضفاه عليها من مشاهد القوة[٤]، وما بثه فيها من حيوية وحركة[٥] • فالقوة والحيوية والتحرك من أبرز صفات الرحالة وأهمها • وما حياة المتنبي كلها الاّ مشروع دائم للرحلة • حتى انه يتألق في وصف الطبيعة الجسور الحية المتحركة ويقل عن ذلك مع الطبيعة الوديعة الساكنة[٦] • وهكذا لم يكن المتنبي ليقف في مكان أو ينزل في موضع ــ مهما طال ذلك ــ الا ليرحل عنه •

لا أشك في أن المتنبي كان يمر بأوقات تراوده فيها فكرة الاستقرار ، ولعلي لا أبالغ اذا قلت ان حلم الاستقرار كان يداعب خياله من حين الى آخر • فحياة التنقل ، مهما بلغ من حبه اياها أو اضطراره اليها ، كانت ــ لابدّ ــ تشعره بالتعب وعدم الاطمئنان ، وبخاصة في ساعات الضيق والبرم واليأس ، ولذلك أرى أن المتنبي كان يبحث عن وطن بمعنى مكان يستقر فيه ويطمئن اليه ، أو أنه كان على استعداد للاستقرار في أى مكان يراه مناسبا له ، في أقل تقدير • فبدون وطن ((يصبح الانسان كائنا مفتتا))[٧] • ولعل المتنبي كان يحس بالتفتت أو التمزق بسبب من ذلك • ألم يقل[٨]:

أما في هذه الدنيا مكـــانٌ   يُســر بأهلهِ الجارُ المقيـــمُ

فالمتنبي يبحث في أى مكان يفكر بالاستقرار فيه عن أناس يفهمونه ويقدرونه ويحترمونه • أى أنه كان ينظر الى أهل المكان ، الى الناس ((ولئن كان هوءلاء الناس يمثلون الزمان فانهم أيضا يمثلون المكان))[٩] • قال[١٠] :

---

(١) ينظر: التبيان ٣ : ٧ ١٨/٢٩ــ٣٠ والعرف الطيب ٢/ ٣٧٢ •
(٢) ينظر: التبيان ٤ : ٢٦٢/١٧ــ٢٠ والعرف الطيب ٢/ ٤٤٠ •
(٣) المحصول الفكرى للمتنبي ٣٠٥ •
(٤) ينظر: المصدر نفسه ٤٠٤ •
(٥) ينظر: المتنبي د • زكي المحاسني ٤٧، والطبيعة عند المتنبي ٦٠ •
(٦) ينظر: كافوريات أبي الطيب دراسة نصية ٢٩ ٤ ودراسات في النص الشعرى العصر العباسي ٢٠٠ •
(٧) جماليات المكان باشلار ٤٥ •
(٨) التبيان ٤ : ٢/٢٥٥ •
(٩) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ١٩١ •
(١٠) التبيان ٤ : ٢٣٩/١٥ــ١٧ •

ولم أرَ مثلَ جيراني ومثلـــي   لمثلي عند مثلِهمُ مُقـــامُ
بأرضٍ ما اشتهيت رأيت فيهـــا   فليس يفوتُها إلاّ الكـــرامُ
فهلّا كان نقصُ الأهلِ فيهـــا   وكان لأهلها منها التمـــامُ

فعلى الرغم مما في هذه الأرض من خيرات ومنافع ، فانه يشكو سوء أخلاق أهلهـــا ولؤمهم ، حتى تمنى ((أن يكون كمالها فيهم ونقصهم فيها لأن كمال الأرض مع نقص سكانها لا يفيد شيئا))[١]. ولعله من هنا ربط بين العــز والاستقرار . فان لم يحصل على احترام الناس ويكسب تقديرهم الذي يريده منهم لنفسه ، شعر بالذل والمهانة ، اذ أنهم سينتقصون من قيمة ما يسعى الى تحقيقه ، ولن يراعوا مشاعره وأحاسيسه ، ومن بعد لن يساعدوه عليها ، هذا اذا ما سنحوا له الفرصة ليسمعهم ما يريد ، فان لم يسمحوا له بذلك أو أنهم تجاهلوه ولم يعيروه اهتماما ، كانت مصيبته أعظم وألمه أشد وحزنه أعمق . قال[٢] ، يشير الى ذلك :

وما منزلُ اللذاتِ عندي بمنـزلٍ   إذا لم أُبجَّل عنده وأُكـــرَّمِ

وقال أيضا[٣] :

وكلُّ امرئٍ يولي الجميلَ مُحَبَّبٌ   وكلُّ مكانٍ يُنبِتُ العِزَّ طيِّـــبُ

يقول الدكتور ماهر حسن فهمي ((ولا شك أننا نلاحظ في شعر المتنبي تطورا لمفهوم الوطن يقترب من بعض مفاهيمنا المعاصرة ، عندما يقول : ((وكل مكان ينبت العز طيب)) . فلم يعد مفهومه محددا بقطعة الأرض التي يولد فيها ، ما لم تكن منبتا للعز))[٤]. على أني أرى ان المتنبي ان كان يقصد ذلك في قوله ، فان له فكرة محـــددة فيه ، وهي أن لا يكون ذلـــك المكان الذي ينبت العز خارج أرض العرب . لأنه وهو العربي ، قد حنّ اليها وأحس بالغربة بعيدا عنها ، عندما كان في أرض فارس ، حتى قفل راجعا اليها .

وقال كذلك[٥] :

ولا أُقيمُ على مالٍ أُذَلُّ بــــهِ   ولا أَلَذُّ بما عِرضِـــي به دَرِنُ

فهو لا يقر على غنى يلبسه ثوب الذل ، ولا تطيب له لذة يكون ثمنها تلطيخ عرضــه . فهو لا يرغب في تحقيق أي من مطامحه على حساب كرامته وعزة نفسه . حتى إنه لمـــا أراد الخروج من مصر الى الرملة بحجة أنه ذاهب ليقضي ما لاكتب له هناك ، فمنعه كافور من ذلك وحلف عليه أن لا يخرج ، متعهدا له بتوجيه من يقضيه له ، قال[٦]:

---

(١) العرف الطيب ١/٩٨ .
(٢) التبيان ٤ : ٢/٢٥٢ .
(٣) نفسه ١ : ٢٨/٣٥ .
(٤) شعر الاغتراب في الأدب العربي ٤٥ .
(٥) التبيان ٤ : ١٩/٢٧٢ .
(٦) نفسه ٣ : ٢١٤/ ١ــ٢ .

أتحلِفُ لا تُكلِّفُني مسيرا إلىٰ بلدٍ أُحاولُ فيه مالا
وأنتَ مُكلِّفي أنبىٰ مكانا وأبْعَدَ شُقَّةً وأشدَّ حالا

فعلى الرغم من رفهه المادي عند كافور، فانه أحس بالضيق والتبرم والضجر لأنه لا يملك أمر نفسه، فهو محاصر بالعيون محاط بالرقباء، وفي ذلك انتقاص من كرامته وشين لعزة نفسه، لذلك استغل أول فرصة سنحت له للهروب من مصر كافور، ذلك ((ان التطلع الى مثوى جديد لا يرزح فيه الشاعر لأية وطأة من الوطآت، هو سر الرحلة التي ابتدرها في المكان ..))(١).

ومن هنا كانت رحلته طويلة امتدت على مدى حياته، وان تخللتها فترات استقرار فأنها لا تعد وكونها محاولات منه للتلاؤم مع المكان وأهله، لتتحول فيما بعد الى مواضع أو محطات تهيؤ استعدادا لرحلة جديدة، أو قل لتكملة الرحلة. حتى انتهت به تجربته هذه الى القول(٢) ـ مؤمنا ـ :

أعزُّ مكانٍ في الدُنىٰ سَرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

فالحصان أعز مكان يأوى اليه، لأنه الوسيلة التي سيظل يتوسل بها للوصول الى ما يبتغي، فلن يعجز أو يكل بل سيستمر بالمحاولة. واذ لم يجد صديقا أو أنيسا يشاركه الأفكار والمشاعر والهموم فقد التجأ الى الكتاب، وهل هناك أفضل منه ؟ . ومن ثمة لم يعد يستخفه الى بلد الرجوع اليه ما دام لا يربطه به شيء. قال(٣):

غنيٌّ عن الأوطانِ لا يستفزّني إلى بلدٍ سافرتُ عنه إيابُ

ان المتنبي الذي آثر الترحل المتعب نفسا وجسدا على الإقامة الملوثة بالذل، كان لابدّ له أن يعاني آلام افتقاده وطنا يأوى اليه حين تضيق بوجهه الدنيا. وقد عبّر عن مثل ذلك حين قال(٤):

بمَ التعللُ لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ

لقد كان المتنبي، على الرغم من خلافه مع أهل زمانه ذلك الخلاف الذي جعله دائم التنقل، منتميا. وظل ((الانتماء جذوة اللهب التي لا تنطفيء في الوجدان ولكن صروف الدهر قد تشرخ صفوة الود ما بين الفرد وقومه، وتتحول علاقة الرحم الى نوع من المحاداة .... عندئذ لا يجد المرء أمامه غير الرحيل عن موطن الألفة والانتماء))(٥). وهذا ما حصل

---

(١) الرحيل من الوطن اليه ٣٨، وينظر: جماليات المكان اعتدال عثمان ٧٧ .
(٢) التبيان ١: ١٨/٣٦ .
(٣) نفسه ١: ٩/٣٦ .. وينظر التبيان ٣: ١٠/٢٠٢ .
(٤) نفسه ٤: ١/٢٧٢ .
(٥) المكان في الشعر العربي قبل الاسلام ٢٢٤ .

له مع الكوفة وحلب بخاصة • فالكوفة هي مسقط رأسه وملعب صباه ومستقر أهله ، لكنه رحل عنها وقت أحس بالغربة فيها ، لأسباب شخصية وعامة ، لعل من أبرزها وأكثرها تأثيرا حالة الاضطراب السياسي وفقدان الأمن ، وشعوره بأن الكوفة ــ آنذاك ــ أصغر من أن تحقق له ما يريد ، وان كنا سنراه فيما بعد يأوي اليها عقب هربه من مصر ، ولم يتركها مسافرا الى بغداد حتى قفل راجعا اليها ، ولعله كان سيعود اليها ــ أيضا ــ لو لم تخطفه يد المنون[١].

أما حلب فهي المدينة التي عاش فيها ((بين الجمال والحكمة • ووجد في ذلك اشباعا لروحه وعواطفه وفكره ، ولذلك نجد في حياته شيئا من الطمأنينة المقرونة بالسعادة أو بما يشبه السعادة • • • • فلما وقعت الواقعة بينه وبين حلب بدأ الفراغ))[٢] • وهكذا تداخلت رغبته في تحقيق أحلامه ، ورفضه الواقع من حوله ، فضلا عن روحه البدوية المتعطشة للحرية والانطلاق ، في مجتمع لم يفهمه ولم يتفاعل معه ، وتشابكت حتى وضعته ((بين غربتين : غربة المكان وغربة النفس))[٣] •

ان الغربة المكانية[٤] التي أحس بها المتنبي تتضح لنا في ما مر بنا آنفا من كلام على بحثه عن مكان ــ وطن يتلاءم فيه مع أهله ويستقر ، فضلا عما نلمسه من حنين تنبض به قصائده اذ ((أن ارتباط المتنبي (بالمكان) انما هو إلمامة سرعان ما يعقبها رحيل ، ولكن هذه الإلمامة تثير فسي نفسه من المشاعر ما لا سبيل الى اخفائها أو تجاهلها ، لاختزان (المكان) بفيض ثر من الذكريات التي تفجر أحاسيس الحنين والشجن))[٥] • قال[٦] :

لكِ يا منازلُ في القلوبِ منازلُ أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهلُ

ان أبيات المتنبي الغزلية التي يصور فيها ما تثيره في نفسه رؤيته ديار الحبيبة ، تعبير عن إحساس المتنبي بالمكان • ذلك المكان الذى يرى نفسه فيه غريبا وحيدا الاّ من الذكريات والأحلام التي يبعثها في نفسه الوقوف في المكان وتأمله • فمثل هذه الأبيات ((تركيز لقيم الوجود الانساني ونشاطه على المكان الفاعل بالحياة ، ذلك الوجود الذى لا يقوم الاّ على (وطن حقيقي) و (قيم) ايجابية سائدة و (ممارسة) فعلية تجسد تفاصيل

---

(١) ينظر: مع المتنبي ٢٧٥ــ ٢٧٦ والحرب في شعر المتنبي ٢/ ١٨٢ وأبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ١٤١
(٢) المتنبي بين البطولة والاغتراب ٦٤ •
(٣) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ٢٤٠ •
(٤) نعرض هنا للإشارة الى الغربة المكانية بما يكمل ما تكلمنا عليه من إحساس المتنبي بالغربة في الفصل الاول حيث ركزنا فيه على غربته النفسية ، عارضين للغربة المكانية فيها ضمنا •
(٥) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٢٨ ــ ٣٢٩ •
(٦) التبيان ٣ : ٢٠٩ / ١ وينظر ١ : ١٣ / ٧ و ١ : ٦٩ / ١ ــ ٥ •

التعامل مع الواقع)) (١) .

فاذا ما رحل الى مصر ، حيث لا حرية يمارسها ولا آمال يحققها ولا أناسا يحس بالألفة معهم ، قال (٢) :

أحِنُّ الى أهلي وأهوى لقاءهم   وأين من المُشتاق عنقاءُ مُغْرِبُ

ولما كان الوطن عند المتنبي بأهله ، فاني ألمح هـهنا إشارة من المتنبي الى أحد وطنيه : الكوفة (الولادة) وحلب (الأمل والطموح) ، فهو يحن اليهما معا . كلّ بما يحمله من معنى ، ويمثله من رمز بالنسبه له .

ان هذا الحنين الذى يملأ جوانح المتنبي إن هو الا تعبير عن الانتماء ، بل هو توتر معادل لتوتر إحساسه بالغربة (٣) . وسيصبح هذا الحنين ــ بما يعبر عنه ويشير اليه ــ كبيرا طاغيا ، حين يسافر الى بلاد فارس . حيث إحساسه بالغربة هناك أعمق وأعتى بسبب اختلاف أهل هذه البلاد عنه لغة ومحتدا وفكرا ، بخاصة أنه كان ــ لا بدّ ــ يرى دور الفرس من ديالمة وغيرهم ويلمسه ، في تقويض مقومات الدولة العربية ــ الاسلامية . ولعل هذا الإحساس بالغربة والحنين الذى دفعه الى العودة الى أرض العرب ــ فضلا عما نعرفه من طبيعة آماله ومطامحه وخصوصيتها ، وما لا نعرفه مما لم تبده لنا الأيام بعد ــ يشكل ردا كافيا وافيا على ما وجّه وما قد يوجه من نقد أو انتقاد لذهاب المتنبي الى بلاد لم يكن ليحب أهلها أو في الأقل ولاة الأمر فيها . قال (٤) في مدحه عضد الدولة يذكر حبيبته العربية الشامية ويحن اليها :

أوْهِ بَديلٌ من قولتي واهــا   لمن نأتْ والبديلُ ذكراها
أوْهِ لمن لا أرى محاسِــنَها   وأصلُ واها وأوْهِ مرآهــا
شامِيَّةٌ طالما خلَوتُ بهــا   تُبصِرُ في ناظري مُحَيّاهــا
فقَبَّلَتْ ناظري تُغالِطُنــي   وإنما قبّلتْ به فاهــا
فليتها لا تزال آوِيَـــةً   وليتَه لا يزال مأواهــا ....

ان حبيبته الشامية هنا ، سواء كانت حقيقية أم رمزا ، انما هي الوطن ــ أرض العرب . ولا يلبث المتنبي أن يذكر مدن الشام العربية، معلنا حبه اياها ، يملأ كلماته الشوق والحنين (٥) :

---

(١) المكان في الشعر العربي قبل الاسلام ١٨٨ .
(٢) التبيان ١ : ٢٦/٣٥ .
(٣) ينظر الصورة المجازية في شعر المتنبي ٣٣٠ .
(٤) التبيان ٤ : ٢٨٤/١ـ٥ .
(٥) التبيان ٤ : ٢٨٤/١٣ـ١٤ .

أُحِبُّ حِمْصا إلىٰ خُناصِـرَةٍ   وكلُّ نفس تُحِبُّ مُحْياهـا
حيث التقىٰ خدها وتفاحُ لبـ   ـنان وثغري على حُمَيّاها ...

ثمّ يستذكر ما كان له فيها من أصحاب وملاعب (١) :

وصِفتُ فيها مصيفَ باد يـةٍ   شَتَوتُ بالصحصحان مشتاها
إنْ أعشبتْ روضةٌ رعيناها   أو ذُكِرَتْ حِلّةٌ غزوناها
أو عرضَتْ عانةٌ مُقزّعـةٌ   صِدْنا بأُخرىٰ الجيادِ أولاها
أو عبّرتْ هجمةٌ بنا تُركَـتْ   تكوس بين الشُّروبِ عَقْراها ....

ان هذه التداعيات للمكان ، من مدن وبادية ، هي نتيجة الشعور بالغربة المكانية ، والحنين الى أرض الأهل والأحبة والأصحاب ، حيث ولد ونشأ ونضج جسدا وروحا وفكرا ، وحيث يشعر بالانتماء ــ على الرغم من كل خلافاته مع أهل وطنه ــ فان كانت غربته في أرض العرب غربة نفس ، فانها خارجها غربة نفس ومكان • فمهما يكن من ربط المتنبي بين المكان وأهله ، فاننا نحس في شعره هذا الذى قاله في فارس أن شعوره بالغربة هناك أكثر إيلاما له منه في بلده ، فالغربة بين الأهل قد تحمل في ثناياها ومضات من أمل في الارتباط بهم والذوبان فيهم ــ وهذا ما حاوله المتنبي مرارا ــ ، فضلا عن إحساسه هو بقيمة الأرض بما تعنيه من سيادة واستقلال وتحرر ، وبوصفها ((رمزا من رموز الوجود الانساني)) (٢) اذ هي جزء مهم من منطلبات الوطن المكاني (٣) • ومن هنا كانت دعوته القومية ضد الأعاجم المتحكمين بشؤون الأمة والمسيطرين على مقدراتها ، اذ يقول (٤) :

وإنما الناسُ بالملوكِ ومـا   تُفلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ   ولا عُهودٌ لهم ولا ذِمَمُ
في كلِّ أرضٍ وطِئْتَها أُمَمٌ   تُرعىٰ بعبدٍ كأنها غَنَمُ

حتى انه تحمل أعباء الحروب ومشاقها حين رافق سيف الدولة في معاركه ضد الروم• وما هذا الا تعبير عن الشعور بمعنى الأرض ــ الوطن ، ولذلك وجبت المنافحة عنها • واستمر في دعوته هذه حتى مقتله ــ وان ترددت بين الوضوح والخفوت بحسب ظروفه وحالته النفسية ــ •

وكل ما قلناه آنفا ينطبق على قصيدته في شعب بوان ، اذ يتضح إحساسه الممض بالغربة **المكانية**، وبخاصة حين يحن الى دمشق وأهلها • قال (٥) :

---

(١) التبيان ٤ : ٢٨٤/١٥ــ١٨ •
(٢) المكان في الشعر العربي قبل الاسلام ١٩٨ •
(٣) ينظر: المكان في الشعر العربي قبل الاسلام ٩٨، والرواية والمكان ٥ •
(٤) التبيان ٤ : ٢٢٨/٢ــ٤ •
(٥) نفسه ٤ : ٢٧٨/ ١٠، وتنظر بقية الأبيات والفصل الأول من هذا البحث ص٢٩ــ٣٠ •

ولو كانتْ دمشقُ ثنىْ عِناني　　لبيقُ الثردِ صينيُّ الجِفانِ ....

بعد أن قال [١]، من قبل، في القصيدة نفسها :

ولكنّ الفتىْ العربيُّ فيهــــــا　　غريبُ الوجهِ واليدِ واللســـانِ

من ذلك يتضح لنا ((أن الوجود العربي كان يسيطر على الشاعر سيطرة كبيرة))[٢] .

فروح الرفض والتمرد والثورة التي سادت شعر المتنبي، في حديثه عن مجتمعه العربي، لم تكن لتمنعه عن الحنين الى أرض العرب، فليس ((لمن يشده الى وطنه حبل سرى أن تكبر في نفسه حالة الرفض، فتمنعه أن يتحدث عن الوطن))[٣] ويشتاق اليه، فهو الأصل والمنبت والهوية . حتى انه عندما شعر بالخطر يحيق بعلاقته بسيف الدولة، بسبب من كيـــد الكائدين ودس الواشين، قال[٤] :

٦٨٠٤٦٥

إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قَدَروا　　ألّا تفارقهمْ فالراحلون هــُمُ

ان تصوير المتنبي نفسه مقيما، والقوم، سيف الدولة وأهل حلب، راحلين جـــاء ((تأكيدا لحالة الحب من طرفه، ورمزا لحالة الرفض والتنكر في الطرف الآخر، ولكن المدهش في تصوير حالتي الاقامة والرحيل أن يحاول الفعل الشعرى إضاعة معالم الوضوح في الموقـف المتبادل بين الوطن وشاعره المغترب، تعزيزا للوحدة الوجدانية بينهما من طرف الشـــاعر وحده))[٥] . فقد أراد المتنبي أن يستقر في حلب، حيث وجد في سيف الدولة النموذج الذى يبحث عنه، ولكن أهل حلب من حاشية الأمير وجلسائه بخاصة لم يرق لهم هذا التقارب بيـن المتنبي والأمير، فكان منهم ما كان حتى تمكنوا من حمله على مغادرة حلب التي أحب . وان كنا لا نعفي سيف الدولة مما اتخذه من موقف أو مواقف أسهمت في حدوث هذا الرحيل .

وفي ضوء ما تقدم أرى أن المتنبي كان غريبا منتميا . أما غربته ففي عدم تلاؤمه مـــع ما كان عليه أبناء مجتمعه، وفي جميع الجوانب . وأما انتماؤه ففي إحساسه بما آلت اليــه الأمة العربية ـــ الاسلامية من ضعف، وتألمه من أجل ذلك، ومحاولته تنبيه أبناء هذه الأمة الى ما صاروا اليه عسى أن ينتفضوا . فضلا عن إدراكه لقيمة الأرض ومعناها، وبخاصة اذا ما تعرضت لاعتداء خارجي .

ومثلما كان الممدوح عند المتنبي يرمز الى المستقبل وما يأمله فيه، نراه هنا ـــ أى الممدوح ـــ بما يمتلكه من صفات وميزات أضفاها عليه المتنبي، يسيطر على المكان ويملؤه . أى أن المتنبي

---

(١) التبيان ٤ : ٢/٢٧٨ .

(٢) دراسات في النص الشعرى، العصر العباسي ٢٠٢، وينظر: التطلع القومي عند المتنبي ١٠٨ـــ١١٨ .

(٣) الرحيل من الوطن اليه ٣٥ .

(٤) التبيان ٣ : ٣٢/٣٢٢ .

(٥) الرحيل من الوطن اليه ٣٥ .

جعل من الصورة المثالية التي رسمها لممدوحه ذات تأثير كبير على المكان ــ الأرض ، فعبر بذلك عمّا كان يتمناه ويحلم به من امتلاء الأرض وأهلها بمعاني الخير والكرم والشجاعة ... وكل الفضائل الحسنة والأخلاق الحميدة . قال في ذلك (١) :

ضاقَ الزمانُ ووجهُ الأرضِ عن مَلِكٍ   مِلءُ الزمانِ ومِلءُ السهلِ والجبلِ

وقال (٢) :

إنْ كان قد ملك القلوبَ فإنـــهُ   ملَكَ الزمانَ بأرضِهِ وسمـــائِهِ

فكما امتد ممدوحه في الزمان وملأهُ وتحكم فيه ، فانه يمتد في المكان مالئا ومتحكما كذلك (٣) . وبما أُن لممدوحه مثل هذا الامتداد وتلك القوة ، فان سيطرته ستطال كل ما على هذه الأرض (٤) :

قريبٌ عليه كلُّ ناءٍ على الــورى   إذا لَثَّمَتْهُ بالغبارِ القنابـــلُ
يُدَبِّرُ شرقَ الأرضِ والغربُ كَفُّــهُ   وليس لها وقتا عن الجودِ شـاغلُ

بل ان هيبته لتمتد الى الرياح التي تهب على أرضه (٥) :

يُدَبِّرُ المُلْكَ من مصرٍ إلى عــدنٍ   إلى العراقِ فأرضِ الرومِ فالنُوَبِ
إذا أتتها الرياحُ النُكْبُ من بلدٍ   فما تَهُبُّ بها إلاّ بترتيـــبِ

وممدوحه عالم بما تنطوي عليه الدنيا خبير بشؤونها ، فاذا ما أُصاب بعضها مكروه اشتكى اليه (٦) :

حتى أتى الدنيا ابنُ بَجْدَتِهـا   فشكا إليه السهلُ والجبـــلُ
شكوى العليلِ إلى الكفيلِ لـــهُ   أن لا تَمُرَّ بجسمِهِ العِلَــلُ

والمكان الذي يحل فيه الممدوح يحرم على الزمان أذاه . فضلا عن امتلائه بالسعادة والسرور (٧) :

وإذا حلَّ ساعةً بمكـــــانٍ   فأذاهُ على الزمانِ حــرامُ
والذي تُنبِتُ البلادُ سـرورٌ   والذي تمطرُ السحابُ مُدامُ

واذ يغدو المكان الذي يتخذه الممدوح مستقرا له أو سكنا أكبر سعادة وأكثر حظا لما لنزول الممدوح فيه من معنى وفرة الخير والأمن فيه ، فان البلدان تتحاسد فيما بينها

---

(١) التبيان ٢ : ١٩/١٨٢ . (٢) نفسه ١ : ٤/١ .
(٣) ينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ١٨٥ . اذ نلمح هذه النظرة الى الممدوح في الشعر العربي القديم .
(٤) التبيان ٢ : ٢٤/١٨٩–٢٥ .
(٥) التبيان ١ : ٢٣/٣٤–٢٤ . (٦) نفسه ٣ : ١٨/٢١٦–١٩ .
(٧) نفسه ٣ : ١٣/٢١٩–١٤ .

اذا ما حل باحداها دون الأخرى ، حتى انها لو كانت نفوسا تعقل لسارت هي نحوه عسى أن تصيب شيئا من الخير ، وقد يبكي البلد الذى لا يكون هذا الممدوح أميره لو أن له فما وعينا (١) :

تحاسدَتِ البلدانُ حتى لو انّها نفوسٌ لسار الشرقُ والغربُ نَحْوَكا
وأصبح مِصْرٌ لا تكون أميــــرَهُ ولو أنه ذو مُقلةٍ وفمٍ بكـــــا

وان مدينة لا يحل بها الممدوح كأنها عاطل ، كما أن الجيش الذى لا يكون قائده يهزم (٢) :

كتيبـةٌ لستَ ربَّها نَفَـــــلُ وبلدةٌ لستَ حَلْيَها عطُـــــلُ
قُصِدْتَ من شرقِها ومغرِبِهـــا حتى اشتكتكَ الركابُ والسُّبُلُ

ولذلك كله فان الأرض وما عليها يعتلون جميعا ، اذا ما اعتل الممدوح أو لحقه مكروه (٣) :

إذا اعتلَّ سيفُ الدولةِ اعتلَّتِ الارضُ ومَن فوقَها والبأسُ والكرمُ المَحْضُ

من أجل هذا كله يعلن المتنبي عن عزمه للالتحاق بمثل هذا الممدوح (٤) :

كُنْ حيث شئتَ فما تحولُ تَنُوفــةٌ دونَ اللقاءِ ولا يَشِطُّ مَـــزارُ
وبدونِ ما أنا من ودادِكَ مُضْمِرٌ يُنضى المَطِيُّ ويَقْرُبُ المُسْـتارُ

فحبه الممدوح أكبر من أن تعوقه عنه معوّقات ، فبسبب حب أقل مما يكنه لــه تتحمل الصعوبات ، فكيف وحاله هذه ؟

ان كل صفات سمو الأخلاق ورفعة الشأن التي وسم بها المتنبي ممدوحيه ، هـي مقصده الأساس ومرماه الاصيل فضلا عما رغب في تحقيقه من آمال عند كل ممدوح منهم ، ومن هنا كان تنقله بين البلدان . وقد يضطره سعيه هذا الى ترك الأماكن الجميلــة المريحة وعدم الوقوف عندها من مثل بحيرة طبرية (٥) وشعب بوان (٦) وغيرها من الرياض (٧) . وربما أنساه ممدوحه أهله وموطنه (٨) :

أمُنْسِيَّ الكناسَ وحَضْرَمُوْتـــا ووالدَتي وكِنْـدَةَ والسُّبيعا

(١) التبيان ٢ : ٣/١٦٨ ــ ٤ . (٢) نفسه ٣ : ٣٢/٢٠٢ــ٣٤ .
(٣) نفسه ٢ : ١/١٣٥ . (٤) نفسه ٢ : ١٢/٩٣ ــ ١٣ .
(٥) ينظر: التبيان ٤ : ٢٢/٢٢٨ .
(٦) ينظر: نفسه ٤ : ١٩/٢٧٨ــ٢٠ .
(٧) ينظر: نفسه ٣ : ١٥/١٩٢ــ١٩ .
(٨) نفسه ٢ : ٣٣/١٤١ .

وماذاك الاّ لأنه لا يحس بالغربة في كنف ممدوحه ـ المثال هذا [(١)] :

إذا تركَ الإنسانُ أهــلا وراءه ويَمَّمَ كافورا فما يَتَغَــرَّبُ

فالبحث عن الصورة التي تمناها لمجتمعه ، تلك التي لا يحققها الا ممدوح رسم ميزاته هو أيضا ، فضلا عن الجوى وراء المطامح ، قد ينسيانه أهله وموطنه ، أو في الأقل لا يشعر بالغربة وهو بعيد عنهم • وهذه ليست حقيقة واقعة بقدر ما هي حلم يتمنى تحققه • يقول معلنا عن سعادته لوجوده بقرب ممدوحه [(٢)] :

أنا من جميعِ الناسِ أطيبُ منـزلا وأسَرُّ راحلةً وأربحُ مَتْجَرا

حتى إنه لولا هذا الممدوح لكان مهاجرا دائم الترحال [(٣)] :

وما كنتُ لولا أنت إلاّ مهاجرا له كلَّ يومٍ بلدةٌ وصحـــابُ
ولكنكَ الدنيا إليَّ حبيبــــةً فما عنك لي إلاّ اليكَ ذَهـابُ

انهذه الصورة التي يرسمها المتنبي لممدوحه ((هي وليدة احساس حقيقي بالحاجة الى الدفء والراحة في مجتمع صعب الحياة))[(٤)] • فاذا ما أبعدته الأيام عن ممدوح رأى فيه شيئا أو أشياء مما تمناه ، أحس بالألم والتعاسة • منذلك قوله يخاطب سيف الدولة بعد أن افترقا [(٥)] :

نَغَّصَ البعدُ عنكَ قُربَ العطايا مَرتَعي مُخْصِبٌ وجسمي هزيـلُ
إنْ تبوّأتُ غيرَ دنيــايَ دارا وأتاني نَيْلٌ فأنتَ المنيــلُ
من عَبيدي إنْ عِشتَ لي ألفُ كـافو رٍ ولي من نداكَ ريفٌ ونيــلُ

فعلى الرغم من جمال طبيعة مصر ورفاهية عيشه فيها ، فانه لا يحس بالسعادة لأنه بعيد عمن يحب وعما يريد ـ فضلا عما كان عنده ـ ، فلا يكفي العيش الرغيد ماديا من غير إحساس بالحب والحرية وتحقيق الذات • ولعله اذ يقول باستطاعة سيف الدولة أن يملكه الكثير من العبيد من أمثال كافور ، فضلا عن الأرض ـ المكان مرموزا لها بالريف والنيل ، يعني طرد الأعاجم والعبيد ، محتلين ومتسلطين ، من بلاد العرب والمسلمين فتعود الأرض بكل خيراتها الى أهلها •

ثمّ إنه بعد خروجه من حلب سيف الدولة لم يهنأ له القرار في بلد ، ولم ينفتح قلبه لممدوح غيره ، فكانت حياته رحيلا استأنف به رحيله الذى كان قبل حلب ، حتى قال [(٦)] :

---

(١) التبيان ١ : ١٨/٢٥ •
(٢) نفسه ٢ : ٤٦/١٢٤ • (٣) نفسه ١ : ٤٢/٣٦ـ٤٣ •
(٤) الرواية والمكان ٩٢ •
(٥) التبيان ٣ : ٣٩/١٩٢ـ٤١ •
(٦) التبيان ١: ٨/١٩ •

وما لاقني بلدٌ بعدكـــمْ ... ولا اعتضتُ من ربّ نعماي ربْ

ان أمل المتنبي هذا في الاستقرار المكاني في وطن يملأ كيانه ويملك عليه أقطار نفسه ، ذلك الذي أسقطه على الممدوح جعل من وجود الوطن يصبح ((وجودا داخليا صرفا تنتفي فيه الحدود بين الماضي والحاضر ، على حين تتوجه المخيلة الشعرية الى زمن يأتي))، (١) زمن يتمكن فيه من أن يقر نفسا وفكرا وجسدا .

لقد كان من نظرات المتنبي في المكان ، نظرة تنبع من النفس بمعنى أنه أسقط من أحاسيسه ومشاعره على المكان . فحين يقول (٢):

نحن أدرى وقد سألنا بنجـــدٍ ... أقصيرٌ طريقنا أم يطـــولُ
وكثيرٌ من السؤالِ اشـــتياقٌ ... وكثيرٌ من ردّهِ تعليـــلُ

فانه يعرف الطريق جيدا ((ولكنه على معرفته يسأل ، والسؤال نفسه يحمل ((تقربا)) ولكنه تقرب خفي حذر ينتظر بشيء من التردد والشك ردا ينطوي على ((التعليل)) الذي يكون عونا على متاعب الرحيل)) (٣).

ويقول كذلك (٤):

إليكَ ابنَ يحيى بنِ الوليدِ تجاوزتْ ... بيَ البيدَ عَنْسٌ لحمُها والدمُ الشِعْرُ
نضحتُ بذكراكمْ حرارةَ قلبهـــا ... فسارتْ وطولُ الأرضِ في عينها شِبْرُ

فهو اذ يحدو إبله بمدح ممدوحه ، فانه يبرد غلة عطشها فتسرع غير مبالية بطول المسافة وما قد يعترضها فيها من مصاعب وأخطار ، حتى كأن طول الأرض في عينها شبر من شدة النشاط . وهو هنا لا يعني إلا نفسه ، فأمله الكبير في الممدوح ورغبته الشديدة في أن يحصل منه على ما يريد هوّن عليه طول الطريق اليه وما قد يعانيه خلاله من شقة ، الى الحد الذي رآه فيه شبرا أو قل قصيرا جدا .

وهكذا ، كان المتنبي يدرك دور المكان ومعناه في التأثير في حياة الانسان ، سواء أكان وطنا أم بقعة من مجالي الطبيعة أم طريق سفر . ومن هذا الإدراك كان منطلق تعامله معه ثم تعبيره عن هذا التعامل فنا يقطر صدقا في معاناة التجربة الشعورية . ولكن هذا التعامل كان يقوم تحت تأثير مسائل وأمور تشير الى خصوصية المتنبي بين الناس أولا وبين

---

(١) جماليات المكان ، اعتدال عثمان ٨٦ .
(٢) التبيان ٣ : ١٩٢ / ١٣ـ١٤ .
(٣) المتنبي بين البطولة والاغتراب ١٥٣ .
(٤) التبيان ٢ : ١٠٤ / ٦ـ٧ .

الشعراء ثانيا • انها طبيعة مطامحه وآماله التي عاشت نصب عينيه هدفا يرنو الى بلوغه ، فضلا عن روحه المتبدية التي لم يزل عنها يوما حب الصحراء وحياتها ، ثم ما كان من أثر ظروف حياته ومداخلاتها ــ بصرف النظر عن أسبابها وطبيعتها ــ في ذلك • ومن هنا كان هذا التنوع في تعبير المتنبي عن إحساسه بالمكان ونظرته إليه وتعامله معه ، ولكنه تنوع ينبعث من معين ثر واحد هو نفس المتنبي •

الفَصلُ الرَّابع

الخصائصُ الفنيَّة لشعرِ الرحلةِ

الفصـــل الرابـــع
الخصائص الفنيـة لشـعـر الرحلـــة

قبل أن نعرض لأبرز الخصائص الفنية لشعر الرحلة عند المتنبي ، لا بدّ من التساؤل ، أين موقع ذكر الرحلة في قصيدة المتنبي (١) ؟ فنجيب ، ان المتنبي لم يخرج كثيرا عن أسلافه من الشعراء في إشارته الى الرحلة بعد المقدمة الغزلية بخاصة (٢) ، ويتجلى ذلك في مثـــل قصائده (٣) :

كم قتيـــلٍ كما قُتلتُ شـــهيدُ ... ببياضِ الطُّلى وورد الخُدودِ

و : صِلةُ الهجرِ لي وهَجْرُ الوصالِ ... نَكَسانيَ في السُّقْمِ نُكْسَ الهلالِ

و : أيدرى الرَّبْعُ أيَّ دمٍ أراقـــا ... وأيَّ قلوبٍ هذا الرَّكْبُ شـــاقا

و : مالَنا كُلُّنا جَوٍ يارســــولُ ... أنا أهوى وقلبُكَ المتبــــولُ

الا أنه قد يبدأ قصيدته بالشكوى ، ويتبعها مباشرة بذكر الرحلة . كما فـــــي قصيدته (٤) :

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافيا ... وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيـا

وقد يشير المتنبي الى رحلته بعد أن يبدأ قصيدته بالفخر ، من ذلك قصيدته (٥) :

أُطاعِنُ خيلا من فوارسِها الدهرُ ... وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبرُ

أو بعد أن يبدأها بذكر الشيب ، كما في قصيدته (٦) :

متى كُنَّ لي أنَّ البياضَ خِضابُ ... فيَخْفى بتبييضِ القُرونِ شَـــبابُ

---

(١) خصصنا الرحلة بكلمة (ذكر) لان المتنبي لم يطنب في وصف رحلته ورسم طريقها تفصيلا ، كما هي العادة عند مجموعة كبيرة من الشعراء غيره ، وبخاصة شعراء ما قبل الاسلام منهم ومن حذا حذوهم . فضلا عن خصوصية مفهومنا للرحلة عنده .

(٢) ينظر الرحلة في القصيدة الجاهلية ٥٢ وما بعدها وفي الأدب العباسي الرؤية والفـــن ٤١١ـــ٤١٥ وبناء القصيدة العربية د . يوسف حسين بكار ٢٧٨ـــ٢٩١ وقضايا الفن في قصيدة المدح العباسية ٢٧٤ـــ٣٠٠ .

(٣) موقع هذه القصائد في التبيان حسب هذا التسلسل ، ١ : ٦٢/ الأبيات و ٣ : ٢٠٠ / الأبيات و ٢ : ١٥١/ الأبيات و ٣ : ١٩٢/ الأبيات وينظر : ١ : ٥٩/الأبيات و ٢ : ١٠٤/ الأبيات و ٢ : ١٥٦/ الأبيات و ٢ : ٢٠٢/ الأبيات و ٣ : ٢٠٣/ الأبيات .

(٤) نفسه ٤ : ٢٨٥ / الأبيات ، وينظر ١ : ١٩١/ الأبيات .

(٥) نفسه ٢ : ١٤٨ / الأبيات ، وينظر ٢ : ١١٦/ الأبيات و ٢ : ١٩٧/ الأبيات .

(٦) نفسه ١ : ٣٦/الأبيات ، وينظر ٤ : ٢٢٢/الأبيات اذ جاء ذكر الرحلة بعد ذكر الشيب والنسيب .

وأحيانا ما يعرج على ذكر رحلته بعد النسيب والفخر ، كما في قصيدته (١) :

أَمِنْ أزديارِكِ في الدُّجى الرُّقَباءُ   إذ حيث كنتِ من الظلامِ ضياءُ

أو بعد النسيب والمدح ، كما في قصيدته (٢) :

بادٍ هواكَ صَبَرْتَ أم لم تَصْبِرا   وبكاكَ إنْ لم يَجْرِ دمعُكَ أو جرى

أو بعد الغزل والفخر والمدح ، ثمّ يعود ليكمل المدح ، كما في قصيدته (٣) :

منِ الجآذرُ في زيِّ الأعاريبِ   حمر الحلى والمطايا والجلابيبِ

أو بعد الغزل والشكوى والفخر والمدح ، ثمّ يعود مكملا المدح ، كما في قصيدته (٤) :

فِراقٌ ومَن فارقتُ غيرُ مُذَمَّمِ   وأَمٌّ ومَن يَمَّمْتُ خيرُ مُيَمَّمِ

وقد يرد ذكر الرحلة في آخر القصيدة ، كما في قصيدته (٥) :

مبيتي من دمشقَ علىَ فراشِ   حشاه لي بحَرِّ حَشايَ حاشِ

وقد يشير الى الرحلة بعد الرثاء . كما في قصيدته (٦) :

ألا لا أُري الأحداثَ حَمْدا ولا ذَمّا   فما بطشُها جهلا ولا كَفُّها حِلْما

واذا لم يكن المتنبي قد أشار الى رحلاته في بعض من قصائده (٧) ، فانه قد اختص واحدة منها كاملة بذكر رحلة قام بها . راسما طريقه فيها ، هي رحلته من الفسطاط الى الكوفة مفتخرا بنجاحه فيها . والقصيدة هي (٨) :

ألا كلُّ ماشيةِ الخيزلى   فدىً كلِّ ماشيةِ الهيدبى

كما أشار الى رحلته وعرض لها في مواضع متفرقة من قصيدته (٩) :

واحَرَّ قلباه ممَّنْ قلبُهُ شَبِمُ   ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

---

(١) التبيان ١ : ٣ / الأبيات ، وينظر ٤ : ٢٣٧ / الأبيات .
(٢) نفسه ٢ : ١٢٤ / الأبيات ، وينظر ٣ : ٢٠٩ / الأبيات .
(٣) نفسه ١ : ٣٤ / الأبيات .
(٤) نفسه ٤ : ٢٥٢ / الأبيات .
(٥) نفسه ٢ : ١٣٣ / الأبيات ، وينظر ١ : ٢٣ / الأبيات .
(٦) نفسه ٤ : ٢٤٤ / الأبيات ، وينظر ٤ : ٢٥٧ / الأبيات . اذ يذكر الرحلة مع الرثاء مبتدئا القصيدة بالرحلة .
(٧) ينظر: نفسه ١ : ١٨ / الأبيات و ١ : ٢٩ / الأبيات و ٢ : ١٠٥ / الأبيات و ٢ : ١٠٦ / الأبيات و ٣ : ١٧٥ / الأبيات .
(٨) نفسه ١ : ٧ / الأبيات .
(٩) نفسه ٣ : ٢٢٢ / الأبيات .

فضلا عمّا نلمحه من إحساسه بالرحلة بوصفها المعادل المكافيء لمعنى الحيـــــاة والوجود بالنسبة اليه ، وذلك في قصيدته[(١)]:

مُلومُكُمَا يَجلُّ عن المَـلامِ ووَقْعُ فَعَالِـهِ فوقَ الكَـــلامِ

وأخيرا فالرحلة عنده من أهم مكونات القصيدة العربية وأبرز خصائصها ، كما يتضح لنا ذلك ــ بخاصة ــ في قصيدته[(٢)]:

ليالِيَّ بعدَ الظاعنين شُـكولُ طِوالٌ وليلُ العاشقين طويـلُ

وهكذا نرى بعد هذه الإلمامة ، أن ذكر الرحلة في قصيدة المتنبي لم يشغل موقعا معينا ، أو يتحدد بمكان خاص منها ثابت ــ على الرغم مما ذكرناه من كثرة ورودها بعد المقدمة الغزلية ــ • ولعل السبب في هذا يعود الى اختلاف المناسبات التي نظمت فيها القصائد ، والى تباين ظروف إنشادها ، فضلا عن خصوصية حالة المتنبي النفسية والشعورية في أثناء إنشاد أي منها •

أما أبرز الخصائص الفنية في شعر الرحلة عند المتنبي ، التي لفتت اليها انتباهنا ، فجعلناها مباحث قسمنا هذا الفصل عليها فهي : اللغة والصورة والايقاع •

أولا : اللغـــــة :

اننا اذ نبدأ باللغة فلأنها المادة الأساس والأولى في بناء العمل الأدبي ، شعرا كان أم نثرا ــ كل حسب خصوصيته ــ ((ولا شك أن مهارة أي فنان تتجلى في دقة ضبطه في استعمال ألفاظه الدقيقة في بناء وحدته الفنية))[(٣)] • ولعل هذه المهارة تبرز في مدى قدرة الأديب ــ الفنان على التعامل مع اللغة بوصفها مفردات تشكل اللبنات الأولى في إقامة صرح العمل الفني أولا ، وبوصفها تراكيب لها خصوصيتها وأطرها المحددة النابعة من خصوصية اللغة ذاتها ثانيا • وتأسيسا على ذلك آثرنا أن نقسم هذا المبحث على قسمين : اللفظ والتركيب •

اللفـــظ :

ان اللفظ ((هو المادة الأولى في بناء القصيدة الشعرية ، فهو ــ بما يثيره من أشكال ــ يمنحها الصورة • وبما فيه من جرس ، يهبها الايقاع • وليس جلبه بالأمر الميسور وانما يأتي لأن دوافع التجربة في داخل الشاعر هي التي تختاره وتعتمده وتطمئن اليه بعد أن تكون

---

(١) التبيان ٤ : ٢٥٣ / الأبيات •
(٢) نفسه ٣ : ١٨٧ / الأبيات، وينظر ٣ : ٢٢١ / الأبيات و ٢ : ١٢٨ / الأبيات •
(٣) (ما) في شعر المتنبي، د • هادي الحمداني ، مجلة الجامعة المستنصرية ، العدد الرابع ، السنة الرابعة ١٩٧٤ ص ١٠٣ •

قد غاصت في أكوام هائلة من الألفاظ)) (1) .

وليس من شك في أن لكل شاعر طريقته الخاصة وأسلوبه المتميز في اختيار الألفاظ وانتقائها للتعبير عمّا يجول في نفسه . طريقة تنبع من طبيعة الشاعر النفسية أولا (2) ، وتخضع لمدى عمق ثقافته ـ اللغوية بخاصة ـ ثانيا ، فضلا عن تأثير بيئته ثالثا (3) .

فاذا ما عرضنا لشعر المتنبي في إطار الرحلة ، فسنرى أن ما ذكرناه من مؤثرات يتضح جليا فيه ، من نفس تعتز بذاتها وثقافة لغوية واسعة وروح تعشق البداوة وان سكنت الحواضر . فمما ورد من ألفاظ غريبة فيه ، قوله يذكر مسير ناقته (4) :

أنكحت صم حصاها خف يعملة تغشمرت بي إليك السهل والجبلا

فها هو ذا يفيد من خزينه اللغوى الثر في توظيف كلمة (تغشمرت) للتعبير عن نوعية المسالك التي عبرتها ناقته . ولعل تلفظا متأنيا للكلمة هذه أو تأملا فيها ، يجعلنا نحس بما أراد المتنبي إيصاله الينا من شعور بالحركة الصاعدة ـ النازلة التي عاناها . وقوى ذلك حين أكده بكلمتي (السهل والجبل) .

وقال كذلك (5) :

لم يتركُوا لي صاحبا إلا الأسى وذميلَ دِعْبِلَةٍ كفحلِ نعامِ

---

(1) الصورة الفنية في شعر أبي تمام د . عبد القادر الرباعي ١٤١، وينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدى عند العرب د . ماهر مهدى هلال ١٩٠ .

ولعل إدراك الشعراء والنقاد والبلاغيين لمدى صعوبة اختيار الألفاظ والمفردات في العمل الأدبي ، فضلا عن دراستهم لمعاني الشعراء وأفكارهم ، السبب الرئيس في كل ما قيل حول قضية اللفظ والمعنى، واختلافهم في تعيين الأهم منها .

ينظر في ذلك : بناء القصيدة العربية ٤٧ ـ ١٨٣، والصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي ، د . جابر عصفور ٣٨١ ـ ٣٩٢، وجرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدى عند العرب ٤٩ ـ ١٢٤ .

(2) قال صاحب الوساطة ١٧ـ١٨ ((.. وقد كان القوم يختلفون في ذلك ، وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره ؛ وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ؛ فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ....)) .

(3) ربما كان لتغير الظروف المحيطة بالشاعر ـ ومنها البيئة الطبيعية ـ التي قد تؤثر في نفسيته ، فضلا عن طبيعة الموضوع الذى ينظم فيه ،أثر في لغته . ولكنه أثر لا يعدو أن يكون هامشيا أو وقتيا ، فلا يغير من خصوصية طريقته اللغوية التي تحددها أساسا هذه المؤثرات الثلاثة .

(4) التبيان ٣ : ١٩٥ / ٢٣ .

(5) نفسه ٤ : ٢٢٩ / ١١ .

فهو يفيد من كلمة (دعلة) في تعميق الإحساس بالقلق وعدم الاستقرار فضلا عن الألـم والتعب ، وبخاصة حين شبه سيرها بركض فحل النعام ،فلا شك في أن من شاهد ركض النعـام سيدرك ما قصد اليه المتنبي من إتيانه ب (دعلة) دون (ناجية) مثلا ، فجرس هذه الأخيـرة لا يتلاءم ههنا وطبيعة ركض النعام التي تشعر بالخوف والقلق فضلا عن انتصاب الهيئة • وهذا ما أراد المتنبي الإيحاء به •

ومن الغريب الذى أتى به المتنبي كذلك ، عدد من الصيغ الصرفية التي تعد قليلة الاستعمال ونادرة الاستخدام ، مثل (حبنتك)[١] و (الحصن) في جمع الحصان[٢] و (المخبرة)[٣] و (العبدّى)[٤] ، حتى قال الدكتور إبراهيم السامرائي ((ولكني أشعر أن المتنبي كان يتوخى الصور والأبنية التي لا يعرفها الاّ خاصة الناس من أهل العلم))[٥].

ان كل ذلك – فضلا عن غيره من المفردات والأبنية – مما عرض له دارسو شعر المتنبي بوصفه من الغريب الذى أتى به في غير قليل من شعره ، والذى ذهبوا في تأويل أسـباب إتيان المتنبي به مذاهب شتى[٦] ، من غير أن يتصدوا له بالدراسة الفنية المستقصية لتحديد معطياته وتلمس أبعاده الفنية •

قال المتنبي يعبر عن حبه لحياة التنقل والرحيل[٧] :

ذُراني والفلاةُ بلا دليلٍ ووجهي والهجيرُ بلا لثامِ
فإني أستريح بذا وهـذا وأتعبُ بالإناخةِ والمُقامِ

تبرز في هذين البيتين مقدرة المتنبي في تعامله مع أسماء الإشارة ، وتوظيفه إياها في

---

(١) التبيان ٤ : ٦/٢٨٥ •
(٢) نفسه ٤ : ١٧/٢٦٩ •
(٣) نفسه ٣ : ٨/٢٠٢ •
(٤) نفسه ٤ : ٣/٢٢٧ •
(٥) من معجم المتنبي ، دراسة لغوية تأريخية ١٤٣ •
(٦) ينظر: الرسالة الموضحة (مواضع متفرقة) والكشف عن مساوىء المتنبي، الصاحب بن عبـاد (مواضع متفرقة) ويتيمة الدهر ١/ ١٤٧ – ١٦٢، والمتنبي وشوقي ٨٨ – ٨٩، وكافوريات أبي الطيب ، دراسة نصية ٤١١، والرمزية في الأدب العربي ٢٦٦، ولغة الشعـر د• جميل سعيد ، مجلة المجمع العلمي العراقي مج ١٩، ١٩٧٠ ص ١١٣ و١١٥، وفي الأدب العباسي ٣٧٤ – ٣٧٥، وظاهرة الغموض في شعر المتنبي ، د• محسن غياض مجلة الجامعة – الموصل – العدد الأول ، السنة السابعة ١٩٧٦ ص ٦٨ – ٧٢، والمتنبي والمشكلة اللغوية د• صاحب أبو جناح ، مجلة المورد ، المجلد ٦ الجـزء ٣ ، ١٩٧٧ ص ٢٢–٢٣، ومن معجم المتنبي دراسة لغوية تأريخية (مواضع متفرقـة)، والمتنبي شاعر ألفاظه تتوهج ٣٢٢، وسيفيات المتنبي ٢٢٩ •
(٧) التبيان ٤ : ٢٥٢ / ٢ – ٣ •

شعره ، بما يخدم المعنى الذي يريد إيصاله الينا ، فهو اذ يعلن عن شعوره بالراحة اذا ما جاب أطراف الفلاة وتعرض لحر هجيرها ، يشير الى قوة بأسه ورباطة جأشه ، فيؤكد استعداده لتحمل صعاب حياة التنقل وقدرته على مواجهتها وذلك بإضافة (ها) التنبيه الى (ذا) ، الذي يدل على الشطر الثاني من البيت الأول (وجهي والهجير بلا لثام) ، في حين تدل (ذا) الأولى (أو ذى في الرواية الأخرى) على شطره الأول (ذراني والفلاة بلا دليل) • فكأني به قد أفاد من (ها) التنبيه لتأكيد المعنى الذي يريد بيانه ، وهو قدرته على تحمل الصعاب رامزا اليها بالتعرض للهجير من غير لثام ، وتقويته • سواء أكان متعمدا ذلك وقاصدا اليه أم انه أتى على لسانه بغير وعي منه مما يدل على أنه أحس بشيء من هذا في نفسه ، فانطلق به لسانه في ساعة من ساعات التجلي الشعرى (١) • فاذا ما اعترض معترض بأن ما دفع المتنبي الى هذه الصيغة من التعبير هو تحكم الوزن ، أقول لو لم يرد المتنبي الإيحاء بهذا المعنى أو بما هو قريب منه لما كان من العصي عليه — وهو الشاعر النابغة — أن يعبر عنه بصيغة أخرى وضمن نطاق الوزن نفسه •

وقال أيضا ، مستخدما اسم الإشارة ، يعبر عن مبلغ طموحه (٢) :

أُريدُ من زمني ذا أن يُبَلِّغَني ما ليس يَبْلُغُهُ في نفسِهِ الزمنُ

ومن ذلك قوله يومئ الى ما يعانيه من مصاعب ومعضلات جراء محاولاته تحقيق شيء من طموحه (٣) :

لحا اللهُ ذي الدنيا مُناخا لراكبٍ فكلُّ بعيدِ الهمِّ فيها مُعَذَّبُ

وكما أفدنا من ترداد المتنبي لأسماء الإشارة في تبين بعض من جوانب الرحلة عنده — كما هي الحال في شعره كله ، اذ عدت كثرة تردد أسماء الاشارة عنده من أبرز مميزات أسلوبه الشعرى (٤) — نفيد كذلك من استخدامه صيغة التصغير ، التي كان مولعا بإيرادها وتوظيفها في شعره ((لا يقنع من ذلك بخلسة المغير • • • • • ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطبع ، فما حسن بها مألوف الربع ، ولكنها تغتفر مع المحاسن والشام قد يظهر على

---

(١) بما أننا نذهب الى أن لكل قصيدة مناسبتها الخاصة وظروفها المحددة ، فضلا عن تغير حالة الشاعر النفسية بحسب ما يمر به من مواقف وأحداث وانفعالات ، فلعلنا لا نجانب الصواب اذا ما قلنا ان ما يفسر به بيت أو قصيدة قد لا ينطبق على بيت آخر أوقصيدة غيرها •

(٢) التبيان ٤ : ٢/٢٧٢ •

(٣) نفسه ١ : ١٤/٣٥ •

(٤) ينظر: الوساطة ٩ — ٩٧، واليتيمة ١ / ١٦٢ — ٦٣، والصبح المنبي ٤ ٣٧ — ٥ ٣٧، وكافوريات أبي الطيب دراسة نصية ٤١٦ — ٤١٨، والمتنبي والمشكلة اللغوية ٣٤ — ٣٥ •

المراسن))[١] • من ذلك قوله يشكو من أهل عصره[٢] :

مَن لي بفهمِ أُهَيْلِ عصرٍ يَدَّعي   أن يحسبَ الهنديَّ فيهم باقلُ

وقال ينتقص من منافسيه والكائدين له من الشعراء[٣] :

أفي كلِّ يومٍ تحتَ ضِبْني شُوَيعرٌ   ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يُطاولُ

وقال في ذكر شعره مفتخرا[٤] :

يَستعظِمون أُبَيّاتاً نأمتُ بها   لا تحسُدُنَّ على أن ينأمَ الأَسَدا

وصغر (أبيات) " تحقيرا لها يعني أنهم يستعظمونها وأنا أحقرها وجعل صوته نئيما إشارة الى أنه أسد في شجاعته))[٥].

وهكذا نرى أن التصغير الذي جاء ضمن إطار موضوع الرحلة ، هو من مظاهر شعور المتنبي بالعظمة[٦] • فضلا عن أنه يسهم في تحقير بعض من الناس والانتقاص من قدراتهم ، اذ يزيد في تهويل الموقف منهم[٧] • واذا كنا لا نستبعد أن يكون للبيئة البدوية التي يعشقها المتنبي أثر في استخدامه هذه الصيغة[٨] ، فاننا لا نتفق مع الدكتور شوقي ضيف في عزوه ذلك الى تأثر المتنبي بأساليب المتصوفة[٩] ؛ اذ لم يقنعنا بما ذهب اليه •

ومن الصيغ الأخرى التي استخدمها المتنبي ليؤكد معاني وأفكارا وأحاسيس ما انفكت تفور في نفسه وتتلبس روحه صيغة التفضيل • قال معلنا عن غضبه ازاء ما حوله ومن حوله[١٠] :

فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغيظِ وأشفى لغلِّ صُدرِ الحَقودِ

وقال مفضلا ظهر جواده على كل مكان في الدنيا ، وكتابه على أي صديق[١١] :

أعزُّ مكانٍ في الدنى سَرْجُ سابحٍ   وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

---

(١) رسالة الغفران ٤١٤ ــ ٤١٥ •
(٢) التبيان ٣ : ٢٠٩ / ٤٠ ، وينظر ١ : ٧٢ / ٦ ــ ٧ •
(٣) نفسه ٣ : ١٨٩ / ٢٥ •
(٤) نفسه ١ : ٧٢ / ١ •
(٥) من معجم المتنبي دراسة لغوية تاريخية ٢٣٧ •
(٦) ينظر: مطالعات في الكتب والحياة ١٨٦ ــ ١٨٧ •
(٧) ينظر: الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ١٣١ ــ ١٣٢ •
(٨) ينظر: سيفيات المتنبي ٢٢٨ •
(٩) ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٣٢١ •ومثل ذلك ما ذهب الى عزوه الى تأثر المتنبي بأساليب المتصوفة استخدامه لأسماء الإشارة والضمائر وحروف النداء •
(١٠) التبيان ١ : ٦٣ / ٢٧ •
(١١) نفسه ١ : ٣٦ / ١٨ •

فالقوة ــ عنده أنجع وسيلة للانتقام وتحقيق الطموح ، وصهوة الجواد هي أعز مكان وأنبله ، ليس في هذه الدنيا فحسب وانما في كل الدنى ، لما يرمز اليه الجواد من رحلة دائمة وتنقل دائب لتحقيق المطامح • والكتاب بما يحنيه من علم وأدب هو خير صاحب وأفضل صديق •

وكثيرا ما يتخذ المتنبي صيغة التفضيل ((مطية الى الافراط في الصفة بقلب التشبيه))[(١)] • قال[(٢)] :

شِيَمُ الليالي أن تُشَكِّكَ ناقتي صَدري بها أفضى أم البيداءُ

انه يجعل من سعة صدره وقوة تحمله محل مقارنة بامتداد البيداء واتساع نواحيها ، وماذلك الا ليشير الى قوته وشدة بأسه بازاء أحداث الليالي • فهو ((يجرد من المشبه صفة وهمية يدعي أنها أقوى من الصفة الحقيقية في المشبه به))[(٣)] •

ثمّ إنه قد ((يفاضل بين شيئين من جنسين مختلفين مستخدما حرف الجر ((من)) بل كثيرا ما تأتي بإضافة صيغة التفضيل الى اسم الجنس معرفا أو منكرا ، جمعا أو مفردا))[(٤)] • ومما يعنينا من ذلك قوله يبالغ في إضفاء التدني المطلق على أهل زمانه[(٥)] :

أُذُمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيْلَهُ فأعلمُهُمْ فَدْمٌ وأحزمُهُمْ وَغْدُ
وأكرمُهُمْ كَلْبٌ وأبصرُهُمْ عَمٍ وأسهدُهُم فَهْدٌ وأشجعُهُمْ قِرْدُ

وعلى الرغم من أن المتنبي يختار من المفردات ما يدل على مكنونات نفسه[(٦)] ، فضلا عن مظاهر الحضارة التي كان يعيش في نطاقها ، فاننا لا نعدم أن نرى آثار المعجم الشعري في موضوع الرحلة[(٧)] • ويتجلى ذلك فيما استخدمه من مفردات ذات دلالات مادية أو معنوية لرسم صورة رحلته وتوضيح أبعادها وتعميق خطوطها ــ وان كنا نرى أن تأثر المتنبي هذا بمن سبقه يتجلى في الأمور المادية بخاصة ، بحكم تشابهها وثبات خصائصها • أما المسائل المعنوية من أفكار وعواطف فأكثرها نابعة من الإحساس الذاتي المتأثر بالظروف الخاصة من حوله ، فلو تشابهت في مجال ما اختلفت في غيره ــ • فمن المفردات ذات الدلالات المادية

---

(١) صيغة التفضيل في شعر المتنبي ١٤٤ •
(٢) التبيان ١ : ٣ / ٩ •
(٣) صيغة التفضيل في شعر المتنبي ١٤٥ •
(٤) المصدر نفسه المكان نفسه •
(٥) التبيان ١ : ٧٢/ ٦ــ٧ •
(٦) ينظر: الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٠٠ •
(٧) يتضح ذلك من خلال استقرائنا لشعر المتنبي مقارنة بما ورد عند الشعراء العرب قبله • وينظر: الرحلة في القصيدة الجاهلية بعامة، وفي الأدب العباسي الرؤية والفن ٤٢٢ ــ ٤٢٥، وقضايا الفن في قصيدة المدح العباسية ٢٧٤ ــ ٣٠٠ •

ما نراه من أسماء الحيوانات وأنواعها وصفاتها وحالاتها ، ومنها مفردات الطبيعة بجزيئاتها ، فضلا عما يتعلق منها بالمال والسلاح ، إضافة الى ذكر رفاق الرحلة وعناصرها من الناس .

أما المفردات ذات الدلالات المعنوية ، فمن مثل ما عبر عنه من إحساسه بالغربة وعن مطامحه المعنوية بوساطتها ، فضلا عمّا صوره من المشاعر والأحاسيس والعواطف النفسية المختلفة ، وما نقله من أفكار ، إضافة الى إشارته الى الأبعاد المعنوية ـ النفسية للزمان والمكان[١].

التركيب :

نحاول ههنا أن نعرض للتركيب في شعر الرحلة عبر محورين ، يختص الأول بالجملة الفعلية والاسمية ، ويختص الثاني بالجملة الخبرية والإنشائية .

ـ بين الجملة الفعلية والاسمية :

ان ((أصغر وحدة تركيبية دون شك في النص هي الجملة ، والجملة قد تكون بسيطة أو مركبة ، مختصرة العناصر أو متكاثفة المتممات))[٢] ، وهذا ينطبق على نوعيها الفعلي والاسمي . وهو ما يظهر واضحا في شعر المتنبي[٣].

ان الجمل الفعلية تمثل جزءًا مهما وبارزا في شعر الرحلة عند المتنبي ـ فضلا عن شعره كله[٤] ـ فهي بما تشير اليه وتوحي به من دوام الحركة والانفعال تسهم في بيان جوانب الرحلة وأبعادها عند المتنبي ؛ اذ كانت رحلاته نتيجة فيض دائم التدفق من المشاعر والأفكار والرغبات والمطامح . حتى اذا ما تحققت فهي حركة نفسية وجسدية معا ، تتطلب دوما المزيد من القوة والنشاط والحيوية والإصرار لكي تصل به الى غايته أو لكي يتهيأ لرحلة جديدة اذا ما لم ينجح في التي قبلها . يقول[٥] :

---

(١) ينظر حول هذين النوعين من دلالات المفردات : الفصل الثاني من هذا البحث ومن معجم المتنبي دراسة لغوية تاريخية ٢١٦ وسيفيات المتنبي ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٢) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ١١٧ .

(٣) عرض الدكتور زين كامل الخويسكي في كتابه (الجملة الفعلية بسيطة وموسعة دراسة تطبيقية على شعر المتنبي) بجزئيه ، لأنماط الجملة الفعلية كما وردت في شعر المتنبي عرضا شاملا وافيا .

(٤) أحصى الدكتور زين كامل الخويسكي في كتابه (الجملة الفعلية بسيطة وموسعة ، دراسة تطبيقية على شعر المتنبي) المرات التي استخدم فيها المتنبي الجملة الفعلية بأنواعها في شعره كله فبلغ عددها ٩٥٠٧ مرة .

(٥) التبيان ٣ : ٢٠٣/١٤ـ١٦ .

أَلِفتُ ترحُّلي وجعلتُ أرضي ... قُتود ي والغُرَيْرِيَّ الجُـلالا
فما حاولتُ في أرضٍ مُقامـا ... ولا أزمعتُ عن أرضٍ زَوالا
على قلقٍ كأن الريحَ تحتـي ... أوجّهُها جَنوبا أو شَمالا .

فاذ استخدم الأفعال الماضية (ألفت) و (جعلت) فضلا عن (ما حاولت) و (لا أزمعت) ليخبرنا بما انتهى اليه من تعود على الارتحال وعدم رغبة في الاستقرار ، فانه يفيد من الفعل المضارع (أوجهها) ليدل على استمراره في حياة الترحل في حياته الحاضرة • فهو يمارس الآن ما مارس وألف من قبل • وهكذا غدت حياته رحلة مستمرة أو مجموعة من الرحلات •

ويقول مشيرا الى جرأته في قطع البيد ، وقوته في تحمل وعثاء السفر ومصاعبه (١) :

أُعَرِّضُ للرماحِ الصُمِّ نحري ... وأنصِبُ حُرَّ وجهي للهجيرِ
وأسري في ظلامِ الليلِ وحدي ... كأني منه في قمرٍ منيرِ

وهنا يتوسل المتنبي بالأفعال المضارعة (أعرض) و (أنصب) و (أسرى) ليشير الى دوام عزمه على معاناة حياة السفر والتنقل ، على الرغم من كل مصاعبها ومشاقها • فما يدفع به الى الرحيل أقوى مما يشده الى الاستقرار •

ويقول في بيان استمرار صراعه مع حوادث الزمان ومصائبه (٢) :

أُطاعِنُ خيلا من فوارسِها الدهرُ ... وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبرُ

واذ يبعد عن أرض العرب ، يقول (٣) :

أُحِبُّ حِمْصا إلى خُناصِرَةٍ ... وكلُّ نفسٍ تُحِبُّ مُحيّاها
حيث التقى خدُّها وتفاحُ لبنـان ... وثغري على حُمَيّاها
وصِفتُ فيها مصيفَ باديةٍ ... شَتَوْتُ بالصحصحانِ مَشتاها • • •

فهو يعلن عن حبه لموطنه ، مستخدما الفعل المضارع (أحب) الذى يدل على الاستمرار والدوام ، ثمّ يفيد من فعل مضارع آخر هو (تحب) ليوكد ما يحس به حيال أرضه وملاعب صباه • ويدفعه ما ثار في نفسه من عواطف ومشاعر الى تذكر ما كان عليه في وطنه من حرية وسعادة وأمان متوسلا في بيان ذلك بمجموعة من الأفعال الماضية التي تساعده في الكلام على ما مر •

أما الجمل الاسمية في شعر الرحلة ـ فضلا عن غيره ـ فانها تتضمن ((معنى اقرار

---

(١) التبيان ٢ : ١١٦/٥ـ٦ •
(٢) نفسه ٢ : ١٢٢/١ •
(٣) نفسه ٤ : ٢٨٤/١٣ـ١٥ •

الموقف ، فهي لا تخرج اذن عن وظيفة الاسم العادية الممثلة في التعريف والإثبات للاشياء ، الاّ أنها تبدو وتعمق أكثر هذا المدلول وتوجهه وجهة تجاوز منطقة التذبذب لتدل على تصلب الموقف الفكرى لحظات المواجهة الحرجة)) (١) • من ذلك قوله يفخر بنفسه (٢) :

أنا ابنُ اللقاءِ أنا ابنُ السخاءِ   أنا ابنُ الضرابِ أنا ابنُ الطعانِ • • •

ان المتنبي يؤكد في كل جملة من هذه الجمل الاسمية فكرة يؤمن بها أو موقفا يرى نفسه عليه ، ومن أجل أن يزيد من تأثير وقع كلامه على الآخرين ، فيصدقوا ما يقول ، أتى بكل جملة من هذه الجمل تامة قصيرة من غير تطويل • فكانت من المبتدأ والخبر فقط • فضلا عن بدئه كلا منها بضمير المتكلم الذى يدل فيهذا السياق على القوة والأنفة • ثمّ ليؤكد كل جملة بالأخرى عسى أن يبلغ التأثير مداه الذى أراده له •

وقال يفضل جمال البادية على جمال الحاضرة (٣) :

حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتَطْرِيةٍ   وفي البداوةِ حُسنٌ غيرُ مجلوبِ

فهو هنا يقرر أمرا آمن به ، فلا يدع معه مجالا للشك أو التساؤل •

واذا ما أراد أن يؤكد شجاعته ، ويثبت كثرة تردده في أطراف الأرض ، فضلا عن علمه وفضله قال (٤) :

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني   والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ

وكما وردت الجملتان الفعلية والاسمية مثبتتين ، وردتا كذلك منفيتين • فمن أمثلة ذلك مع الجمل الفعلية (٥) ــ التي تتمثل فيها بعض من جوانب الرحلة ــ قوله (٦) :

وما زلتُ طودا لا تزولُ مناكبي   إلىْ أن بدتْ للضيمِ فيَّ زلازلُ

فهو ثابت ذو وقار لا يحركه شيء ، حتى اذا ما ظلم لم يصبر على الظلم فانتفض • وقال (٧) :

أرىْ النوىْ تقتضيني كلَّ مرحلةٍ   لا تَستقِلُّ بها الوَخّادةُ الرُسُمُ

---

(١) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ١٢١ •
(٢) التبيان ٤ : ٢٦٤ / ٣ ــ ٦ •
(٣) نفسه ١ : ٣٤ / ١٢ •
(٤) نفسه ٣ : ٢٢٢ / ٢٢ •
(٥) جاء في الجملة الفعلية بسيطة وموسعة ٢ / ٢٠٢ أن الجملة الفعلية المنفية وردت في ١٠٣٤ موطن في شعر المتنبي بعامة ــ أى أن شعر الرحلة بضمنه ــ •
(٦) التبيان ٣ : ١٩٧ / ٦ •
(٧) نفسه ٣ : ٢٢٢ / ٣١ •

فهو بنفيه قدرة الإبل على قطع المرحلة أو المسافة التي يد فعه الى اجتيازها البعد الذى يراه واجبا عليه بعد نفور العلاقة بينه وبين أحبائه ـ وهم هنا سيف الدولة ـ ، يشير الى سعة هذه المسافة وطولها ، التي يريد عبورها الى حيث يبعد عن هؤلاء الذين لم يعودوا يقدرونه كما يبغي ، فلا أقل منها يمكن أن يسكن غضبه ويداوى ألمه •

وقد يتحول النفي الى دعاء ، كما في قوله يرفض الذل والظلم (١) :

فلا عبَرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّنـي ... ولا صَحِبَتْني مُهجةٌ تقبلُ الظُلْما

ومن أمثلة النفي في الجمل الاسمية ، قوله يشير الى أهمية المال في صنع المجد ، وأهمية المجد في الحصول على المال (٢) :

فلا مجدُ في الدنيا لمَنْ قَلَّ مالهُ ... ولا مالُ في الدنيا لمَنْ قَلَّ مَجدُهُ

وقال ينفي عن نفسه الركون الى الآمال والاكتفاء بالاقلال (٣) :

ليس التعلُّلُ بالآمالِ من أرَبي ... ولا القناعةُ بالإقلالِ من شِيَمي

وقال ينكر على قومه تحكم الأجانب فيهم (٤) :

وإنما الناسُ بالملوكِ وما ... تُفلِحُ عُربٌ ملوكُها عجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ

فبالجملة الفعلية المنفية هنا ، نفى الفلاح عن العرب اذا ما تحكم فيهم من ليس منهم • وبالجمل الاسمية المنفية المعطوفة بعضها على بعض ، نفى صفات الأدب والحسب والصدق عن مثل هؤلاء الأعاجم ، وبذلك نلحظ كيف أسهم أسلوب النفي في الجملتين الفعلية والاسمية في تقرير المعنى الذى أراد المتنبي الإفصاح عنه وتأكيده •

وقد يقترن النفي بأداة استثناء فيفيد اذ ذاك معنى الحصر ، فيستعين به المتنبي في زيادة التأكيد والتحديد • قال يذم الناس من حوله (٥) :

إذا مالناسُ جرّبهمْ لبيبٌ ... فإني قد أكلتُهمْ وذاقا
فلم أرَ ودَّهمْ إلا خِداعاً ... ولم أرَ دِينهم إلاّ نِفاقا

فخبرته بالناس جعلته يكتشف بواطنهم ويطلع على سرائرهم ، ليخلص الى أن ودهم خداع ، ودينهم نفاق •

وقال في ذكر الخيل (٦) :

---

(١) التبيان ٤ : ٣٤/٢٤٤ • (٢) نفسه ٢ : ١٢/٨٤ •
(٣) نفسه ٤ : ١٢/٢٣٣ • (٤) نفسه ٤ : ٢/٢٣٨ـ٣ •
(٥) نفسه ٢ : ٣٦/١٥١ـ٣٧ • (٦) نفسه ١ : ١٢/٣٥ •

وما الخيلُ إلاّ كالصديقِ قليلــةٌ   وإنْ كثُرتْ في عينِ مَن لا يُجَـرِّبُ

فقد قصر تشبيه الخيل (التي يحبها) هنا بالصديق ليحلن عن ندرة وجود الاثنين، وإذا ما أتى بالشطر الثاني فلكي يشير الى أن مراده النوع وليس الكم .

وقال يقرن الوطن بموافقة الرغبات، ويحدد الأهل بالصادقين المخلصين[١]:

وما بلدُ الإنسان غيرُ الموافـــقِ   ولا أهلُهُ الأدنون غيرُ الأصادقِ

فكل بلد يوافق رغبات الشخص ويحقق له آماله فهو بلده أو وطنه . وكل أنـــاس يخلصون له الود ويصدقونه الحب فهم أهله وعشيرته .

وقد يقترن النفي بصيغ أخرى، بما يزيد في إبراز بعض من الجوانب التي لها علاقـة بموضوع الرحلة، مما يساعدنا على التعمق في فهم طبيعتها وإدراك خصوصيتها عند المتنبي الذي كانت تشكل جزءاً مهما من كينونته . من ذلك ارتباط أداة النفي بـ (لكن) . ومنه قوله[٢]:

وفَهِرُ ناسهُ ناسٌ صِغـــارٌ   وإنْ كانت لهم جُثَثٌ ضِخــامُ

وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهــمْ   ولكنْ مَعْدِنُ الذَهبِ الرَغـامُ

ان ((من شأن هذا التركيب أن يثبت نفي وضع أو حالة في مرحلة أولى ثمّ يقابلهـــا بوضعية أخرى تخالفها))[٣] . فان حذفنا (ما) و (لكن)، تصبح عبارة (معدن الذهــب الرغام) في مقابل عبارة (العيش فيهم) . وبهذا يؤكد المتنبي غربته بين الناس الذيـــن يعيش بينهم، فضلا عن تفوقه عليهم .

ومن هذه الصيغ، الشرط . قال[٤]:

وما منزلُ اللذاتِ عندي بمنـزلٍ   إذا لم أُبَجَّلْ عنده وأُكَـرَّمِ

فهو يشترط إحساسه بالعز والتكريم لاعتداده المنزل ـــ أي منزل ـــ بلدا أو وطنــا . والا فلن يعده كذلك ولو توافرت فيه كل أسباب اللذة والمتعة .

وفي مثل هذا المعنى يقول[٥]:

إذا صديقٌ نَكِرْتُ جانِبَــــهُ   لم تُعْيِني في فراقـهِ الحِيَـلُ

فالإخلاص في **الصداقة** هو شرط دوامها عند المتنبي، فاذا ما أحس بما يشككه فيـــه تنصل منها وانسحب .

---

(١) التبيان ٢ : ١١/١٥٣ . (٢) نفسه ٤ : ٢٣٩ / ٢ـ٣ .
(٣) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ١١٢ .
(٤) التبيان ٤ : ٢/٢٥٢ . (٥) نفسه ٣ : ٩/٢٠٢ .

— بين الجملة الخبرية والإنشائية :

لقد ورد ذكر الرحلة عند المتنبي بصيغة تركيبية أخرى ـ فضلا عن صيغة الفعلية والاسمية ـ هي صيغة الخبرية والانشائية ٠

أما صيغة الخبر أو الجملة الخبرية ،[١] فقد أفاد منها المتنبي في تقرير المعاني والأفكار التي أراد إيصالها الى الناس ، وتأكيدها ورفع الشك أو اللبس عنها ، لما تمثله هذه الأفكار والمعاني عنده من ثوابت تشكل عناصر كينونته وأبعاد توجهاته وأصول فهمه الحياة ٠ اذ أن الجملة الخبرية بصيغها الفنية الخاصة قادرة على استيعاب هذه الثوابت ثمّ التعبير عنها ، ومما ورد من ذلك في إطار موضوع الرحلة ، قوله يشير الى سعيه في طلب المعالي[٢]:

فسِرتُ إليكَ في طلبِ المعالي ... وسار سوايَ في طلبِ المعاشِ

وقوله يذكر إحساسه بالوحدة إزاء معاكسة الليالي اياه ووقوفها ضد آماله[٣]:

أُهمُّ بشيءٍ والليالي كأنها ... تُطارِدُني عن كونِهِ وأُطارِدُ
وحيدٌ من الخُلانِ في كلِ بلدةٍ ... إذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المُساعِدُ

وقال يفخر بقومه[٤]:

وإني لمن قومٍ كأنّ نفوسَنا ... بها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللحمَ والعَظما

وقال مشيرا الى ما عاناه في رحلته الى كافور[٥]:

ولقد أفنتِ المفاوزُ خيلي ... قبل أن نلتقي وزادي ومائي

ومنه أيضا قوله يفخر بنفسه ويمدح رفاقه في رحلة الطموح[٦]:

---

(١) الخبر : كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذات قائله ٠ ويخرج عن هذا التعريف الأخبار التي وردت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والحقائق العلمية والبديهيات التي لا يشك فيها ، لأنها لا يمكن أن تحتمل الكذب ٠ والخبر على أضرب / ١-الابتدائي : وهو الخبر الذي يكون خاليا من المؤكدات لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه / ٢ الطلبي : وهو الذي يتردد المخاطب فيه ولا يعرف مدى صحته فيؤكد بمؤكد واحد من أدوات التوكيد / ٣ الإنكاري : وهو الخبر الذي ينكره المخاطب إنكارا يحتاج الى أن يؤكد بأكثر من مؤكد ٠ ومؤكدات الخبر : إنّ ، أن ، كأن ، لكن ، لام الابتداء ، الفصل ، أمّا ، قد ، السين ، القسم ، نونا التوكيد ، لن ، الحروف الزائدة ، حروف التنبيه ٠
(ينظر:البلاغة والتطبيق د ٠ أحمد مطلوب د ٠ كامل حسن البصير ١٠٣ ـ ١٢٠)٠

(٢) التبيان ٢ : ٣٦/١٣٣ ٠ (٣) نفسه ١ : ٥٩/٨ـ٩ ٠
(٤) نفسه ٤ : ٢٤٤/ ٣٢ ٠ (٥) نفسه ١ : ٥/٢٢ ٠
(٦) نفسه ١ : ٢٣/ ١ـ٥ ٠

أَقَلَّ فَعَالي بَلْهَ أكثرُهُ مُجْــدٌ وذا الجِدُّ فيه نلتُ أم لم أنلْ جَدُّ
سأطلبُ حقي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طولِ ما التثموا مُــرْدُ
ثِقالٍ إذا لاقوا خِفافٍ إذا دُعوا كثيرٍ إذا شَدّوا قليلٍ إذا عُــدّوا
وطعنٍ كأنّ الطعنَ لا طعنَ عندَهُ وضربٍ كأنّ النارَ من حرِّه بَــرْدُ
إذا شئتُ حفّتْ بي على كلِّ سابحٍ رجالٌ كأنّ الموتَ في فَمِها شَـهْدُ

وقال متغزلا (١) :

لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لَقِــي وللحبِّ ما لم يبقَ مني وما بَقِــي
وما كنتُ ممَّن يدخلُ العشقُ قلبَهُ ولكنّ مَن يُبصرْ جفونَكِ يَعشَــقِ

أما صيغة الإنشاء أو الجملة الانشائية (٢)، فقد أفاد المتنبي مما توفره له طبيعة الإنشاء ذات الصيغ المتنوعة والأشكال المختلفة من حرية في تنويع أنماط الكلام وتلوينه بما يساعده على الإبداع أولا ، والتوصيل ثانيا • بخاصة أن الانشاء بكل أنماطه يعبر عن الجانب الانفعالي ، الذي قد يؤدي الى ارتفاع نبرة صوت المتنبي الى الحد الذي ربما وصل به الى الخطابية •

ولعل أبرز ظاهرة إنشائية تظهر في شعر الرحلة عند المتنبي أو ماله صلة به ، هي الاستفهام (٣) • وبروزها يأتي من خصوصية استخدام المتنبي اياها وإفادته منها بما يمكنه من إبلاغ ما يريد بنجاح • من ذلك قوله يشير الى كثرة تنقلاته (٤) :

بأيِّ بلادٍ لم أجُرَّ ذوائبـــــي وأيِّ مكانٍ لم تطأْه ركائبــي

فيستعين بالاستفهام لبيان كثرة أسفاره ، متوسلا بما يخلقه هذا الأسلوب من توفز ومشاركة دون الإخبار والتقرير المباشرين •

وقال (٥) :

---

(١) التبيان ٢ : ٢/١٥٢ـ١ •
(٢) الإنشاء : كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه • والانشاء قسمان ، الأول : الانشاء الطلبي وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب وهو خمسة أنواع : الأمر ، والنهي والاستفهام ، والتمني ، والنداء • الثاني : الانشاء غير الطلبي وهو ما لا يستدعي مطلوبا ، وله أساليب مختلفة منها ١/صيغ المدح والذم / ٢ التعجب/ ٣ القسم / ٤ الرجاء/ ٥ صيغ العقود • (ينظر: البلاغة والتطبيق ١٢١ـ١٤٢) •
(٣) عرض الدكتور زين كامل الخويسكي في (الجملة الفعلية منفية واستفهامية ومؤكدة دراسة تطبيقية على شعر المتنبي) ١٦١ـ١٨٥ لأنماط الجملة الفعلية الاستفهامية في شعر المتنبي بعامة ، وقد بلغ عدد المرات التي وردت فيها أدوات الاستفهام ١٠٢ مرة •
(٤) التبيان ١ : ١٦/٢٣ • (٥) نفسه ٤ : ١/٢٧٣ •

بِمَ التعلّلُ لا أهلٌ ولا وطنٌ   ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ

وهو بسؤاله هذا عما يتعلل به ويسكن اليه اذ لا أهل ولا وطن ولا صديق ولا حبيب ، انما يؤكد احساسه بالغربة والوحشة .

واذا ما كان من عادة الأيام أن تبعد عنه أحبابه ، وتقرب منه أعداءه فانه يتساءل متعجبا متألما (١) :

أما تَغْلَطُ الأيامُ فيَّ بأن أرى   بغيضاً تُنائي أو حبيبا تُقَرِّبُ

وحين مرّ بشعب بوان ، قال (٢) :

يقولُ بشِعبِ بَوّانٍ حصاني   أعن هذا يُسارُ إلى الطِعانِ

ان المتنبي بهذا التساؤل الذى أتى به على لسان حصانه ـ على سبيل الإسقاط ـ انما يوحي الينا بما يمكن أن يكون بداية لتغير طرأ على نظرته الى حياته التي يعيش، اذ تعجب من نفسه واستنكر منها أنها تركت الاستقرار والهدوء ـ اللذين يدل عليهما شعب بوان ـ الى التعب والخوف والقلق بجريها الحثيث المتواصل نحو أمان ومطامح أنهك نفسه دون أن ينال منها كل ما يريد .

ومن الظواهر الإنشائية الأخرى التي وردت في شعر الرحلة عند المتنبي ، النداء . من ذلك قوله يخاطب سيف الدولة معربا عن ألمه لاضطراره الى مفارقته (٣) :

يامَنْ يَعِزُّ علينا أن نفارقَهم   وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكمْ عَدَمُ

وكأني بندائه هنا يحاول إثارة انتباه سيف الدولة عسى أن يمسك به ويمنعه من الرحيل . وربما وصل في ندائه حد الندبة اذا ما شعر بالألم الممض والقلق المنيف . قال يخاطب سيف الدولة ، حين توترت العلاقة بينهما (٤) :

واحَرَّ قلباهُ ممَّن قلبُهُ شَبِمُ   ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

ومما قاله جامعا بين النداء والاستفهام (٥) :

أجارُكِ يا أُسدُ الفرادِ يمن مُكرَمُ   فتسكنُ نفسي أم مُهانٌ فمُسْلَمُ
ورائي وقدامي عداةٌ كثيرةٌ   أحاذِرُ من لصٍ ومنكِ ومنهمُ

---

(١) التبيان ١ : ٢/٣٥ .   (٢) نفسه ٤ : ١٧/٢٧٨ .
(٣) نفسه ٣ : ٢٤/٢٢٢ .   (٤) نفسه ٣ : ١/٢٢٢ .
(٥) نفسه ٤ : ١/٢٤١ ـ ٤ .

فهل لك في حِلفي علىٰ ما أريدُهُ   فإني بأسباب المعيشةِ أعلَمُ
إذاً لأتاكِ الخيرُ من كلِّ وِجهةٍ   وأثريْتِ مما تغنمينَ وأغنَمُ

ان خطاب المتنبي هذا لأسد الفراديس بما يشتمل عليه من عرضه عليها معاونته ، فيغنم كلاهما ، حين لم يجد حوله غير المتربصين بهما هو الا تعبير عما كان يشعر به من غبن وظلم ووحدة ، في حين تمتلئ أقطار نفسه بالرغبات والآمال .

ومن الظواهر الإنشائية الأخرى،الأمر . قال يفخر بنفسه (١) :

أمِطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنّهُ   فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

وقوله (٢) :

سلِ البيدَ أين الجنُّ منّا بجَوْزِها   وعن ذي المهاري أين منها النقانِقُ

فهو بهذا الأمر بسؤال البيد عنه ، يريد إثبات شجاعته وقوة إبله في قطعها حيث المصاعب والأخطار .

ومن هذه الظواهر أيضا التمني . قال متمنيا أن يكون من خيل سيف الدولة (٣) :

ليتَ أنّا إذا ارتحلتَ لكَ الخيلُ   وأنّا إذا نزلتَ الخيامُ

فما دام قد وجد في سيف الدولة صورة نفسه فانه على استعداد لأن يرافقه ويعاونه على ما يريد . فاذا حدث بينهما ما حدث ورحل الى كافور قال (٤) :

ألا ليت يومَ السيرِ يُخْبِرُ حَرَّهُ   فتسألَهُ والليلُ يُخبِرُ بَرْدَهُ
وليتك ترعاني وحيرانُ مُعرِضٌ   فتعلمَ أني من حُسامِكَ حَدُّهُ

فهو يتمنى لو أن كافورا علم بمقدار جلده وصبره في مواجهة المصاعب والأخطار التي اعترضت طريقه اليه ، فيتأكد من قوته وقدرته عسى أن يمنحه ما يريد وينيله ما يبغي . ولا شك أن الفرق هنا بين طبيعة تمنيه في كنف سيف الدولة وطبيعته عند كافور أوضح من أن نشير اليها وأبين .

أما النهي بوصفه واحدا من هذه الظواهر ، فقد ورد فيه قوله (٥) :

لا تُنْكِرَنَّ رحيلي عنكَ في عجَلٍ   فإنني لرحيلي غيرُ مختارِ
وربما فارقَ الإنسانُ مهجتَهُ   يومَ الوغىٰ غيرَ قالٍ خشيةَ العارِ
وقد مُنيتُ بحُسّادٍ أحاربُهُمْ   فاجْعلْ نداكَ عليهمْ بعضَ أنصاري

---

(١) التبيان ٢ : ١٩٤/٤ .   (٢) نفسه ٢ : ١٥٦/٦ .   (٣) نفسه ٢ : ٢١٩/٤ .
(٤) نفسه ٢ : ٨٤/٣٠-٣١ .   (٥) نفسه ٢ : ١١٥/١-٣ .

فهو يدعوه ألا ينكر عليه رحيله عنه ، فالباعث على الرحيل ، وهو كيد الحساد ، أكبر من رغبته في البقاء عنده ، فاذا تمكن هؤلاء الحساد منه آثر ألم الرحيل على المكوث بينهم •

ومن هذه الظواهر كذلك قوله يذم الليالي التي قضاها ساهرا ، باكيا مشوقا في اثر من لا يشعر به (١) :

بئسَ الليالي سَهِرْتُ من طَرَبٍ	شوقا إلى مَن يَبيتُ يُرْقِدُها
أَحْيَيْتُها والدموعُ تُنْجِدُني	شؤونُها والظلامُ يُنْجِدُها

ومنها قوله يتعجب من شدة مرارة الفراق وعظم تأثير الصبابة في العاشقين (٢) :

فواحسرتا ما أَمَرَّ الفِراقَ	وأعلقَ نيرانَهُ بالكُبودِ
وأغرى الصبابةَ بالعاشقين	وأقتلَها للمُحِبِّ العميدِ

ومنها أيضا قوله راجيا (٣) :

ولعلي مُؤَمِّلٌ بعضَ ما أبلغُ باللُطْفِ من عزيزٍ حميدِ

يقول ((لعلي راجٍ بعض ما أؤمله بلطف الله)) (٤) •

بعد هذه السياحة الموجزة بين الأساليب أو الظواهر الانشائية ، التي تجلت في شعر الرحلة عند المتنبي ، نوّد الإشارة الى أن المتنبي كغيره من الشعراء والأدباء أفاد من كل ما أتاحته اللغة بجميع جوانبها من إمكانات للإبداع فتوسل بها ، ولكن خصوصيته تكمن في مدى نجاحه في التعبير عما يريد بوساطة هذه الأساليب ، فضلا عما أضفاه عليها من روحه ونفسه وفكره فامتازت به عن غيرها مما أفاد منه الآخرون •

وقبل أن أنتهي من هذا المبحث ، لا بدّ لي من الإشارة الى بعض من الظواهر الأسلوبية ــ التركيبية ، التي برزت بوضوح في شعر الرحلة عند المتنبي ــ فضلا عن بقية شعره ــ • وأولى هذه الظواهر ما دلنا اليه الدكتور هادي الحمداني من كثرة تردد (ما) بأنواعها فيه ، حتى تجاوز عدد المرات التي أتت فيها في شعر المتنبي كله ــ بضمنه شعر الرحلة ــ الألف ومئة مرة (٥) فمما وردت فيه من شعر الرحلة ، فضلا عما ذكرت فيه من الأمثلة السابقة ، قوله (٦) :

---

(١) التبيان ١ : ٦٢/١١ــ١٢ •

(٢) نفسه ١ : ٦٦/٤ــ٥ • (٣) نفسه ١ : ٦٣/٢٤ • (٤) نفسه ١/ ٣٢٠ •

(٥) ينظر (ما) في شعر المتنبي ، مجلة الجامعة المستنصرية ، العدد الرابع ، السنة الرابعة ١٩٧٤ ص ١٠٣ ــ ١١٥ •

(٦) التبيان ١ : ٧٠/٧ •

وما ماضي الشباب بمُسْتَرَدٍّ ولا يومٌ يمُرُّ بمُسْتَعادِ

وقوله (١) :

فياليت ما بيني وبين أُحِبَّتي من البُعدِ ما بيني وبين المصائبِ

حتى قال الدكتور الحمداني ((•• ان الشاعر أغرم باستعمال هذه الأداة في شعره مبكرا فقام بناؤه الشعرى على هذه اللازمة ولم يستطع التخلص أو التخفيف منها فيما بعد))(٢) •

وثانية هذه الظواهر هي ولعه باستخدام حروف الجر بكثرة — وهذه مما دلنا اليه الدكتور هادى الحمداني أيضا(٣) — حتى انه قد يأتي في البيت الواحد بأربعة منها • من ذلك قوله يذكر فرسه(٤) :

وتُسعِدُني في غَمْرةٍ بعد غمرةٍ سَبوحٌ لها منها عليها شواهدُ

وقوله يخاطب بعض معدوحيه(٥) :

ولكنكَ الدُنيا إليَّ حبيبةً فما عنكَ لي إلاّ إليكَ ذَهابُ

وربما كان مراده من هذا الاستخدام تقوية بنائه الشعرى لغة وايقاعا(٦) •

وثالثة هذه الظواهر — وان كانت بنسبة أقل — هي ظاهرة التكرار(٧) • من ذلك قوله(٨) :

إنْ أكُنْ مُعْجبا فعُجْبُ عجيبٍ لم يَجِدْ فوقَ نفسِهِ من مَزيدِ

وقوله(٩) :

فقلقلتُ بالهَمِّ الذي قلقل الحشا قلاقلَ عيسٍ كلُّهنَّ قلاقِلُ

وعلى الرغم مما قد يكون شاب بعض شعره من ضعف وهشاشة نتيجة المبالغة في مثل هذا التكرار ، فغالب الظن أن المتنبي قد أراد من وراء ذلك أن يقوى المعنى الذى يود

---

(١) التبيان ١ : ٥/٣٣ •
(٢) (ما) في شعر المتنبي ١٠٧ •
(٣) ينظر: المتنبي وحروف الجر ، مجلة الضاد ، الجزء الأول ، شباط ١٩٨٨ ص١٧١ — ١٨٣ •
(٤) التبيان ١ : ١٠/٥٩ •
(٥) نفسه ١ : ٤٣/٣٦ •
(٦) ينظر: المتنبي وحروف الجر ١٧٢ • ولعل فيما أوردنا من أمثلة من قبل ، فضلا عن هذين المثالين ، ما يغني عن الاتيان بمزيد منها •
(٧) ينظر: يتيمة الدهر ١/١٦٥ — ١٦٧، والصبح المنبي ٣٧٧ — ٣٧٩، والمتنبي والمشكلة اللغوية ٣١ — ٣٢ •
(٨) التبيان ١ : ٣٤/٦٣ •
(٩) نفسه ٣ : ٧/١٩٧ •

إبلاغه ، وذلك من خلال التأكيد الذى يحمله التكرار ، فضلا عن الإيقاع الذى يضفيه • وهذا ما يتضح في المثالين آنفي الذكر ، فتكرار كلمة (العجب) باشتقاقاتها توحي الينا بشدة إعجاب المتنبي بنفسه ، وتغلغل هذا الإعجاب في ثنايا شعوره • كما أن تكرار كلمة (القلقلة) باشتقاقاتها تومئ الينا بمدى حالة الاضطراب والقلق التي يحس بها في داخله ، فضلا عما تتمثل به من تعب جسدى نتيجة الترحل الدائم وراء مطامح شتى • وأما الإيقاع فمما سنعرض له فيما يأتي من هذا البحث •

ولعل مما يفسر ذلك ، فضلا عما ذهبنا اليه ((هو أن الشاعر وقت النظم كان يعبر عن مواقف وأن هذه المواقف قد شكلت فيما شكلت هذه القوالب اللفظية ، ولم يشأ تبديلها بالرغم من قدرته على ذلك لأنه شعر أنها في موضعها أقدر على اخراج ما بنفسه))[1]•

---

(١) الصورة الفنية في شعر أبي تمام ٢٤٤ •

ثانيا : الصـــــورة :

مهاد نظرى :

حفل النقد المعاصر بالكثير من الدراسات المستفيضة والعميقة في موضوع الصـــورة ماهية ووظيفة • وما سنحاوله هنا هو أن نحرض لما نراه يساعدنا على إدراك حقيقة الصـورة وفهم أبعادها بما يمكننا من استجلاء مدى نجاح المتنبي في رسم صور رحلته بجميـــع جوانبها •

يقول الدكتور عبد القادر الرباعي ((ان ذات الشاعر ــ عادة ــ تنظر الى الموضوع بوّد أو بكره ، وتختزنه في الذاكرة مصحوبا بهذا الاحساس أو ذاك حتى اذا صادفت موقفـــا انفعاليا مماثلا أو مخالفا قرعت باب الذاكرة لتولد من جديد أو تتشكل في صور موحية))(١) • فولادة الصور ــ اذن ــ هي الاستجابة الطبيعية للشاعر إزاء ما يمر به من انفعالات ومشاعر، فهو يعبر عنها برسمها في تشكيل صورى يومي إليها ويوحي بها •

ان هذا القول لا يعني أن الصورة وسيلة لنقل الفكرة أو الإحساس أو الشـــعور ((وانما الشعور هو الصورة ، أى أنها الشعور المستقر في الذاكرة ، الذى يرتبط في سرية بمشاعر أخرى ويعدل منها • وعندما تخرج هذه المشاعر الى الضوء وتبحث عن جسم فانها تأخذ مظهر الصور في الشعر أو الرسم أو النحت ــ وان كان هذا لا يتضح في الموسيقى))(٢) • فالمشاعر والأفكار تنبجس من الذات ، ومهما حفظ الشخص ــ أى شخص ــ من تشبيهات واستعارات وغيرها من أدوات الفنون البلاغية ، فانه لن يستطيع أن يكون شاعرا أصيلا بمجرد هذا الحفظ ، اذ لابدّ لهذه البلاغة أن تبدأ حركتها من النفس(٣) ؛ من داخل الإنسان نفسه • ومن هنا كان الشعور أو الفكرة هو الصورة •

واذ نحاول أن نوضح مفهوم الصورة، فاننا واستنادا الى ما مر ، نورد التعريف التالي للصورة ، على أنه المعيار الذى يمكن أن تتحدد بمقتضاه جوانب الصورة وأبعادها • وهـو أن الصورة ((تشكيل لغوى نابع من المخيلة المبدعة تتفاوت عناصرها بين الحسية والمعنويـة ، بحيث تكون العلاقات الداخلية بين هذه العناصر ذات صفة معنوية متسمة بالخبـــرة والابتكار ، اذ تتمثل هذه الخبرة والابتكار في خصائص ثلاث : الحركة والايحاء والتأثيـر ، وهذه الخصائص هي التي تمنح العمل الإبداعي قوة تتجاوز الأطر التقليدية لهذا العمـل وتكسبها قيمتها المعنوية والفنية ، كما أن هذه الخصائص ذاتها هي الوظائف الرئيسة للصورة ، وبذلك تتوحد الماهية والوظيفة في نسيج واحد يتعذر الفصل بينهما))(٤) •

---

(١) الصورة الفنية في شعر أبي تمام ٢٩ •

(٢) Whalley: Poetic Process; P. 76. نقلا عن : التفسير النفسي للأدب ٧١ •

(٣) ينظر: التفسير النفسي للأدب ٧١ ــ ٧٢ •

(٤) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٨ •

واذ ظهرت في تعريفنا للصورة أهمية التشكيل اللغوى ، فلأن الصورة لن تكون ولن توجد ما لم يشكلها لفظ موح موءثر ، فاللغة في التعبير الشعرى ((ليست وعاء للفكر ، أو كساء له ، انها الوسيلة التي تكتشف بها الفكرة الشعرية ذاتها وتعدل بها من طبيعتها • انها أداة الشاعر ووسيلته في الاكتشاف والتحديد والتعرف))(١).

ان التركيب اللغوى الصحيح المتواشج النابع من صميم التجربة ومن صدق الانفعال بها ((هو الذى يتيح لطاقات المفردة ودلالاتها الفنية وموءشراتها المجازية أن تظهر الى الوجود بالصيغة الجديدة المرادة))(٢). واذا ما تحقق ذلك يصح القول حينذاك ان ((لغة الشعر تحل الصورة محل اللغة المباشرة))(٣). بل ان الدكتور كامل حسن البصير يذهب الى أبعد من ذلك حين يرى أن الكلمة المفردة قد تمثل صورة ، اذا ما كانت تملك من الإيحاء والظلال ما يعين المتلقي على استعادة صورة شيء ما وتمثله والإحساس به(٤).

أما عن دور الخيال في رسم الصورة ، فيقول الدكتور جابر عصفور ((ان الصورة نتاج لفاعلية الخيال • وفاعلية الخيال لا تعني نقل العالم أو نسخه •••• وانما تعني إعادة التشكيل ، واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر ، والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة ، واذا فهمنا هذه الحقيقة جيدا أدركنا أن المحتوى الحسي للصورة ليس من قبيل ((النسخ)) للمدركات السابقة ، وانما هو اعادة تشكيل لها ، وطريقة فريدة في تركيبها ، الى الدرجة التي تجعل الصورة قادرة على أن تجمع الاحساسات المتباينة وتمزجها وتوءلف بينها في علاقات لا توجد خارج حدود الصورة ، ولا يمكن فهمها أو تقديرها الا بفهم طبيعة الخيال ذاته ، باعتباره نشاطا ذهنيا خلاقا ، يتخطى حاجز المدركات الحرفية ، ويجعلنا نجفل لاتذين بحالة جديدة من الوعي))(٥).

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي ١٤٤ــ١٤٥ وينظر: الصورة الفنية في شعر أبي تمام ١٥ •

(٢) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٠٣ ــ ٤٠٤ •

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي د •نصرت عبد الرحمن ١٩٨ •

(٤) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، موازنة وتطبيق ٢٦٧ ــ ٢٦٨ •

(٥) الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي ٣٧٣ وينظر كذلك ــ للاطلاع على ما قيل في هذا الموضوع ــ: مبادئ النقد الأدبي أ• أ• ريتشاردز ٣٠٩ــ٣١٥، والصورة الأدبية د •مصطفى ناصف ٢٧، وفي ميزان النقد الأدبي ٣٠ــ٣١، والخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي (مواضع متفرقة) والصورة الفنية في شعر أبي تمام ١٤، والصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجرى د •علي البطل ١٥ــ٣٢، والصورة المجازية في شعر المتنبي ١١ــ ٢٤ • فضلا عمّا ورد في هذه الكتب من أسماء لمصادر أخرى عربية وأجنبية أفاد منها موءلفوها • ويهمنا أن نشير أيضا الى كتاب الدكتور كامل حسن البصير (بناء الصورة الفنية في البيان العربي) لما يحمله من دعوة لتأصيل مصطلح الصورة بجميع جوانبها في البحث البلاغي والنقدى العربي ناهيك عن تعرضه بالنقد لعدد من الكتابات العربية الحديثة التي تناولت موضوع الصورة بحثا ودراسة •

ولعل من أبرز صفات الصورة في الشعر ومن أهم مميزاتها ، العمق ونوعاً من الغموض الموحي الجميل ، اذ ((تكتسب التجربة الابداعية صفة العمق بوساطة الصورة ، ويتمثل هذا العمق في الاستغناء عن التفصيلات والاتجاه الى التكثيف والتركيز))(١) . وليس من شك في أن هذا العمق يظهر في ما ينبغي للصورة أن تكون عليه من تكثيف زماني ومكاني في انتخاب مفردات الصورة ورسمها ، اذ تتجمع في الصورة عناصر متباعدة في الزمان والمكان ، لكنها تأتلف في إطار شعوري واحد يحتويها ويحدد أبعادها ، لكي لا تصبح مجرد حشد كلمات لا تحدها حدود أو يجمعها إطار فتصير مفارقات تثير الضحك وتبعث على السخرية(٢) .

أما أنواع الصورة وأنماطها ثم أسماؤها ودلالاتها ، فلقد تعددت تعدد الدارسين والباحثين ، فلكل تقسيمه الخاص ومفهومه المحدد بحسب انتمائه الفكري وتوجهه الثقافي ((حتى ليحس القارئ - وهو يجول بين هذه الدراسات والمباحث - أن أمر التسميات قد أفلت من قبضة الضوابط والمقاييس))(٣) . فهناك الصورة الحسية والصورة الذهنية والصورة الرمزية ، والصورة الجزئية والكلية ، والتقريرية والموحية والنامية والثابتة ، والفاعلة والجامدة ، والتقليدية والمبتكرة ، والبسيطة والمركبة والمكتظة ، والمركزة والمتراكمة ، فضلا عن البصرية والشمية والذوقية واللمسية والسمعية والحركية والعضوية والحرارية والضوئية ، والصورة البيانية والمجازية والتشبيهية ، والصورة المقابلة والبديلة والمجسمة والصورة الحينية والكلية ، ناهيك عن صور الزمان والمكان والموقف(٤) .

---

(١) الصورة المجازية في شعر المتنبي ١٥ .

(٢) ينظر: التفسير النفسي للأدب ١٠٨ و ٦٣ - ٧٦ .

(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٥ .

(٤) ينظر: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ٨ - ١٤ و ١٨٦ - ١٨٩ ، والتفسير النفسي للادب ٦٣ - ٧٦ ، والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ٣٧٤ ، والصورة الفنية في شعر أبي تمام ١٤١ - ٢٢٠ ، والصورة الادبية ٤٠ و ١٢٨ ، والصورة في الشعر العربي ٢٥ - ٣٢ ، والصورة المجازية في شعر المتنبي ٢٥ - ٢٦ ، وبناء الصورة الفنية في البيان العربي (مواضع متفرقة) وتحديد الصورة وأهميتها في الخطاب الشعري د . الولي محمد ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس ، العدد التاسع ١٩٨٧ ص ١٩٩ - ٢٠٥ ، والصورة الفنية ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد ٢ ١٩٨٨ ص ٢٢ - ٣١ ، ولغة الحب في شعر المتنبي ٣٢٩ - ٣٣٠ . قد يكون بعض من هذه الأسماء أو الأنواع جزءا من بعضها الآخر - كما ورد ذلك في عدد من الدراسات - ولكننا قصدنا من ذكرها كلها - فضلا عن بيان أنواعها - الإشارة الى التكلف في إضفاء الأسماء والصفات ، سواء أكان ذلك نقلا واقتباسا أم اجتهادا وافتراضا .

تطبيقات على شعر الرحلة عند المتنبي :

واذ نعود الى شعر الرحلة عند المتنبي ، نقرر بدءاً أن المتنبي بوصفه شاعرا مرهف الإحساس ، واسع الثقافة ، مليئا بالطموح ، كان يعمل على أن تخرج صوره الشعرية ـ سواءً كان ذلك بقصد منه ووعي أم أنه ينبثق من لا وعيه ـ محملة بالإيحاءات والظلال ، حتى يحدث في متلقي شعره أكبر الأثر وأعظمه ، تسنده في ذلك ذاكرة واعية حافظة ، وخيال مبدع خلاق .

أما الذاكرة فبما اختزنته من الصور والأفكار من العالم الخارجي وما حفظته من المواقف والحالات الخاصة . وأما الخيال فبتشكيله المبتكر للصور من خلال الغوص في أعماق العلاقات بين أطرافها ، وإدراك كنه أبعادها . هذه الأطراف وتلك الأبعاد المستمدة من الفكر والطبيعة ، من العقل والحس . مصادرها العالم الخارجي بكل من فيه وما فيه والعالم الداخلي بكل قلقه واطمئنانه ، خوفه وأمنه ، ضعفه وقوته ، خوائه وامتلائه ، يأسه وأمله[1].

قال يعلن عن عزمه الدائب والدائم على الترحال[2] :

ذراني والفلاةَ بلا دليلٍ ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ

هذه صورة تضامت خطوطها لترينا المتنبي يضرب في مجاهل الصحراء وحيدا الا من عزمه على تحدى قسوة حرارة الهاجرة بالتعرض لها من غير لثام يقيه شدتها . وهو ((يمهد لهذا التحدى الذى يؤطر الصورة بفعل عنيف الوقع في النفوس (ذراني) ، ففي هذا الفعل يتجاوز كل معوّقات الرحيل المادية والمعنوية ، ثمّ تأتي (واو المعية) لتعقد أواصر الود بينه وبين الفلاة ، فهو ربيبها وابن بجدتها علما وتجربة ومراسا ، ويبلغ التحدى ذروته في أن (يبقى بلا لثام) ..... ومحور هذه الصورة قوله (بلا دليل) و (بلا لثام) ثمّ تلاحمت الأجزاء الباقية على توضيح أبعاد ما ترمز اليه هاتان العبارتان))[3].

وقال في وصف رحلة الى أحد ممدوحيه[4] :

وهَــزَّ أطارَ النومَ حتىٰ كأنني من السُّكْرِ في الغَرْزَيْنِ ثوبٌ شُبارِقُ

---

(١) ينظر: المحصول الفكرى للمتنبي ٣٢٤ ـ ٣٢٦، وملامح من صورة البطل عند المتنبي وقيمتها الفنية ١١٧ .

(٢) التبيان ٤ : ٢/٢٥٣ .

(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ١٠٥

(٤) التبيان ٢ : ١٥٦/ ٩ .

ان هذا البيت بما ينقله لنا من الهيئة التي كان المتنبي عليها في مسيره ، يفيض بالحيوية والحركة ، اذ هو يركب الجمل ، ونتيجة لسرعة هذا الجمل في مسيره فضلا عن طبيعة حركته نفسها المتمايلة ، يهتز راكبه من فوقه اهتزازا ليس باليسير ، بل انه قد يصل الى حد الإزعاج اذا ما حال دون النوم الذى يتمناه المسافر إما نتيجة التعب وإما استعانة به لدفع الشعور بالملل لطول الطريق • وهذا ما حصل للمتنبي مما أدى به الى هذه الاستعارة الجميلة وهي طيران النوم في مقابل جعله هذا الاهتزاز هو الذى أطاره • ومن هنا كان هذا التجسيد للنوم والتشخيص للاهتزاز (١) • واذا كان يشعر بالنعاس من دون أن يتمكن من تسليم جفنيه للكرى بسبب هذا الاهتزاز ، شبه نفسه بالثوب الخلق المقطع الممزق الذى يتردد بين جوانب الركاب وأطرافه رائحا وغاديا • ولم يكتف بذلك فاستعار السكر للنعاس مشبها حالته آنذاك بهيئة السكير المتمايل خائر القوى •

وقال في ذكر احدى رحلاته (٢) :

بَرَاني السُّرَى بَرْيَ المُدَى فَرَدَدْنَني ... أَخَفَّ علىَ المركوبِ من نفسي جِرْمِي
وأبصرُ من زرقاءِ جَوٍّ لأنني ... إذا نظرتْ عيناي َ شاءهما علمي

ان المتنبي هنا يرسم لوحة يصور فيها نفسه ، فهو دائم الترحل حتى انعكس ذلك على جسده حيث ظهرت آثاره عليه فهو مبرى كالرمح أو السهم ، أى أن هذا الترحال الدائم قد أهزله وأضعف من بدنه ، كما تبرى المدى والسكاكين الرمح أو السهم • ويجتمع في هذه الصورة ـ البيت الأول ـ ((لونان من المعاناة : لون حركي قائم في السرى ، ولون نفسي ، حيث أن السرى ـ وهي السير في الليل ـ تدل على أن ثمة آمالا تدفعه الى هذه الحركة))(٣) • ولا شك في أن هذه الآمال كبيرة وعظيمة والاّ لما اضطر الى تعريض نفسه لما تنطوى عليه كثرة الأسفار من مخاطر وصعوبات. ولمّا أراد تأكيد ما انتهت به اليه رحلاته الدائمة من ضعف وهزال ، أضاف قوله ((فرددنني أخف على المركوب من نفسي جرمي)) ، أى أنه قد صار

---

(١) اعتمدنا في تحديدنا هذا، على ما ذهب اليه الدكتور عبد القادر الرباعي من أن التجسيد هو تقديم المعنى في جسد شيئي أو نقل المعنى من نطاق المفاهيم الى المادية الحسية • وان التشخيص هو إحياء المواد الحسية الجامدة وإكسابها إنسانية الإنسان وأفعاله • وان التجسيم هو ما يسعى عن طريقه الشاعر الى إيصال المعنى المجرد مرتبة الإنسان في قدرته واقتداره • وان كان الدكتور الرباعي قد ذهب الى أن التشخيص والتجسيم جزآن انقسم اليهما التشخيص بمعناه العام وهو ارتفاع الأشياء الى مرتبة الانسان مستعيرة صفاته ومشاعره • (ينظر: الصورة الفنية في شعر أبي تمام ١٦٧ ـ ١٧٢) •

(٢) التبيان ٤ : ٢٣٧/١٠ ـ ١١ •

(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٨٧ •

ـ لخفته وهزاله ـ كأنه النفس الذى يخرج من الفم [(١)] ٠

واذا كانت السرى قد أهزلت جسمه ، فانها قد أفادته في تقوية بصره وإلهام بصيرته ، اذ يقتضي السير ليلا منه شدة الانتباه والتزام الحذر ، لكي لا يقع في أية مشكلة قد تسببها له ظروف التنقل الصعبة وبخاصة ليلا ، ومن هنا كانت حدة بصره وغزارة معرفته بما حوله مما تتطلبه حياة التنقل الدائم ٠ وبهذا أصبح أبصر من زرقاء اليمامة المضروب بها المثل بحدة البصر ٠

وقال أيضا [(٢)] :

كم مهمهٍ قذُفٍ قلبُ الدليلِ بهِ	قلبُ المحبِّ قضاني بعد ما مَطَلا
عقدتُ بالنجمِ طَرْفي في مفاوزِهِ	وحُرَّ وجهي بحَرِّ الشمسِ إذْ أفَلا
أنكحتُ صُمَّ حَصاها خُفَّ يَعْمَلَةٍ	تغشمرتْ بي إليكَ السهلَ والجَبَلا
لو كنتَ حَشْوَ قميصي فوقَ نُمْرُقِها	سمعتَ للجنِّ في غِيطانِها زَجَلا
حتى وصلتُ بنفسٍ ماتَ أكثرُها	وليتني عِشتُ منها بالذي فَضَلا

يبدأ المتنبي هذه الأبيات بالإشارة الى طول طريقه وسعته وبعده ، بل انه لم تكفه دلالة كلمة (مهمه) من أنها ((ما بعد واتسع من الأرض)) [(٣)] ، فأكدها بكلمة (قذف) التي تعني ((البعيد)) [(٤)] ٠ ولكي يشير الى صعوبة قطع هذا الطريق ومشاقه ، فضلا عما فيه من مخاطر شبه قلب الدليل حين يقطعه بقلب العاشق في قلقه واضطرابه وخوفه ، ولنلحظ ما رمى اليه المتنبي من وراء جعله الدليل ، ذلك الرجل العارف بالطرق ومجاهلها ، يخاف من المرور بهذا الطريق ، أو في الأقل عند مروره فيه ٠ انها رغبته في التأكيد على ما عاناه فيه من مصاعب وأخطار فضلا عن افتخاره بجرأته وقوته ، حتى جعل هذا الطريق يستجيب له بعد تمنع مستعيرا له المطل والقضاء ((لأن المطلوب منه انقطاعه بالسير ، فهو بطوله وبعد انقطاعه كالماطل ، الذى يمطل بما يقتضى منه ، وهذا المهمه لطوله وشدته كأنه يمطل)) [(٥)] ٠

---

(١) قال الدكتور جليل رشيد فالح في قول المتنبي (أخف على المركوب ٠٠٠) ((ولم يكن مضطرا الى هذه المبالغة ، لأن الاستعارة المكنية في الفعل " برى " وترشيحها بالتشبيه البليغ كانا من القوة والتأثير ما يجعل الصورة المجازية متكاملة العناصر مما جعل الاضافة التي بالغ فيها غمامة ألقت بغمتها على أرجاء الصورة)) (الصورة المجازية في شعر المتنبي ٨٧ ـ ٨٨) ٠

(٢) التبيان ٣ : ١٩٥ / ٢١ ـ ٢٥ ٠

(٣) التبيان ٣ / ١٧٠ ٠

(٤) نفسه المكان نفسه ٠

(٥) نفسه المكان نفسه ٠

وإذا كان هذا الطريق طويلا شاقا مليئا بالمخاطر، كان لا بدّ للمتنبي أن يكون حذرا متيقظا فلا يخطئ اتجاه سيره عسى أن يخرج منه بسلام ، ومن هنا كانت إشارته الى أنه لم ينفك ينظر الى النجم ليضبط مساره فاذا ما غاب النجم لجأ الى الشمس مستدلا بها ، وهذه إشارة الى أنه كان دائم السير ليلا نهارا • ولم يفت المتنبي – كعادته – أن يعمق خطوط صورته فجعل من نظره المستمر الى النجم يهتدى به كأنما عقد طرفه به ليدل على شدة حرصه وتيقظه خوفا من الضلال والتيه ، ولا شك في أن هذه الإشارة تنقل لنا ذلك الشعور بالقلق والخوف الذى كان يعتمل في نفس المتنبي في أثناء سيره في هذا الطريق حتى تمسك بكل ما من شأنه أن يساعده في سرعة الخروج منه ، ثمّ انه لم ينس أن يمني نفسه بالخلاص ويدفعها الى التفاؤل حين يسمي مجاهل هذا الطريق وجوانبه مفاوز على عادة العرب في التفاؤل اذ يطلقون على الفلاة الواسعة الصعبة مفازة ، وان كانت كلمة (مفاوزه) تشير الى طول هذا الطريق أيضا ، اذ الضمير (الهاء) يعود على المهمه • وهذا يعني أن هذا الطريق يتكون من عدّة مفاوز •

أما البيت الثالث فانه يشير فيه الى دفعه ناقته الى وطء حصى هذا الطريق وحجارته من أجل الاستمرار في السير • ويلفت انتباهنا هنا أنه جعل هذه الحصى التي يدفع ناقته الى وطئها صماء تدليلا على وعورة هذا الطريق وصعوبته • وبازاء ذلك جعل من ناقته (يعملة) وهي ((الناقة القوية التي يعمل عليها في السير))[(١)] ، فكأني به أراد أن يوازن بين صعوبة قطع هذا الطريق وقوة ناقته وشدتها وقدرتها على تحمل الصعاب ، وفي كل هذا إيحاء منه بقوته هو وشدة بأسه وإصراره على الوصول • كما أنه في محاولة منه لبيان قوة ناقته وثباتها في مشيها ، استعار لوطئها حصى الطريق فعل (النكاح) بما يوحي اليه من قوة وحيوية وثقة بالنفس • ثمّ يشير الى أن هذه الناقة قد قطعت في مسيرها الى الممدوح كل ما اعترض طريقها من جبال وسهول • وهنا لا بدّ من الاشارة الى عدم اتفاقي مع صاحب التبيان فيما ذهب اليه في أثناء شرحه هذا البيت اذ قال – فيما قال – ((•• وركبت ناقتي على غير قصد تارة سهلا وتارة جهلا ، فلم تزل تعسف بي حتى وصلت اليك ••))[(٢)] ، فكيف بمن عقد طرفه بالنجم ليلا وبالشمس نهارا ، وهو الخبير بالطرق كما يصف نفسه ، أن يركب على غير قصد ؟ ثمّ ان كان – فرضا – قد ركب عن غير قصد فلم وصل هذا الممدوح دون سواه ؟ •

ويستمر المتنبي في وصف هذا الطريق ، فيخاطب ممدوحه قائلا لو كنت أنت مكاني أو بدلا مني في هذه الرحلة لسمعت أصوات الجن وعزيفها في منخفضات هذا الطريق ((لأنها

(١) التبيان ٣/١٧١ •

(٢) نفسه ٣/١٧١، وينظر في معجم المتنبي دراسة لغوية تاريخية ١٩٤ •

مأوى الجن ، لبعدها عن الانس ، والعرب اذا وصفت المكان البعيد تجعله مسكن الجن))(١) • ولمّا كنا لا نعرف طبيعة علاقته بهذا الممدوح ــ وهو سعيد الكلابي المنبجي ــ فضلا عن قوله القصيدة التي وردت فيها هذه الأبيات في صباه ، فاني لا أميل الى القول بمحاولته المبطنة للانتقاص من هذا الممدوح من خلال مخاطبته اياه في هذا البيت ، وانما أذهب الى أنه هو نفسه الذي سمع جلبة الجن وعزيفهم ــ سواء أكان هذا الصوت يسمع حقيقة أم أنه وليد الخيال نتيجة الشعور بالخوف والقلق في أثناء قطع الفيافي والقفار ــ الاّ أنه لم يعبر عن ذلك صراحة وانما أومأ اليه ضمنا فيما اصطنعه من حوار (من طرف واحد) مع ممدوحه هذا • وانني لأذهب الى أن سماعه هذه الأصوات كان بفعل إحساسه بالخوف ، يؤيدنا في ذلك سياق الأبيات فضلا عن استخدامه تعبير (حشو قميصي) الذي يوحي بالشعور بالضآلة والاضطراب فهو محشو وليس لابسا ، وبين التعبيرين فضلا عن دلالتيهما فرق بيّن واضح • وقد وفق المتنبي هنا في رسم صورة الخوف والاضطراب بالافادة من عزيف الجن وأصواتها ، أحقيقة كان ذلك أم تخيلا •

ثمّ ينجح المتنبي في تعبيره عمّا حلّ به من نصب وخوف في أثناء قطعه هذا الطريق بموت أكثر نفسه ، فكأن التعب والخوف قد أكلا من لحمه ودمه ومشاعره وأفكاره فلم يبق منها الا القليل ، الذي يتمنى أن يتمكن به من العيش ، ولعل تمنيه هذا يؤكد مدى شدة معاناته في هذه الرحلة الشاقة الصعبة(٢) •

والحرب عند المتنبي تعني الكثير ، فهي وسيلة من أهم وسائله الى تحقيق بعض مما كان يتمناه ، سواء أكان ذلك على الصعيد الشخصي أم القومي ، فضلا عن حبه للحركة والقتال اذ يجد فيهما نفسه ويحقق بهما ذاته ، أو في الأقل يشعر بذلك بغض النظر عن النتيجة • ومن هنا كان إبداعه في رسم صور تنقلاته ومنها رحلة الحرب • قال يصف رحلة حربية شارك فيها برفقة سيف الدولة(٣) •

فما شَعَروا حتىٰ رأوْهــا مغـيرةً ... قِباحا وأما خَلْقُها فجميــلُ
سحائبُ يُمْطِرْنَ الحديدَ عليهــمُ ... فكلُّ مكانٍ بالسيوفِ غسيــلُ
وأمسىٰ السبايا يَنْتَحِبْنَ بعُرْقَــة ... كأنّ جيوبَ الثاكلاتِ ذيــولُ
وعادتْ فَظَنّوها بمَوْزارَ قُفّــلا ... وليس لها إلاّ الدُخولَ قُفــولُ
فخاضتْ نجيعَ الجمعِ خَوضا كأنــه ... بكُلِّ نجيعٍ لم تَخُضْهُ كفيــلُ
تسايرُها النيرانُ في كلِّ مسلَكٍ ... به القومُ صرعىٰ والديارُ طلــولُ
وكَرَّتْ فَمَرّتْ في دماءِ مَلَطْيَــةٍ ... مَلَطْيَةُ أمٌّ للبنين ثَكــولُ

---

(١) التبيان ٣ / ١٧١ •

(٢) وينظر ــ فضلا عما قلناه ــ الخوف في أدب المتنبي ٢٤ ــ ٢٥ •

(٣) التبيان ٣ : ١٨٧ / ٢١ ــ ٣٤ الغرر : جمع غرة ، وهي التي تكون في وجه الفرس والحجول : بياض يكون في قوائمها •

وأضعفْنَ ما كُلِّفْنَهُ من قُباقِب ... فأضحى كأن الماءَ فيه عليلُ
ورُعْنَ بنا قلبَ الفراتِ كأنما ... تَخِرُّ عليه بالرجالِ سيولُ
يُطاردُ فيه موجَهُ كلُّ سابحٍ ... سواءٌ عليه غَمْرَةٌ ومَسيلُ
تَراه كأن الماءَ مَرَّ بجسمِهِ ... وأقْبَلَ رأسٌ وحدَهُ وتَليلُ
وفي بَطْنِ هِنْريطٍ وسِمْنِين للظُبا ... وصُمِّ القَنا ممن أبَدْنَ بديلُ
طلَعْنَ عليهم طلعةً يَعرِفونَها ... لها غُرَرٌ ما تنقضي وحُجولُ
تَمَلُّ الحصونُ الشُمُّ طولَ نِزالنا ... فتُلقي إلينا أهلَها وتَزولُ

ينقلنا المتنبي في هذه الأبيات الى أجواء المعركة بكل حركتها وعنفها واضطرابها • فهي تبدأ بالمفاجأة التي هالت الروم حين رأوا خيول سيف الدولة تنقض عليهم ، ويحسن المتنبي في استعماله الفعل (شعروا) المنفي مع (حتى) للتعبير عن المفاجأة ، فضلا عما يوحي به هذا التركيب من غفلة الروم أو عدم توقعهم لما حصل ، حتى انهم لخوفهم وغضبهم من ذلك رأوا الخيل قبيحة على الرغم من جمالها • وهنا استطاع المتنبي أن يستبطن النفس الإنسانية ويرسم شعورا إنسانيا ـ نفسيا عاما وهو الإحساس بالكره حيال ما يسبب الضرر بصرف النظر عن حقيقة طبعه أو شكله •

ثم يشبه هذه الخيل بالسحائب الماطرة لكثرة ما توقعه بهم وعليهم من حد السيوف قاتلة جارحة حتى كأن ساحة القتال غسلت بالسيوف • واستعماله لفظ (سحائب) جاء بدلا من (قباحا) في البيت السابق مما يشير الى أنها كانت كالسحائب في نظر الروم أنفسهم ـ فضلا عن حقيقة كثرتها ـ لما أمطرته عليهم من مصائب •

ويذكر المتنبي انتحاب السبايا ، ولكي يصور شدة ألمهم وخوفهم شبه جيوبهن بالذيول تعبيرا عمّا فعلوه من تشقيق الجيوب وتمزيق الثياب حتى كادت تسقط عنهن •

واذ يستمر برسم درب مسير جيش سيف الدولة ، يشير الى كثرة قتلى الروم حين يجعل الخيل تخوض في دمائهم • فالتعبير ((بالخوض له دلالاته ، فالدماء لا تصلح للسباحة وانما للخوض فحسب ، والخوض فيها يدل على أنها كانت غزيرة لكثرة القتلى)) (١) ، فضلا عما أشار اليه من أن هذا النجيع لكثرته يكفل لغيره عدم خوض هذه الخيول فيه لاكتفائها به •

واذ يستعير السير للنيران مرافقة جيش سيف الدولة يكني بذلك عمّا كان جنود سيف الدولة يقومون به من حرق وتدمير يغدو بهما القوم صرعى والديار طلولا • ثم ها هي

---

(١) الخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ٧٩ •

الخيل مرة أخرى تعبر الدماء في إشارة الى غزارتها أيضا ، ولكنها هذه المرة دماء أهل ملطية ، لذلك عقب بهذه الكناية (ملطية أم للبنين ثكول) ، فأبناؤها هم أهلها الذين أشار اليهم مستفيدا مما أتاحه له المجاز المرسل من قوة التعبير حين جعل دماءهم دماء مدينتهم •

وبعد ما عبرت الخيول نهر قباقب أصبح كأن الماء فيه عليل ، أى صار يمشي الهوينى بعد أن كان يجرى مسرعا ، وما هذا الا كناية عن كثرة هذه الخيل التي لولاها لما حدث ذلك[(١)] • ولتصوير كثرة هذه الخيل وشدة وطئها فضلا عن سرعتها ـ بما تشير اليه من كبر الجيش وقوته ومضاء عزم أفراده ـ استعار المتنبي لنهر الفرات قلبا ، مروّعا هذا القلب خوفا من هذه الخيل التي تتجه نحوه لتعبره في طريقها ، فهي بما عليها من رجال كأنها سيول جبارة تخر عليه •واذ تسبح هذه الخيل في النهر فانها تدفع أمواجه كأنها في مطاردة معها ، لا يبهمها أكان الماء غزيرا قويا أم قليلا ضعيفا • وليؤكد المتنبي ما أراد التعبير عنه من نبل صفات هذه الخيل ـ فضلا عن فرسانها ـ يشير الى أن الماء كان غزيرا حتى انها ـ أى الخيل ـ لم يظهر منها فيه الا الرأس والعنق •

ويستمر في تصوير هذه الرحلة ليجسد لنا طلعة الجيش على الروم في هنريط وسمنين بأن لها غررا وحجولا • وما كان ذلك التجسيد الا إشارة منه الى أن الروم قد عرفوا مثل هذه الطلعات والهجمات التي تشنها عليهم هذه الخيول ، وتعودوا عليها حتى انهم صاروا يميزونها عن غيرها • ولنلحظ أن الصفات التي استعارها المتنبي للطلعات هي من سمات الخيل ، وهو بذلك يربط الكلام بما قبله اذ كان يتحدث عن الجيش بصورة الخيل •

ثمّ يصور شجاعة هذا الجيش وقدرته على المنازلة الطويلة حتى يظفر بالنصر ، بما يشير اليه من ملل الحصون من طول النزال ، حتى انها تلقي بأهلها ـ أى المقاتلين المعتصمين بها فضلا عن الأهالي ـ وتزول • ولنلحظ براعة المتنبي الفائقة في هذا البيت الأخير بخاصة ، اذ أضفى على الحصون صفات ومشاعر إنسانية ، فهي تمل وتلقي بأهلها ثمّ تزول • ان هذا التشخيص بما فيه من وصف الحصون بالسأم وتعبير عن الهموم بالزوال ، هو الذى أكسب هذا البيت خصوصيته في الإبداع •

انّ هذه المحاولة في تحليل الأبيات الآنفة الذكر وقفت بنا على أمرين ، أولهما هو حب المتنبي للخيل وهيامه بها ، حتى انه كنى بها عن الجيش كله ، كما استعار بعضا من صفاتها لبعض عناصر الرحلة ، وما ذاك الا لأنها من أهم عناصر هذه الرحلة ، ومن أكثرها تأثيرا فيها •

---

(١) الخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ٨٠ •

وثانيهما هو إبداعه في رسم رحلة الحرب بتفصيلاتها من مسير وقتال ودروب وركائب وأسلحة ومشاعر نفسية ، في صورة كبيرة تحدد أبعادها وتعمق خطوطها صور جزئية تتواشج فيما بينها متتابعة متكاملة متراكبة لما يجمع بينهما من انفعال نفسي واحد وعاطفة شاعرية بذاتها • ((وفي هذه الحال ذروة استقلال الصورة وخضوعها وتبعيتها معا))(١) •

وقال المتنبي (٢) :

وجدتُ أنفعَ مالٍ كنتُ أذْخَرُهُ	ما في السوابقِ من جَرْيٍ وتَقريبِ
لمّا رأينَ صروفَ الدهرِ تَغْدِرُ بي	وَفَيْنَ لي ووفتْ صُمُّ الأنابيبِ

يرى المتنبي أن أكثر مدخراته نفعا هو جري الخيل ، وذلك لأنها وسيلته الى الهرب أو الى ترك أي مكان حين يحس فيه بالغدر أو الظلم • ولمّا كان الزمان بأهله فانه يعزو الغدر الى صروف الدهر نفسها مجسما اياها في هيئة إنسان غدر بصاحبه فجعله موضع التشكي ، ((ثمّ التفت فوجد في "الخيل" صاحبا وفيا في السراء والضراء يمحو عنه آثار الغدر ويكون عاملا من عوامل إعادة التوازن الى نفسه القلقة المضطربة ، وكذلك وجد في الرماح الصلبة وفاء يعوضه عما لحق به من الغدر ، وبذلك تشخص كل من الخيل والرمح صاحبين وفيين لا يغدران))(٣) •

وقال في الإشارة الى صراعه ضد الزمان (٤) :

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتى	فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ	تكسّرتِ النصالُ على النصالِ

ان المتنبي في هذين البيتين يرسم لنا لوحة متكاملة تصور ملامح الصبر والتحدي في إطار نابض بالحيوية أكسبها اياه ما أتى به من استعارة ، ((فقوله : رماني الدهر : استعارة مكنية ، فالدهر كاليد الرامية ، ثمّ تعززت الصورة بصورة جزئية أخرى تمثلت في (نبال) وهي استعارة تصريحية ، لأن (نبال) نابت مناب (الأرزاء) ثمّ أراد لهذه النبال أن تتوالى ليتكون منها غشاء يلف قلبه فيصبح مصدر قوة له))(٥) •

ثمّ يعود في البيت الثاني ليؤكد الصورة في البيت الأول بإعادته شيئا من ملامحها من خلال وجود ((الحس المشترك ازاء المستعار له والمستعار منه أي بين الأرزاء والسهام في تواليها وتتابعها وما فيها من شدة الألم ، الا أن السهام تصيب قلبا جلدا محاطا

---

(١) الصورة الأدبية ٢٤٦ وينظر : المصدر نفسه ٢٤٥ و ٢٥٤ •
(٢) التبيان ١ : ٣٤/٣٦ ــ ٣٧ •
(٣) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٨٥ •
(٤) التبيان ٣ : ١٧٥/ ٥ ــ ٦ •
(٥) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٨٨ •

بغشاء سميك منسوج من السهام نفسها ، مما يمهد لاكتمال الصورة بتكسير النصال على النصال ، أي تكسير رؤوس السهام))[١] فالأرزاء اذن تتحطم عند قلب صبور خبر الأرزاء وتعود عليها ، وكان منها لهذا القلب غشاء يزيده قدرة على التحمل والمواجهة .

واذا ما مر المتنبي في أثناء سنواته بمكان يحوز على إعجابه عرض له بالوصف راسما اياه في لوحات موحية ، ولكن لا بدّ له من أن تنعكس حالته النفسية فيه ، فتضفي على اللوحة من طبيعتها معمقة لونا دون لون وموضحة بعدا دون بعد . من ذلك ما جاء في قوله يصف بحيرة طبرية[٢] :

لولاكَ لم أتركِ البحيرةَ والـــ ـغورُ دَفيْءٌ وماؤها شَبِمُ
والموجُ مثلُ الفحولِ مُزْبِدَةً تَهْدِرُ فيها وما بها قَطَمُ
والطيرُ فوقَ الحَبابِ تَحسبُها فرسانَ بُلْقٍ تخونُها اللُجُمُ
كأنهاوالرياحُ تَضْرِبُها جيشا وغىً هازِمٌ ومنهزِمُ

فهو يشبه موج البحيرة الذي يتحرك بقوة هادرا مزبدا بهدير الفحول ((من غير قطم ، وشهوة ضراب))[٣] ويشبه الطير فوق الماء بالفرسان على ظهور الخيل ، ولكنهم فرسان مضطربون اذ فقدوا السيطرة على خيولهم فهي تروح وتجيء حيث شاءت . فاذا ما هبت الريح على البحيرة أصبحت الطيور التي على الماء كأنها جيشان هازم ومنهزم ، ((وانما تنشط وتطير فوق الماء اذا ضربتها الريح . يريد : أنها تضرب الممسوج فتهزمه ثمّ تعود ،فكأنها منهزمة من بين يديه))[٤] . ان ما نراه في هذه اللوحة من حركة وعنف واضطراب هو جزء مما كان يعتمل في نفس المتنبي ويمور بها ، فقد كان يتفاعل بداخله سعة الطموح وحماس الشباب .

فاذا ما مر بعد سنين طوال عرك فيها الحياة وعركته بشعب بوان ، رسمه في لوحة ((تعتمد على التصوير المجرد لعنصر الجمال ، وكأن الشاعر خرج من قمقمه هنا لأول مرة فرأى أن هناك دنيا غير دنياه ،وعالما غير عالمه ، فجاءت لحظة الدهشة لتفجر في نفسه هذه الصورة الجميلة . ولتظهر أن الشاعر لم يكن دائما شاعر القوة والدم . وانما هو يتمتع بجانب آخر هو هذا الاحساس العميق بالطبيعة وجمالها ، وهذا الحب الغامر لما فيها من ظواهر الحياة))[٥] . ولعل مما أسهم في تفجير هذا الإحساس الرقيق الهادئ بالطبيعة ما بدأ يحس به من تعب وهو لمّا يزل في رحلة صراعه مع الأيام في سبيل تحقيق أمانيه ، فضلا عن شعوره بتقدم العمر . ومما قاله في هذا الشعب[٦] :

---

(١) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٨٨ .
(٢) التبيان ٤ : ٢٢٨ / ٣٢ ــ ٣٥ .
(٣) نفسه ٤ / ٦٧، وينظر:العرف الطيب ١ / ٩١ .
(٤) التبيان ٤ / ٦٧ .
(٥) لغة الحب في شعر المتنبي ٣٤٢ .
(٦) التبيان ٤ : ٢٧٨ / ٥ ــ ٩ .

غَدَوْنا تَنْفُضُ الأغصانُ فيـــهِ — على أعرافِها مثلَ الجُمـــانِ
فسِرتُ وقد حَجَبْنَ الشمسَ عنـي — وجِئْنَ من الضياءِ بما كفانـــي
وألقىٰ الشرقُ منها في ثيابـــي — دنانيرا تَفِرُّ من البَنـــانِ
لها ثمرٌ تشيرُ إليك منهـــا — بأشربةٍ وقفنَ بلا أوانـــي
وأمواهٌ يَصِلُّ بها حصاهـــا — صليلَ الحَلْيِ في أيدي الغوانـي

يذكر المتنبي هنا قطرات الندى التي كانت تساقط من الأغصان فيشبهها لجمالها ونصاعتها بحبات اللوءلوء • ثم ان هذه الأغصان (الملتفة المتشابكة) كانت تحجب عنه ضوء الشمس الا بمقدار ، هو ما يتخلل من بين أوراقها وسيقانها لتسقط بقع الضوء هذه على ثيابه كأنها — في شكلها — دنانير ، ولكنها دنانير لا يستطيع بها إمساكا فكأنها تفر من بنانه • ولعل تشبيهه بقع الضوء هذه بالدنانير نابع من حبه الشديد للمال • وفي ذلك يقول الدكتور عبده بدوي ((وعملية استدعاء ذهنه للدنانير هنا تجعله صادقا مع نفسه لأنه محب للمال راغب فيه فلا داعي للومه))[(١)] ، فالشاعر حين يشبه ((انما يختار من الأشياء ما كان قوى العلاقة بنفسه ، وبعبارة حديثة ما كان راسبا في اللاشعور))[(٢)] •

ثم يعبر المتنبي عن تمام نضج الثمار التي رآها على هذه الأغصان ورقة قشورها بإمكان روءية ما بداخلها من عصير حتى لكأنها أشربة واقفة بلا أوانٍ •

واذا ما رسم لنا صورة الماء الذي مر به في الشعب جعلنا نحس بجريانه ، فقوله (تصل بها حصاها صليل الحلي) ((يكاد يصخ بالآذان ، ويصخ بأزيزه ودويه وقرقعته ، وحروف الصاد واللام مصدر الحركة والتماوج والصوت لاصطدام المياه بالحصى))[(٣)] ، فضلا عن تشبيهه هذا الصوت بصوت الحلي في أيدي الفتيات • فالصوت والتشبيه أسهما في شدنا الى الإحساس بهذا الوصف والعيش فيه •

ان المتنبي في هاتين القصيدتين (وصف البحيرة وشعب بوان) ، فضلا عن كثير من قصائده ينجح في أن يشرك مختلف الحواس من بصر وسمع وتذوق وشم ولمس مستفيدا منها في رسم صوره ، تلك الصور التي تفيض بروحه وتنطق عن نفسه • فعبقرية المتنبي وموهبته تتجلى في قدرته على صياغة معطيات الحس صياغة جديدة[(٤)] ، تنبع من روحه نابضة بالحيوية والصدق •

وقال في رثاء جدته[(٥)] :

---

(١) دراسات في النص الشعري العصر العباسي ٢٠٢ •
(٢) الصورة الأدبية ٥٨ •
(٣) الصورة الفنية في شعر المتنبي الصورة الضاجة والهادئة ٥٧ •
(٤) ينظر: المحصول الفكري للمتنبي ٣٢٤ـ٣٢٥، ولغة الحب في شعر المتنبي ٣٤٠ ـ ٣٤١ •
(٥) التبيان ٤ : ١٩/٢٤٤ •

وما انسدّت الدّنيا عليّ لضيقها　　　ولكنّ طرفا لا أراك به أعمى

لقد أحزن المتنبي وفاة جدته لما كانت تحمله بالنسبة اليه من معنى كبير ومهم ، فاذ خطفتها يد المنون فقد شرخت في نفسه شرخا كبيرا عميقا ، مما جعلنا نتوقع أن يكون تعبيره عن ألمه بفقدانها — وهي الرمز — أكبر مما قاله وأقوى •

جعل المتنبي طرفه في هذا البيت يصاب بالعمى لفقدانه جدته ، فطرف لا يراها به كأنه أعمى • وهذا الشعور بالعمى هو الذي جعله يحس بانسداد الدنيا في وجهه وضيقها عليه ، فانسداد الدنيا وضيقها ليس بسبب ما هي عليه حقيقة من ضيق وانما بسبب ما يعتريه من ألم وحزن ، والا فباستطاعته اقتحامها ونيل ما يريد منها • ولعل وصفه الدنيا بالضيق تعبير عن شدة عزمه وسعة آماله اذ أن هذه الدنيا أضيق وأصغر من أن تستوعب ما يريد تحقيقه أو ما يدعو اليه • ولمّا كانت الدنيا بأهلها فان هذا يعني أن الناس هم الأصغر همة والأضعف قوة من أن يأخذوا بيده الى ما يرغبه لنفسه أو لهم • وهو وان لن يبرح يحاول مرة بعد أخرى الحصول على ما يريد الا أنه فاتر الهمة الآن بسبب ما يعتمل في نفسه من حزن وألم لفقده أعز من كان يحب •

أثر الرحلة في صور المتنبي الفنية :

ان أهمية البواعث وعظم الدوافع التي كانت تدفع بالمتنبي الى السفر الدائم والتنقل الدؤوب ، جعل من الرحلة تضحي جزءا مهما وكبيرا — ان لم نقل أهم جزء وأكبره — من كيانه النفسي والمادي ، مما انعكس جليا في فنه بما نراه فيه من ظهور مفردات الرحلة في صوره الشعرية ، بوصفها أبعادا مهمة ورئيسة في تشكيل جانب ليس بالهين من هذه الصور وتوضيح خطوطها ، سواء أكان ذلك في موضوع الرحلة نفسه أم في موضوعات أخرى غيره • فمما جاء من ذلك في موضوع الرحلة ، قوله يذكر اضطرابه في الأرض وراء مطامحه (١) :

فما حاولتُ في أرضٍ مُقاما　　　ولا أزمعتُ عن أرضٍ زَوالا
على قلقٍ كأن الريحَ تحتي　　　أُوَجِّهُها جَنوبا أو شَمالا

ان المتنبي في هذه الصورة الاستعارية يشبه الريح بالفرس الذي يمتطيه ممسكا بعنانه بكل عنف الفارس وكبريائه موجها اياه أنى شاء ((ويتمثل الحس الابداعي في اقامة هذه العلاقة المستطرقة بين الريح والخيل ، فقد يكون ثمة من يقول ، ان الجامع بينهما معروف وهو السرعة ، وهذا يصح فيما لو شبه الفرس في سرعته بالريح لأنها أقوى من الخيل حركة وأشد منه سرعة الا أن المتنبي شبه الريح بالفرس ليحقق تلك النزعة التي كثيرا ما تتبدى

(١) التبيان ٣ : ٢٠٣/١٥ — ١٦ •

في صوره وهي رغبة في أن يكون أقوى من كل شيء في الطبيعة))(١) . ولكننا على الرغم من ذلك نلمح شيئا من التوجس والحذر توحي به الينا مفردة القلق التي كأنها تشي بما يحاول إخفاءه والتغلب عليه من مشاعر الخوف واليأس والألم والريبة التي – لابدّ – تتولد في نفسه بين حين وآخر ولسبب – مادى أو معنوى – وآخر ، نتيجة هذا الصراع الذى يخوضه في سبيل ما يريد .

ومن ذلك أيضا تشبيهه نفسه بالجواد في مثل قوله (٢) :

يقولُ ليَ الطبيبُ أكلتَ شيئاً	وداؤُكَ في شرابِكَ والطعامِ
وما في طبِّهِ أني جوادٌ	أضرَّ بجسمِهِ طولُ الجِمامِ
تعوّدَ أن يُغبِّرَ في السرايا	ويدخلَ من قتامٍ في قتامِ
فأُمسِكَ لا يطالُ له فيرعى	ولا هُوَ في العليقِ ولا اللجامِ

في خضم إحساس المتنبي بالغربة والخيبة والضعف ، قال هذه الأبيات – حين دهمته الحمى في مصر – التي يصور فيها ما آلت اليه حاله ، اذ يشبه نفسه بجواد تعود خوض غمار الحروب والتنقل من لجة معركة الى أخرى ، فاذا به يمنع من كل تلك الحركة ويفرض عليه التوقف والسكون ، بل انه فوق ذلك لا يعامل معاملة كريمة ((فيبخل عليه بالطعام ويجرد من كل مظهر يدل على أنه معد لعمل ما ، لقد نزع من لجامه ، وسلبت منه شكيمته ، فاذا بكل هذا يعود على جسده بالضمور والذبول))(٣).

وقال أيضا (٤) :

وإني لَنجمٌ تهتدي بي صُحْبَتي	إذا حالَ من دونِ النجومِ سَحابُ

ان المتنبي هنا – في معرض فخره بنفسه – يشبه نفسه بالنجم يهتدى به اذا ما أظلمت الدنيا وغامت سماؤها وحيل بين النجوم والظهور . واذ يخصص النجم في مثل هذا الظرف الصعب فانما ليزيد من معاني النور والإشراق ، والعلو والارتفاع ، فضلا عن الهداية والاقتداء التي أضفاها على نفسه بتشبيهها به .

ومن ذلك قوله يفخر بشعره (٥) :

مدحتُ قوماً وإن عِشنا نظمتُ لهمْ	قصائداً من إناثِ الخيلِ والحُصُنِ
تحتَ العَجاجِ قوافيها مُضَمَّرةٌ	إذا تُنوشِدْنَ لم يَدْخُلْنَ في أُذُنِ

(١) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٢١٥ .
(٢) التبيان ٤ : ٢٥٣ / ٣٥ – ٣٨ .
(٣) في ميزان النقد الأدبي ١٢٠ .
(٤) التبيان ١ : ٣٦ / ٨ وينظر التبيان ٣ : ١٨٧ / ٨ وتعليق سعاد المانع عليه في (سيفيات المتنبي) ٢٤٣ .
(٥) نفسه ٤ : ٢٦٩ / ١٧ – ١٨ .

انه هنا يشبه قصائده بالخيل مستعيرا لها حركة الخيل في ساحة القتال ليدل على قوتها وشدة تأثيرها[(١)] • ولعل هذا الاقتران بين الشعر والخيل الذى كان يعبر المتنبي بوساطته عن فخره بشعره وإعجابه به نابع من ((احساس عميق بما يجمع بين شعره والجياد من واقع مشترك هو تلك الطاقة التي تتدفق بالحياة والحركة تدفقا))[(٢)]•

وكما قرن المتنبي بين شعره والخيل، فقد شبهه بالشمس قال[(٣)] :

إنّ هذا الشعرَ في الشِعْرِ مَلَكْ سارَ فَهْوَ الشمسُ والدنيا فَلَكْ

وشبهه بنجوم الثريا ، قال[(٤)] :

وما قلتُ من شِعْرٍ تكادُ بيوتُهُ إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ من نورها الحِبْرُ
كأنّ المعاني في فصاحةِ لفظِها نجومُ الثريا أو خلائِقُكَ الزُهْرُ

نلحظ من هذين المثالين صفة النور والضياء التي أضفاها المتنبي على شعره[(٥)] • وهل مصادر النور من شمس ونجوم الا من أهم عناصر الرحلة ومتطلباتها ؟ فضلا عن أن (السير) الذى ورد ذكره في المثال الأول لبيان انتشار الشعر من مفردات الرحلة أيضا •

واذ يريد المتنبي الإخبار عن انتشار شعره في الآفاق • يقول[(٦)] :

وعندي لكَ الشُرُدُ السائراتُ لا يَخْتَصِصْنَ من الأرضِ دارا
قوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْوَلي وَثَبْنَ الجبالَ وخُضْنَ البِحارا

انها صورة تفيض حيوية وحركة يرسم لنا المتنبي فيها رحلة شعره على امتداد الأرض اذ يسير ، لا يختص من الأرض مكانا واحدا ، عابرا كل ما يعترض سبيله من جبال أو بحار •

وقال يذكر نعله بوصفه مركوبه[(٧)] :

لا ناقتي تقبلُ الرديفَ ولا بالسَوْطِ يومَ الرهانِ أُجْهِدُها
شِراكُها كورُها ومِشْفَرُها زِمامُها والشُسوعُ مِقْوَدُها
أَشَدُّ عَصْفِ الرياحِ يَسْبِقُهُ تحتي من خَطْوِها تَأيُّدُها

فهو يشبه النعل وأجزاءه بالناقة وأجزاء جسمها[(٨)] • وكلا المشبه والمشبه به من

---

(١) ينظر: الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٢٢ ــ ٤٢٣ •
(٢) أبو الطيب المتنبي عملاق الواقعية في الشعر العربي ١١٩ ــ ١٢٠ •
(٣) التبيان ٢ : ١/١٦٥ •
(٤) نفسه ٢ : ٣٣/١٢٣ ــ ٣٤ •
(٥) ينظر: الخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي ١٢٢ •
(٦) التبيان ٢ : ٩٧ / ٩ ــ ١٠ •
(٧) التبيان ١ : ٦٢ / ١٣ ــ ١٥ •
(٨) ينظر: التبيان ١/ ٣٠١ ــ ٣٠٢، والعرف الطيب ١/ ٤، والفصل الثاني من هذا البحث •

عناصر رحلته .

وقال يفخر بنفسه (١) :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تشهدُ أنني الـجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البَحْرُ

ان المتنبي هنا يشبه نفسه ببعض من مفردات الرحلة الطبيعية التي لا بد أنه مر بها ، فيشخص من الجبال شاهدا على أنه هو الجبال ، كما يشخص من البحر شاهدا له على أنه هو البحر . ووجوه الشبه في هذين التشبيهين واضحة تماما ، فهو كالجبال علوا وشموخا وثباتا وصلابة . وللتنبه الى دلالة الجمع في الجبال فكأني بالمتنبي يريد بهذا الجمع تأكيد وجوه الشبه هذه بينه وبين الجبال ، وهذا ـ لا شك ـ انعكاس لما في نفسه من الإحساس بها ، فضلا عن أن صيغة الجمع هذه ربما دلت على طبيعة الأراضي التي كان المتنبي يقطعها في رحلاته حيث كثرة الجبال أو ما تدل عليه من مرتفعات بازاء البحر الذى تظن أنه لم يتعامل معه كثيرا كثرة تعامله مع المرتفعات ـ حتى ان أراد بلفظ البحر النهر أيضا ـ

أما وجوه الشبه بينه وبين البحر ، فأحسب أنه يريد الإشارة الى حالتين للبحر هما حالة الاندفاع والقوة والعنف إذا ما كان هائجا ، وحالة الرقة والانسياب الرفيق اذا ما كان هادئا . وكلتا الحالتين تصدر عن أصل يتصف بالعمق والغزارة والثراء فضلا عن الجمال ، فاذا كان البحر عميقا طبيعيا ، غزير المياه ، ثري العوالم بما يحتوى عليه من أسماك وحيوانات مائية ونباتات وصخور .. الخ فضلا عن جماله الطبيعي الفتان ، فان المتنبي عميق النظرة الى الحياة والأمور والناس ، غزير المشاعر فياض بها ، ثري النفس عفيفها ، وجميل الأخلاق والطبائع والفن .

أما شعره الذى وردت فيه مفردات الرحلة بوصفها أبعادا أو خطوطا تسهم في تشكيل الصورة الفنية فيه مما لا يعد من صميم موضوع الرحلة ، فمنه ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قوله يفرّق بين نوعين من الممدوحين (٢) :

ومَن رَكِبَ الثورَ بعدَ الجـوادِ أنكرَ أظلافَهُ والغَبَبْ

ان المتنبي هنا يفيد من عملية الركوب للتفريق بين هذين النوعين من الممدوحين ، فالحسن منهما يشبه التعامل معه ركوب الخيل بما يعنيه هذا الركوب من أمر طبيعي وصحيح يحقق المبتغى منه ، أما السيء فيشبه التعامل معه ركوب الثور بما يشير اليه هذا الركوب من عمل شاذ وفاسد .

---

(١) التبيان ٢ : ١٢٣/١٣ .
(٢) التبيان ١ : ٦٩/٩ .

ان هذا التشبيه الذى أتى به المتنبي مستفيدا من إحدىمفردات الرحلة ـ عملية الركوب بعامة وركوب الخيل بخاصة ـ لرسم صورة هاتين الحالتين اللتين تعامل معهما ـ نوعين من الممدوحين ـ ، ليشير الى التفاعل العميق لفكرة التحرك أو الرحيل في نفسه •

ومن ذلك قوله يمدح سيف الدولة (١) :

تلاكَ وبعضُ الغيثِ يَتْبَعُ بعضَهُ   من الشامِ يتلو الحاذِقَ المُتَعَلِّمُ

فالسحاب هنا يتبع سيف الدولة ويتلوه ليتعلم منه الجود . وتبرز هنا حالة التحرك والسير التي شغلت نفس المتنبي بما يوحي اليه منها تكرر الفعل تلا (تلاك ـ يتلو) فضلا عن الفعل (يتبع) • كما ورد ذكر السحاب أو الغيث الذى ليس من شك في كونه من الحالات أو الظواهر الطبيعية التي صادفها المتنبي وتعامل معها في تنقلاته الكثيرة •

وقال في وصف قلعة مرعش (٢) :

فأَضْحَتْ كأَنّ السورَ من فوق بَدْئه   إلى الأرضِ قد شَقّ الكواكبَ والتُّرْبا
تَصُدُّ الرياحُ الهوجُ عنها مخافةً   وتفزَعُ منها الطيرُ أن تَلْقُطَ الحَبّا
وتُرْدي الجيادُ الجردُ فوقَ جبالِها   وقد نَدَفَ الصِّنَّبْرُ في طُرْقِها العُطْبا

ف (الكواكب) و (الترب) و (الرياح الهوج) و (الطير) و (الجياد الجرد) و (الجبال) و (الصنبر) و (الطرق) كلها من عناصر الرحلة ومفرداتها التي تعامل معها المتنبي ، وكان لها دور في تنقلاته •

كل ذلك فضلا عمّا ورد في صوره من تشبيهات بظواهر ومناظر طبيعية واستعارات منها (٣) •

نخلص من هذه المحاولة في دراسة الصورة الفنية في شعر الرحلة عند المتنبي الى أنها قد اتصفت بأبرز مميزات الصورة التي حددها الدارسون والنقاد ووسموها بها من خيال مبدع قادر على تشكيل أو إعادة تشكيل علاقات هذه الصور وأبعادها ، فضلا عن الألفاظ الموحية المشعة •

---

(١) التبيان ٣ : ٢٢/٢٢١ •
(٢) نفسه ١ : ٣٥/١٣ ـ ٣٧ •
(٣) ينظر: الطبيعة عند المتنبي ٢٧ ـ ٣٦ •

وأفاد المتنبي في رسم صوره هذه من كل الفنون البلاغية من تشبيه واستعارة وغيرهما مما أعانه في نقل ما أراد نقله من أفكار وأحاسيس وساعده عليه ، كما تردد في عناصر صوره بين الحسية والمعنوية جاعلا من رغبته في الإبداع الفني فضلا عن التعبير عن كل ما يحتمل في نفسه ، الفيصل في اختيار احداهما دون الأخرى ، وبحسب الموقف وطبيعة الأداء .

أما أنماط هذه الصور فقد تنوعت واختلفت بين كل الأنماط والأنواع التي عرضنا لها في مقدمة هذا المبحث ، سواء أكان ذلك في إطار الصورة الواحدة أم أنه توزع على أكثر من صورة . فضلا عن أنها ما انفكت تعج بالحركة وتضج بالحيوية وتفيض بالنشاط .

ولا شك أن الواقف وراء هذا كله هو صدق تجربة المتنبي الشعورية وعمق إحساسه بها ، يسنده في ذلك موهبة شعرية فذة وثقافة موسوعية كبيرة . لتخرج صوره من ثمة معبرة تمام التعبير عن كل ما أراد البوح به مما شغل روحه ونفسه وفكره .

ثالثا : الموسيقى (الإيقاع) :

مهاد :

اذا قدر للمتنبي أن يفيد – بأقصى ما يستطيع – من قدرته على اختيار الألفاظ الموحية ثمّ تشكيلها في تراكيب دالة معبرة ، ترسم صور الرحلة بتحكم من خيال مبدع خلاق ، كان لا بدّ له أن يصب كل ذلك في قالب إيقاعي موسيقي ينبع من خصوصية الموضوع ، نابضا بكل خفقات قلبه وخطرات عقله . فالموسيقى – الخارجية منها والداخلية[(١)] – من ((أهم عناصر الابداع الشعرى ، ولها دور واضح الملامح والآثار في تقديم الصورة الفنية وفق بواعث التجربة الشعورية عند الشاعر))[(٢)].

ولما كانت القصيدة بنية موسيقية متكاملة ، فان على الشاعر في تشكيله لهذه البنية أن يعمل على تحقيق الانسجام والتناغم بين مفردات القصيدة أى بين مختلف العناصر فيها ، آخذا بالاعتبار أن القصيدة وحدة فنية تعمل في داخلها أشتات من المفردات والدقائق تمثل عناصر عليه أن يصل فيما بينها وأن يتقن بناء قصيدته من حيث هي كل واحد لا يتجزأ ، وأهمية هذا البناء الموسيقي تعود الى أنه أول ما يصادف السامع أو القارىء منها ، ومن ثمّ كانت خطورته[(٣)]. فالصوت – كما يقول ريتشاردز – ((في معظم الحالات هو مفتاح التأثيرات الأخرى في الشعر))[(٤)]. هذا الصوت الذى يكتسب شخصيته عن طريق التوفيق بينه وبين ما يسبقه وما يليه[(٥)].

وقبل أن نبدأ بمحاولة دراسة بعض من نماذج شعر الرحلة عند المتنبي دراسة موسيقية ، ولكي يتوضح لنا شيء من توجه المتنبي الموسيقي – الإيقاعي بما يساعدنا في

---

(١) نريد بالموسيقى الخارجية (الايقاع الخارجي) ، الوزن والقافية . وبالموسيقى الداخلية (الايقاع الداخلي)((أى ترجيع منظم في حروف الكلمات داخل البيت الواحد أو الأبيات ولا يهمنا أن تكون مواضع الترجيع متقاربة أو متباعدة وانما يهمنا أن تكون متناغمة وخاضعة لتنسيق منظم)) (الصورة الفنية في شعر أبي تمام ٢٣٥). ويشمل الايقاع الداخلي ، المحسنات البديعية لفظية ومعنوية والأساليب البيانية من خبرية وإنشائية فضلا عن التكرار ورد العجز على الصدر وماله علاقة بما مر من تصريع وترصيع وتشطير وتقسيم وتناسب وما الى ذلك مما يرتبط بالجرس اللفظي (ينظر: يتيمة الدهر ١/١٩٤ و ٩٧ ،والمرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب الجزء الثاني،وبناء القصيدة العربية ٢٥٤ – ٢٦٣،والصورة الفنية في شعر أبي تمام ٢٣٥ – ٢٤١،وجرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدى عند العرب ٢٢٣ – ٢٨٤،ولغة الحب في شعر المتنبي ٣٠١–٣٢٦،والصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٢٦ – ٢٥٦) .

(٢) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٢٦ .

(٣) ينظر: التفسير النفسي للأدب ٦٣،ولغة الحب في شعر المتنبي ٢٩١ .

(٤) مبادىء النقد الأدبي ١٩٢ . (٥) ينظر: المصدر نفسه ١٩١ .

تلمس أبعاد هذا التوجه في شعر الرحلة عنده ــ بكل بواعثها وعناصرها وأبعادها ــ ، نورد فيما يلي جدولا إحصائيا بعدد الأبيات التي وردت في كل بحر من بحور الشعر التي نظم فيها شعره بعامة ، فضلا عن نسبتها المئوية •وهذا الجدول من عمل الدكتور محمد فتوح أحمد[(١)] •

التسلسل	البحـــــر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	١٦٨٤	٣٠٫٣ ٪
٢	الكامل	٩٢٧	١٦٫٧٪
٣	البسيط	٨٠٧	١٤٫٥٪
٤	الوافــر	٧٦٣	١٣٫٧٪
٥	الخفيف	٤٦٥	٨٫٤ ٪
٦	المنسرح	٣٥٥	٦٫٤ ٪
٧	المتقارب	٢٧٨	٥ ٪
٨	السريع	١١٨	٢٫١٪
٩	الرجــز	١٠٩	٢ ٪
١٠	المجتث	٣٦	٠٫٦٥٪
١١	الرمل	١٤	٠٫٢٥٪

أما قوافيه فان أكثر قافية ترددت في شعره بعامة هي اللام ، يليها الميم فالدال فالباء فالراء ثمّ النون • أما القوافي الأُخرى فقد وردت بنسب أقل من تلك التي وردت بها هذه القوافي ، وهي حسب كثرة ترددها القاف فالعين فالهمزة فالكاف فالهاء فالسين فالفاء فالحاء فالتاء فالياء فالزاى فالشين فالذال فالجيم ثمّ الضاد[(٢)] •

تطبيقات على شعر الرحلة عند المتنبي :

قال المتنبي في ذكر مسير له[(٣)] :

فقلقلتُ بالهَمِّ الذي قلقلُ الحشا قلاقلُ عيسٍ كلّهُنّ قلاقـــلُ

أفاد المتنبي هـهنا من طبيعة البحر الطويل ، المتعدد التفعيلات والكثير المقاطع ، في بيان طبيعة ما يحس به ، اذ ((أن طول الوزن ووفرة مقاطعه يمنحان الشاعر مزيدا من المرونة في التحرك عبر المسافة الموسيقية للبيت الشعرى))[(٤)] • وهذا ما استغله المتنبي للإيحاء بحالة القلق والاضطراب التي يعيشها في رحلاته المستمرة وراء ما يريد ، فكرر حرف

(١) ينظر: شعر المتنبي قراءة أخرى ١٣٨ وقد أدرج الدكتور فتوح في إحصائه هذا مجزوءات الأوزان ضمن المادة الشعرية للبحر الذي ينتمي اليه ، فضلا عن احتسابه مخلع البسيط ضمن المادة الشعرية لبحر البسيط •معتمدا في ذلك على شرح ديوان المتنبي المنسوب للعكبرى •
(٢) اعتمدنا في استخراج هذه النسب على التبيان (شرح ديوان المتنبي المنسوب للعكبرى) •
(٣) التبيان ٣ : ٧/١٩٧ • (٤) شعر المتنبي قراءة أخرى ١٤٠ •

فكرر حرف القاف بصوته الانفجارى الشديد (١) ، موصلا اياه بحرف اللام الذلق المتوسط بين الشدة والرخاوة (٢) ، والمختلف معه في مخرجه (٣) ، مما جعل من الكلمة التي أسهما في تشكيلها وهي (القلقلة) بصيغها الأربع التي وردت بها في البيت معبرة عن الحركة والقلق والاضطراب •

ان عنف القاف وذلاقة اللام مع استمرار ترددهما متصلين ، يوحيان لنا باضطراب حالة المتنبي النفسية واختلافها بين القوة والضعف ، فضلا عن طبيعة الأرض التي قطعها المتنبي في مسيره حيث الصعود والنزول أو الارتفاع والانخفاض ، وحيث الحركة المتمايلة المهتزة على ظهور العيس وهكذا دفعه الهم الذى قلقل حشاه (نفسه) الى قلقلة العيس في جنبات الأرض ، والبيت السابق لهذا البيت يؤكد ما ذهبنا اليه اذ قال (٤) :

وما زلتُ طودا لا تزولُ مناكبي إلىٰ أنْ بدَتْ للضيمِ فيّ زلازلُ

فمعاناته الضيم هزت مشاعره وحركتها فكان من نتائج ذلك السفر • ولنلحظ مدى الثبات والقوة التي يوحي بها لفظ (طودا) بازاء الاضطراب والعنفوان الذى يمور به لفظ (زلازل) •

كما أفاد المتنبي في هذا البيت (وقلقلت بالهم ••••) من حروف المد (الياء في (الذى) والألف في (الحشا) والألف في (قلاقل) والياء في (عيس) والألف في (قلاقل) الثانية والواو في اشباع حركة الروى) في الإيحاء بطول الطريق الذى قطعه بسبب أنفته عن تحمل الضيم والذل ورغبته في تحقيق ما يصبو اليه •

وفي قصيدته التي أولها (٥) :

ألا كلُّ ماشيةِ الخَيْزلى فدا كلِّ ماشيةِ الهَيْذبى

يفيد المتنبي من نغمة بحر المتقارب الواحدة المتكررة في رسم رحلته من مصر الى الكوفة موحيا بإيقاع حركته المادية والنفسية خلالها ، محققا ما قيل في هذا البحر من أنه يصلح ((لكل ما فيه تعداد للصفات ، وتلذذ بجرس الألفاظ وسرد للأحداث في نسق مستمر)) (٦) فضلا عما يتطلبه من اندفاع وراء النغم (٧) • فهو في هذه القصيدة يسرد تفاصيل رحلته هذه وما لقي في أثنائها ، فهناك حركة الإبل والخيل وأسماء الأماكن والمواضع والحيوانات وذكر الليل والنهار ، فضلا عن فخره بنفسه وهجائه كافورا الاخشيدى •

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية د• ابراهيم أنيس ٨٦ ــ ٨٧، وموسيقى الشعر د• ابراهيم أنيس ٤٣ •

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية ٦٣ ــ ٦٤ •

(٣) القاف من أصوات أقصى الحنك ، واللام من الأصوات الشفوية ــ الأسنانية (ينظر: الأصوات اللغوية ٤٦ و ٨٤) •

(٤) التبيان ٣ : ٦/١٩٧ • (٥) نفسه ١ : ١/٧ •

(٦) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/ ٣١٢ • (٧) ينظر المصدر نفسه المكان نفسه

وأرى أن المتنبي في هذه القصيدة قد نجح في إفادته من الألف المقصورة في الإيحاء بظروف هذه الرحلة ، اذ وظفها في سبعة عشر الأبيات الأولى للإيحاء بامتداد الطريق والإحساس بالتعب في أثناء قطعه ، فضلا عما نلمحه فيها من انخفاض في النبر بما يشبه الهمس لعل سببه ظروف الرحلة نفسها اذ كانت هروبا أعد له سرا وحقق بخوف وتوجس خشية أن ينكشف ، من ذلك قوله[1] :

فمَرَّتْ بنَخْلٍ وفي رَكْبِهَا ... عن العالمين وعنه غِنَى
وأمستْ تُخَيِّرُنا بالنِّقَا ... بِ وادي المياهِ ووادي القُرَى
وقلنا لها أين أرضُ العراقِ ... فقالت ونحن بِتُرْبانَ ها

واذ يذكر وصوله المكان الذى أراد ، ترتفع نبرة صوته مفتخرا بنفسه التي استطاعت تجشم عناء هذه الرحلة ، موظفا الألف المقصورة للإيحاء بالقوة وامتداد الصوت حتى يملأ الآفاق ، وان كنا نحس بما يشوبه من تعب هو تعب الجسد من مشقة السفر وتعب النفس مما مر بها من آلام وإحباطات ، قال[2] :

لِتَعلَمَ مِصرُ ومن بالعراقِ ... ومن بالعواصمِ أني الفتى
وأني وفيتُ وأني أبيتُ ... وأني عَتَوْتُ على من عَتا
وما كلُّ مَن قال قولا وفَى ... ولا كلُّ من سيمَ خَسْفا أبَى

فاذا ما وصل وافتخر ، انتقل لهجاء كافور والانتقاص منه ، موظفا الألف للإيحاء بالسخرية وكأني بصوتها في هذا الجزء من القصيدة مزيج من صوت ضحكة مكبوتة لم يظهر منها الآ ابتسامة حيية ، لما غطى عليها مما امتزج بها من تنهيدة ألم ممض يعتصر نفسه ، وأنفاس من صرخة تجيش بها أعماقه . قال[3] :

وشِعْرٍ مدحتُ به الكَرْكَدَنَّ ... بين القريض وبين الرُّقَى
فما كان ذلك مدحا لَهُ ... ولكنه كان هَجْوَ الوَرَى

بمثل هذا استطاع المتنبي أن يجعل من القافية ((المصب الذى تتجه اليه كل ينابيع العاطفة والمعاني في البيت))[4] ، بل انه هنا تمكن من ((أن يستوحي من قافيته كل هذه المعاني التي تصب فيها))[5] فغدت القافية منبعا ومصبا في آن واحد[6] .

أما الإيقاع الداخلي للقصيدة فقد حاول المتنبي أن ينوع فيه حتى يتمكن بوساطته من

---

(١) التبيان ١ : ٧/٦ـ٨ . (٢) نفسه ١ : ٧/١٩ـ٢١ . (٣) نفسه ١ : ٧/٣٢ـ٣٣ .
(٤) القافية ودورها في التوجيه الشعري د . هادى الحمداني ، مجلة الأقلام ، الجزء السابع السنة الرابعة آذار ١٩٦٨ ص ٢٩ .
(٥) المصدر نفسه ٣٠ . (٦) ينظر: المصدر نفسه المكان نفسه .

إضفاء بعض الملامح على بيت أو جزء من القصيدة يختلف عمّا أضفاه على غيره منها بما يسهم في إغناء موسيقى القصيدة ودفع الملل الذى قد يولد عند متلقيها فيما لو مرت به أبياتها على وتيرة واحدة ــ فضلا عن أن هذا التنويع يتناسب وأبعاد القصيدة أو عناصرها بما يغني كل منها ، ثمّ لتنصهر جميعا في بوتقة واحدة هي روح القصيدة ــ • من ذلك استخدامه التصريع في مطلع القصيدة • ومنه لجوؤه الى الترصيع في مثل قوله (١) :

وأني وفيتُ وأني أبيتُ وأني عتوتُ على من عتا

ونلحظ في هذا البيت ــ فضلا عن الترصيع ــ ما عمد اليه المتنبي من إيجاز ، فهو لم يقل لمن وفى وما الذى أو من الذى أبى كما لم يصرح بمن عتى عليه • وهذا الإيجاز هنا ((إيجاز حذف) أتاح للعبارات فرصة التناسب الايقاعي ، فالسياقات تدل على المحذوف ، وتجتمع هذه الايقاعات لتقدم الخصائص الايجابية للفتى ••))(٢).

وأتسق المتنبي كذلك بالتقسيم ، كما في قوله (٣) :

ولكنهنّ حبالُ الحياةِ وكَيْدُ العداةِ ومَيْطُ الأذى

واذ نعرض لذكر التقسيم لا بدّ لنا من الإشارة الى أن المتنبي قد أكثر من التقسيم في شعره ، وقد نبه الثعالبي الى هذه الظاهرة في شعر المتنبي ومدحها متمثلا بأبيات منها (٤). ومما ورد منه في شعر الرحلة أيضا ــ فضلا عمّا مر ــ قوله (٥) :

فالموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ بي والبَرُّ أوسعُ والدنيا لمن غَلَبا

وقوله يشكو الألم والوحدة والحسد عندما كان في مصر (٦) :

قليلٌ عائدي سَقِمٌ فـؤادي كثيرٌ حاسِدي صَعْبٌ مَرامي
عليلُ الجسمِ ممتنعُ القيامِ شديدُ السُّكْرِ من غيرِ المُدامِ

ولعل ما أشار اليه الثعالبي أيضا من إحسان المتنبي في سياقة الأعداد مما يعد من مجمل إبداعه في التقسيم (٧) • من ذلك قوله يفخر بنفسه (٨) :

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ

وقوله يذكر كيد حساده والواشين به مدافعا عن نفسه (٩) :

---

(١) التبيان ١ : ٧ / ٢٠ •
(٢) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٥ ــ ٤٦ •
(٣) التبيان ١ : ٧ / ٣ •
(٤) ينظر : يتيمة الدهر ١ / ١٩٤ •
(٥) التبيان ١ : ٢٣ / ٣٩ • (٦) نفسه ٤ : ٢٥٣ / ١٩ــ٢٠ •
(٧) ينظر: يتيمة الدهر ١ / ١٩٦، ولغة الحب في شعر المتنبي ٣٢٢ •
(٨) التبيان ٣ : ٢٢٢ / ٢٢ • (٩) نفسه ٣ : ٢١٣ / ١٥ــ١٦ •

إنّ الكِذابَ الذي أُكادُ بــِـهِ أهونُ عندي من الذي نَقَلَــهْ
فلا مُبالٍ ولا مـُـــداجٍ ولا وانٍ ولا عاجزٌ ولا تُكَلَــهْ

لقد كان التقسيم عند المتنبي من أهم عناصر موسيقى شعره الداخلية لما يفيده منه في محاولاته في التنويع النغمي في شعره ، فضلا عمّا يضفيه التقسيم من نغمة متميزة وبسارزة تسهم في شد انتباه المتلقي وإثارته والتأثير فيه اذا ما أحسن استخدامها وتوظيفها . ومن هنا كان إكثار المتنبي منه وإبداعه فيه .

وقال المتنبي[1]:

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ ياعيـــدُ بما مضىٰ أم بأمرٍ فيك تجديـــدُ
أما الأحبةُ فالبيداءُ دونَهـــمُ فليتَ دونك بيداً دونَها بيـــدُ
لولا العلىٰ لم تَجُبْ بي ما أجوبُ بها وجناءُ حرفٌ ولا جرداءُ قيـــدودُ

أتى هذا العيد على المتنبي وهو ـ في مصر ـ وحيد غريب ، محبط حزين ، وفـــي الوقت نفسه مغضب ناقم ، يعد العدة للرحيل ـ الهرب سرا ، لذلك كان وقع هـــذه المناسبة عليه ذا تأثير خاص اذ تريد كل من هذه المشاعر والأفكار المتشابكة المتداخلة أن تعبر عن نفسها في هذه المناسبة المقدسة الخاصة فلم يجد المتنبي خيرا من البحـــر البسيط بتفعيلاته الكثيرة ومقاطعه الوافرة يبث من خلاله هذه الأحاسيس وينفس بوساطته عن نفسه .

لجأ المتنبي هنا الى حرف الدال المطلق الحركة ليتخذ منه رويا ، وبذلك يعبر بحرف الدال الشديد المجهور[2] عما يحس به من قلق وغضب ، وبالحركة المشبعة ـ وهي هنـــا الضمة ـ عن معاني الألم والغربة ، فضلا عن البعد عن الأهل والأحبة الذى يوحي بـــه امتداد صوت الضم .

يبدأ المتنبي قصيدته هذه بالتساؤل :

عيدٌ ؟ بأيّةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ ؟ بما مضىٰ ؟ أم بأمرٍ فيك تجديدُ ؟

فتحمل ((الموسيقى الناجمة عن الاستفهام المتكور كل ما يحسه الشاعر تجاه هذه الأيام التي يفرح بها الآخرون ولا يرى هو فيها سوى أيام مكرورة متشابهة لا جديد فيها ولا تجديد))[3]. فالاستفهام هنا أفاد في توليد موسيقى خفية في النفس[4] زادت من شدة الإحساس بإيقاع مطلع القصيدة مما يدفع بالمتلقي الى زيادة الانتباه والانشداد نحو القصيدة في حالة ترقب لما سيأتي .

---

(١) التبيان ٢ : ٨٦ / ١ـ٣ .
(٢) ينظر: الأصوات اللغوية ٤٨ .
(٣) لغة الحب في شعر المتنبي ٣٢٥ .
(٤) ينظر: المصدر نفسه ٣٢٤ .

وهذا ما استغله المتنبي وأفاد منه في أبيات أخرى من القصيدة كما في قوله (١) :

ياساقِيَيَّ أخَمْرٌ في كؤوسكما ؟ أم في كؤوسكما هَمٌّ وتسهيدُ ؟
أصخرةٌ أنا ؟ مالي لا تُغَيِّرُني هذي المدام ولا هذي الأغاريدُ ؟

وان يكن هنا قد أفاد ــ فضلا عن الاستفهام ــ من أسلوب بياني آخر هو النداء من أجل إضافة نغمة موحية أخرى تزيد من إمكان التعبير عمّا أراد المتنبي إيصاله من إحساس بالقلق والحيرة والخوف والألم • ولعل ما في ألف (يا) من امتداد هنا (٢) مما يؤكد طبيعة هذه المشاعر ويزيد من الإحساس بها •

وفي البيت الثاني (أما الأحبة ••••) يتمكن المتنبي من استخدام حروف المد لبيان مدى رغبته في عدم عودة هذا العيد أو إتيانه اذ ما الذي يحمله العيد من فرح وأمل اذا ما كان أحبابه بعيدين عنه ؟ هذا ان لم يكن فيه مزيد من الأسى والحزن اذ يذكره ببعد أحبته عنه ، والمفروض أو المأمول أن يكونوا قريبين منه أو يكون قريبا منهم في مثل هذه المناسبة ، لذلك قال : (فليت دونك بيدا دونها بيد) • ولعل قراءة هادئة متأنية تشعرنا بمدى رغبته في بعد العيد عنه ، فحروف المد في هذا الشطر الثاني وحده ستة (الواو في (دونك) والياء في (بيدا) والواو والألف في (دونها) والياء والضمة المشبعة في (بيد))، فضلا عن استفادته من حروف المد كذلك في بيان مدى بعد أحبته عنه في الشطر الأول (الألف في (البيداء) والواو والضمة المشبعة في (دونهم)) (٣) •

ان عدد تكرار حروف المد هذه في كل شطر من شطري هذا البيت (ثلاثة في الشطر الأول وستة في الشطر الثاني) يوحي بأن رغبته في عدم قدوم العيد أكبر من ألمه لبعد أحبابه عنه ، لأن العيد بقدومه يزيد من إحساسه بالألم والغربة اذ لا أحبة ولا أهل يحتفلون معه بهذه المناسبة التي تزداد بهاءا وألقا بالمحبة والتجمع • ثمّ لا نغفل أثر تكرر كلمة البيد (بصيغتيها البيداء والبيد) في الإيحاء بمعاني البعد والتغرب •

واذا ما عرض المتنبي لسبب رحلاته الكثيرة على ظهور الخيل والابل ، وهو طلب العلا فقال :

لولا العُلى لم تَجُبْ بي ما أجوبُ بها وجناءُ حَرْفٌ ولا جَرداءُ قيدودٌ

---

(١) التبيان ٢ : ٦/٨٦ــ٧ • وفي العرف (٢/٥٤٨) البيت الثاني •••مالي لا تحركني •
(٢) ان امتداد صوت الألف هنا يسمح به ويؤكده سكون الحرف الثاني من تفعيلة (مستفعلن) التي يبتدىء بها البيت والتي تشكل (يا) حرفيها الأول والثاني •
(٣) اذ يقرأ البيت موزونا :
أمْمَلْأَحِبْ / بَةُفَلْ / بَيْدَاءُدو / نَهُمو فَلَيْتَدو / نَكَبِيد / دَنْ دونَها / بيدو

فاننا سنلحظ كذلك تكرر حروف المد وكثرتها (الالف في (العلى) والياء في (بي) والألف في (ما) والواو في (أجوب) والألف في (بها) والألف في (وجناء) والألف في (ولا) والألف في (جرداء) والواو والضمة المشبعة في (قيدود)) ، ولكن تكرارها هنا يوحي بكثرة رحلاته، وامتداد أصواتها يوحي بسعة الآفاق التي قطعها خلال هذه الرحلات ، ولعل في تكرار الفعل جاب (بصيغته تجب وأجوب) ما يؤكد ذلك .

نلحظ فيما مر من نماذج بروز ظاهرة أخرى مهمة في شعر الرحلة عند المتنبي ــ فضلا عن بقية شعره ــ وهي ظاهرة التكرار ، سواء أكان ذلك في الحروف أم في الألفاظ ، فقد كان التكرار ((ضربا من ضروب النغم يترنم به الشاعر ليقوى به جرس الألفاظ وأثرها))(1) من ذلك قوله(2) ــ فضلا عما مر ــ :

مالي أُكَتِّمُ حُبّا قد بَرَىٰ جسدي وتَدَّعي حُبَّ سيفِ الدولةِ الأُمَمُ
إنْ كان يجمعُنا حُبٌّ لِغُرَّتـهِ فليت أنّا بقَدرِ الحُبِّ نقتسمُ

ان المتنبي في هذين البيتين بما فيهما من تكرار لفظ (الحب) ، استطاع أن يشير الى حالة مرت بها علاقته الخاصة بسيف الدولة ، حالة شكلتها ظروف عدّة كان لها الأثر القوى في خلخلة توازن تلك العلاقة بين الرجلين ، ففي البيت الأول يقيم بوساطة التكرار ((موازنة بين حبين بينهما تناقض ومنافرة في الدلالة ، فالحب الأول يكتمه ويطوى عليه جوانحه ليكون جزءا من كيانه ، ويفعل ما تفعله المدى والسكاكين تدليلا على صدق هذا الحب ، يقابل ذلك (حب) زائف مقترن بالدعوى ، فأين هذا من ذلك ؟))(3) .

أما في البيت الثاني فقد أشار الى تفوق حبه الأمير على حب الآخرين له ، واذا كان قد أتى بمفردة (حب) منكرة في الشطر الأول ، لأنه يتحدث عن حبه وحب الآخرين الذى يشك في تساويه بمقدار حبه ، فانه أتى بها في الشطر الثاني معرفة ، لأنه يتحدث عن حبه هو الذى يعرفه ويعايشه ويجعله معيارا للتمييز بينه وبين المدعين ــ على نحو ما وصفهم ــ(4) .

ثمّ ليقول في القصيدة نفسها التي ورد فيها البيتان السابقان(5) :

فكان أحسنَ خلقِ اللهِ كلهم وكان أحسنَ ما في الأحسنِ الشِيَمُ

---

(1) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدى عند العرب ٢٥٩ ، وينظر ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ من هذا البحث .
(2) التبيان ٣ : ٢/٢٢٢ ــ ٣ .
(3) الصورة المجازية في شعر المتنبي ٤٤٨ ــ ٤٤٩ .
(4) ينظر : المصدر نفسه ٤٤٩ .
(5) التبيان ٣ : ٥/٢٢٢ .

لتأتي مفردة (أحسن) بتكورها لمرات ثلاث لتوكد شدة حبه لسيف الدولة ، فهو عنده ــ أحسن من في الدنيا وأحسن ما في هذا الأحسن شيمه • وهكذا يكون التكرار في الشعر ((باعثا نفسيا يهيئه الشاعر بنغمة تأخذ السامعين بموسيقاها))[(١)] •

واذا كان المتنبي قد أجاد في الإفادة من التكرار في مواضع كثيرة ، فاننا نراه قد تكلف في غيرها ، من ذلك قوله[(٢)] :

وأَبْعَدَ بُعْدَنا بُعْدَ التَدانـي   وَقَرَّبَ قُرْبَنا قُـرْبَ البِعـادِ

فهو هنا قد أسرف على نفسه وبالغ في تكرار المفردات حتى أدى ذلك الى عدم وضوح الدلالات والمعاني التي أراد إيصالها الى متلقيه • ولعل هذا مما يشير الى أنه كان ((أحيانا يضحي باستقامة المعنى ووضوحه من أجل تركيبة معينة تتفق ومزاجه الموسيقي فيصيب أحيانا وربما لا يصيب))[(٣)] •

ان روح الفن التي سكنت جسد المتنبي وتغلغلت في مسارب نفسه ، كانت تدفع به الى البحث عن كل ما من شأنه الإسهام في التحصل على المزيد من الإبداع ، بخاصة اذا كانت وراء هذا الإبداع تجربة شعورية صادقة • ومن هنا كان توظيف المتنبي للطباق في إضافة نغمة متميزة موثرة الى البناء الموسيقي لشعره ــ فضلا عن دلالته المعنوية ــ تزيد من قدرته على الإيحاء والتأثير[(٤)] • من ذلك قوله[(٥)] :

ذو العُقلِ يَشقىٰ في النعيمِ بِعقلِهِ   وأخو الجَهالةِ في الشقاوةِ ينعَمُ

ان موسيقى الطباق المنبعثة من هذا التضاد الذى يولّد في النفس هزة مفاجئة ، تزيد من وقع هذا البيت في نفوسنا ، اذ يساعدنا على التعبير عن ظاهرة ربما أحس بها وعاناها كثير منّا ، من غير قدرة على التعبير عنها • انها ــ باختصار ــ رهافة إحساس العاقل وكثرة فهمه وقوة إدراكه بازاء بلادة إحساس الجاهل وقلة فهمه وضعف إدراكه •

---

(١) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدى عند العرب ٢٤٠ وينظر: ص٢٤٤ــ٢٤٥ من هذا البحث •

(٢) التبيان ١ : ١٤/٧٠ •

(٣) المتنبي وحروف الجر ١٧٢ •

(٤) ينظر: لغة الحب في شعر المتنبي ٣١٠ ــ ٣١٥، وظاهرة الطباق دلالة نفسية في شعر المتنبي ٥١ ــ ٦٠ •

(٥) التبيان ٤ : ٢٤٩ / ٨ •

وهكذا نصل الى أن المتنبي قد توسل بكل الأساليب الموسيقية والمسائل الإيقاعية التي من شأنها أن تسهم في تصعيد إحساس المتلقي بما يسمع أو يقرأ من شعره الذى يحكي رحلته — فضلا عن بقية شعره — ، وبما يساعده هو على التنفيس عن كل ما يضطرم في نفسه والبوح به عسى أن تقر نفسه ويهدأ باله ، فلقد كانت الرحلة — بكل بواعثها وعناصرها وأبعادها — شغله الشاغل ، لما تعنيه من وسيلة نحو تحقيق كل ما كان يصبو اليه ويتطلع نحوه ، حتى غدت رمزا له كما غدا رمزا لها .

ان هذا لا يعني أنه قد ساوى بين كل القضايا والأساليب الموسيقية والإيقاعية في حجم استخدامه اياها ، انما لجأ الى كل منها بما يمكنه من الإيفاء بمتطلبات التعبير عن المعنى الذى أراد الإخبار به بوساطتها ، فارتفعت نسبة نظمه على بحر دون آخر أو على قافية دون غيرها كما اختلفت نسبة استخدامه الأساليب البيانية — الموسيقية (الإيقاعية) من أحدها الى الآخر ، وما عرضنا له منها هو ما رأيناه أبرزها وأهمها في شعر الرحلة عنده ، فضلا عمّا وجدناه أكثر إيفاءً بمساعدتنا على تبين أسلوب المتنبي الفني موسيقى وإيقاعا في التعبير عن جوانب رحلته ومفرداتها .

الخاتمـــــة

بعد أن شارفت ـ بحمد الله تعالى ـ على نهاية المطاف في كتابة هذا البحث ، لا مناص من الاعتراف بأن صحبة المتنبي كانت شيقة ممتعة ، على الرغم مما اكتنفها من جهد عظيم وقلق كبير ، هما النتيجة الطبيعية والحتمية لمن يتجشم عناء التعامل مع المتنبـــي ، وبخاصة اذا تمثل ذلك التعامل في متابعته في رحلته على مر الأيام . هذه الرحلـــة ـ أو الرحلات ـ التي غدت ، بما أشربتها روحه ، وبما استنزفت منه من طاقة نفسية ومادية قصوى، رمزا دالا تمام الدلالة على تفرد هذا الشاعر المتنبي الذى كانت طموحاته وآماله ورغباته من الكبر والعظم والسعة ، جل أن تسمى .

واذ حاولنا من خلال استقرائنا شعر المتنبي فضلا عن أخباره ، أن نستكشف أســرار هذا الترحال الدائم ، ونستدل على كل ما له وشيجة به أو أثر فيه ، من أجل أن نفهمـــم كنهه ونعي حقيقته ، كانت هذه الدراسة بفصولها الأربعة .

وقبل أن نعرض لما تمخضت عنه هذه الفصول ، نشير الى أننا بما مهدنا لها به ، أردنا تأكيد مسألة مهمة لمسناها في شعر المتنبي ، وهي أنه لم يكن يرحل بجسمه فحسب ، وانمـــا كان ذلك الترحل من أهم سمات نفس مرهفة الإحساس ، كثيرة الرغبات مثل نفسه . بل ان هاتين الرحلتين ـ جسدية ونفسية ـ تكمل احداهما الأخرى ، بوصف كل منهما سببا أو نتيجـــة للثانية . ولقد حاولنا بيان ذلك والبرهنة عليه بما عرضنا له من أضواء ومواقف وأحـــداث مرت به في حياته ، مما اعتددناه أبرز ما أثر فيه ، مكونا طبيعته النفسية ، ثمّ محددا توجهه في مسالك الحياة ، من ذلك طبيعة ظروف عصره السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عن مؤثرات خاصة من مثل موت أمه وأبيه ثمّ جدته ، ناهيك عن الفقر وسعة الطموح مما دفع به الى مدح هذا وذاك ، مارا في أثناء ذلك بتجارب قاسية وصعبة ، غمزت قناته وعجمـــت عوده .

انعقد الفصل الأول على دراسة بواعث الرحلة ، التي ذهبنا الى تمثلها فــــي : الإحساس بالغربة ، والاستشراف والطال ، والحسد والوشايات والمكائد ، والحرب والصيد ، وخلصنا منه الى ما يأتي :

١ . إنّ المتنبي ، بسبب من طبيعة ظروفه الخاصة والعامة ، أحس بالغربة عن البنيـــة الاجتماعية من حوله منذ بوادر نشأته الأولى ، وزاد إدراكه لما يحيط به ووعيه به ، فيما بعد ، من عمق إحساسه هذا ، فاذا ما قاسى ألما ممضا بسبب من افتراقه عن الناس والمجتمع مـــن حوله ، فذلك لانه ـ وهو الشاعر الطموح المتطلع ـ لا يتمكن من تحقيق ما يرنو اليه الا بمعونة

الآخرين ، حتى وان اختلف وإياهم، فقد حاول الاتصال بهم ، لينتهي بعد تجارب مضنية الى الفشل في ذلك ، اذ كانت عوامل الفرقة عنهم في نفسه أكبر أثرا من أسباب اتصاله بهم ، وأقوى تأثيرا • ومن هنا كان تطوافه هذا ، الذى يعبر عن عدم وجود ما يشده الى أرض ما أو أناس معينين ، فضلا عن هربه من هذا الإحساس بالغربة نفسه نحو الاجتماع بالآخرين في سبيل ما يسعى الى بلوغه ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك الاجتماع ، لأنه كان يعني التنازل عن بعض من مفاهيمه التي آمن بها ، فيخسر بذلك ذاته • وهذا ما لم يكن هينا على نفسه أن يفعله •

٢ • كان المتنبي ، بتأثير ظروف نشأته وطبيعة العصر الذى عاش فيه ، ممتلئا بفكرة الحكم والتسلط بما تعنيه من قوة وجاه وثراء ، لذلك لم يأل جهدا في طلبها والسعي اليها ، عسى أن يعوض ماكان يحس به من ضعف حيلته وقلة إمكاناته ، بما يمكن أن يناله من الحظوة والسلطان •

٣ • وما دام المتنبي شاعرا فنانا طموحا ، فقد كان من الطبيعي أن يحلم بالتفوق الشعرى على أقرانه من الشعراء والإمرة الفنية عليهم ، ويسعى اليه ، حتى لو اضطره ذلك الى مهاجمتهم والانتقاص منهم — على الرغم من بروز حقيقة بزه اياهم في شعره — • ليدل ذلك على رغبته في الشهرة وذيوع الصيت ، فضلا عن الحظوة والمجد — مما له علاقة بما أشرنا اليه سالفا في الفقرة السابقة — •

٤ • إن المتنبي بوصفه انسانا كأى انسان ، فضلا عما يتمتع به من إحساس مرهف وشعور دقيق مما يمليه الحس الفني ، كان لا بدّ لفؤاده أن ينبض بالحب ويخفق بالعشق • واذ تواشجت ظروف عدة على إخفاء حقيقة ما كان من حياته العاطفية ، فضلا عن حياته الزوجية — الأسرية ، كثر ما قيل حول طبيعة ما تفوه به من غزل في شعره ، واننا لنذهب الى مس الحب شغاف قلب المتنبي ، فليس باستطاعة أى كان أن يعبر عمّا عبر عنه أو يصور ما صوره من أحوال المحبين ، ما لم يعان تجربة حب حقيقية ، سواء أكان هذا تجاه زوجة أم حيال حبيبة • ولا ننسى في خضم ذلك أثر إحساسه بالفراغ العاطفي الذى خلفه في نفسه موت أمه ، وهو لما يزل طفلا ، في دفعه نحو الوقوع على صدر يعوضه ما فقده من شعور بالأمان والاطمئنان •

٥ • تعاضد الفقر الذى أحس المتنبي بلذع سياطه طفلا وشابا ، وإدراكه لأهمية المال في كسب الاحترام فضلا عن امتلاك القوة للوصول الى المجد والنفوذ ، على حث المتنبي بشدة على جمع المال والاستزادة منه ، ليعوض ما حرم منه ويكسب ما يصبو اليه • ونتيجة لذلك كان حرصه على ما يجمع ، مما لا نعده بخلا أو كزازة وانما وعيا بقيمة المال في ذلك العصر — فضلا

عن كل عصر — •

٦ • كان لا بدّ لما ناله المتنبي من حظوة لدى ممدوحيه ، من أن يخلق له غير قليل من الحاسدين والحاقدين ممن كادوا له أو وشوا به ، بخاصة أنه كان ذا تطلعات ومطامح أقلقت بعضهم وبعثت الريبة في نفوس الآخرين ، فضلا عن عدم توانيه في الزراية بأمثال هؤلاء والفخر بنفسه • ليؤدي بذلك الى الهرب منهم في كل مرة ، وان عزم على التصدي لهم ؛ اذ كان ائتمارهم به أقوى من محاولته الوقوف بوجههم •

٧ • ثمة عوامل أسهمت في تحفيز المتنبي للمشاركة في عدد من رحلات الحرب الى جوار سيف الدولة دون سواه ، ومن ذلك إيمانه بالقوة وسيلة الى ما يريد — تأثرا منه بظروف عصره — ؛ وحبه لسيف الدولة وإعجابه به قائدا عربيا معتدا بمكانته ، وكذلك ما أحاطه به سيف الدولة نفسه من تكريم مادي ومعنوي ، فضلا عمّا كان يؤمن به من قيم قومية ودينية ، ولا نظن أنه اشترك في قتال أو معركة الى جانب غيره من ممدوحيه ، بسبب من عدم إثارتهم لهذه الأسباب ، جميعها أو قسم منها ، في نفس المتنبي ، فضلا عن عدم توفرهم هم عليها أو على بعض منها •

٨ • لم يعدم المتنبي مشاركة ، ولو محدودة ، في بعض من رحلات الصيد والطرد ، على قلة رغبة منه فيها ، يحدو به في ذلك محاولته للتقرب من بعض ممدوحيه حبا وإعجابا أو مصلحة وممالأة ، فضلا عما نرجحه من رغبة شخصية قد تراود نفسه بين حين وآخر في الترويح والاستجمام • ولا بدّ أن لحبه لحياة الفروسية والبداوة أثرا كبيرا ومهما في دفعه الى ذلك من حيث حنينه الى ممارستها •

أما الفصل الثاني ، فقد عقدناه على دراسة عناصر الرحلة عند المتنبي بشقيها : المادي والمعنوي ، لننتهي منه الى أن المتنبي قد رسم لرحلته ، أو قل رحلاته ، بكل جزئياتها ومفرداتها صورة كانت في أغلب جوانبها تشير الى تأثره الفني بصور الرحلة التي رسمها الشعراء العرب ، وبخاصة شعراء ما قبل الاسلام منهم ، لرحلاتهم • مع عدم إنكارنا قيامه الحقيقي بهذه الرحلات التي ذكرها ، المادية منها والنفسية ، مما دلنا عليه شعره وأكدته لنا أخباره • فضلا عن أننا لا نعدم إدراك ما أضفاه تعامله الخاص مع مفردات الرحلة — بقسميها — من روحه ونفسه وفكره عليها ، بما ينبئ عن صدق تجربته ، ويمنحها استقلاليتها المتميزة •

وانعقدت دراستنا في الفصل الثالث على أبعاد الرحلة ، فكان البعدان الزماني والمكاني • أما بحثنا في البعد الزماني لرحلة المتنبي فقد خلصنا منه الى أن المتنبي قد

نظر الى الزمن نظرتين تكمل احداهما الأخرى • الاولى: بوصفه وقتا تحدث في أثنائه الرحلة • والثانية : نظرته اليه من منظار نفسي خاص تتحكم فيه حالته النفسية بحسب الظروف المختلفة التي يمر بها ويعاني منها ، وبخاصة من حيث ربطه الزمان بأهله ، فان صلحوا صلح وان ساؤوا ساء • فضلا عن إحساسه بتقدم العمر وجريانه •

واذ عرضنا للزمن النفسي عند المتنبي بوصفه آنات ثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل، فلقد رأينا طغيان إحساس المتنبي بالحاضر ، حتى إنه جعله في موقع الضد منه وأنه يخوض غمار صراع لا هوادة فيه معه ، من أجل الوصول الى ما يبتغي • أما المستقبل بوصفه الأمل في تحقيق الأمنيات والمطامح ، فلقد رأينا المتنبي يحاول أن يتلمسه في ممدوحيه الذين تنقل بينهم عسى أن يساعدوه على ذلك • وأما الماضي فقد كان عند المتنبي بمثابة الأمس الزاهر الذي ولّى ، لذا كان يحرج على ذكره بين فينة وأخرى ، راغبا في عودته وداعيا الى الاتعاظ بأحداثه • ولقد لفت انتباهنا تجاوز المتنبي عن ذكر ماضيه الخاص الى الماضي العام وتراث الأمة ، ولعلنا لا نخطيء اذ نرجع السبب في ذلك الى الظروف الصعبة التي عاناها في نشأته فضلا عمّا خفي منها عنّا ، مما لم يود التعرض لذكره ، حتى لكأني به يحاول نسيانه •

أما الموت فإذ لم يجد المتنبي مناصا منه فقد سلم بحتميته محاولا أن يحصل على أقصى ما يمكنه الحصول عليه — مما سعى الى تحقيقه — فيما قدر له أن يعيش من عمره ومؤمنا بأن خلود الذكر حياة أخرى ، وهذا مما طلبه وعمل من أجله أيضا •

أما البعد المكاني الذي تحكمت في تعامله معه وإحساسه به روحه المتبدية التي كانت تؤثر السفر الدائم والرحيل الدائب ، فنلحظ فيه النظرتين أنفسهما ، نظرة مادية جغرافية بوصف المكان طريق رحلة ومحطات سفر • ونظرة نفسية تؤثر فيها طبيعة حالته النفسية — من حيث إضفاؤه مشاعره على المكان الذي يتعرض له بالوصف — ، فضلا عن ربطه المكان بأهله — كما هي حاله مع الزمان — • وعلى الرغم من عدم استقرار المتنبي في مكان معين من أرض العرب التي جاب أطرافها بحثا عن مستقر — (وطن صغير) ، فان إحساسه بالغربة كان يتعاظم اذا ما خرج منها — كما حصل له في بلاد فارس — •

وكما جعل المتنبي من ممدوحه — بما يمثله من أمل — قوة تتحكم في الزمان ، فقد جعله يمد سيطرته كذلك في المكان •

أما الفصل الرابع الذي انعقد على دراسة الخصائص الفنية لشعر الرحلة عند المتنبي ،

فقد قام على ثلاثة محاور هي : اللغة ، والصورة ، والموسيقى . وقد وقفنا فيه على ما يأتي :

١ . حاول المتنبي جاهدا أن ينتخب من المفردات أدل ما يعبر عما يريد البوح به وإيصاله الى متلقيه ، مما يسهم في تعميق جوانب موضوع الرحلة عنده ــ فضلا عن بقية شعره ــ .

٢ . كما حاول في تراكيبه الجملية كذلك ، الإفادة من فعلية الجملة واسميتها ، فضلا عن خبريتها وإنشائيتها ، بما يزيد من توضيح جوانب حالة الرحلة عنده ، ويجلو ما غمض من مفرداتها .

٣ . ثمة ظواهر جزئية مما تميز به أسلوبه الشعرى أعانت على بيان جوانب من علاقته بالرحلة وتفسيرها ،كولعه باستخدام (ما) وحروف الجر ، فضلا عن التكرار .

٤ . تمكن المتنبي في أغلب صوره التي رسمها لرحلته ، بجميع جوانبها ــ بواعث وعناصر وأبعادا ــ من إيصال ما أراد الإعلان عنه والبوح به من معان تعبر عمّا يجيش به صدره من أفكار ومشاعر وأحاسيس اقترنت بالرحلة أو كان لها بها صلة ما .

٥ . وإدراكا من المتنبي لدور النغم الجميل ، المتوازن مع المعنى الذى يجسده ، في زيادة انشداد المتلقي الى ما يسمع أو يقرأ ، وتأثيره فيه ، فضلا عن إرضائه النزعة الفنية في نفسه هو وتنفيسه عمّا يضطرم فيها من أفكار ومشاعر وأحاسيس ، حاول الإفادة من كل العناصر التي تكون موسيقى الشعر ــ خارجية وداخلية ــ من مثل الوزن والقافية واختيار الأصوات المناسبة ، فضلا عن المحسنات اللفظية وغيرها . وما نراه ، فيما يتعلق بموضوع الرحلة ، ان التوفيق قد حالفه في كثير مما قاله فيها .

وإذ ننتهي من هذا البحث ، نود الإشارة الى أن كثيرا من مفرداته ، لما يمتلك بمفرده مقومات النهوض برسالة جامعية مستقلة ، مثل : الإحساس بالغربة في شعر المتنبي ، والزمان في شعر المتنبي ، والمكان في شعر المتنبي ، فضلا عما أنبث في جنباته من أبعاد نفسية وفكرية واجتماعية . أما ما عرضنا له من هذه الموضوعات في هذا البحث ، فقد جاء موءطرا بخصوصية موضوع الرحلة ، وبما يتناسب وما أردنا بيانه من خلال دراستنا لهذا الموضوع وبحثنا فيه . وعسى أن تتسع الأيام لنعود اليها ، أو يتناولها غيرنا من الباحثين بالدراسة والاستقراء ، بما يوازى أهميتها في إزالة شيء من هذا السجف من الغموض والإبهام الذى لمّا يزل يغلف عالم المتنبي ، على الرغم من كل ما كتب عنه وقيل فيه . فلقد قدر له أن يملأ الدنيا ويشغل الناس على مر العصور . ولتصدق نبوءته في قوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وفي قوله : وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

هذا وأحمد الله تعالى على توفيقه وسداده حمدا يوافي نعمه ويكافيء مزيده .

ثبت المصادر والمراجـــع

- أبحاث ومقالات ــ أحمد الشايب ــ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ــ د •ت •
- أبو الطيب المتنبي • دراسة في التاريخ الأدبي ــ د •ريجيس بلاشير ــ ترجمة ، د •ابراهيم الكيلاني ــ الطبعة الثانيةــ دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشـــر بدمشق ــ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م •
- أبو الطيب المتنبي • عملاق الواقعية في الشعر العربي ــ رضوان الشهال ــ سلسلة أضواء على الأدب العربي ــ مطبعة البحيرى اخوان ــ بيروت ــ ١٩٦٢ م •
- أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ــ د •مصطفى الشكعة ــ الطبعة الأولى ــ عالم الكتب ــ بيروت ــ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م •
- أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره ــ د •زهير غازى زاهد ــ سلسلةدراسات أدبية ــ الطبعة الأولى ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م •
- أدباء العرب في الأعصر العباسية ــ بطرس البستاني ــ الطبعة السادسة ــ دار المكشوف ودار الثقافة ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٩٦٨ •
- أدب الحرب ــ حنامينه ود • نجاح العطار ــ الطبعة الثانية ــ دار الآداب ــ بيروت ــ ١٩٧٩ •
- الأدب في ظل بني بويه ــ محمود غناوى الزهيرى ــ ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ م •
- أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين ــ د •محمد محمد حسين ــ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٧٢ •
- الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي • أصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف ــ د • نورى جعفر ــ مطبعة الزهراء ــ بغداد ــ ١٩٧٦ •
- الأصوات اللغوية ــ د • إبراهيم أنيس ــ الطبعة الخامسة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥
- الاغتراب ــ ريتشارد شاخت ــ ترجمة : كامل يوسف حسين ــ الطبعة الأولى ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨٠ •
- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ــ أنيس المقدسي ــ الطبعة الخامسة عشرة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٩٨٣ •
- البلاغة والتطبيق ــ د • أحمد مطلوب و د •كامل حسن البصير ــ الطبعة الأولى ــ مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ــ جامعة الموصل ــ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م •
- بناء الصورة الفنيةفي البيان العربي • موازنة وتطبيق ــ د •كامل حسن البصير ــ مطبوعات المجمع العلمي العراقي ــ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م •
- بناء القصيدة العربية ــ د • يوسف حسين بكار ــ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ــ ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م •
- تأريخ بغداد أو مدينة السلام ــ للحافظ أبي بكر احمد بن على الخطيب البغدادى ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ د • ت •
- تأريخ الشعر في العصر العباسي ــ د •يوسف خليف ــ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ــ ١٩٨١ •

— التطلع القومي عند المتنبي — جاسم محسن عبود — منشورات وزارة الاعـــــلام — الجمهورية العراقية — دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م •

— التفسير النفسي للأدب — د • عزالدين اسماعيل — سلسلة علم النفس والحياة — دار العودة ودار الثقافة — بيروت — د • ت •

— ثقافة المتنبي وأثرها في شعره — هدى الأرناؤوطي — منشورات وزارة الثقافة والفنون — الجمهورية العراقية — دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٩٧٨ •

— جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب — د • ماهر مهدي هلال — سلسلة دراسات (١٩٥) — وزارة الثقافة والاعلام — الجمهورية العراقية — دار الرشيد للنشر — ١٩٨٠ •

— جماليات المكان — جاستون باشلار — ترجمة : غالب هلسا — سلسلة كتاب الأقلام (١) — وزارة الثقافة والاعلام (العراقية) — مجلة الأقلام — دار الجاحظ للنشر — بغداد — ١٩٨٠ •

— الجملة الفعلية بسيطة وموسعة (دراسات تطبيقية على شعر المتنبي) • الجزء الأول — د • زين كامل الخويسكي — مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع — اسكندرية — ١٩٨٦ •

— الجملة الفعلية منفية واستفهامية ومؤكدة (دراسة تطبيقية على شعر المتنبي) • الجزء الثاني • د • زين كامل الخويسكي — مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشـــــر والتوزيع — اسكندرية — د • ت •

— الحرب في شعر المتنبي (جزءان) — د • محمود حسن عبد ربه أبو ناجي — الطبعة الثانية — دار الشروق — جدة — المملكة العربية السعودية — ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م •

— حصاد الهشيم — ابراهيم عبد القادر المازني — الطبعة الثانية — المطبعة العصرية بمصر — ١٩٣٢ •

— الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام (مجلدان) — آدم متز — نقله الى العربية : محمد عبد الهادي أبو ريده — الطبعة الرابعة — مكتبة الخانجي — القاهرة ودار الكتاب العربي — بيروت — ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م •

— الحيوان — لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون — سلسلة مكتبة الجاحظ ، الكتاب الأول — الطبعة الثانية — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر — ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م (الجزآن الثاني والثالث) و ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م (الجزء الخامس) و ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م (الجزء السابع) •

— خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب — عبد القادر بن عمر البغدادي — تحقيق وشــرح عبد السلام محمد هارون — مكتبة الخانجي بالقاهرة — د • ت •

— الخلافة العباسية • دراسة في التاريخ السياسي للدولة العربية الاسلامية في العصـر العباسي ١٣٢ هـ ٧٤٩ م — ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م — د • فاروق عمر — منشورات جامعة بغداد — دار الحكمة للنشر والترجمة والتوزيع — ١٩٨٦ •

— الخوف في أدب المتنبي — د • محمد عبد الرحمن شعيب — مطبعة دار التأليف بمصر — د • ت •

— الخيال الشعرى عند أبي الطيب المتنبي — د ٠طه مصطفى أبو كريشة — الطبعة الأولى — دار التوفيقية للطباعة بالأزهر — مصر — ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ٠

— دراسات أدبية — د ٠ ممدى علام — مكتبة الشباب — د ٠ ت ٠

— دراسات في النص الشعرى ٠ العصر العباسي — د ٠ عبده بدوى — مكتبة الشباب — مصر — ١٩٧٧ ٠

— ديوان أبي الطيب المتنبي — الشرح المنسوب لأبي البقاء العكبرى المسمى بالتبيان في شرح الديوان (أربعة أجزاء) — ضبطه وصححه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وجماعته — دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت — لبنان — طبعة معادة بالأوفست ١٣٩٧هـ — ١٩٧٨ م ٠

— ديوان المتنبي بشرح العرف الطيب (جزءان) — الشيخ ناصيف اليازجي ٠

— ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام — عبد الوهاب عزام — الطبعة الثالثة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨ ٠

— الرؤوس — مارون عبود — الطبعة الخامسة — دار مارون عبود ودار الثقافة — بيروت — ١٩٧٢ ٠

— رؤية جديدة لشعرنا القديم — مأثورات من الشعر العربي في ضوء مفهوم التراث والمعاصرة — د ٠ حسن فتح الباب — الطبعة الأولى — دار الحداثة للطباعة والتوزيع والنشر — بيروت — لبنان — ١٩٨٤ ٠

— الرحلة في القصيدة الجاهلية — وهب رومية — الطبعة الأولى — منشورات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين — ١٩٧٥ ٠

— الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو — للامام أبي علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادى الحاتمي — تح : فؤاد افرام البستاني — المطبعة الكاثوليكية — بيروت — ١٩٣١ ٠

— رسالة الغفران ومعها رسالة ابن القارح مفتاح فهمها — لأبي العلاء المعرى — تحقيق وشرح : د ٠عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) — الطبعة الثالثة — دار المعارف — القاهرة — ج ٠ م ٠ ع — ١٩٦٣ م

— الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره — من كلام أبي علي محمد ابن الحسن الحاتمي الكاتب — تح : د ٠محمد يوسف نجم — دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر — بيروت — ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ٠

— الرفض ومعانيه في شعر المتنبي — يوسف الحناشي — الدار العربية للكتاب — طرابلس — الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية — ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ٠

— الرمزية في الأدب العربي — د ٠ درويش الجندى — مكتبة نهضة مصر بالفجالة — ١٩٥٨

— الرواية والمكان — ياسين النصير — سلسلة الموسوعة الصغيرة (٥٧) — منشورات وزارة الثقافة والاعلام — الجمهورية العراقية — دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ٠

— زبدة الحلب من تاريخ حلب — للمولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم — تحقيق ونشر : د ٠سامي الدهان — المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية — ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م ٠

— الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم — د • حسام الآلوسي — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م •

— الزمان الوجودى — د • عبد الرحمن بدوى — الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٥٥ •

— الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام — عبد الاله الصائغ — الطبعة الثانية — دار الشؤون الثقافية العامة — وزارة الثقافة والاعلام — بغداد — العراق — ١٩٨٦ •

— سيف الدولة الحمداني — د • مصطفى الشكعة — سلسلة المكتبة التأريخية — الطبعة الأولى — دار القلم بالقاهرة — ١٩٥٩ •

— سيفيات المتنبي • دراسة نقدية للاستخدام اللغوى — سعاد عبد العزيز المانع — الطبعة الأولى — عمادة شؤون المكتبات — جامعة الرياض — المملكة العربية السعودية — ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م •

— شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموى والعباسي الى عهد سيف الدولة — د •زكي المحاسني — سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٢٣) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ •

— شعر المتنبي • قراءة أخرى — د • محمد فتوح أحمد — دار المعارف — القاهرة — ج • م • ع — ١٩٨٣ •

— الشعر والزمن — جلال الخياط — سلسلة الكتب الحديثة (٨٨) — منشورات وزارة الاعلام — الجمهورية العراقية — دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٩٧٥ •

— الصبح المنبي عن حيثية المتنبي — للشيخ يوسف البديعي — تح : مصطفى السقا وجماعته — سلسلة ذخائر العرب (٣٦) — الطبعة الثانية — دار المعارف — القاهرة — ج • م • ع — ١٩٧٧ •

— الصورة الأدبية — د • مصطفى ناصف — الطبعة الثانية — دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت — ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م •

— الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي — د • جابر أحمد عصفور — دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة — ١٩٧٤ •

— الصورة الفنية في شعر أبي تمام — د •عبد القادر الرباعي — جامعة اليرموك — سلسلة الدراسات الأدبية واللغوية (١) — الطبعة الأولى — اربد — الأردن — ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م •

— الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث — د • نصرت عبد الرحمن — مكتبة الأقصى — عمان — ١٩٧٦ •

— الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجرى • دراسة في أصولها وتطورها — د • علي البطل — الطبعة الثانية — دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع — ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م •

— الطبيعة عند المتنبي — د • عبد الله الطيب — منشورات وزارة الاعلام — الجمهورية العراقية — دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م •

— ظهر الاسلام (الجزء الثاني) — أحمد أمين — الطبعة الخامسة — مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة — ١٩٧٧ •

- على هامش الأدب والنقد — علي أدهم — دار الفكر العربي — د • ت •
- فصول في الشعر ونقده — د • شوقي ضيف — دار المعارف بمصر — ١٩٧١ •
- فن الفخر وتطوره في الأدب العربي — ايليا حاوى — سلسلة الفنون الأدبية عند العرب (٨) — الطبعة الأولى — دار الشرق الجديد — بيروت — ١٩٦٠ •
- فن المتنبي بعد الف عام — ابراهيم العريض — الطبعة الثانية — مطبعة حكومة الكويت — الكويت — ١٩٧٢ •
- فن المدح وتطوره في الشعر العربي — أحمد أبو حاقة — سلسلة الفنون الأدبية عند العرب (١١) الطبعة الأولى — دار الشرق الجديد — بيروت — ١٩٦٢ •
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي — د • شوقي ضيف — سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٢٠) — الطبعة السابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ •
- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين — د • مصطفى الشكعة — مكتبة الانجلو المصرية — ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م •
- في الأدب العباسي — محمد مهدى البصير — الطبعة الثالثة — مطبعة النعمان — النجف الأشرف — ١٩٧٠ م •
- في الأدب العباسي — الرؤية والفن — د • عزالدين اسماعيل — دار النهضة العربية للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٧٥ •
- فيض الخاطر (الجزء الرابع) — أحمد أمين — مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة — ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩ م •
- في ميزان النقد الأدبي — د • طه مصطفى أبو كريشة — مطبعة الخانجي — القاهرة — ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م •
- في النفس والجسد ، بحث في الفلسفة المعاصرة — د • محمود فهمي زيدان — دار الجامعات المصرية — الاسكندرية — د • ت •
- قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية ((دراسة تطبيقية في شعر البحترى وابن المعتز)) — د • عبد الله عبد الفتاح التطاوى — دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة — ١٩٨١ •
- كافوريات أبي الطيب — دراسة نصية — د • النعمان القاضي — مركز الشرق الأوسط ومكتبتها — القاهرة — ١٩٧٥ •
- الكشف عن مساوىء شعر المتنبي — للصاحب أبي القاسم اسماعيل بن عباد — تح : الشيخ محمد حسن آل ياسين — سلسلة نفائس المخطوطات (٣) — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة — بغداد — ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م •
- لسان العرب — لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى — سلسلة تراثنا — طبعة مصورة عن طبعة بولاق معها تصويبات وفهارس متنوعة — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر — الدار المصرية للتأليف والترجمة — د • ت •
- لغة الحب في شعر المتنبي — د • عبد الفتاح صالح نافع — الطبعة الأولى — دار الفكر للنشر والتوزيع — عمان — ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م •
- مبادىء النقد الأدبي — إ • أ • رتشاردز — ترجمة وتقديم ، د • مصطفى بدوى — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر — القاهرة — ١٩٦٣ •
- المتنبي — د • زكي المحاسني — سلسلة نوابغ الفكر العربي (١٥) — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٧١ •

— المتنبي (سفران) ـ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م .

— المتنبي بين البطولة والاغتراب ـ محمد شرارة ـ تح : د .حياة شرارة ـ الطبعة الأولى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨١ .

— المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ـ د .محمد عبدالرحمن شعيب ـ سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٣٥) ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤ .

— المتنبي ... دراسة عامة ـ جورج غريب ـ سلسلة الموسوع في الأدب العربي (٨) ـ الطبعة الأولى ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٦٧ .

— المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرسانا تأسر الزمان ـ د .علي شلق ـ منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية ـ مطبعة الشعب ـ بغداد ـ ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

— المتنبي شاعر الشخصية القوية ـ جورج عبدو معتوق ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٤ .

— المتنبي فارس الفكر العربي ـ عبد المجيد لطفي ـ منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م .

— المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس ـ اصدار وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ سلسلة دراسات (١٦٨) ـ دار الرشيد للنشر ـ ١٩٧٩ .البحوث : (المتنبي شاعر العظمة والطموح . د .منجي الكعبي) و (صيغة التفضيل في شعر المتنبي . شكرى محمد عياد) . و (حماسة المتنبي بين الحمية الدينية والحمية القومية . محمد اليعلاوى) . و (لغة الحب عند المتنبي د . صفاء خلوصي) .

— المتنبي وشوقي ـ عباس حسن ـ سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٣٨) ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤ .

— المتنبي يسترد أباه . دراسة في نسب المتنبي ـ عبد الغني الملاح ـ الطبعة الأولى ـ دار التآخي للطباعة والنشر ـ بغداد ـ ١٩٧٤ .

— متنوعات ـ د .محمد كامل حسين ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

— المثال والتحول . آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته ـ د .جلال الخياط ـ منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

— المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ لضياء الدين بن الأثير ـ قدمه وحققه وعلق عليه د .أحمد الحوفي و د . بدوى طبانة ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ ١٩٨١هـ / ١٩٦٢م .

— محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) ـ الشيخ محمد الخضرى بك ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ١٩٧٠ .

— المحصول الفكرى للمتنبي ـ سهيل عثمان ومنير كنعان ـ الطبعة الأولى ـ دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م .

— المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها (ثلاثة أجزاء) ـ عبد الله الطيب ـ الطبعة الثانية للجزئين الأول والثاني والطبعة الأولى للجزء الثالث ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .

— مصر في عصر الأخشيد بين ـ د .سيدة اسماعيل كاشف ـ الطبعة الثانية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .

- مطالعات في الكتب والحياة ــ عباس محمود العقاد ــ الطبعة الثالثة ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م •
- مع أبي الطيب ــ عبد الله الطيب ــ الطبعة الثانية ــ دار التأليف والترجمة والنشر ــ جامعة الخرطوم ــ ١٩٧٥ •
- معجم الأدباء ــ ياقوت الحموى ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ د •ت
- مع شعراء الأندلس والمتنبي ــ أميليوغرسيه غومث ــ ترجمة : د •الطاهر أحمد مكي ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة وهبة ــ ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م •
- مع المتنبي ــ طه حسين ــ دار المعارف بمصر د.ت •
- مع المتنبي في شعره الحربي ــ د • هادى نهر ــ الطبعة الأولى ــ مطبعة الجامعة ــ بغداد ــ ١٩٧٩ •
- من معجم المتنبي • دراسة لغوية تاريخية ــ ابراهيم السامرائي ــ منشورات وزارة الاعلا ــ الجمهورية العراقية ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد ــ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م •
- من النقد والأدب (المجموعة الرابعة) ــ د • أحمد أحمد بدوى ــ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ــ د • ت •
- موسيقى الشعر ــ د •ابراهيم أنيس ــ الطبعة الرابعة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٧٢
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ــ لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي ــ سلسلة تراثنا ــ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر •
- نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص ــ ايليا سليم الحاوى ــ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ــ بيروت ــ د.ت •
- النيل في الأدب المصرى ــ د • نعمات أحمد فؤاد ــ سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٢٧) ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٦٢ •
- الواضح في مشكلات شعر المتنبي ــ لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني تح : محمد الطاهر بن عاشور ــ سلسلة نفائس المخطوطات ــ الدار التونسية للنشر ــ تونس ــ ١٩٦٨ •
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ــ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ــ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوى ــ المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت د •ت
- وصف الخيل في الشعر الجاهلي ــ د • كامل سلامة الدقس ــ دار الكتب الثقافية ــ الكويت ــ ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م •
- وصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي ــ السباعي بيومي وآخرون ــ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ــ د • ت •
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ــ لأبي العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان ــ تح : احسان عباس ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ لبنان •
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ــ لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابورى ــ تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ــ الطبعة الثانية ــ دار الفكر ــ بيروت ــ ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م •

الرسـائل الجامعيـة :

- الصورة المجازية في شعر المتنبي ــ جليل رشيد فالح ــ رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة ــ كلية الآداب ــ جامعة بغداد ــ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م •
- المتنبي الانسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ــ نورة صالح الشملان ــ رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة ــ كلية اللغة العربية ــ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م •
- المكان في الشعر العربي قبل الاسلام ــ حيدر لازم مطلك ــ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ــ كلية الآداب ــ جامعة بغداد ــ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م •

الدوريـــات :

الجرائـــد :

- جريدة الجمهورية (العراقية) ــ العدد ٦٢٠٧ ــ ١٦ أيلول ١٩٨٦ م / ١٢ محرم ١٤٠٧ هـ (محاولة للتقرب من ((أنا)) المتنبي • د • مالك المطلبي) •

المجـــلات :

١ • الآداب (البيروتية) ــ العدد الثامن ــ السنة الأولى ــ آب (أغسطس) ١٩٥٣ • (الزمان في الفكر الاسلامي • لويس ماسينيون • ترجمة شعبان بركات) •

٢ • آداب ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة الخرطوم ــ العدد الثالث ــ ١٩٧٧ • (بين شخص المتنبي وشعره • د • صلاح الدين المليك) •

٣ • آداب الرافدين / كلية الآداب / جامعة الموصل / العدد التاسع / ١٩٧٨ (الليل في الشعر الجاهلي • جليل رشيد فالح) •

٤ • الازهر (المصرية) تصدرها مشيخة الأزهر ــ الجزء العاشر ــ شوال سنة ١٣٥٥ (١٩٣٧) ــ المجلد السابع والجزء الأول ــ المحرم سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧) ــ المجلد الثامن ــ (حياة أبي الطيب المتنبي ؛ دينه ــ أخلاقه ــ تنبوءه ــ منازعاته مع النحاة • محمد محيي الدين عبد الحميد) •

٥ • آفاق عربية (العراقية) ــ السنة الثالثة ــ العدد ٤ ــ كانون الأول ١٩٧٧ ــ وهو عدد يحتوي على ملف خاص عن الذكرى الألفية للمتنبي ــ (المتنبي وشعره •••• التناقض والحل • جبرا ابراهيم جبرا) و (المتنبي والنفس • د • علي كمال) •

٦ • الأفق الجديد (الفلسطينية) ــ السنة الأولى ــ العدد السادس ــ ٧ رجب ١٣٨١ هـ / ١٥ كانون الأول ١٩٦١ • (المتنبي والمرأة • محمد أبو شلباية) •

٧ • الأقلام (العراقية) :

أ ــ السنة الثالثة ــ الجزء الرابع ــ رمضان ١٣٨٦ هـ / كانون الأول ١٩٦٦ م (التضخم الذاتي عند المتنبي ــ أسبابه ومظاهره • عدنان حسين العوادى) •

ب ــ السنة الرابعة ــ الجزء السابع ــ ذو الحجة ١٣٨٧ هـ / آذار ١٩٦٨ م • (القافية ودورها في التوجيه الشعرى • د • هادى الحمداني) •

جـ ــ السنة الثالثة عشرة ــ العدد الرابع ــ كانون الثاني ١٩٧٨ (حكمة المتنبي • د • جعفر ماجد) •

د ــ السنة الحادية والعشرون ــ العدد الثاني ــ شباط ١٩٨٦، (جماليات المكان • اعتدال عثمان) •

هـ ــ السنة الثالثة والعشرون ــ العدد العاشر ــ تشرين الأول ١٩٨٨ (الرحيل من الوطن اليه • د • عبد الوهاب محمد علي العدواني) •

٨ • الثقافة الأجنبية (العراقية) السنة الثامنة العدد الثاني ١٩٨٨ (الصورة الفنية عن موسوعة برنستون للشعر) •

٩ • الجامعة ــ الموصل ــ السنة السابعة ــ العدد الأول/ ١٩٧٦ (ظاهرة الغموض في شعر المتنبي ــ د •محسن غياض) •

١٠ • الجامعة المستنصرية ــ السنة الرابعة ــ العدد الرابع ــ ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م • ((ما) في شعر المتنبي د • هادى الحمداني) •

١١ • الرسالة (المصرية) :

أ ــ السنة الرابعة ــ العدد ١٦٩ ــ ١٢ رجب ١٣٥٥/ ٢٨ سبتمبر ١٩٣٦ • (الفخر في شعر أبي الطيب • طه الراوى) •

ب ــ السنة التاسعة عشرة ــ العدد ٩٥٦ ــ ٢٨ محرم ١٣٧١/ ٢٩ أكتوبر ١٩٥١ والسنة التاسعة عشرة ــ العدد ٩٥٨ ــ ١٢ صفر ١٣٧١/ ٢ نوفمبر ١٩٥٢ والسنة العشرون ــ العدد ١٠٠٢ــ ٢٥ ذى الحجة ١٣٧١/ ١٥ سبتمبر ١٩٥٢ (رحلة أبي الطيب المتنبي من مصر الى الكوفة • أحمد رمزى بك) •

١٢ • الضاد (العراقية) ــ الجزء الأول ــ جمادى الآخرة ١٤٠٨/ شباط ١٩٨٨ • (المتنبي وحروف الجر • د • هادى الحمداني) •

١٣ • الطليعة الأدبية (العراقية) ــ السنة العاشرة ــ العدد الثالث ــ آذار ١٩٨٤ • (المتنبي والطموح القلق • مذر الجبورى) •

١٤ • عالم الفكر (الكويتية) :

أ ــ المجلد الثامن ــ العدد الثاني ــ يوليو ، أغسطس ، سبتمبر ١٩٧٧ ــ وهو عدد خاص عن (الزمن) ــ (الزمن البيولوجي • د •عبد المحسن صالح) و (مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية •• دراسة أنثولوجية • صفوت كمال) •

ب ــ المجلد العاشر ــ العدد الأول ــ ابريل ، ما يو ، يونيو ١٩٧٩ ــ وهو عدد خاص عن (الاغتراب) ــ الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا • قيس النورى) •

١٥ • الفيصل (السعودية) :

أ ــ السنة الأولى ــ العدد السابع ــ محرم ١٣٩٨ هـ / ديسمبر ١٩٧٧م • (الغزل في شعر المتنبي • محمد ابراهيم أبو سنة) •

ب ــ السنة الحادية عشرة ــ العدد ١٣٢ ــ جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ/ كانون الثاني / (يناير) شباط (فبراير) ١٩٨٨م • (أبو الطيب المتنبي • أكان عظيما أم مجنونا بالعظمة ؟• أمين محمد عثمان) •

١٦ • الكاتب المصرى (المصرية) :

أ ــ مجلد ١ ــ عدد ٢ ــ ذو القعدة ١٣٦٤/ نوفمبر ١٩٤٥ • (التعقيد في شعر المتنبي • د •محمد كامل حسين) •

ب ــ مجلدا ــ عدد ٤ ــ محرم ١٣٦٥/ يناير ١٩٤٦ (أبو الطيب المتنبي بين الغرور والطموح والحزن • علي أدهم) •

١٧ • الكتاب (العراقية) :

أ ــ السنة السادسة ــ العدد الثاني ــ ١٩٧٢ • (غربة المتنبي • احسان الملائكة) •

ب ــ السنة الثامنة ــ العدد التاسع ــ أيلول ١٩٧٤ • (ظاهرتا الـ ((أنا)) والـ ((نحن)) في شعر المتنبي • هادى محيي الخفاجي) •

١٨ • كلية الآداب ــ جامعة بغداد ــ العدد العاشر ــ نيسان ١٩٦٧ • (أضواء جديدة على نبوة المتنبي • د •حسام محيي الدين الآلوسي) •

١٩ • كلية الآداب ــ جامعة البصرة ــ السنة السابعة ــ العدد ٩ ــ ١٣٩٤/ ١٩٧٤ والسنة التاسعة ــ العدد ١٠ ــ ١٣٩٦/١٩٧٦ (ملامح من صورة البطل عند المتنبي وقيمتها الفنية • د •مصطفى عبد الحميد) •

٢٠ • كلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس ــ العدد التاسع ١٩٨٧ (تحديد الصورة وأهميتها في الخطاب الشعرى د • الولي محمد) •

٢١ • كلية اللغة العربية ــ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ العدد السابع ــ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م (ثقافة المتنبي وأثرها في شعره • د • درويش حسن الجندى) •

٢٢ • المجمع العلمي العراقي ــ المجلد التاسع عشر ــ ١٣٩٠/ ١٩٧٠م (لغة الشعر) • د •جميل سعيد) •

٢٣ • مجمع اللغة العربية (المصرى) :

أ ــ الجزء الخامس عشر ــ ١٩٦٢ • (المتنبي بين نفسيته وشاعريته د •محمد مهدى علام) •

ب ــ الجزء الخامس والعشرون ــ رمضان ١٣٨٩ هـ / نوفمبر ١٩٦٩ م • (شعر الاغتراب في الأدب العربي • د • ماهر حسن فهمي •

٢٤ • المعلم الجديد (العراقية) ــ المجلد الثلاثون ــ الجزآن الأول والثاني ــ كانون الثاني ، حزيران ، ١٩٦٧ • (الصورة الفنية في شعر المتنبي •الصورة الضاجة والهادئة • سالم حميد أمين) •

٢٥ • المورد (العراقية) :

أ ــ المجلد السادس ــ العدد الثالث ــ خريف ١٩٧٧ ــ وهو عدد خاص بالمتنبي ــ (أثر الاخفاق في شعر المتنبي • صبيح صادق) و (الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبي •محمد علي ألياس العدواني) و (المتنبي والحرب البيزنطية العربية •ماريوس كنار) و (المتنبي والمشكلة اللغوية •د •صاحب أبو جناح) و (هل كان المتنبي متشائما • د •عفيف عبد الرحمن) •

ب ــ المجلد التاسع ــ العدد الثالث ــ خريف ١٩٨٠ (صورة المرأة في غزل المتنبي وعلاقته بها • د • حسن الشماع) •

جـ ــ المجلد الحادى عشر ــ العدد الثاني ــ صيف ١٩٨٢ • (ظاهرة الطباق دلالة نفسية في شعر المتنبي • د • عبد الفتاح صالح نافع) •

٢٣ • الـهـلال المصريـــة :

أ ــ المجلد الثالث والأربعون ــ السنة ٤٣ ــ الجزء العاشر ــ أول أغسطس ١٩٣٥/٢ جمادى الأول ١٣٥٤ ــ وهو عدد خاص بالمتنبي ــ (أبــو الطيب في مصر نبي في بلاد الوحي لايوحى اليه • محمد شوكت التوني) و (أبو الطيب المتنبي تاجر من تجار الأدب • سليم عبد الأحد) و (أبــو الطيب المتنبي كان عبقريا ولكن •• خليل مطران) و (جنون العظمة فــي المتنبي فضيلة خلقية • طاهر الطناحي) و (الشاعر أبو الطيب • علــــي الجارم) و (شخصية المتنبي في شعره • عباس محمود العقاد) و (عصــر المتنبي عصر اضطراب وفتن) و (نفسية المتنبي تحليل لبعض نواحي حياته • محمد مظهر سعيد) •

ب ــ السنة التاسعة والسبعون ــ العدد السادس ــ أول يونية ١٩٧١/ ربيع الآخر ١٣٩١ • (رحلة المتنبي في سيناء • كمال النجمي) •

جـ ــ السنة الثانية والثمانون ــ العدد السادس ــ أول يونية ١٩٧٤/ ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٤ • (المتنبي : شاعر الوجودية • عبد الوهاب الأمين) •

د ــ السنة السابعة والثمانون ــ أول مارس ١٩٧٩ / ٢ ربيع الثاني ١٣٩٩ • (الدهر والقدر في شعر المتنبي • د • محمود علي مكي) •

The Journy in the Poetry of Al-Mutan abbi

This research tries to study the journy in Al-Mutanabbi's poetry by describing it as a prominant and most important aspect of his life and his poetry.

This research is divided into four chapters in addition to the preface. In the preface, there is a presentation of the most important stages of Al- Mutan abb's life and the most obvious incidents which made a great effect on his psychological nature and controlled the direction of his life until he become an eternal traveller of the soul,mind,and body.

The first chapter deals with the aim of the journey; the second chapter deals with the elements of the journey; the third one is about the dimensions of the journey ; and the fourth one is a study of some samples of Al-Mutan abbi's poetry of the journey (aims, elements, and dimensions), an artistic study containing the language, images, and musical elements.

The research ends up with a conclusion thus we present the most important consequences of this study which can be summarized as follows :

1. Al-Mutan abbi's feeling of lonliness under the impact of his general and special circumstances, his desire to rule and have the mastery of poetry, his searching of true feeling and true love, his suffaring of poverby, the influence of gossip and plots against him from bad people, besides the religious and native desires, all these reasons forced him to travel always all over world.
2. He drew an image which pointed out his affection of the other poets in their artistic description of their journeys. So we realize that he expressed true aspects of the journey from his soul, self, and mind that composed true and independent experience. Besides all these are his psychological and physical journeys.

3. He treated time as a time of the journey and as a psychological time. This treatment was offected by his relation with people and his feeling of becoming old. He treated the place of the journey and the travelling stages as a psychological place and made a combination between those people and the place, from all these, his point of view about the homeland sprang.

4. He made use of the aspects of art (lanquage, image, and music) in Composing the nature of travelling that he led in all its parts. He intended to choose whatever helped him from figures and aspects but inspite of that we can see some compositions which were empty from his artisic sense, **nevertheless** these compositions were a few in comparison with his masterpieces.